



الموضوعة

مؤلفات

مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة

دار الكتب
بيروت



Bibliotheca Alexandrina



0029987

مُؤَلَّفَاتٌ

مِصْطَفَى لُطْفِي المِنْفِلُوطِي الكَامِلَةُ

المَوْضُوعَةُ

يَحْتَوِي هَذَا المَجْلَدُ عَلَى :

النَّظَرَاتُ

العِبَرَاتُ

دارُ العَجَلِ
بِيرُوت - لُبْنان

القسم الأول

النظريات

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٤ - ١٩٨٤ م.

نشأته وحياته

ولد السيد مصطفى لطفي المنفلوط من أعمال محافظة أسيوط سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة . ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب . وتلقى العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقي به كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب . فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشئ الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقرئه الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطي من قربته إلى الإمام صلته بسعد باشا زغول ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نفوقه لدى صاحب (المؤيد) ، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده . وفي أثناء طلبه العلم في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة . ولما قبض الله الإمام إلى رحمة جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعتش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن ، فهب بيشتم في جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجاح . ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فمينه محرراً هربياً لها . ولما تحول إلى وزارة الحفانية (المدل) حوله معه وولاه فيها مثل هذا

المنصب . ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله ، حتى إذا قام البرلمان
هيئته سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في
المقد الخامس من عمره .

أخلاقه

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤلف الخلق ،
متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزي ، لا تلمح في
قوله ولا في فعله شذوذ المبقرية ولا نشوز الفدامة . كان صحيح الفهم في بطنه ،
سليم الفكر في جهده ، دقيق الحس في سكونه ، هيوّب اللسان في تحفظه ؛ وهذه
الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل ، فهو لذلك كان يتقي المجالس
ويتجنب الجدل ويكره الخطابة : ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم
الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته
ووطنيته وإنسانيته .

أسلوبه وأدبه

كان المنفلوطي أديباً موهوباً ، حظّ الطبع في أدبه أكثر من حظّ الصنعة ،
لأن الصنعة لا تخلق أديباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة ؛ وكان
النثر الفني على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل ، أو أثراً مائلاً لفن ابن
خلدون ؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد
القالبين ، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره ،
بديعاً انشأ الطبع القوي على غير مثال .

عالمج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأراً ما كان ينتظر
من نشأه كنشأته في جيل كجيله . وسر الذبوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على
فترة من الأدب اللباب . وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الأمم
 ويمثل العيوب في أسلوب طلي وبيان عذب وسباق مطرد ولفظ مختار . أمنا

ضفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة .. أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأديها . لذلك تجدد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب . لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجلة القول أن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر : كلاهما أحميا وجدد ، ونهج وعبد ، وتقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموع من الأقاويص المنقولة والموضوعة . ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار ، وبول وفرجين (الفضيلة) لبرنارد دي سانت بيير ، وسيرانودير جراك (الشاعر) لادمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت إلى نراء الأدب العربي ثروة ، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدرة .

عن كتاب تاريخ الأدب العربي
حسن الزيات

مقدمة

يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتاب : كيف أكتب رسائلتي ، كأنما يريدون ان يعرفوا الطرق التي أسلكها إليها فيسلكوها معي ، وخير لهم ألا يفعلوا ، فإنني لا احب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب ان يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي او طريقة احد من الكتاب غيري ، وليعلموا - إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر - اني ما استطعت ان أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون انهم يعرفون لي الفضل فيه ، إلا لأني استطعت ان أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء ، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ وعجزها عن ان تمسك الا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي ، فقد كنت أقرأ من منشور القول ومنظومه ما شاء الله ان أقرأ ، ثم لا ألبث ان أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي الا جمال آثاره وروعة حسنه ورنه الطرب به ، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشوه به حافظتي او أستعين

به على تهذيب بياني ، او تقويم لساني ، او تكثير مادة علمي باللغة
والأدب ، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأ احب الجمال وأفتتن به
كلما رأيته في صورة الإنسان ، او مطلع البدر او مغرب الشمس ، او
هجة الليل ، او يقظة الفجر ، او قمم الجبال ، او سفوح التلال ، او
شواطئ الانهار ، او أمواج البحار ، او نعمة الغناء ، او رنة الحداء ، او
مجتمع الاطيار ، او منتثر الازهار ، او رقة الحس ، او عذوبة النفس ،
او بيت الشعر ، او قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان مرأ ، فإذا
لاحت لي زهرة جميلة بين أزهاره ، تتألق في غصن زاهر بين أغصانه ،
وقفت أمامها وقففة المعجب بها ، الحاني عليها ، المستهتر بحسن تكوينها
وإشراق منظرها ، من حيث لا أريد اقتطافها او إزعاجها من مكانها ، ثم
اتركها حيث هي ، وقد علقت بنفسي صورتها الى أخرى غيرها ، وهكذا
حتى اخرج من ذلك الروض بنفس تطير سروراً به ، وتسيل وجداً
عليه ، وما هو الا ان درت ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت
ببعض ازهارها بضع وقفات ، حتى شعرت اني قد بدلت من نفسي نفساً
غيرها ، وان بين جنبي حالا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل ، فاصبحت
أرى الاشياء بعين غير التي كنت أراها بها ، وأرى فيها من المعاني الغريبة
المؤثرة ما يملا العين حسناً ، والنفس بهجة ، فقد كنت أرى الناس فرأيت
نفوسهم ، وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهه ، وأرى الخير فرأيت
حسنه ، وأرى الشر فرأيت قبحه ، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ،
وأرى البأساء فرأيت مدامعها ، وأرى العين فرأيت السحر الكامن في

محاجرها ، وأرى الثغور فرأيت الحفر المترققة بين ثناياها ، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء ، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهيم ان يسيل على جوانبه سيلا ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد^(١) الظلام ديبب المشيب في تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته وهو يهوي بأجنحته السوداء الى الارض هوى الكرى الى الأجنان ، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها ، وحفيف الأوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الاطيار فعرفت لغاتها ؛ فأحببت الأدب حباً جماً ما بين جانحي ؛ فلم تكن ساعة من الساعات أحب إليّ ولا أثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسى وامسك على باي ثم أسلم نفسي الى كتابي فيخيل إليّ اني قد انتقلت من هذا العالم الذي أنا فيه الى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فأشهد بعيني تلك العصور الجميلة ، عصور العربية الأولى ، وأرى العرب في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها ، وأطنابها ، واعوادها ، وإبلها وشاتها ، وشيحتها وقيصومها ، وأرى مساجلاتها ومنافراتها ، وحبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصبرها وبلاءها ، وحناءها وغناءها ، وأسواق شعرائها ، ومواقف خطبائها ، وفقرها وإقلاها ، وشحوب وجوها ، وسمرة ألوانها ، وضوى أجسامها وترددها في بيدائها بين حمارة القيظ^(٢) وصبارة البرد^(٣) ، وتنقلها من صحراء الى ريف ، ومن مشقى الى مصيف ، ومن نجد الى وهد ، ومن

(١) التجاليد : الجسم . (٢) شدة الحر . (٣) شدة البرد .

شرف الى غور ، واتباعها مواقع الغيث ، ومنابت العشب ، وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير ، فاذا جد الجد أكلت القد^(١) واشتوت الجلد ، وتبلغت بالضب واليربوع ، وعراقيب الآبال ، وأظلاف الإبقار ، واكتفت من اللباس بأكسية الكرايس وأردية الاشعار ، وقص الأوبار ، فاذا أعوزها ذلك لبست الظل ، واقرشت الرمل ، غير نائمة ولا ساخطة ، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه ، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدينة الإسلامية فأرى رغد عيشها ، ولين طعامها واعشوشاب جانبها ، وعذوبة مواردها ومصادرهما ، وسرورها وغببتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس واعلاق الروم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان ، واللؤلؤ المنثور من الولدان ، وأرى مجالس غنائها ، ومجامع أنسها ، ومسارح لهوها ، ومجالات سبقها ، وملاعب جيادها ، ومذاهب طرائدها ، ومواقف حجها ، وازدحام شعرائها على ابواب أمرائها ، وجوائز أمرائها في ايدي شعرائها ، وانطلاق ألسنتها بوصف ما تشاء من الاعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والاقداح والدنان والمواتد والصحف ، وألوان الطعام حلوه وحامضه ، وأصناف الشراب حلاله وحرامه ، والطيور المحلقة في الأجواء ، والسفن الزاهية في الدأماء^(٢) ، والرياض الخضراء والغابات الشجرية ، والقصور وتمائيلها ، والبحيرات واسماكها ، والانهار

(١) السير يقد من جلد . (٢) الدأماء : البحر .

وسواطتها ، والازهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودييب الحب في القلب ، والغناء في السمع ، والصهباء في الاعضاء ، وخلجة الشك ، ولحة الفكر ، وبارقة المنى .

ثم لا أشاء ان أرى بين هذا وذاك خلقاً عذبا ، او أدبا غضا ، او حبا ويا ، او مجونا مستظرفا ، او حورا مستملحا ، الا وجدته ؛ ولا ان اسمع ما تهتف به العاتق في خدرها ، وما يجذو به الحادي في اعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشق ، وما يهنى به الشارب ، وما يترنم به الشادي ، وما يساجل به الماتح^(١) الا سمعته . ولا ان اعلم ما بهجس في نفس المحب اذا اشتمل عليه ليله ، والحائر اذا ضل به سبيله ، والثاكل اذا فجعت بواحدنا ، والموتور اذا حيل بينه وبين واتره ، والكريم اذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء ، والغريب في دار غربته ، والسجين بين جدران سجنه ، والحائف اذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدم للقتل اذا وقف بين الرجاء والياس ، والبائس اذا أعوزه القوت ، واليائس اذا أعوزه الموت ، والعزيز اذا ذل ، والمشرف اذا هوى ، والشريف اذا عبث بشرفه عابث ؛ والغيور اذا لمس عرضه لامس ، الا علمته ، ولا ان اعرف خلق الدهر في تنقله بالناس ما بين رفع وخفض ، وجدة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا اثر يده السوداء في خراب القصور ، وخلاء الدور ، وإقفار المغاني ، وتصويح الرياض ، الا عرفته ؛ فكنت اجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به

(١) الماتح : المستقى على البثر .

الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت ان الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر ، وانه لما علم انه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال او جاه اعيش في ظله ، وانعم بشمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم ، وزوره^(١) لي تزويراً بديعاً ووضع لي فيه من الملاذ والمتاعم ما لم يضع لغيري . رحمة بي وإرعاء على ان اهلك ، او يهلك لي بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب ، وهكذا لا ازال معلقاً في هذا الجو البديع من الخيال اضحك مرة واكتب أخرى ، وأتغنى حيناً وابكي احياناً حتى يرميني الباب ببعض الطارقين او يستعيد إلي نفسي مستعيد .

ولم يكن حولي لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب احد ؛ لأنني كنت اعيش في مفتتح عهدي به - ولم اكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة - بين اشياخ ازهرين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه ، ولا يتعلقون منه بما اتعلق فكانوا يرون ان التوفر عليه او الإمام به عمل من اعمال البطالة والعبث ، وفتنة من فتن الشيطان ، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه ، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يمرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضناً بي - يزعمون - ان انفق ساعة من ساعات دراستي بين هو الحياة ولعبها ! فكنت لا استطيع ان ألم بكتابي الا في الساعة التي آمن فيها على نفسي ان يلماوا بأمري - وقليلاً ما كنت اجدها - وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يجوبون

(١) زوره : حسنه وقومه .

فاذا عثروا في خزانتي او تحت وسادتي او بين لفائف ثوبي على ديوان
شعر او كتاب أدب خيل إليهم انهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة
السارق ، او الزجاجة في جيب الغلام ، او العشيقي في خدر الفتاة ، فأجد
من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي ؛ وهم لا يعلمون -
احسن الله إليهم - انهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من
حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون ، ويد من ايديه البيضاء على
هذا المجتمع البشري ؛ فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات
الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دونوها لهم وتركوها بين
أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء
المترفين ، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون ان يورثوهم هذه العلوم
اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها ويبانها في مجالس علمهم ،
ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً ، كما يعلمون ان الأدب هو خير ما
يستعين به متعلم على علم ، وان الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من
دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات
العلوم واساليبها ، والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع اقدمه في فهم
اصول الدين ليكون مجتهداً ان استطاع او واقفاً على منازع المجتهدين ،
واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق اغراضه واعمقها واقصاها
مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً ، ومعلماً نافعاً ، ولو ان هؤلاء
الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه - وهم اليوم والمحمد لله قليل ،
بل هم في طريق الفناء والاتقراض - قد تعلقوا منه بما كان يتعلق

فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب الذي تطربه نعمة وتزعج أخرى ، فيطير بالاولى فرحاً وبالثانية جزعاً ، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم ، فكنت لا أقرأ الا ما أفهم ، ولا أفهم الا ما أشعر انه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس ، فاذا هو في كبد الرمية ولبها ، فان رأيت ان المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاطلة ، والاساليب الملتوية ، علمت ان القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضي به ، وإما جاهل لم يستوله المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدرك في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها ، فهو يتوهمه توهماً ويجمجه جمجمة ويهذي به هذياناً فلا سبيل له الى الإفصاح عنه ، وإما داهية محتال قد علم ان المعنى الذي يحول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مرذول وكان لا بد له ان ينفقه^(١) على الناس ويزخرفه لهم ويزوره^(٢) في اعينهم ، فهو يكسوه اسلوباً غامضاً ليكدهم ويجهدهم في سبيله حتى اذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم انهم قد ظفروا بمعنى غريب ، او خاطر بديع ، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامىء في ضحضاح^(٣) الماء الكدر اذا أبعد النجعة في طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء ، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم ان ضعفاء الافهام من الناس ، وهم سواد الامة ودهاؤها ، لا يرضون عن معنى من

(١) ينفقه - بالتشديد - يجعله نافقاً ؛ أي راجحاً .

(٢) زور الشيء ؛ حسنه وزخرفه . (٣) الضحضاح ؛ الماء القليل في قعر البئر .

المعاني ولا يستنون^(١) قيمته ولا يقيمون له وزناً الا اذا جاءهم في جلدة من الالفاظ المتكرسة المتقبضة ، وانهم اذا ورد عليهم أثن المعاني واغلاها ، واكرمها جواهرأ واطيبها عناصرأ في ثوب من الاساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم الى انه ما جاءهم على هذه الصورة الا لأنه ساقط مبتذل ، او سوقي مطروق فاحتقروه وازدروه ، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته . ان لا بد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضام ، والنزول على حكمهم ، فتجمل لهم باللكنة والعي او تملقهم بالغموض والإبهام . وإما أعجمي يظن ان اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرها فينطق بشيء هو اشبه الاشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الاعجمية ترجمة حرفية ، فان نعت عليه غرابة اسلوبه واستعجابه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه ان المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطيع إلباسها الاكسية البدوية ، والاردية العربية ، كأنما هو يظن ان المعاني والخواطر خطط وأقسام ، وأنصبة وسهام ، هذا للشرق وهذا للغرب ، وهذا للعرب وهذا للعجم أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي ان الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله . وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الاعجمية التي يعرفها لاصقة بأثوابها الاصلية ، فلما أراد ان يفضي بها الى العرب ، وكان غير مضطلع بلغاتهم ولا متمكن من اساليبهم عجز عن ان ينزع عنها اثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هي الا ما كان

(١) استسنى قيمته : وآما منية وفيعة .

من تبديل حرف بحرف او لفظ بأخر من حيث يظن انه يهتف بشيء
قام في نفسه او يفضي بخاطر من خواطر قلبه ، وإما شحيح يابى له
لؤم نفسه وخبث فطرته ان يمنح الناس منحة سائغة هنيئة دون ان
يكدرها عليهم بالمطل والتسويق والمدافعة والمحاولة . والشح خلق اذا
نزل منزله من نفس صاحبه اقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من
حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعاً ولا يظفر منه
متعصر بيلة . فيضن بعلمه كما يضن بماله ، ويقبض لسانه عن النطق كما
يقبض يده عن الإنفاق ويصرد^(١) عطاءه تصريداً ليستديم حاجة الناس
اليه كما يجيع قلبه ليتبعه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة
والجاهلين والمحتالين والكاذبين والاشحاء والباخلين .

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب - سواء في ذلك المتقدم
والتأخر والنابه والحامل - اوصفهم لحالات نفسه او أثر مشاهد الكون
فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو
يعرضه على انظارهم عرضاً ، او يضعه في أيديهم وضعاً ، فان ظننت ان
القائل كاذب فيما يقول او انه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في
نفسه ، او انه لغوي يفر من ضعف اسلوبه وفساد نظمه الى أكمة من
الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، او ناقل يتخذ
الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً ، او
مترجم ينقل عن اللغة الاعجمية التي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو

(١) صرد العطاء : إعطاء قليلاً قليلاً .

صاحبها ، او شعرت انه قد قدر في نفسه ، وهو يكتب كلمته ان يكون بليغاً فيها او مبدعاً ليعجب الناس منها ، وكان كل حظه عندي ان أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم ان احسن فيما يقول ، ولكنني لا أعده كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين ، وفضل الرثاء رثاء الثاكين ، وأنبى المدح مدح الشاكرين ، وأشرف العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، واحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائيين المشاهدين .

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر المهوم والاحزان ، ومواقف البؤس والشقاء ، وقصص الحزونين والمنكوبين خاصة ، فقد كان يعجبني كثيراً ويبكيني أحر بكاء وأشجاء شقاء المهلهل في الطلب بثأر أخيه ، وشقاء أمرى القيس في الطلب بثأر أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذي يحين ، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة . وبكاء أبي عبادة على الاكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضى على بني هاشم ، وبكاء العبلى على بني أمية ، وبكاء الرقاشي على بني برمك ، وذل أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد في سجنه ، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة ، وعلى ولادة أخرى ، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد ، والبحجري

على المتوكل ، وابن اللبانة على ابن عباد ، والتميمي على يزيد بن مزيد ،
ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون المجنون بليلاء ، وجلوسه
في جنبات الحبي منفرداً عارياً مذهوب اللب مشترك العقل يهذي ويخطط
في الأرض ويلعب بالتراب ، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا
يأكل الا ما ينبت فيها من بقل ، ولا يشرب الا مع الطباء اذا وردت
مناهلها، وراحته الى الطريق يصعد مع مصعديه، وينزول مع منحدره،
حتى هلك في أرض مقشعرة مغبرة بين الصخور والاحجار ، وشقاء
قيس بلبناه بعد ان طلقها براً بوالده ، ونزولاً على حكمه ، وذهاب الحب
به ذلك كل مذهب ، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب ،
وموقف جميل بن معمر بين يدي أبيه ، وهو يعتب عليه أشد العتب
وأمره في استهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفسه في الإلمام بحبها فيقول : يا
أبت ! هل رأيت قبلي أحداً قدر ان يدفع عن قلبه هواه او ملك ان يسلي
نفسه او استطاع ان يتقي ما قضى به عليه ، والله لو قدرت انت أمحو
ذكرها من قلبي او أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل الى
ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيت لي ، وأنا أمتنع عن طروق
هذا الحبي والإلمام به ولو مت كدماً ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ،
وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه
انه كان يئد بناته في الجاهلية ، وان واحدة منهن ولتها أمها وهو في
سفر ، فدفعتها الى أخوالها ضناً بها على الموت وإشفاقاً عليها ، فلما عاد
وسألها عن الحمل قالت له انها ولدت مولوداً ميتاً . ثم مضت على ذلك

سنون عدة حتى كبرت البنت وبيعت فزارت أمها ذات يوم فراها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ، ولم تكتفه شيئاً طمعاً في ان يضمها اليه ويمسحها برحمته وعطفه فامسك عنها أياماً ، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها الى الصحراء حتى أبعدها فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فأخذت تقول : يا أبت ما تريد ان تصنع بي ، وما هذا الذي تفعل ؟ وهو يبيل عليها التراب ولا يلتفت اليها ، وهي تئن وتقول : أثاركي انت يا ابت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني ؟ حتى واراها وانقطع أنينها ، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته ، ثم وقفت على قبره تودعه . وتقول : والله يا بني لقد غدتك رضيعاً ؛ وفقدتك سريعاً ، وكان لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها ، فأصبحت بعد الغضارة والنضارة وروثق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتا سحيقاً وصعيداً جزراً ، اللهم انك قد وهبته لي قرة عين فلم تمنعني به كثيراً بل سلبتنيه وشيكاً ثم أمرتني بالصبر ، ووعدتني عليه الأجر ، فصدقت وعدك ، ورضيت قضاءك ، فارحمهم اللهم غربته ، وأنس وحشته ، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوءات ؛ واثكل الوالدات ! ما أمض حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ؛ وأطول ليلهن ، وأقل انسهن ، وأشد وحشتهن ، وابعدهن من السرور ، واقربهن من الاحزان ، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لها وانقطاع سبيله بها حتى اصبحت زوجاً لغيره

وأصبح بعدها هائماً مختبلاً يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الأرض ومخارمها ، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها ، وهو يظن ان زوجها لا يعلم من أمره الا انه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم انه يعرف حقيقته ، وانه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له ، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها : يا عفراء ، انت حظي من الدنيا ، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك ، وقد أوجل هذا الرجل عشرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه ، وإني راحل من هذا المكان ، واني عالم أي راحل الى منيتي ، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف ، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشى وخفقان ، فكان كلما أغمي عليه ألقى على وجهه خارا لعفراء كانت زودته إياه فيفيق ، حتى بلغ حيه وأمسك عاما كاملا لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنه حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضا ، فر بعض الناس فرآه مطرحا بجانب خبائه ، فسأله عما به ، فوضع يده على صدره ، وقال :

كان قطاة علقنت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها، فلما بلغ عفراء خبره قامت الى زوجها وقالت : لقد كان من خبر ابن عمي ما كان ، وقد مات في وبسبي ولا بد ان أندبه وأقيم ماتما عليه ، فقال : افعلي ، فزالته تنديه ثلاثا حتى ماتت في اليوم الرابع . وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم ان أهله قد بنوا له ديرا بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن

الناس فضات عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله واخوانه
ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل الى الوصول اليه ، فامتنع عليه ذلك
بعد ما ذل للرهبان وتخضع وتآق لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئاً ،
فصار الى الجنون وحرقت ثيابه وأصبح عريان هائماً لا شان له الا ان يقف
بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله ان يبلغ رسائله الى عيسى ، حتى
راه بعض الناس في بعض الايام ميتاً الى جانب الدير . وأمثال ذلك من
مواقف البؤس ومصارع الشقاء ؛ كأنما كنت أرى ان الدموع مظهر
الرحمة في نفوس الباكين ؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها ؛ او
كأنما كنت أرى ان الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام
والاحزان ، وان الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها ، وتصوراً لها ،
فلما أحببت الصديق أحببت البكاء لأجله ؛ او كأنما كنت أرى ان بين
حياتي وحياة اولئك البائسين المتكويين شهاً قريباً وسبباً متصلاً ؛
فانست بهم وطربت بنواحيهم طرب المحب بنوح الحمام وبكاء الغمام ،
او كأنما كنت في حاجة الى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه ،
فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامهم شفاء نفسي
وسكون لوعتي ؛ او كأنما كنت أرى ان جمال العالم كله في الشعر وان
الشعر هو تفجر من صدع الافئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع
مدامهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم .

تلك أيامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومرّ لي فيها أحسن ما مرّ
لأحد والتي لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الاعوام الطوال فاكاد أشرق

يدمعي لذكرها ، ثم اثبتت فوجدت يدي صفراً منها وإذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المشعر عالم الحقيقة والألم ، فنظرت اليه نظر الغريب الحائر الى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة والنسمة والهبة^(١) ، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ، وسلطان القوة على الحق وغلبة الجهل على العلم . واقفار القلوب من الرحمة ، وجمود العيون عن البكاء ، وعجز الفقراء عن فتات موائد الاغنياء ، وتمضغ الاغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيت التراثي بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه ونخلها إياها من لا يتخلق بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها ، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العاري بسواته والموسوم بخزيتته . ورأيت الرجل والمرأة وقد مرأ^(٢) كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه ، ثم تقايضا فلبست قبائه ولبس غلاتها فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلا له من الرجال التوقح والتشطر^(٣) ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون^(٤) من لفحات الحياة وزفرائها قد استحال في أيدي الناس الى سهام مسمومة يحاول كل منهم ان يصيب بها أخيه فلا يخطئها ، ورأيت ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها ، واضطراب الحدود

(١) الهبة : العبرة . (٢) سرا الثوب عن جسمه : ألقاه عنه .

(٣) تشطر : صار شاطراً ؛ والشاطر هو من أهى أمه خبثاً .

(٤) الضاحي : المنكشف للشمس .

والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلا ،
وخرج منها ما لم يكن خارجا ، فسمى الشح اقتصادا ، والكرم اسرافا ،
والحم جنبا ، والسهاجة جرأة ، والسفاهة براعة ، والفجور فتوة ،
والتبذل حرية ، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد
ركوبها ، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيما من زعماء الخديعة
والكذب يصرفه عنها الى غيرها، وكنت أرى ان الادب حال قائمة بالنفس
تمنع صاحبها ان يقدم على شر او يحدث نفسه به او يكون عوناً لفاعليه
عليه ، فإن ساقته اليه شهوة من شهوات النفس او نزوة من نزواتها وجد
في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضمض والارتماض ما ينغص عليه
عيشه ، ويقلق مضجعه ، ويطيل سهره وألمه ، فإذا هو صورة من صور
الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا تدخل له في جوهر النفس ، ولا
علاقة بينه وبين الحس والوجدان ، فأكثر الناس عند الناس أدبا ،
وأقومهم خلقا ، وأطهرهم نفسا : من لا يفي على شرط ان يعد ، ومن
يكذب على ان يكون كذبه سائغا مهذبا ، ومن يملأ صدره موجدة وحقدا
على ان يكون بساما ضحوك السن ، ومن يسرق على ان يستطيع العبث
بمواد القانون وخداع القضاة عنها ، ومن يينغص الناس جميعا بقلبه على
أن يجهم جميعا بلسانه ، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك
الصور الجافة من الحركات الجسمية ، التي تواضع عليها المتكلمون في
الزيارة والاستراحة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما
يرجع العلم به غالبا الى صغر النفس واسفافها ، أكثر مما يرجع الى علوها

وكالها ، فداخلي من ذلك خطر عظيم لم استطع ان أملك نفسي معه ،
كأنما خيل اليّ - لقرب عهدي بما أرى - اني أرى شيئاً عجيباً ، او
منظراً غريباً ، او كأنما كنت احسب ان عالم الخيال الذي كنت فيه إنما
هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت اليه ، فاذعجني ما رأيت
من هذا الاختلاف العظيم بينهما ، فارسلت الكلمة اثر الكلمة كما يتنفس
المتنفس او يشن الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس ، فسموا ما رأوه كلاماً ،
ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله ، وما زلت اطمع فيهم
وأرجو ان اصيب ما في نفوسهم ، حتى سموني كاتباً .

وكان لذلك الأدب الذي توليت به نفسي فيما مضى أثر باق عندي
حتى اليوم فاني لا احسن ان اكتب كلمة يفضي بها غيري او أعبر عن
معنى لا يقوم بنفسي او ابكي على من لا يجزني فراقه . او اندب من لا
يفجعني موته او استنكر ما استحسن . او استحسن ما استنكر ، كما لا
استطيع ان أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزناً شديداً ،
او طرباً كثيراً ، فأملك نفسي عن محاولة الإفضاء بما تركه عندي من
خير او شر ، وما اعلم اني كتبت كلمة في شأن من الشئون الا وكان بعض
تلك المشاهد منشأها في قلبي . فقد كنت رجلاً لا احب الكذب ، ولا آخذ
نفسي به ما وجدت منه بدأ ، فأبفضت الكاذبين بغض الارض للدم .
فكان من همي ان اقاتلهم على الصدق قتالاً مستعراً ، حتى أصل بهم الى
احدى الحسنين: إما ان يكونوا صادقين وإما ان يعلم الناس انهم كاذبون ،
وكنت إنساناً بانسالم يترك الدهر سهماً من سهامه المريشة لم يرمني به ،

ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يجرعني إياها ، فقد ذقت النذل
أحيانا ، والجوع أياما ، والفقر اعواما ، ولقيت من بأساء الحياة وضرائها
ما لم يلق بشر ، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين . ورأيت مواقع
سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين ، فكان من همي ان أبكي كل
بائس ، وانذب كل منكوب ، واطلب رحمة القوي الضعيف ، والغنى
للفقير ، والعزير للذليل .

وقد قدّر لي فيما مرّ بي من ايام حياتي ان رأيت بعيني من وقفت بين
يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع اليه ان يرضخ لها بقليل من المال تستعين
به على ستر ما كشف ابنه من سوءة ابنتها ، فأبى ذلك عليها وقال لها -
وهو يحسب انه يعقل ما يقول - : أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا
عند ولدي . فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرها باكبر من حظها منه ،
ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقدًا قديما ، فسادنا
منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا : أيها الناس ان الفتاة مزينة .
وكان كاذبا فيما يقول ، ولكن صدقه الناس ، فانتقم لنفسه بذلك شر
انتقام وافظعه ، ورأيت من دخلت اليه امرأة من اولئك النساء المريبات
تسأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذهابا بنفسه ان تسوء سمعته
بدخولها بيته ، وكان هو الذي افسدها على نفسها فنزل بها فسادها الى هذه
المنزلة من السقوط ثم الفقر ، فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوقها في
بيته . ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيته أكلا . فكان بي منذ
ذلك العهد ان انظر الى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس اليها ،

وان ألتمس لها من العذر - وان زلت بها قدم - ما لا يلتمسه لها احد ،
وان انتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا الى ذلك حتى يديل لها الله
منه ، وكنت من شئون عيشي في حالة لا استطيع معها ان اعترل الناس
الاعتزال كله ، ولا ان اختار لعشرتي من أشياء من خيارهم وذوي المروءة
فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهداً ولا صان لي صاحب
سراً ، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن ، ولا دنت فوفى لي مدين ، ولا
رد لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعاً ، ولا فرج لي كربتي
مفرج الا اذا استقطر ماء وجهي الى القطرة الاخيرة منه ، لياخذ اكثر مما
أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدت في طريق حياتي من خالطني
مخالطة الزائر للمزور حتى امكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم
بطعامي وشرابي . ومن كان ييسط اليّ يد الآمل الراجي فاكره ان أردّه
خائباً ، فلما عجزت عن ذلك مرة اضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضم
لمثله الرجل الا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه ، او يخضب لحيته من دم
مفرقه ومن نصب^(١) لي وغرى بمجاداتي ومماظتي^(٢) ، لأنه كان يحمل في
رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي ،
ومن اخذ نفسه بالنيل مني والغض من شائي لأنه كان يشكو الخمول
والضعة وكان لا بد له ان يكون نابهاً مذكوراً ، فاتفق له ان رأى عاتقي
بين يديه فظن انه اعلى العواتق وابعدها مذهباً في جو السماء ، فعلاه
ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به

(١) نصب فلان لفلان : عاده . (٢) المماظة : المخاصمة والمشاورة .

بقياً عليه وضناً به ان يسقط سقطة لا يثل منها ، ومن كان لا يكبر شأني الا اذا اتقاني ، فاذا اضاء ما بيني وبينه كنت في عينه اصغر منه في عين نفسه ، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر عليّ وإدباره عني ، لا يستحي ان يكرر ذلك حتى استحيى له منه . فعركت بجني^(١) كل ما كرهت من ذلك ، ولكنني لم أرض لنفسي ان انزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل اليها الغر الكريم ، فلم أثار لنفسي ، ولكن اصبح رأبي في الناس غير رأيم في انفسهم ، ورأى بعضهم في بعض ، وخفت ان يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين^(٢) امثالي مثل ما اصابني ، فكان من همي ان أدل على شروء الاشرار الكامنة في نفوسهم وان اكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا ، فيتواقفوا ويتحاجزوا ، فلا يهنا خادع بخدعته ، ولا يبكي مخدوع على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً حمرأ يركبونها الى اغراضهم ومطامعهم ، وكان منشيء في قوم بداءة سنج لا يبتغون بدينهم ديناً ، ولا بوطنهم وطناً ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شئون جمّة ، فخضعت لكثير من احكام الدهر واقضيته ، الا ان اكون ملحدآ في ديني او زارياً على وطني ، فاستطعت - وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدينة الغربية - ان اجلس ناحية منها . وان انظر اليها من مرقب عال ، وكنت اعلم ان من اعجز العجز ان ينظر الرجل الى الأمر نظرة طائفة حقاء ، فإما اخذه كله او تركه كله ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ووزائلها ،

(١) عرك يجنبه ذنب صاحبه : احتلمه . (٢) المحدود : المحروم : ويراد به سيء الحظ.

وعرفت ما يجب ان يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك ، فكان من همي ان احمل الناس من امرها على ما احمل عليه نفسي ، وان انقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها ، واستهتارهم بها ، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومغازيها ، والحادها وزندقته ، وشحها وقسوتها ، وشرها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها ، حتى اصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه اذا حزبه الامر^(١) في مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه الا ان يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل ، او ترك ما ترك كأنما هي القانون الإلهي الذي تثوب اليه العقول عند اختلاف الانظار واضطراب الافهام ، او القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحیحها وفاسدها ؛ وحتى اصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الاوربية ان تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الخداء اكثر مما يستحي من الله ومن الناس ان يهجموا منه على اردل الرذائل واكبر الكبائر ؛ وحتى اصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وادبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من اقبح الصور واسمجها في نظر كثير من الشرقيين : يفخرون بجهله ان جهلوه ، ويراؤون بعلمه ان علموه ، وحتى قدر الغلام الرومي - خادم الحان - منفرداً على ما لا تقدر عليه الامة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته ، قبل ان تحمله على الصعود اليها ليحدثها

(١) حزبه الامر ؛ اشتد عليه .

بلغتها ، وهو الى ان يرضاها ويستدنيها احوج منها الى ان ترضاه
وتزدلف اليه .

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا ، وقد شعر به
قلبي ففاض به قلبي من حيث لا اكذب الناس عن نفسي ، ولا اكذب
نفسي عنها .

وعندي ان الكاتب المسخر الذي لا شأن له الا ان يكتب ما يفضي به
الناس اليه صانع غير كاتب ، ومترجم غير قائل ، لا فرق بينه وبين
صانع الذهب وثاقب اللؤلؤ : كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن
له فيه ، على ان خير ما ينتفع به الاديب من أدبه ان يترك يوم وداعه
هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه
ومضطرب آماله ومسرح احلامه ؛ فان كان من شأنه في حياته ان يكون
مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور ، او وفيعة^(١) تتمسح بها اعواد
الاقلام كان خسرانه عظيماً لا يقوم به كل ما يربح الراجحون من مال او
يؤثرون من جاه ، والتاريخ اذن من ان يحفظ بين دفتيه من مجد الادباء
الامجد اولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد
تركوها نقية بيضاء من بعدهم ، وحياة الكاتب بجملة كتابته في نفوس
قرائها ، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل انه يكذبهم
عن نفسه وعن نفوسهم وانه رواج متخلج^(٢) يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه
غدا ، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى ، وانه يستبكي ولا يبكي ،

(١) الوفيعة : حرفة يمسح بها القلم . (٢) المتخلج : المضطرب في مشيته .

ويسترحم ولا يرحم ، ويحزن النفوس وهو ساكن ، ويشير الثائر وهو سالم ، فيستريون به ، ويحارون في مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره شر حاله ثم ينقطع ما بينهم وبينه ، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق الى سوق ومن حانوت الى آخر ، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، صدور النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ، والإريج عن الزهر ، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب اشراق المصباح في زجاجته ، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على اسلات قلمه ، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو ان أمراً من ذلك كائن لكان ابرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم ، او اعلمهم بقواعد اللغة ، او أجمعهم لتونها ، او احفظهم لفصيح القول ورائعه ؛ أما العلم فاكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الاسفار التي تقرأها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان ؛ وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب واكثرنا عاجز عن فهم اكثر ما كانوا يكتبون ؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحد احفظ لكتاب الله من جماعة القراء ، ولا احفظ للحديث من الفقهاء ، ولا أقل منهم إلاماً بالادب ولا أبعد عنه مكاناً ؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من روايتها وحفاظها والتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تجسير الرسائل او قرص الشعر او القوة

القلبية في التصنيف في غير ما أخذوا انفسهم به ؛ وكان الخليل بن احمد اذا سئل عن نظم الشعر قال : يا باني جيده وآبي رديته ؛ وكان الاصمعي يحفظ ثلث اللغة ، وأبو يزيد الانصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الاعرابي يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والازهري والصاغاني وابن فارس وابن الاثير صاحب النهاية ، والجوهري والفيروزا بادي وامثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لو احد منهم في احدى الصناعتين شيئاً مذكوراً ، وقال ابو العباس المبرد في بعض احاديثه لا احتاج الى وصف نفسي : لعلم الناس بي انه ليس احد من الخاقين تحتلج في نفسه مشكلة الالقيني بها وأعدني لها ، فانا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفي عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنشور والخطب والرسائل وربما احتجت الى اعتذار من فلتة او التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذي اقصده نصب عيني ، ثم لا اجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني ان عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت ان اكتب اليه رقعة أشكره فيها واعرض بعض اموري فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم اقدر على ما ارتضيه منها ، وكنت احاول الافصاح عما في نفسي فينصرف لساني الى غيره اه . بل لو شئت لقلت انه ما افسد علي التنبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما ، ولا المعري كثيراً من منظمه ومنشوره ، ولا على الحريري مقاماته ، ولا على ابن دريد مقصورته ، الا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وامثالهم من حبانس اللغة وانضاتها في كثير من موافقهم يؤلفون

ويدونون ، من حيث يظنون انهم ينظمون او يكتبون ، ولا تزال نفسي
تشتغل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت ان الادب
العربي كان يستطيع ان يكون خيراً مما كان لو ان الله تعالى كتب
للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام وانك لا تكاد ترى
اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه - الذين ياخذون بزمام المجتمع العربي
ويقومون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شئونه السياسية والاجتماعية
والأدبية كافة - من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها ، او من يسلم له
مقال من مأخوذ نحوي او مغمز لغوي ، وهم على ذلك أدخل في باب
البيان وألصق به وأمس رحماً من اولئك الذين يستظهرون متون اللغة
ويحفظون دقائقها ويحيطون بترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها
وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما جيل من مسائل نحوها
وتصريفها ، فاذا عرض لهم غرض من الاغراض في أي شأن من شئون
حياتهم وأرادوا انفسهم على الافضاء به - ارتج عليهم فأغلقوا او تقهروا
وتشدقوا فكانهم لم ينطقوا ، والفرق بين الأدباء واللغويين ان الاولين
كاتبون ، والآخرون مصححون ؛ فمثلها كمثل النساج وعامله : هذا ينسج
الثوب ، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره ^(١) ، او كمثل الشاعر
والعروضي : هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ،
وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج
آخر ، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة

(١) الزئبر : ما يظهر من درز الثوب .

الغرض وتطبيق المفصل ، والاخذ بجماع الالباب ، امتلاك ازمة الهواء ؛
 فاذا صح ذلك لامرئ فهو الكاتب القدير او الشاعر الجليل ؛ فان زلت
 به يده اصيل ، او كان عن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة او بعض وجوه
 الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه او بحفاظته ، لا ببيانه
 وفضاحته ، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع ، اصبح شأنه
 شبيهاً بشان العرب الاولين ، وكان من شأنهم ان يسبقهم في كلامهم الخطأ
 اللفظي في بعض الأحيان ، وكان السبب في ذلك كما يقول ابو علي
 الفارسي : انهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ؛ فربما استهواهم
 الشيء ، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون ، وكان الجسم لا
 يغير من صورته ، ولا يبديل من سحنته ، ان تطير منه ذرة وتحل أخرى
 محلها لتمثلها ، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج
 اصيل ، او دخول دخيل ، وقد قيل لأحد الكتاب الانكليز : نراك كثير
 الاعجاب بالكاتب « كبلنغ » وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة ،
 فاجاب : ان سطرأ واحداً مما يكتبه « كبلنغ » أثن عندي من قوانين
 اللغة جميعها ، وليس من الرأي ان احرم نفسي التمتع بأدبه واكراماً
 لسواد عيون الغراماطيق^(١) الانكليزي ، فضل الأدباء على اللغة في
 سيرورتها وذبوعها وتداولها وخلودها افضل من فضل اللغويين عليها في
 ذلك ، لأنهم هم الذين يهدون سبلها ويعبدون^(٢) طرقها ويستندون
 نافرها ، ويجمعون شاردها ، وينظمون لألثها نظم الثاقب لألثه في السلك

(١) الغراماطيق : النحو .

(٢) يعبدون : يذلون ويمهدون .

فياخذها الناس عنهم من اخصر الطرق واقربها ، واشهاها الى النفس ، واعلقها بالقلب ؟ وقليل من الناس من ياخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة او يكتسب ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف ؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدوا لها ، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به ، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ، والتعمق في أطوارها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها ، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل ، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فن لا ياخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل اليه ، والتربية العلمية كالتربية الجسمية ؛ فكما ان الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط ، ولا تتبسط اعضاؤه ، ولا تنتشر القوة في اعصابه ، الا اذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه ؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه ، ولا تاخذ مكانها من نفسه الا اذا ملك الحرية في التصرف والافتتان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون ان يسيطر عليه في ذلك مسيطر الا طبعه وسجيته ، واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والבלابل ، فان مشى خيل اليه انه يمشي على رملة ميثاء ، وان تحرك خيل اليه ان تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووساوسه عن الغاية التي يريد الوصول اليها . على ان الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة الا اذا نظر الى الألفاظ بالعين التي يجب ان ينظر بها اليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي ان تكون خدماً لها وخولاً ،

واوعية وظروفاً ، فاذا كتب تركها وشأنها واغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة ، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شيء .

وبعد ؛ فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله اليها ؛ فالجهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً ؛ ومن لا يظطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة الى لسانه ، او غلبته العامية على أمره ؛ ومن قل محفوظه من المادة اللغوية ، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني ؛ ومن جهل قانون اللغة أغض الاغراض واهمها ، او شوّه الالفاظ وهجنها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فاكثر القائمين عليها والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية احسان المحسن منهم ان يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قلبه تماثلاً سوياً متناسب الاعضاء مستوى الخلق ؛ إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له ، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة ، وأنى لهم ذلك ؛ وما دخلت الفلسفة أياً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة الا أفسدته ، وما خلط التكلف عملاً من أعمال الذوق الا شوّه وجهه ، وذهب بحسنه وروائه .

ولقد قرأت ما شئت من منشور العرب ومنظومها ، في حاضرها وماضيها قراءة المثبت المستبصر ، فرأيت ان الاحاديث ثلاثة : حديث

اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب .

فاما حديث اللسان فهو في تلك العبارات المنمقة ، والجمل المزخرفة ، او تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغوياً تقعر وتشدق ، وتكلف وأغرب ، حتى يأتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب ، وإن كان بديعياً جنس ورصع وقابل ووسع وزاوج واقتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها او معجمة كلها او راوح بين الإهمال والإعجاب ، فيخيل اليك وانت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعا ، او يصفه تصفيفاً ، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الاثر في نفس السامع ، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها واجدراها ان ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها ، وان ينظم صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها ، وجمعها وتفريقها ، والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين ائقالتها ، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذاك .

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً ، ويقتطعونها منها اقتطاعاً ، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدي والعمق والاغراب ، ويسموننا تارة تخيلاً وأخرى غلواً وأخرى حسن تعليل ، الى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق ، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب . والإحالة ؛ وآية ما بينك وبينها : انك

إذا رأيتها شعرت بأنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك . وعن نفس صاحبه ، وعن نفوس الناس جميعاً ، وإن صاحبه لا يريد منه إلا أن يظرك أو يضحكك أو يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك وملاً قلبك غيظاً وقبحاً كان يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فإن الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل أن يخلق المدوح ويخلق آباؤه الأولون إلى آدم وحواء ، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولاً لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها - وهي من سكان السماء - أن تهبط إلى الأرض لتخدم سكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شأنه ، فهو في الحقيقة إنما يريد بيته هذا أن يمدح نفسه بالابداع وقوة التخيل ، لا أن يمدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام .

أو يقول :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب
فإن الذي يحمل في صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع ،

مستعظما ان يخلفها ما عودها إياه من طعام وشراب ، لا يمكن ان يكون هو نفسه ذئبا ضاريا يريق دماء الناس ويمزق احشاءهم ، ويقطع اوصالهم ، ليملا بها بطون الوحش ؛ ولا يوجد بين الاسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره ؛ على ان المحسن لا يكون محسنا الا اذا وهب ما يهب من ماله ، ومن خزائن بيته ، فإما ان يقتل الناس تقتيلا ويمثل بهم ، ثم ينعم بجنثهم على الجائعين والظماء من وحوش الارض وذئابها ؛ فذلك شيء هو بالجنون اشبه منه بالإحسان .

او يقول :

لا يذوق الإغفاء الا رجاء ان يرى طيف مستميح رواحا

فان النوم قوام الإنسان وعماد حياته ، ولازم من لوازمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يرد ، فان كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فان من ابعد الاشياء عن التصور والفهم ان يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه ان يرى فيه الاحلام والرؤى ، فان فعل فعلا يدخل في باب اغراضه وامانيه ان ينام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتأكلين ، وهم ملء الارض وهباء الجو ، وارصاد الاعتاب ، واعقاب الابواب ، لا تفتح الاعين الا عليهم ولا تمتلىء الأنظار الا بهم ، فهم لم يبلغوا في الضن بأنفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به الا اذا ألقى في طريقه حباتل الاحلام ليصطاد بها .

او يقول :

لم يتخذ ولداً الا مبالغة في صدق توحيد من لم يتخذ ولداً

فإن الاولاد لا يتخذون اتخاذاً ، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاماً ، واكثر ما تقذف به الأرحام من النسبات إنما هي ثمرات الحب يأتي بها عفواً ، لا نبتة من نبات الارض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعالى غني بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام ، فان كانت لا بد في إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصفات والافعال ؛ فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة . وربما كان أهونها واضعفاً انه لا يتخذ ولداً ، وانهم يتخذون . على ان المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الارض وظهرها ، فالمسألة مفروغ منها قبل ان يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده ؛ فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد .

او يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في التراب طيباً
فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن ان تكون طيبة الريح ، على ان الأزهار مريحة قبل ان يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم ، فلم يزد في كلمته هذه على ان أتى بخيال ضعيف مبتذل هو اشبه الاشياء بخيال العامة الذين يرون ان بعض الأزهار ما خلق الا اكراماً لبعض النبيين .

او يقول :

تتلف في اليوم بالهبات وفي ال ساعة ما تجتنيه في سنتك
فقد اراد ان يصف ممدوحه بالكرم وصفاً فوق ما يصف الناس

ويأتي في ذلك بما لم يأت به غيره؛ فانزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين دخلهم ونفقاتهم، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة الى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها في ساعة واحدة او يوم واحد.

او يقول:

ولما ضاق بطن الارض عن ان يضم علاك من بعد الممات
اصاروا الجوقبرك واستعاضوا عن الاكفان ثوب السافيات

فإن شيئاً من ذلك لم يكن، فالقبر لا يضيق باحد، والجو لا يكون قبراً، والريح ليست كفنأ، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور، ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن.

واما حديث القلب فهو ذلك المنثور او المنظوم الذي تسمعه فتشعر ان صاحبه قد جلس الى جانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس الى جليسه، او ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون، او سرائر القلوب، او ليفضي اليك بغير من اغراض نفسه، او لينفس عنك كربة من كرب نفسك، او ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك، ثم يتكأءك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة اللفظية، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا او ذاك، حتى ترى حجاب اللفظ قدرق بين يديك دون المعنى حتى يفني كما تفني الكاس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر، فاذا الخمر قائمة بغير إناء، او كما

تفني صفحة المرأة الصقيلة بين يدي الناظر فيها ، فلا يرى الا صورته
ماثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج ، وهو ارقى الاحاديث الثلاثة
واشرفها ، وهل الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت
اساليبهم من كلمة البيان .

ولقد كان من اكبر ما اعانني على امري في كتابة تلك الكلمات اشياء
اربعة انا ذاكرها ، لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في ادبه .

(اولها) اني ما كنت احفل من بين تلك الاحاديث الثلاثة بحديث
اللسان ولا حديث العقل ، اي انني ما كدت اتكلف لفظاً غير اللفظ
الذي يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا افتش عن معنى غير المعنى الطبيعي
القائم في نفسي ، بل كنت احدث الناس بقلمني كما احدثهم بلساني ، فاذا
جلست الى منضدتي خيل إلي ان بين يدي رجلاً من عامة الناس مقبلاً
عليّ بوجهه ، وأن من ألد الاشياء وأشهاها الى نفسي ان لا أترك صغيراً
ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به اليه ، فلا أزال اتلمس الحيلة
الى ذلك ولا أزال أتأتى اليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحاح المشفق
المجد ، حتى اظن اني قد بلغت من ذلك ما أريد ، فلا أقيّد نفسي بوضع
مقدمة الموضوع في اوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ،
ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزاماً مطرداً إبقاء على نشاطه
وإجماحه ، وإشفاقاً عليه ان يمل ويسام ، فينصرف عن سماع الحديث أو
يسمعه فلا ينتفع به .

(وثانيها) اني ما كنت أحمل نفسي على الكتابة حملاً ، ولا أجلس

الى منضدتي مطرقاً مفكراً : ماذا اكتب اليوم ، وأي الموضوعات أعجب وأغرب وألذ وأشوق ، وأيها أعلق بالنفوس ، وألصق بالقلوب ؟ بسـل كنت ارى فافكر فاكتب فأنشر ما اكتب فارضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا اتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم .

(وثالثها) أني ما كنت اكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة ، لأنني كنت أعلم ان الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً ، ولا تترك في قلبه أثراً ؛ وأحسب ان السبب في ذلك ان اكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والاخلاق ، والخواطر والتصورات ، إنما هو اثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سماء الفكر . ثم لا تزال بها الايام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان ، وكما ان الحديد لا يفـل إلا الحديد ، واللون لا يذهب به إلا لون غيره . كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه الا الخيال ، وللخيال الأثر الاعظم في تكوين هذا المجتمع الانساني وتكييفه على الصورة التي يريدها ، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة الحرب ، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت أعلم ان الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائفة من هبوات الجولا تهبط أرضاً ولا تصعد الى سماء .

(ورابعها) أني كنت اكتب للناس لأعجبهم ، بل لانفعهم ، ولا

لاسمع منهم : انت احسنت، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، وللناس كما قلت في بعض رسائلي ؛ خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا اجزع لسخطهم ، لأنني لم اكتب لهم ، ولم اتحدث معهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطاع ان استمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر ؛ لأنني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي اكتب بها ، فلا احب ان يكدرها عليّ مكرر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلي فلا احب ان يشككني فيها مشكك ، ولم يهيني الله من قوة الفراسة ما استطيع به ان أميز بين مخلصهم ومشوهم . فأصغي الى الاول لاستفيد علمه ، واعرض عن الثاني لاتقي غشه ، فانا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة معينة . ثم علم ان على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق اغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غاباً ترأر أسوده وتعوي ذئابه وتفتح أفاعيه وصلاله، فمضى قدماً لا يلتفت يئنة مخافة ان يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعترض طريقه . وأما عامتهم ، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة ، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع احسنه ؛ فانا احمد الله في امره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه ، فهو لا يرضى الا عما يعجبه ، ولا يسمع الا ما يطربه ، فاكل أمره الى الله تعالى ، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً ؟

مصطفى تقي المنفلوطي

الغد

عرفت اني فكرت ليلة أمس فيما اكتب اليوم ، وعرفت اني آخذ الساعة بقلمى بين أناملى ، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ؛ ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه او يكبو "دون غايته؟ وهل يستطيع ان اتم رسالتي هذه، او يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ؟ لاني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولان المستقبل بيد الله .

عرفت اني لبست اثوابي في الصباح ، واني لا ازال ألبسها حتى الآن ، ولكني لا اعلم هل اخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل ؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، وربما كان ملكاً رحيماً ، وربما كان شيطاناً رجياً ، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها ، وبعثت ذراتها ، فأصبحت كأنما هي

(١) كبا : سقط على وجهه .

عدم من الاعدام التي لم يسبقها وجود .
الغد بجر خضم زاخر يعب عبابه^(١) وتصطخب أمواجه ، فما يدريك
إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ، او الموت الاحمر .
لقد غمض الغد عن العقول ، ودق شخصه عن الانظار ، حتى لو أن
إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره ؛ لا يدري أضعها
على عتبة القصر أم على حافة القبر .
الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه^(٢)
العقول ، وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من اسراره ؛ الا اذا جاءت
الصخرة بالماء الزلال .

كاني بالغد وهو كامن في مكمنه ، رابض في مجثمه^(٣) . متلفع بفضل
إزاره ، ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم
ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه
يجمع للوارث ، وهذا الباني انه يبني للخراب ، وهذا الوالد انه يلد للموت :
ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد .

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم ، فاتخذ نفقاً في الارض ، وصعد
في سلم الى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب^(٤) من حديد ،
وخيوط من نحاس ، وانتقل بعقله الى العالم العلوي ، فعاش في كواكبه ،

(١) يعب عبابه : يرتفع موجه .

(٢) تسقط الخبر : أخذه شيئاً فشيئاً .

(٣) مجثم الطائر : موضع جثومه ، أي تلبده بالأرض .

(٤) الاسباب : الجبال ، وكل ما يرصل بين الشيتين .

وعرف أغوارها وأنجادها . وسهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرها ،
ورطبها ويابسها . ووضع المقاييس لمعرفة ابعاد النجوم ومسافات الاشعة .
والموازين لوزن كرة الارض إجمالاً وتفصيلاً . وغاص في البحار فعرف
اعماقها ، وفحص تربتها وازعج سكانها ، ونبش دفاتها وسلبها كنوزها ،
وغلّبها على لآلئها وجواهرها، ونفذ من بين الاحجار والآكام الى القرون
الخالية فرأى اصحابها وعرف كيف يعيشون وابن يسكنون ، وماذا
ياكلون ويشربون ، وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة الى الحواس
الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك
ومراكزها؛ حتى كاد يسمع حديث النفس وديب المتى، واخترق بذكائه
كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً
لا يجرؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لانه باب الله ، والله لا يطلع
على غيبه أحداً .

أيها الشبح الملم بلثام الغيب ، هل لك ان ترفع عن وجهك هذا اللثام
قليلاً لترى صفحة^(١) واحدة من صفحات وجهك المقنع ، او لا ، فاقرب
منا قليلاً علنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا ، فقد
طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت اكبادنا وجداً عليك .

أيها الغد؛ إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً، وأمانى حسناً وغير حسان،
فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ؛

(١) صفحة النبي؛ جانبه .

أدلتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين ؟

لا ، لا صن سرك في صدرك ، وابق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا
حديثاً واحداً عن آمالنا وامانينا ، حتى لا تفجعنا في ارواحنا ونفوسنا
فإنما نحن احياء بالآمال وإن كانت باطلة ، وسعداء بالأمانى وان كانت
كاذبة .

وليست حياة المرء إلا امانيا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

★

الكأس الاولى

كان لي صديق احبه واحب منه سلامة قلبه وصفاء سريره وصدقته ووفائه في حالي بعده وقربه ، وغضبه وحلمه وسخطه ورضاه ، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات ، فانا اليوم ابكيه حياً اكثر مما كنت ابكيه لو كان ميتاً ، بل انا لا ابكي إلا حياتاه ، ولا اتمنى إلا ممانه ، فهل سمعت باعجب من هذه الخلة الغريبة في طبائع النفوس !

علقت حبالى بجباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفني ، ثم سلك سبيلا غير سبيله فانكرته وانكرني ، حتى ما امر بباله ، لأن الكأس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها ، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعاً إذا تراءيت فيها لأنه اذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت القاه بها في فاتحة حياته الجديدة ، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعاده التي يتخيلها ان يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال .

ثم لم أعد اعلم من امره بعد ذلك شيئاً ، لأن حياة المدمنين حياة متشابهة

متأثلة ، لا فرق بين صباحها ومساءنها وأمسها وغدها ؛ ذهب الى الحانات فشراب ، فخمير^(١) فنوم فذهاب ، كالحلقة المفرغة ، لا يدري اين طرفاها ، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن ، حتى ان بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها ، وكان أخرى ان يوقظه دورانها .

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلا من قلبي الا بعد ان سكنت دورته ، وهدأت حرركه ، فلم اعد أراه معربداً في الحانات ، ولا مطرحة في مدرج الطرق ، ولا معتقلا في أيدي الشرط^(٢) . هناك سألت عنه فقيل لي : مريض ، فلم اعجب لشيء كنت اعد له الايام والاعوام ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب .

دخلت عليه اعوده فلم اجد عنده طبيباً ولا عائداً ، لانه فقير ؛ والاطباء يظهرن الرحمة بالفقراء ، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء ؛ والاصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير .

دخلت منزله فلم اجد المنزل ولا صاحبه ، لاني لم اجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف باجنحته في غرفه وقاعاته ، ولم أر دخان المطبخ ؛ ولم اسمع ضوضاء الخدم ، ولا بكاء اطفال ؛ ولا رنين الاجراس ؛ فكأنني دخلت القبر ازور الميت ، لا المنزل اعود الحي .

(١) الخمر : صداد الشراب .

(٢) الشرط : اعوان الأمير ، ومفرده « شرطي » بضم الشين وسكون الراء .

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق
منه الا إهاب^(١) لاصق بعظم ناحل ؛ فقلت : أيها الخيال الشاخص
بيصره الى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك ان
تدلني عليه ؟ فبعد لأي ما^(٢) حرك شفتيه وقال : هل اسمع صوت فلان ؟
قلت : نعم ، مم تشكو ؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها اضلاعه واجاب :
اشكو الكاس الاولى ، قلت : أي كاس تريد ؟ قال : اريد الكاس التي
اودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي ، وها أنا ذا اليوم اودعها حياتي ؛
قلت : قد كنت نصحتك ووعظتك ، وانذرتك بهذا المصير الذي صرت
اليه فما اجديت عليك شيئاً ، قال : ما كنت تعلم حين نصحتني من
غوائل هذا العيش النكد اكثر مما اعلم ، ولكنني كنت شربت الكاس
الاولى فخرج الامر من يدي .

كل كاس شربتها جنتها عليّ الكاس الاولى ، أما هي فلم يجنّها عليّ
غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك الاصدقاء والخلطاء .

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في
الانقياد اليها كما يعذر في الانقياد الى غيرها من الشهوات الغريزية ؛ فلا
سلطان لها عليه الا بعد ان يتناول الكاس الاولى . فلم يتناولها ؟ يتناولها
لان الخونة الكاذبين من خلانه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرها
ليستكملوا بانضمامه اليهم لذتهم التي لا تتم الا بقراع الكئوس وضوضاء
الاجتماع . ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه

(١) الإهاب : الجلد . (٢) يقال « فله بعد لأي » أي إبطاء ، و « ما » زائدة .

وأى ذريعة تذرعوها بها الى ذلك؛ لتحققت انه ابله الى النهاية من البلاهة،
وضعيف الى الغاية التي ليس وراءها غاية .

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف ، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء ،
وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان .

قالوا : ان حياتك حياة هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه الأدواء الا
الشراب ، وقالوا : ان الشراب يزيد في رونق الجسم ، ويبعث نشاطه ،
وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان ، وانه يشجع الجبان ، ويبعث في
القلب الجرأة والإقدام ، هذا ما سمعته فصدقته وخذعت به .

صدقت ان في الشراب أربع مزايا : السعادة، والصحة ، والفصاحة،
والإقدام ؛ فوجدت فيه أربع رزايا : الفقر ، والمرض ، والسقوط ،
والجنون .

غرم من الصحة ذلك اللون الأحمر ، الذي يتركه الشراب وراءه في
الأعضاء . وهو يتغلغل في الأحشاء ، ومن الفصاحة المنذر والمهذيان ،
وهجر^(١) القول وبذاءة اللسان ، ومن الإقدام العريضة التي لا تسكن الا
في غرفة السجن ، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل
الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الاشياء كما هي ، فتنعكس في
نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة^(٢) والصفع تحية ، فيضحك من

(١) الهجر : الفحش .

(٢) الطرفة : اللعنة المستعنة .

ذلك ما يضحك الاطفال والمرورين^(١) .

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغراً من ثغور ساكنيه؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالحشرات، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات؟ أي سعادة لمن يمشي دائماً في طريقه متلوياً متخلجاً^(٢) يتسرب في المنعطفات والازقة، ويعوذ بالواذ^(٣) الجدر والاسوار فراراً من نظرات الجزار، وتهكمت العطار، وصرخات الخمار .

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من انهم قتلى الادمان لا قتلى الشراب، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه ان لي قدر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أتزل منزلتهم، فلما شربت أخطأ العد، وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به؛ ولولا الكأس الاولى ما هلكت، ولا شكوت الذي شكوت، ولولاها ما عافني الاصدقاء، ولا زهد في الاقرباء، فكانت وحدك صديق السراء والضراء .

فعاهدته على ذلك، ثم تركته في حالة :

تصم السميع وتعمى البصير ويسال من مثلها العافية

(١) المرور : الذي هاجت مرته ، ويطلق على الجنون .
(٢) متخلجاً : متنبهاً
(٣) لوذ الجبل : جانبه ، والجمع : الواذ .

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني ، وعدت الى منزلي كما يعود
القائد المنكسر من ساحة الحرب ، لا أملك الا دمعة لا استطيع إرسالها ،
وزفرة لا استطيع تصعيدها .

ذلك لان الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك
فرزقني بك قبل ان أسأله اياك ، ثم استلبنيك قبل ان استعفيه منك ، قد
أراد ان يتم قضاءه في ، وان يجرعني الكأس حتى ثألتها ، فحرمني حتى
دمعة أرسلها او زفرة اصعدها ، حتى لا اجد في هذه ولا تلك ما أتفرج
به مما أنا فيه ، فله الحمد راضياً وغازباً ، وله الشناء منعماً وسالماً ، وله
مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه .

رأيتك يا بني في فراشك عليلاً فجزعت . ثم خفت عليك الموت
ففزعت وكاننا كان يخيل اليّ ان الموت والحياة شأن من شئون الناس
وعمل من الاعمال التي تملكها أيديهم ، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب

لي الدواء ، ووعدني بالشفاء ، فجلست بجانبك اصب في فمك ذلك السائل
الاصفر قطرة قطرة ، والقدر ينتزع من جنبك الحياة قطعة قطعة ،
حتى نظرت فإذا انت بين يدي جثة باردة لا حراك بها واذا قارورة
الدواء لا تزال في يدي . فعلمت أني قد ثكلتك ! وان الامر امر القضاء ،
لا امر الدواء .

سانام يا بنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج مني
المقدار ما عالج منك ، واحسب ان آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك
الساعة من شئون الحياة واطوارها ؛ وخطوبها واحداثها : هو الندم
العظيم الذي لا ازال أكابد ألمه على تلك الجرعة المريرة التي كنت اجرعك
اياها بيدي وانت تجود بنفسك ، فيربد وجهك ، وتختلج اعضاؤك ،
وتدمع عينك ، وما لك يد فتستطيع ان تمدّها اليّ لتدفعني عنك ، ولا
لسان فتستطيع ان تشكو اليّ مرارة ما تذوق .

لقد كان خيراً لي ولك يا بني ان أكل الى الله أمرك في شفائك
ومرضك ، وحياتك وموتك ، وألا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك
لهذه الدنيا تلك الآلام التي اجشمك اياها ، فلقد اصبحت اعتقد انني
كنت عوناً للقضاء عليك وان كأس المنية التي كان يحملها لك القدر في يده
لم تكن أمر مذاقاً في فمك من قارورة الدواء التي كنت احملها لك في يدي .
ما اسمج وجه الحياة من بعدك يا بني ! وما اقبح صورة هذه
الكائنات في نظري ! وما اشد ظلمة البيت الذي اسكنه بعد فراقك اياه !
فلقد كنت تطلع في ارجائه شمساً مشرقة تضيء لي كل شيء فيه ، اما

اليوم فلا ترى عيني مما حولي أكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك .
بكى الباكون والباقيات عليك ما شاءوا ، وتفجعوا ما تفجعوا ،
حتى اذا استنفدوا ماء شئونهم ، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما
احتملوا ، لجأوا الى مضاجعهم فسكنوا اليها ، ولم يبق ساهراً في ظلمة
هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين : عين أيبك الثاقل المسكين ،
وعين أخرى انت تعلمها .

لقد طال عليّ الليل حتى مللته ، ولكنني لا أسأل الله ان ينفرج لي
سواده عن بياض النهار ، لأن الفجيرة التي فجعتها بفقدك لم تبق بين
جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك ، فليت الليل باق حتى
أرى وجه النهار ، بل ليت النهار يأتي ، فقد مللت هذا الظلام .

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك ، ودفنت من قبلكم
خويكما فانا في كل يوم استقبل زائراً جديداً ، واودع ضيفاً راحلاً ..
ياالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقي القلوب ، واحتمل فوق ما تحتمل من
فوادح الخطوب .

لقد افتلذ كل منكم يا بني من كبدي فلذة فأصبحت هذه الكبد الخرفاء
مزقاً مبعثرة في زوايا القبور ، ولم يبق لي منها الا دماء قليل لا احسبه
باقياً على الدهر ، ولا احسب الدهر تاركه دون ان يذهب به كما ذهب
بأخواته من قبل .

لماذا ذهبت يا بني بعد ما جئتم ؟ ولماذا جئتم ان كنتم تعلمون انكم
لا تقيمون ؟

لولا مجيئكم ما اسفت خلو يدي منكم ، لأنني ما تعودت ان تمتد عيني
الى ما ليس في يدي ؛ ولو انكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعت هذه الكاس
المريرة في سبيلكم .

لقد كنت أَرْضَى من الدهر في أمركم ان يتحزح لي عن طريقي التي
اسير فيها ، وان يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني ، ولا يحسن اليّ ولا
يسوء ولا يتقدم اليّ بخير ولا شر ، ولا يتراءى لي مبتسماً ، ولا مقطباً ،
ولا ضاحكاً ، ولا باكياً ، لو انه رضى مني بذلك ؛ ولكنه كان أذكى
قلباً ، وانفذ بصراً ، من ان يفوته العلم بأنني ما كنت أبكي على النعمة
لو لم تكن في يدي ، وما كنت اجد مرارة فقدانها لو لم أذق حلوة
وجدانها ، وكان لا بد له ان يجري في سنة الشقاء التي اخذ على نفسه ان
يجريها في الناس جميعاً ، فلما عجز عن ان يدخل اليّ من باب الطمع ،
دخل اليّ من باب الأمل ، فهو يمنحني المنحة فأغتبط بها حقبة من الدهر ،
حتى اذا علم ان بذرة الأمل التي غرسها قد نمت وازدهرت وانني قد
استعذبت طعمها واستطبت مذاقها ، كر عليّ فاتترعها من يدي انعم ما
اكون بها ، كما تنزع الكاس الباردة من يد الظامء الهيمان ، ليعظم وقع
السهم في كبدي ، ويفدح سلب النعمة من يدي ، ولولا ذلك ما نال مني
منالاً ، ولا وجد اليّ سبيلاً .

يا بني ، ان قدر الله لكم ان تتلاقوا في روضة من رياض الجنة ، او
على شاطئ غدير من غدرانها ، او تحت ظلال قصر من قصورها
فاذكروني مثل ما اذكركم ، وقفوا بين يدي ربكم صفواً واحداً كما يقف بين

يديه المصلون ومدوا اليه اكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون ، وقولوا له :
اللهم انك تعلم ان هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه ، وقد فرقت
الايام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا شقاء الحياة وبأسائها ما لا
طاقة له باحتماله ، ولا تزال نجد بين جوارحنا من الوجد به ، والحنين
اليه ، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي تنعم بها في جوارك بين سمعك
وبصرك ، وانت أرحم بنا وبه من ان تعذبنا عذاباً كثيراً ، فلما ان
تاخذنا اليه او تأتي به الينا .. لا ، بل لا تطلبوا منه الا ان يأتي بي اليكم .
فإن الحياة التي كرهتها لنفسي لا أرضاها لكم ، فعسى ان يستجيب الله
من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فنلتقي
كما كنا .



مناجاة القمر

أيها الكوكب المظل من علياء سمائه . أنت عروس حسناء تشرف
من نافذة قصرها ، وهذه النجوم المبعثرة حوالياك قلاند من جان ؟ أم
ملك عظيم جالس فوق عرشه ، وهذه النيرات حور وولدان ؟ أم فص
من ماس ما يتلألا ، وهذا الافق المحيط بك خاتم من الانوار ؟ أم مرآة
صافية ، وهذه الهالة الدائرة بك إطار ؛ أم عين ثرة ثجاجة ؟ وهذه
الاشعة جداول تتدفق ؟ او تنور مسجور ؛ وهذه الكواكب شرر يتالق ؟!

أيها القمر المنير :

إنك أنرت الارض : وهادها ونجادها ، وسهلها ووعرها ، وعامرها
وغامرها ؛ فهل لك ان تشرق في نفسي فتنير ظلمتها ، وتبدد ما اظلمها
من سحب الهموم والاحزان ؟

أيها القمر المنير :

ان بيني وبينك شبيها واتصالا ؛ انت وحيد في سمائك ، وأنا وحيد

في ارضي كلانا يقطع شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزيناً ، لا يلوي على احد ولا يلوي احد عليه ، وكلانا يبرز للآخر في ظلمة الليل فيسايره ويناجيه ، يراني الرائي فيحسبني سعيداً ، لأنه يغتر بابتسامة في ثغري ، وطلاقة في وجهي ، ولو كشف له عن نفسي ورأى ما تنطوي عليه من الهموم والاحزان لبكى لي بكاء الحزين إثر الحزين ؛ ويراك الرائي فيحسبك مغتبطاً مسروراً ، لأنه يغتر بجمال وجهك ولعنان جبينك ، وصفاء أديمك ، ولو كشف له عن عالمك لراه عالماً خراباً ، وكوناً يباباً ، لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر ، ولا ينطق إنسان ، ولا ييغم حيوان .

أيها القمر المنير :

كان لي حبيب يملأ نفسي نوراً ، وقلبي لذة وسروراً ، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك ، وقد فرق الدهر بيني وبينه ، فهل لك أن تحدثني عنه ، وتكشف لي عن مكان وجوده ؟ فربما كان ينظر إليك نظري ، ويناجيك مناجاتي ، ويرجوك رجائي .

وهانذا يخيل إليّ أني أرى صورته في مرآتك ، وكأنني أراه يبعثني من أجلي كما أبكي من أجله ، فأزداد شوقاً إليه ، وحنناً عليه .. فابق في مكانك طويلاً تطل وقفنتنا ، ويدوم اجتماعنا .

أيها القمر المنير :

مالي أراك تنحدر قليلاً قليلاً الى مغربك كأنك تريد ان تفارقني ،

ومالي أرى نورك الساطع قد أخذ في الانقباض شيئاً فشيئاً ، وما هذا
السيف المسلول الذي يلمع من جانب الافق على رأسك ؟

قف قليلاً ، لا تغب عني ، لا تفارقني ، لا تتركني وحيداً ، فإنني
لا أعرف غيرك ، ولا أنس بمخلوق سواك .

آه ، لقد طلع الفجر ، ففارقني مؤنسي ، وارتحل عني صديقي ، فتى
تنفضي وحشة النهار ، ويقبل إلي أنس الظلام !!

★

أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يراها مرة واحدة في حياته ، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صورة البشر ، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فأحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب : فانشأ يفتش عنها بين سمع الارض وبصرها أعواماً طوالاً حتى وجدها .

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأنني أنا ذلك الفتى بعينه ، لا فرق بيني وبينه الا انه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة ، وأنه فتش عنها فوجدها ، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت اليها سبيلاً .

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً في أثواب بائع وجدته يبيعني بدينارين ما ثمنه دينار واحد ، فعلمت انه سارق للدينار الثاني ، ولو وكل اليّ أمر القضاء ما هان عليّ أن أعاقب لصوص

الدرهم ، وأغفل لصوص الدنانير ، ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه .

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ، ولكنني أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذي يستحقه على ما بذل من جهد في جلب السلعة وما أنفق من راحته في سبيل صونها واحرازها ، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه : أن الأول بدل الجد والعمل والثاني بدل الغش والكذب .

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه ، أما انصاف المظلوم والضرب على يد الظالم . وأراحة^(١) الحقوق على أهلها وانزال العقوبات منازلها من الذنوب : فهي عنده ذبول وأذئاب لا يابه^(٢) لها ، ولا يحتفل بشأنها الا اذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً ، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم ، ودان البريء وبرأ المجرم ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرتة اليه حكم القانون عليه . كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون ، وما القانون الا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه .

فتشت عن الفضيلة في قصور الاغنياء فرأيت الغني اما شحيحاً او

(١) أراح الحق على امه : أعاده اليهم . (٢) أبه للشيء : تفتن له واحتفل .

متلافاً ؛ اما الاول فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل انينها وانين ولديها من الجوع ما مدّ اصبعيه الى اذنيه ثقة منه ان قلبه المتحجر لا تنفذه اشعة الرحمة، ولا تمر بين طياته نسمات الإحسان، واما الثاني : فماله بين الثغرين : ثغر الحسنة ، وثغر الصبياء ٠٠ فعلى يد اي رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الاغنياء ؟

فتشت عنها في مجالس السياسة، فرأيت ان المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط : الفاظ مترادفة معناها الكذب ، فرأيت ان الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربته ، لا فرق بينهما الا ان هذا ينقض (تعريفته) ، وذلك ينقض معاهدته ، ورأيت ان اعدى عدو للإنسان الإنسان ، وان كل امة قد اعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله ان تعده لاختها من الموت وافانين العذاب حتى اذا وقع الحثيف بينها على حد من الحدود او جدار من الجدران ، لبس الإنسان فروة السبع واتخذ له من تلك العمد الوحشية اظفاراً كأظفاره وأنياباً كانيابه ، فشعد الاولى وكشر عن الاخرى ثم هجم على ولد ابيه وأمه هجمة لا يعود منها الا بنفسه التي بين جنبيه، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما ؟ وعلام تقتلان ؟ وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ؟ ومتى ابتدأت الخصومة بينكما ، وعهدي بكما ما أنكما ما تعارفتما الا في الساعة التي اقتتلتما فيها ؟ لعرفت انها مخدوعان عن تقسيبها ، وأنها ما خرجا من ديارهما ليضعا درة في تاج الملك ، او نيشاناً على صدر القائد .

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم - الا من رحم الله - يتجرون بالعقول في اسواق الجهل ، ورأيت كلا منهم قد ثغر له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها الى الاخلاق فيفسدنا ، والمشاعر فيقتلها ، ليتوسل بذلك الى الذخائر فيسرقها ، والخزائن فيسلبها .

فتشت عنها في كل مكان اعلم انه تربتها وموطنها فلم اعثر بها ، فليت شعري هل اجدها في الحانات والمواخير ، او في مغارات اللصوص ، او بين جدران السجون .

سيقول كثير من الناس : قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره ، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الكثير من الناس صدراً رحباً ، ومورداً عذباً ؛ وإني قائل لهم قبل ان يقولوا كلمتهم : إني لا انكر وجود الفضيلة ، ولكني اجهل مكانها ، فقد عقد رياء الناس امام عيني سحابة سوداء اظلم لها بصري ، حتى ما اجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ، ولا كوكباً طالعاً .

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها ، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الاذكياء والاغنياء ، ومظهر يخدع اسوأ الناس بالناس ظناً ، فمن لي بالوصول اليها في هذا الظلام الحالك ، والليل الأليل ؟

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها ، فسعادتي فيها ان اعثر في طريقي في يوم من ايام حياتي بصديق يصدقني الود واصدقه ، فيقنعه مني ودي وإخلاصي دون ان يتجاوز ذلك الى ما وراءه من مآرب واغراض ، وأن يكون شريف

النفس فلا يطمع في غير مطمع ، شريف القلب ، فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً. ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره؛ شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ، ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر^(١) .
شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ، ولا يبغض غير الرذيلة .
هذه هي السعادة التي اتمناها ولكني لا اراها .

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها ، وترن اطيوارها ، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وازهارها ، انسياب الافاعي الرقطاء ، في الرمال البيضاء ، وأرى انامل النسائم تعبت بمنشورها الاوراق ، عبت الهوى بالباب العشاق ، واسمع ما بين صفير البلابل ، وخير الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان، ما لا تبلغ اوتار العيدان، فلا يسرني منها منظر ، ولا يطربني مسمع ؛ لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي انشدها .

لقد سمع وجه الرذيلة في عيني ، وثقل حديثها في مسمعي ، حتى اصبحت اتمنى ان اعيش بلا قلب فلا اشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وحرزها .

ولولا بنيات صغار يفقدون بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق الى ذلك العالم الصامت ، فأجد من الأنس به والسكون اليه ما وجدته الذي يقول :

عوى الذئب فاستانست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكادت اطيير

(١) الهجر : الفحش .

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيتُه واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو الماء ، فرثيت لحاله وسالته : ما باله ؟ فشكا إليّ الجوع ، ففثاته ^(١) عنه ببعض ما قدرت عليه ، ثم تركته وذهبت الى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة ، فأدهشني أي رأيتُه واضعاً يده على بطنه ، وانه يشكو من الالم ما يشكو ذلك البائس الفقير ، فسالته عما به فشكا إليّ البطنة ، فقلت : يا للعجب ! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منها سقماً ولا ألماً .

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ، ويطفىء غلته ؛ ولكنه كان محباً لنفسه ، مغالياً بها ، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة ، حتى لا يهنا للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه . وهكذا يصدق المثل القائل : بطنة الغني انتقام لجوع الفقير .

(١) يقال : فثات فلاناً عن فلان ، إذا سكنت غيظه عليه .

ما ضنت السماء بمائها ، ولا شحت الارض بنباتها ، ولكن حسد القوي الضعيف عليها فزواهما^(١) واحتجتها^(٢) دونه ، فأصبح فقيراً معدماً ، شاكياً متظلماً ، غرماؤه المياسير الاغنياء ، لا الارض والسماء .

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس . فاستطيع ان اتصور كما يتصورون ، حجة الاقوياء في أنهم أحق بإحراز المال ، واولى بامتلاكه من الضعفاء ؛ إن كانت القوة حجتها عليه ، فلم لا يملكون بهذه الحججة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب اموالهم ؟ وما الحياة في نظر الحي بائس قيمة من اللقمة في يد الجائع . وإن كانت حجتها أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم : إن كانت الابوة غلة الميراث فلم ورثتم آباؤكم في اموالهم ولم ترثوهم مظالمهم ؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاعتصبوا ذلك المال من الضعفاء ، وكان حقاً عليهم ان يردوا اليهم ما اغتصبوا منهم ، فإن كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال الى آربابه ، لا في الاستمرار على اغتصابه .

ما أظلم الاقوياء من بني الإنسان ، وما أقسى قلوبهم ، ينام اخدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ، ولا يقلقه في مضجعه انه يسمع أنين جاره ، وهو يرعد برداً وقرأ ، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه . أن بين أقربائه وذوي رحمة من تتوائب أحشاؤه شوقاً الى فتاة تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها . بل ان بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء

(١) زرى عنه حقه ؛ منعه اياه .

(٢) احتجن الشيء ؛ اذا جذبته بالمجن الى نفسه ؛ والمجن الصولجان ، والمراد انه استأثر به .

لسانه ، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الاثاث والريش ، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض اليه حياته وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته : أنا سعيد لاني غني ، وانت شقي لانك فقير .

أحسب لولا أن الاقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم ، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مرآكبيهم، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم ، لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها .

لا أستطيع ان أتصور ان الانسان انسان حتى أراه محسناً ؛ لاني لا أعمد فصلاً صحيحاً بين الانسان والحيوان الا الاحسان ، واني أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن الى غيره ليتخذ احسانه اليه سبيلاً الى الاحسان الى نفسه ، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الاحسان الا انه يستعبد الانسان ؛ ورجل يحسن الى نفسه ولا يحسن الى غيره وهو الشره المتكالب الذي لو علم ان الدم السائل يستحيل الى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً ؛ ورجل لا يحسن الى نفسه ولا الى غيره وهو البخيل الاحق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه ؛ وأما الرابع : وهو الذي يحسن الى غيره ، ويحسن الى نفسه ، فلا أعلم له مكاناً ، ولا أجد اليه سبيلاً ، واحسب انه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني « ديوجين الكلبي » حينما سئل : ما يصنع بمصباحه ؟ وكان يدور به في بياض النهار ، فقال : « افتش عن انسان » .

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنني امشي في قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجمدة تجعد الامواج المتكسرة على سطح القاموس^(١) المحيط وكانت الشمس قد طفلت^(٢) للإياب فلم أر في بطحائها ظلا غير ظلي المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطات في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر^(٣) فأوسعتني طولا ورسمتني ميلا .

أنشأت أمشي لا اعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، وانى يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها . وتشاكت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس الى مستقرها : وطار طائر الليل من مكمنه . ونشر الظلام اجنحته السوداء في الافق حتى وجدتني احير من دمة وجد في مقلة عاشق ؛ يدفعها الحب وينمها الحياء ، ولا اعلم هل

(١) القاموس : وسط البحر ومعظمه . (٢) طفلت الشمس : احرمت للغروب .
(٣) ربما لم يكن آدم أطول من ينيه قامة ، ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهني على حد قوله تعالى (كأنه رؤوس الشياطين) .

أنا سر كامن في باطن الظلماء ، او حوت مضطرب في اعماق الماء .
وأحياناً كان يخيل اليّ اني في منجم من مناجم الفحم فأمد يدي أتلمس
جدرانها مخافة ان اصطدم بواحد منها ؛ ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن
الظلام قد بدا ينفذ صبغته . وان ذراته تتطاير ههنا وههنا ؛ فإذا انابن
يدي جبل عال كأنما هو جدار قائم يمسك السماء ان تقع على الارض ، او
ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الاحمر ، ومن شعاعها الرداء
الاصفر .

ولا تسل هنالك عما ألم بقلبي من الهم وعقلي من الخبال ؛ حيناً رأيت
ان صعود السماء اقرب الى الامل ، من صعود هذا الجبل ، وحررت بين
الاقدام والاحجام ، فلم ار بد من الاستسلام لمقدور الحمام ، ثم رميت بطرفي
فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة اللمس ،
فاضطجعت عليها وانا اتمثل بقول ابي العلاء ؛

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد

وما هي إلا غمضة الطرف ان اشعرت بانها تتحرك قليلاً قليلاً ، ثم
استقلت ثم طارت ، فكذت احسب انه الموت قد نزل ، وانها الروح تصعد
الى الملا الأعلى .. لولا ان فتحت عيني فرأيت ما كنت احسبه صخرة
طائراً اشبه شيء بالنسر في خلقه والقبه في ضخامتها واستدارتها ، واستمر
ذاهباً بي في افق السماء ، ثم رنق لحظة في الهواء ثم هبط الى قبة الجبل
فأسرعت بالانحدار عنه وهنالك احسست بسلسبيل بارد من الامل
يتسرب الى قلبي فينتقع غلته . ويطفيء لوعته ، لانني رأيت السطح الثاني

ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران .

رأيت على البعد خطوط الحضرة حول سطور الماء ورأيت الاكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كأنها العصافير السوداء ، والحمام البيضاء ، وكان ما ألم بنفسي من السرور انساني ما ألم بجسمي من النصب فأنحدرت اليها فما بلغت حتى رأيتني في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابها شيخ هو اشته الاشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صور سكان المريخ ، فذعر مني كما يذعر الانسان لرؤية الجان ، وما كان الذي قام في نفسه مني باكثر مما قام في نفسي منه ، لولا اني الفت الغرائب ، وعجمت عود العجائب فتقدمت نحوه وكأننا الهمت لغته ، فحييته بها فحياني وهو يقول: ما كنت احسب ان الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة ، أو أن في العالم إنساناً غير هذا الانسان ؛ فما زلت احده واستدنيه حتى أنس بي ودعاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأهله وقدم لي طعاماً شهيماً ومهد لي مرقداً وثيراً^(١) . وكان الليل قد اقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه، فنمت نوماً هادئاً مطمئناً لا تروعي فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك .

استيقظت انا والشمس من مرقدنا على صوت تلك الأبرة الطاهرة الكريمة تصلي الى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفة صفاً واحداً ان ييسر لها الله عسرها ، ويسهل أمرها ، ويصلح شأنها ، ويمنحها معونته ونصره؛ فأخذ منظرها هذا من نفسي مأخذاً عظيماً فلم اربداً من

(١) الوثيد : الواطيه .

الانتظام في صفها ، والدعاء بدعائها والبكاء لبكائها ؛ وعجبت ان يكون مثل هذا الايمان الخالص راسخاً في نفوس اهل هذه المدينة ، ولم يرسل إليها رسول ، ولم ينزل عليها كتاب ؛ فلما فرغنا من الصلاة التفت الى صاحب البيت وقلت له : أراكم تتعبدون ، فن تعبدون؟ وتصلون ، فمن الذي تدعون ؟ قال : نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها ؛ قلت : هل رأيتموه حتى عرفتموه قال نعم رأيناه في آثاره ومصنوعاته ؛ رأيناه في السماء والماء ، والفلك الدائم والنجم السائر ، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات ؛ ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك ؛ قلت : ولم تعبديونه ؟ قال : شكراً له على نعمة الخلق والرزق ، وان أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن اليه بجرعة او انعم عليه بمضغة ؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين ، والمحسن الى المحسنين ؛ فقلت في نفسي : لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين ، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، ثم سألته اين تذهبون بعد الموت ؟ قال : الى النعيم المقيم أو العذاب الأليم ؛ قلت : لعلك تريد الجنة والنار ؟ قال : لا افهم ما تقول ، وانما اعلم ان الإله الحكيم لا يترك المحسن دون ان يجازيه خيراً على إحسانه ، كما يابى عدله ان يسوي بين المحسن والمسيء ؛ قلت : متى يكون المحسن محسناً والمسيء مسيئاً ؛ قال : الاحسان عمل الخير ؛ والاساءة عمل الشر ؛ لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالاضرار بأخيه ، او من يقصر في دفع الأذى عنه ؛ فقلت في نفسي ليت الفقهاء الذين ينفقون اعمارهم في الحيض

والاستحاضة والمذي والودي^(١) والحدث الأكبر والحدث الأصغر . وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيرها والجواهر والعرض والحدوث والقدم، والدور والتسلسل؛ وليت المتصوفة الذين يحاولون ان ينازعوا الله مشيئته ويحاذبوه قدرته ، ويغالبوه على امره ونهيه ويزاحموه في لوحه وقلمه - يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار ، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار ، ولا يميزون بين الدين والتين .

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ ان يزيرني في المدينة . فانحدر بي اليها؛ فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة ؛ ورأيت سكانها مكبين على اعمالهم ، مجدين في شؤونهم . . صغاراً وكباراً .. رجالاً ونساء .. ما فيهم فقير يتسول .. ولا متبطل يتثائب ويتململ؛ واغرب ما استهوى نظري انني لم ار في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي اعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم .. ومطاعمهم ومشاربهم، وحياتهم وازياتهم، كان جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسالت الشيخ: ألا يوجد فيكم غني وفقير، وسيد ومسود؟ قال: لا يا سيدي، حسب الرجل من بيت يؤويه، ومزرعة تقيته ودابة تحمل اثقاله ، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك ، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لانه لا يوجد فينا غني وفقير. قلت لا بد ان يكون بينكم العاجز عن العمل والمتعطل الكسلان ! قال : اما الكسلان

(١) المذي والودي : فرعان من الماء الذي يخرج من القضيب

فلا وجود له بيننا ، لأنه يعلم اننا لانرحمه ولا نغفر له ذلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلها عن العمل ، واما العاجز فنحذب عليه ونحسن اليه ، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلا لأننا انما نمنحه جزءاً من القوة التي منحنا الله إياها لتعبده بها ، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواسة العاجزين ، ورحمة البائسين .

وانه ليحدثني بهذا الحديث اذ لاحت لنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من النبي بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ: هل أرى قصر الملك، قال لا ، ولكنه قصر رجل شريف طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتجج^(١) دون عباده أرضهم ومألم ليعلو عليهم ، ويستأثر بالنعمة من دونهم ، فغضب الله عليه ، وقلب نعمته تقمة ، ورخاءه شدة ، فإنه مسا أراح^(٢) رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه الى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها فما هو ذا اليوم يقاسي من آلام الامراض وأنواع الاسقام ما بغض اليه العيش ، وحبب اليه الموت : لم يحمه قصره ، ولم يغني عنه ماله ، فهو عبرة للمعتبرين ، وموعظة السابلة^(٣) ؛ فكبر الرجل في ذرعي^(٤) وعظم في عيني ، وأكبرت فيه وفي امته هذه الخلال الشريفة ، والأخلاق العالية؛ وقلت في نفسي ان مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة واصول التربية وفنون الآداب ، لتعجز عن ان تخرج للناس رجالاً يستطيعون ان يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم ؛

(١) احتجج المال : ضمه واحتراه . (٢) اراح فلان الشيء : وجد ريجه .

(٣) السابلة : المختلفون على الطرقات في حوائجهم .

(٤) كبر في ذرعي : عظم وقمه هندي .

وأردت - على ذكر المدارس - ان اعرف متاهج التعليم عندهم فقلت للشيخ : هل لك ان تزيروني مدرسة من مدارسكم ؟ فعجب لسؤالي وقال : ما المدرسة ؟ فكان عجيبي لجوابه اكثر من عجبه لسؤالي وقلت : المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون ؛ قال : ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار ؟ قلت : ما يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم ومياعدهم ؛ قال : وأي حاجة بنا الى مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود ؟ إنا يا سيدي ارحم بابنائنا من ان نكل امرهم الى غيرنا . فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم . فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع ؛ نعلمهم فيها كيف يرمون البذور .. وكيف يستنبتونها .. وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها .. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدّون عددهم .. وإنا لا نعرف علما غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا .. ونستعين به على عبادة ربنا . قلت لكم حاكم يتولى اموركم ؟ قال لنا : حكم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته .. فاخترناه لفصل الخصومات ان عرض لنا من ذلك عارض . قلت : اليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ احكامه ؟ قال كلنا جنده وكلنا واعوانه على كل من يختلف عليه او يتمرّد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وحسبنا ذلك وكفى .

قلت : اليس له سجنًا يسجن فيه المجرمين ؟

قال : لا .. حسب المجرم عندنا عقوبة ان يتفق اهل المدينة على احتقاره والزراية به .. وان احدنا لا يؤثر ان يتخطفه الطير او يسقط

عليه كسف^(١) من السماء على ان يرى نفسه بغيضاً الى قومه صغيراً في نفوسهم ذليلاً في اعينهم . . لا يرفعون اليه طرفاً ولا يقيمون له وزناً . وما وصلنا من حديثنا الى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا الى المنزل الذي خرجنا منه . . فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق . . فلم ار فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتاً اسعد حظاً ولا انعم عيشاً ولا اروح بالا من هذا البيت .

تلك هي « مدينة السعادة » التي يعيش اهلها سعداء لا يشكون همأ . . لأنهم قانعون . ولا يمسكون في أنفسهم حقداً . . لأنهم متساوون ؛ ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون .

تلك « مدينة السعادة » التي رأيتها فأحببتها وأحبيت العيش فيها . . لولا ان الله في خلقه سنة لا تتبدل . . وشأننا لا يتحول . . فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقدي في منزل الشيخ فلم استيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي ؛ فلا السهل ولا الجبل . . ولا الشيخ ولا المزرعة . . ولا المدينة ولا السعادة :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى^(١) أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجد لنا طيب المكان وحسنه متى فتمنينا فكنت الأمانيا

(١) الكسف القطمة .

(١) طل امطره الطل ، وهو المطر القليل .

أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك اخذت على الدهر عهداً ان يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك.. وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي؛ فجدير بك ان تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مارب او استعصى عليك مطلب . وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في اخذها وردها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها ، . حتى تكرر عليها راجعة فتستردها .. وأن هذه سنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم . . سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ .. ومن يطأ بنعله هام الجوزاء .. ومن ينام على بساط الغبراء ؛ فخفض من حزنك وكفكف من دمك .. فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان . وما مصابك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان .

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الامل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملاً عينيك نوراً .. وقلبك سروراً ؛ وما هي إلا كرة الطرف انت

افتقدته .. فما وجدته . ولو انك اجملت في املك لما غلوت في حزنك ..
ولو أنت انعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقا خاطفاً .. ما تظنه نجما
زاهراً . وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله .

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها .. ونظر
اليها نظرة المستريب بها .. وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها .. فإن
بقيت في يده فذاك ؛ والا فقد أعدّ لفراقها عدته من قبل .

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت ؛ ولو الوثوق
بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر . ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة
الفراق .

* *

الى الدير

مسكين ذلك الفتى الذي رأيتَه صباح أمس منزوياً في ركن من
الأركان في احد الاندية وقد ظلمت جبينه الوضاح سحابة سوداء من
الحزن ، وانحنى على نفسه كأنما هو يشعر ان قلبه يتنزي في صدره وأنه
يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه ، ولو أنه اراد
بنفسه خيراً لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء، فبعداً لقلب لا يسكن
عن الحفقان ولا يفيق من الهموم والاحزان .

سألته : ما بالك ايها الصديق ؟ قال : لا شيء ؛ قلت : انت تكتمني
ما في نفسك ، ولو عرفتني ما كتمتني ، قال : ما جهلتك مذ عرفتك ،
ولكنني أعطيت الله تعالى عهداً مذ خلقت ألا اشكو الا من ارجو عنده
البرء ، وما انا براج عندك ولا عند احد من الناس براءاً من دائي ، قلت :
هيني طبيبياً ، والطبيب وان كان لا يشفي الا نادراً فإنه يسكن غالباً
ويعزي دائماً . فان انا عجزت عن معالجتك فلن اعجز عن تمزيك ، على

ان الماء اذا اشتد غليانه احتاج الى التنفيس عنه ، والا طار بالقدر ،
طيران الهم بالصدر .

فاصنعى الى كلماتي واستخذى لها وأنشأ يحدثني حديثاً تمازجه العبارات
وتقطعه الزفرات ، يقول : زوجني ابي منذ سنين من زوجة جاهلة غبية
لا تفهم من معنى الزواج الا فيه قضاء لبانتها وترفيه عيشها وارضاء نفسها
وهو يحسب انه قد احسن اليّ بسليمة المجد، وربيبية النعمة، ومالكة الدور،
وساكنة القصور ؛ اجل انها ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب
عنه - غفر الله له ! - انني ما كنت اريد ان اكون تاجراً اكسب مالا ،
بل زوجاً ، وأن اجد بجانبني نفساً يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها ،
ومرأة صافية تقية أترأى فيها فتريني نفسي كما هي ، لا تكذبني في خير
ولا شر واني اريد ان اجد في الزوجة التي اتزوجها صديقاً في المرتبة العليا
من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى ارضاع طفلها، ولبس
ثوبها اعلى ان ثروتها ما كانت تقوم بم حاجتها؛ فقد كانت لها خادم للابسةا، واخرى
لشعرها واخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ، ومرضع وقهرمانه^(١) وخياطة
خاصة بها ، وطبيب لا يغيب^(٢) عن زيارتها ، ومؤسسات لا يفارقن
مجلسها .. ولم تكن ممن انعم الله عليهن بنعمة الجمال .. فكانت تنفق ما
يزيد عن نصف دخلها في الحسن الجلوب والجمال المكذوب .. وليتها كانت
كانت تغفل أمري وتتركني وشائي فاستطيع ان اتناساها واعد نفسي

(١) القهرمان : الركيل ، أو أمين الدخل والخرج ، جمعها : قهرمانه .

(٢) أغب فلان القوم : إذا جاءهم حيناً بعد حين .

من العذاب تخيلاً وتقديراً، بل كانت تقيم عليّ من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب^(١) المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الإنكليز، يرقبن مواقع نظري ومواطن قدمي، لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي فتغار عليّ من الكواكب إذا رأته انظر إليها.. وتكاد تمزق الثوب الذي تعلم اني احبه وأثره.. وتحسبها آفة الوجد او دمعة اذا رأته اتاوه من آلام عشتها او ابكي لعظم مصيبتني فيها.. وما هي بغيره الحب، ولكنها الاثرة^(٢) قبحتها الله وقبح كل من تأتي به، واكثر ما كان يغيطانني منها: انها ما كانت تفتح عليّ باب الحساب على اللفات والخطوات الا في الساعة التي اريد ان اخلو فيها بنفسي او بكتابي، فما اكاد انتفع بواحد منها. فإن سكت اغضبها سكوتي وان نطقت اغضبها حديثي. وان قرأت في كتابي ظننت ان المؤلفين ما الفوا الكتب الا نكايه بها لاستطيع ان اتخذها معتصماً اعتصم به من محادثتها ومسامرتها.. فكان الكتاب في نظرها اعدى اعدائها وابغض الاشياء اليها، وجملة القول انها ما كانت تستطيع ان تتصور الا ان الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع اطوار حياتها، وانه ما خلقني الا لكون زينة مجلسها ودمية^(٣) قصرها، واداة لهوها ولعبها، فلا اقرأ ولا اكتب ولا اعطي نفسي حقاً من حقوقها، ولا ابكر لمزاولة اعمالها ولا اسام احاديثها الطويلة المملة التي لاتشمل الا على نقد الازياء واغتياب النساء. فإن وافيت فذاك والا

(١) الجحفل : الجيش واللجب : ذو الجلبة والصباح .

(٢) الأثرة : اختيار الشيء والاستئثار به .

(٣) الدمية : الصورة المنحوتة من المرمر .

استحالت في لحظة واحدة من انسان ناطق الى وحش مفترس، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها عليّ. فكنت - بين الم رضاها وعذاب غضبها - في شقاء حبيب اليّ الموت وبغض اليّ وجه الحياة . وبعد : فقد رأيت ان العيش معها مستحيل .. فلم ار بدأ من فراقها ففارقتها وما على وجه الارض شيء ابغض اليّ من المجد .. ولا اسمع في نظري من المال . قلت : ولكني لا ازال اراك حزينا حتى الساعة . قال : نعم لانني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة .. ورحت افتش عن الزوجة المتعلمة وقلت : ليكون لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول .. بعد ما صار اليّ الخيار . وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار .. فهيا لي الحظ جاراً ملاصقاً ما زلت أسمع مذحل في جواربي ان في بيته فتاة جميلة ما زال يعني بأمرها حتى خرجها^(١) وأديها فأصبحت نابغة مدرستها .. وسيدة أترابها علماً وفضلاً وتهذيباً وأدباً . فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباهاً ثم خالطتها .. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها .. فوقعت في نفسي احسن موقع .

* وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل *

خطبت الفتاة الى أبيها فما لبث ان أخطبني^(٢) فامتلاً قلبي فرحاً وسروراً .. وخيل اليّ أنني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً ينير ظلمة

(١) خروج الأستاذ تليذه : مذهبه وعلمه .

(٢) يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه : أي أجابه .

حياتي ، وسجلت ان الدهر أنشأ يكفر بحسناته ما اسلف من سيئاته ؛
فاني لكذلك وقد أعددت للبناء بها عدته ، ولم يبق ييني وبينه الا يوم
واحد ، اذا بالبريد قد هجم عليّ بهذا الكتاب ، فهاكهه فاقرأه ؛ فان فيه
بقية قصتي ، وسر نكيتي . ثم ألقى اليّ بكتاب معنون بإسمه ، ففضضته
فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر
فتاة جميلة وقد ألفت برأسها على كتفه ، ووجدت مع البطاقة كتاباً
فقرأت فيه ما يأتي :

« علمت انك خطبت فلانة الى أبيها وانك عما قليل ستكون زوجها ،
ولعمري لقد كذبتك نظرك ، وخدعك من قال لك انك ستكون سعيداً
بها ، فانها لن تكون لك بعد ان صارت لغيرك ، ولا يخلص حبك الى
قلبها بعد ان امتلاً بحب عاشقها ، فاعدل عن رأيك فيها ، وانفض يدك
منها ، وان أردت ان تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبري
واخلاصي اليك في نصيحتي فانظر الى الصور المرسلة مع هذا الكتاب ؟
التوقيع »

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء ، فاحسست
برعشة تتمشى في اعضائي ، وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري
لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، الا انني تماسكت قليلا ، فاعدت اليه
كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت ان اقول : ماذا يعنيك من أمر فتاة
عاهر بعد ما انكشف لك سرها ، وظهرت لك حقيقتها ، ولو كنت

مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها ، الى الاستغفار من حبيبها ، وحمداً لله
على ما اهتم من صواب الرأي فيها ؛ أما ان سألتني عن رأيي في زواجك
بعد الآن ، فاني لا أرى لك الا ان تترهب وتتعزب ^(١) وان تقول ما قاله
« هملت » وقد زهد في الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيثة
نفسها : « الى الدير .. الى الدير » .

* *

(١) تعزب : أي عاش عزباً لا يتزوج

الرحمة

ساكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر، لأنني أريد ان اخاطب القلب وجهاً لوجه ، ولا سبيل الى ذلك الا سبيل الشعر .
ان البذور تلقي في الأرض فلا تنبت الا اذا حرث الحارث تربتها ، وجعل عاليها سافلها ، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة الا اذا داخلته ، وتخللت اجزائه ، وبلغت سويداءه ، ولا محراث للقلب غير الشعر .
أيا الرجل السعيد : كن رحيماً ، اشعر قلبك الرحمة ، ليكن قلبك الرحمة بعينها .

ستقول : اني غير سعيد ، لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب ، اجل . فليكن ذلك كذلك ، ولكن اطعم الجائع واكس العاري ، وعز المحزون ، وفرج كربة المكروب ، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك واحزانك ، ولا تعجب ان ياتيك النور من سواد الخلك ، فالبدر لا يطلع الا اذا شق

رداء الليل ، والفجر لا يدرج الا من مهد الظلام .

لقد بليت اللذات كلها .. ورثت حبالها .. واصبحت اثقل على النفس
من الحديث المعاد .. ولم يبق ما يعزى الإنسان عنها الا لذة واحدة : هي
لذة الإحسان .

ان منظر الشاكر منظر جميل جذاب .. ونعمة ثنائه وحده اوقع
في السمع من العود في هزجه ورملة^(١) واعذب من نغمات معبد في الثقليل
الأول^(٢) .

احسن الى الفقراء والبائسين ، واعذك وعداً صادقاً انك ستمر في
بعض لياليك على بعض الأحياء الحاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من
حيث لا يعلم بمكانك ، انك اكرم مخلوق ، وأشرف إنسان ، ثم يعقب
الثناء عليك بالدعاء لك ان يجزيك الله خيراً بما فعلت .. فيدعو صاحبه
بدعائه ، ويرجو برجائه .. وهناك تجدم من سرور النفس وحبورها بها
الذكر الجميل في هذه البيئة الحاملة : ما يحده الصالحون اذا ذكروا في
الملا الأعلى .

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون او مفؤود^(٣) فتبتسم
سروراً بيكانك .. واغتياباً بدموعك ، لأن الدموع التي تنحدر على
خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور .. تسجل لك في تلك

(١) المزج والرمل : نوعان من الموسيقى .

(٢) معبد : أحد كبار المثنين في العصر الأموي ، والثقليل الأول : ضرب من ضرب القناء .

(٣) المفؤود : المصاب في فؤاده بألم او غيره .

الصحيفة البيضاء : انك إنسان .

ان السماء تبكي بدموع الغمام .. ويخفق قلبها بلعان البرق .. وتصرخ
بهدير الرعد ، وان الارض تثن بجفيف الريح .. وتضج بأمواج البحر ،
وما بكاء السماء ولا أتين الارض الارحة بالإنسان .. ونحن أبناء الطبيعة
فلنجارها في بكائها وانينها .

ان اليد التي تصون الدموع ، افضل من اليد التي تريق الدماء ، والتي
تشرح الصدور . اشرف من التي تبقر البطون ، فالحسن افضل من القائد
واشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيى الميت . ومن يميت الحي .

ان الرحمة كلمة صغيرة .. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل
ما بين الشمس في منظرها . والشمس في حقيقتها .

واذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم ..
وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء .

لو تراحم الناس لما كانت بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم ..
ولأقفرت الجفون من المدامع .. ولاطمأنت الجنوب في المضاجع . ولحمت
الرحمة الشقاء من المجتمع كما يحو لسان الصبح مداد الظلام .

لم يخلق الله الإنسان ليقتز عليه رزقه . ولم يقذف به في هذا المجتمع
ليموت فيه جوعاً .. بل أرادت حكمته ان يخلقه ويخلق له فوق بساط
الارض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤنثه . ويسد حاجته .. ولكن
سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوي بالضعيف واحتجن
دونه رزقه .. فتغير نظام القسمة العادلة .. وتشوه وجهها الجميل .. ولو

كان للرحمة سبيل الى القلوب لما كان للشقاء اليها سبيل .

الفرد هو المجتمع .. وإنما يتعدد بتعدد الصور .. أتدري متى يكون الإنسان إنساناً ؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه .. فخلق قلبه لخلق القلوب وسكن لسكونها . فاذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها ، انفرد عنها واستوحش من نفسه ، واذا كان الأُنس مأخذ^(١) الإنسان المجتمع .. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع .
وجماع القول انه لا يمكن ان تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الاشقياء في مكان واحد ؛ الا اذا أمكن ان يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشیطان الرجيم .

ان من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل .. فاذا مشى مشى مندفعاً مندكناً^(٢) يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة الحزنة ، واذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه الا الإغراق في الضحك سخريه به وبيداء ثوبه ودمامة خلقه ، وان من الناس من اذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم^(٣) ويمتص دماءهم ، ولا يعاملهم الا كما يعامل شويهاته وبقراته .. لا يطعمها ولا يسقيها الا لما يترقب من الربح في الاتجار بالبائس واصوافها .. ولو استطاع ان يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل .. وان من الناس لا حديث له الا الدينار واين مستقره وكيف الطريق اليه وما السبيل الى حبسه والوقوف في

(١) مأخذ الكلمة : أصل اشتقاقها .

(٢) الدرة : اللين اذا كثرت رسال .

(٣) الدلت : كاندفع .

وجهه والحيلة لفراره .. يبيت ليله حزينا كئيبا لأن خزائنه ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته او يحلم في منامه انه سيأتيه فلم يقيض له ، وأن من الناس من يؤدي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة او يدفع عنها مضرة ، بل لأنه شرير يدفعه طبعه الى ما لا يعرف وجهه او ليضري^(١) نفسه بالاذى مخافة ان ينساه عند الحاجة اليه .. حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه .. وان من الناس من اذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الاحمر يترقرق فيها ، او عن أظفاره رأيت تحتها مغالب حادة لا تسترها الا الصورة البشرية ، او عن قلبه رأيت حجراً صلباً من احجار الغرائت لا يبض^(٢) بقطرة من الرحمة .. ولا تخلص اليه نسمة من العظة .

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله ان تكون واحداً من هؤلاء فانهم سباع مفترسة وذئاب ضارية .. بل اعظك ألا تدنو من واحد منهم او تعترض طريقه .. فربما بداله ان يا كلك غير حافل بك .. ولا آسف عليك .

أيها الإنسان . ارحم الارملة التي مات عنها زوجها ، ولم يترك لها غير صبية صغار ، ودموع غزار ، ارحمها قبل ان ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة .

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتت منها عرضها عليها .

(١) يقال : أضري فلان كلبه بالصيد ، وضراه : اذا أغراه به وعوده متاهته .

(٢) يبض الدم : سال .

تعجز عن ان تجد مساوماً يساومها فيه فتعود به سالماً الى كسر بيتها .
ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومراة نفسك وخادمة فراشك
لأنها ضعيفة ، ولأن الله قد وكل أمرها اليك ، وما كان لك ان تكذب
ثقته بك .

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فانك الا تفعل قتلته
او أشقيته فكنت أظلم الظالمين .

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع
عليه بين الجهل والظلم ، ولا تتخذ عقله متجراً تبيع فيه ليكون من
الخاسرين .

ارحم الحيوان لانه يحس كما تحس ويتالم كما تتالم ويبيكي بغير دموع ،
ويتوجع ولا يكاد يبين .. ارحمه وكذب من يقول ان الإنسان طبع على
ضرائب لؤم ، أقلها أنه يقبل يد ضاربه ويضرب من لا يمد اليه يداً .

ارحم الطير لا تحبسها في اقفاسها ودعها تهيم في فضاءها حيث تشاء ،
وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير ، ان الله وهبها فضاء لا نهاية له
فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع مد جناحها ؛ أطلق سبيلها
وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الاشجار ، وفي
الغابات ، وعلى شواطئ الانهار ، وترى منظرها وهي طائفة في جو
السماء ، فيخيل اليك انها اجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب
السيار .

أيها السعداء . احسنوا الى البائسين والفقراء ، وامسجوا دموع
الاشقياء ، وارحوا من في الارض يرحمكم من في السماء .

رسالة الغفران^(١)

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداهها ولا بما وقع لي فيها ، ثم صحت
فرايت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة^(٢) بأنواع من الخلق لا
أحصيهم عدداً ، فعلمت أني بعثت ، وانه يوم القيامة ، فساورني^(٣) من
ألم ما ساورني حين ذكرت ان مقداره ألف سنة من سني القيامة ، وقلت:
من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعاً ، ويحترق تحت
أشعة شمس ليس بينه وبينها الا قيد ظفر ، فتأسكت بضعة اشهر ، ثم لم
أجد بعد ذلك الى الصبر سبيلاً ، فزينت لي نفسي الكاذبة ان اذهب الى
رضوان خازن الجنان ، وكنت احمل شهادة التوبة في يدي لاسترحمه
وألتمس منه الاذن بالدخول قبل انفضاض الحشر ، فازلت أرقيه
بقصائد المدح المسومة^(٤) باسمه كما كنت أرقى بأمثاله من عظماء
العاجلة وسادتها ، فإبى^(٥) لي ولا فهم كلمة مما أقول ؛ فانصرفت عنه الى

(١) للمعري رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها .

(٢) ساورته الموم ؛ واثبته وملكت ناصيته .

(٣) مكتظة ؛ مملوءة .

(٤) السومة ؛ المعلقة .

(٥) أبىه ؛ احتفل .

خازن آخر اسمه زفر فكان شاني معه شاني مع صاحبه ؛ الا انه كان أرق منه وألين جانباً ، فأشار عليّ بالذهاب الى النبي الذي أتبعه ، وأفهمني ان الأمر موكل اليه ، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به ، فبينما أنا اتحلل الصفوف ، وازاحم الوقوف ، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم ، وانعمت النظر فيه ، فاذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي ، واذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه ، هذا يقول له : رويت بيتي على غير وجهه ؛ وذلك يقول : أعربت على غير ما أردت وذهبت ، فدفعني الفضول كما دفعهم الى النزول في ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت ، وعلمت ان شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك ، فقلت : قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب ، إنها شؤم الآخرة والاولى .

وقفت أحيى من صب في حمارة قيظ ^(١) لا أدري ما آخذ ، وما أدع ، حتى رميت بطرفي ناذا بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب في ليف من العترة ^(٢) الطاهرة النبوية فدلقت ^(٣) اليه وأبثته ^(٤) أمري وأمر الشهادة المفقودة فقال : لا عليك ، ألك شاهد بالتوبة ؟ قلت : نعم ، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي ، فقال : تريث ^(٥) قليلا حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسأله في أمرك ، فهي تمت الى أبيها بما لانمت ^(٦) به وكانت ممن

(٢) عترة الشخص ؛ عشيرته وأمله .

(٤) أبته السر ؛ كاشفه .

(٦) تمت بالشبه ؛ توصل به .

(١) الحمارة - بالتشديد - شدة الحر .

(٣) دلف ؛ مشى مشياً متناقلاً .

(٥) تريث ؛ أبطأ .

قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء الا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها ، ثم تعود الى مستقرها ؛ فإننا كذلك ، واذا بمناد ينادي ان غضوا ابصاركم يا اهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، فهرعت اليها ، فرأيتها راكبة مع اخوتها وجوارها على افراس من نور ، وتقدم من وعدني بسؤالها في أمري ، فأنجز وعده ، فقالت لأخيها ابراهيم : دونك الرجل ، فقال : تعلق بركابي ، فتعلقت ، فطارت الافراس في الهواء تقطع الاجيال وتتخطى رؤوس القرون ، حتى وافينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، واقفاً لشهادة القضاء ، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمري ، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفع لي فعدت في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً ، وما كنت اقدر ان بين يدي عقبة الصراط ، فلما وافيته وجدته لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جوارها ان تعبر معي فأمسكت بيدي ، فمشيت اترنح ذات اليمين وذات الشمال ، وخفت السقوط فقلت لها : احليني زقفونة ، فقالت : وما زقفونة ؟ فقلت : أما سمعت قول الجحجول من اهل كفر طاب :

صلحت حالتي الى الخلف حتى صرت امشي الى الورا زقفونة

فقالت : ما سمعت بزقفونة ولا الجحجول ولا كفر طاب ، فقلت : ألقى يدي فوق كتفيك ، واجعل بطني الى ظهرك ، فحملتني ، وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف ، حتى صرت الى باب الجنة ، فرمت الدخول

فوقف رضوان في وجهي وقال : اين جوازك ^(١) فبعلت ^(٢) بالأمر ؛ ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على ان يعطيني منها ورقة اعود بها الى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى ؛ فقلت ، وقد ملك الهم على رشدي وصوابي : أما والله لو انك حارس على أبواب الكرماء ، او خازن لخزائن الملوك والامراء لما وصل شاعر الى درهم ، ولا سائل الى سحتوت ^(٣) ، ولهلك الفقراء بؤساً وجوعاً ، فسمع ابراهيم عليه السلام حوارى ^(٤) فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة وصاحبي ينظر اليّ شراً فدخلت ، فرأيت ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

رأيت انهاراً من الماء العذب أصفى من أديم السماء ، واصقل من مرآة الحسناء ، تنصب فيها جداول من الكوثر ، اذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وامن ان يذوق كأس المنون مرة أخرى ، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضاً قد زينت حوافيها بأباريق من العسجد ، وكتوس من الزبرجد ، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لاهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة لا يشوبها كدر ، والنشوة التي لا يعقبها خمار ^(٥) ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطر بل ^(٦) من البواطى ^(٧) والدنان ، ولو نظر الاقشير الاسدى بعين الغيب الى

(١) الجواز : صك المسافر . (٢) بعل بأمره : برم به فلم يدر ما يصنع فيه .

(٣) السحتوت في الأصل : السويق القليل الدم ، ثم أطلق على كل شيء قليل .

(٤) الحوار : مراجعة الكلام .

(٥) الخمار : صداع الخمر . (٦) بلدان معروفان بمودة خمرهما .

(٧) جمع باطية ، وهي إياه للشراب يوضع بين الشرب للاعتراف منه .

عسجد هذه الاباريق وزبرجد تلك الكئوس لنجمل من نفسه ان يقول :
أفنى تلادي وما جمعت من نشب قرع القوايز^(١) أفواه الاباريق
وفي تلك الانهار آنية ترفرف فوق سطحها على صورة الطيور
كالكرابي والطواويس والبط والعنديل ينحدر من مناقيرها شراب
أرق من السراب وتسبح فيها اسماك من الذهب والياقوت :
يعمن فيها بأوساط بمنحة^(٢) كالطير تنشر في جو خوافيها
ورأيت انهاراً من لبن ، وانهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه الا
اذا ادرك ما يمتص نحل الجنة من ازهارها وانوارها .

رأيت جميع تلك الانهار مكبرة ، ثم تمثلت في نظري مصفرة ،
فاذا هي سطور من النور ، واحرف بيضاء في صحيفة خضراء ، قرأتها
فرايتها « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن ، وانهار
من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين ، وانهار من عسل
مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات » .

ظلمت أمشي فما أكاد اخطو خطوة حتى أرى منظراً عجيباً ينسى
السابق ، ويشوق الى اللاحق ، فوددت لو طويت لي الارض طياً فأتعجل
النظر الى ما غاب عني من الجنة وبدائعها . فما أخذ هذا الخاطر مكانه
من نفسي حتى رأيت بين يدي فرساً من الجوهر المتخير مسرجاً ملجماً
فعلمت أني قد سعدت وانها الامنية التي كنت أتمناها ، فعلوت ظهره

(١) القوايز : جمع قازرة ، وهي قذح للشراب . (٢) بمنحة : ذات أجنحة .

وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق^(١) من السحاب ، والسيف من القراب^(٢) ، وعلى ما جهده لم يشك اليّ ما شكاه جواد عنتره العبسي اليه في قوله :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا اليّ بعبرة وتحمم
او ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة اليه في قوله :

تشكي الكميته الجري لا جهدة ٤ وبين لو يستطيع ان يتكلما

ذكرت أني ، وأنا في الدار الفانية كنت اسمع بذكر الناهيين الاولين من الادباء والشعراء والرواة ، فأسف على ان لم اكن في زمنهم أراهم واحضر مجالسهم ، فقلت ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار ، وهل سعدوا او شقوا ، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء ، ما لم يقيض في دار الفناء ؟

ثم رميت بطر في فاذا فارس يحضر فرسه^(٣) في الهواء إحضاراً حتى تقاربنا فتاست الركب واختلفت الاعناق ، فقال : انتسب ، فقلت : فلان ، ومن انت يرحمك الله ، وقد فعل ؟ فقال : عدي بن زيد العبادي ، فدهشت وقلت : عدني ابن زيد في الجنة بعد الزينغ والضلال ؟ فقال انا عيسوي ، وانت محمدي ، وليس لصاحبك على احد حجة الا بعد ظهوره ، وبلوغ دعوته ، فقلت : لا نكران ؛ ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك ، واين استهتارك في قولك :

(١) الودق : المطر .

(٢) قراب السيف : غمده .

(٣) أحضر الفرس : ارتفع له عدوه .

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيق
ودعوا بالصباح فجر أفضاء قينة في يمينها إبريق

قال : غفر الله لنا ما غفر لكم ، قلت : هل لك علم بجماعة الشعراء
والرواة فقد تمنيت على الله ان أراهم فكنت عنوان الكتاب و فاتحة
الإجابة ا فقال : اصحبنى ، فطارت بنا الخيل ، فقلت له : هل آمن ألا
يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد او هضبة من الياقوت
فيكسر لي عضداً او ساقاً ؟ فتبسم ، وقال : اين يذهب بك ؟ نحن في دار
الخلود والبقاء .

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على شاطئه جمع
كثير على سرر. متقابلين ، او على الأرائك متكئين ، فهوى صاحبي
بفرسه فهويت هويه ، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار ،
فرحبوا بنا وهشوا للقاتنا واتسبنا فتعارفنا ، ثم اخذوا فيما كانوا فيه ،
فاذا الأصمعي ينشد مروياته ، وابو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل
الفرسان ، واذا سيويو والكسائي متصافيان بعد ان وقع بينهما في مجلس
البرامكة ما وقع ، وأحمد بن يحيى لا يضمّر لمحمد بن زيد من الموجدة ما
كان يضمّر ، واخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول
أعشى ميمون :

* مثل ريح المسك ذاك ريحها *

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاه ، وقلت في نفسي : لولا
ان قریشاً صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا ، فسمعت

هاتفاً من ورائي يقول : انا بينكم ، وفي مجلسكم ، فالتفت فاذا الأعشى
ميمون ، فلم أدر من أي مدخله ^(١) اعجب ، امن مدخله الى الجنة ؟ أم
من مدخله الى نفسي ، وعلمه بما هجس في صدري ؟ فعلمت ان أهل الجنة
ملهمون ، ثم سألته : كيف غفر لك ؟ فقال : سحبتني الزبانية الى سقر
فرأيت في عرصات القيامة رجلاً يتلألاً وجهه تلالؤ القمر والناس يهتفون
به من كل جانب : الشفاعة يا محمد ، فأخذت أخدمهم ، وهتفت هتافهم فأمر
ان أدنو منه ، فدنوت فسألني : ما حرمتك ؟ فقلت : أنا القائل :

ألا أيهذا السائل ان يمت فإن لها في اهل يثرب موعدا
فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخى عندباب ابن هاشم تراحى وتلقى من فواضله ندا
ني يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

فقال : ما سمعتها منك قبل اليوم ، فقلت : خدعتني عنك الناس
بعد ما شددت راحلتي اليك ، وكنت رجلاً احب الشراب وخفتك عليه
ان تفرق بيني وبينه ، فشفع لي ، فدخلت الجنة على ألا اذوق فيها الخمر ،
فقنعت بالرضاب عن الشراب ، وبماء الثغر المنضود عن ماء العنقود ،
ورأيت بجانبه شاباً ريق الشباب ، فسألت عنه فقيل لي : زهير بن ابي
سلمى ، فما كدت اصدق انه القائل :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسام
فقلت له : بم غفر الله لك ؟ فقال : كنت في جاهليتي أترقب مبعث

(١) المدخل : مصدر دخل ، كالدخول .

محمد ، وأتمنى البقاء حتى أراه ، فحال بيني وبينه الموت ؛ فأوصيت به
ابني كعباً وبجيراً وكنت أو من بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي :
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب او يقدم فينقم
والى جانب زهير ، عبيد بن الأبرص ، فسألته عن مصير أمره ؟
فقال : كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي :

من يسأل الناس يجرموه وسائل الله لا يخيب
والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجت ببركة هذا البيت
من الجحيم الى النعيم .

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا الى ارتشاف الخمر من
النهر ، في آنية الدر ، فانتشينا جميعاً فما افقنا الا على حفيف رف^(١) من
لوز الجنة نزل بنا ، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالزاهر والآلات
الثقيل والخفيف والهزج ، فما أتين على الألحان الثمانية حتى دارت بنا
الارض الفضاء ، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف الحلوم ويطير
بالهموم ، وقلنا : لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه ، لقرع السن على ان
باع دينه بسرور محدود وانس معدود ، ودف وعود .

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى : « فاطلع فرآه في
سواء الجحيم » فتمنيت ان أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين ؛
فألهمت الإذن ؛ فأشرت لصاحبي فقام وقت ، وركبنا فرسينا فطارتا بنا

(١) الرف : الطبع من الطير .

حتى انتهى الى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخاً يسكنه شيخ
زري الهيئة ، فأشرفنا عليه فقال : لا تعجبوا لثاني ، أنا الخطيئة ..
فوالله لولا أني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي :

أرى وجهاً شوّه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة .. ولما ادركت كوخاً ولا حجراً ؛ فتركناه ..
وظلعنا ، فما رأنا اهل النار حتى ضجوا بصوت واحد « ان أفيضوا
علينا من الماء او مما رزقكم الله » فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاغون^(١) في
السلاسل والاعلال ويقولون : « ربنا ارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا
نعمل » فيهتف بهم هاتف « او لم نعلمكم ؟ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم
النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فاذا هي الخنساء ، تطلع مثلنا فترى
رجلا كالجبيل الأشم على رأسه شعلة من النار . فتمتعض وتقول : يا
صخرة .. هذا تاويل قولي فيك من قبل :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيراً من امثال أمرىء القيس وعنترة وعمرو بن
كلثوم وطرفة بن العبد ، ورأيت بشارا بن برد تفتح عيناه بكلايب من
نار ، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله ، وقال له ما كنت لأدخل
النار لولا قولي فيك :

(١) يقال : بات الصبيان يتضاغون من الجرع ، أي : يتضررون منه .

إبليس افضل من أيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وجزعنا من المنظر فهمنا بالرجوع .. واذا إبليس يهتف بنا : يا
اهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أي لم ادخل النار بسببه حتى اخذت معي
اكثر ولده وأفلاذ كبده ، فلا يهنا كثيرا بمصري ، فقلنا : قبجه الله ، ما
يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم ، فما كان لنا هم بعد رجوعنا إلا
لقاء أيينا آدم عليه السلام .. فلقيناه .. فبلغناه الرسالة ، فقال: وارحمته
له ، ما كان بينه وبين الإيمان الا القليل .. فأرداه الحسد فكان من
المهلكين .. فقبلنا يده وانصرفنا الى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة
وحرير .. وهور وولدان ، كأنهم الياقوت والمرجان ، فحمدنا الله الذي
هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

عبرة الدهر

بني فلان في روضة من بساتينه الزاهرة قصرأ فخماً يتلألاً في تلك
البقعة الخضراء تلؤلؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء .. ويطاول
بشرفاته الشفاء افلاك السماء ، كأنه نسر محلق في الفضاء ، او قرط معلق
في أذن الجوزاء ، وكان شرفاته آذات تفضي اليها النجوم بالاسرار ،
وطاقاته ابراج تنتقل فيها الشمس والاقمار .

شاده مرمرأ وجلله كلسا فللطير في ذراه وكور^(١)
ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقه^(٢) لرسام الا اجراها في سقوفه وجدرانها
وطاقاته واركانه حتى ليخيل الى السالك بين ابائه^(٣) وحجراته ،
ومحاريبه وعرصاته^(٤) انه يتنقل من روضة تزهر بالورود الحمراء ،

(١) الكلس : الصاروج يبنى به .

(٢) ليقه الدواة : صوفتها ، ويتخذها أيضاً لجمع أخلاطه فيها .

(٣) الأبناء ، جمع بهو ، وهو البيت المقدم أمام البيوت .

(٤) المحراب هنا : صدر البيت ، والعرضات ، جمع هرمة : وهي ساحة الدار .

والانوار البيضاء، الى بادية تسنح فيها الذئب الغبراء، والتمور الرقطاء،
ومن ملعب تصيد فيه الطباء الاسود، الى غاب تصيد فيه الاسود الطباء،
وأنشأ في كبرى ساحاته، وأوسع باحاته : صهريجاً من المرمر مستديراً
يضم بين حاشيته فوارة ينفر الماء منها صعداً كأنه سيف مجرد، او سهم
مسدد، فيخيل الى الرائي ان الارض تثار لنفسها من السماء وتتقاضاها
ما أراقت منها من الدماء، تلك تقاثلها بالرجوم والشهب، وهذه تحاربها
بالسهام والقضب. وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات
مؤلفات ومختلفات، واغصان، صنوان وغير صنوان، اذا رنختها نسائم
الاسحار.. رققت فوق بساط الأزهار، وتحت ظلال الأثمار، فغنت
على رقصها الاطيوار، غناء الاغاريد لا غناء الأوتار، وادخر فيه لنعيمه
وبلهيته^(١) ما شاء الله ان يدخر من نضائد^(٢) ومقاعد، ووسائد
ومساند، وفرش، وعرش، وكلل^(٣) وحجل^(٤)، وتماثيل وتهاويل^(٥)
وصحاف من ذهب، كاللهب، واكواب من بلور، كالنور، واقفاص
للحائم والنسور، ومقاصير للسباع والتمور، وعربات وسيارات، وجياد
صافنات، ووصائف وولائد، تحيط بالمجالس والموائد.. إحاطة القلائد..
بأعناق الخرائد.. وخدم حسان.. تنتقل في الغرف والقيعان.. تنتقل
الولدان في غرف الجنان.

(١) بلهنية العيش : رخاءه : (٢) النضائد : جمع نضيدة ، وهي الرسادة .

(٣) جمع (كلّة) بالكسر : وهي الستر الرقيق .

(٤) جمع (حجلة) بفتح الحاء : وهي ستر العروش في جنوف البيت .

(٥) التهاويل : النقوش والصور : لأنها تهول من ينظر إليها .

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية ^(١) الإهاب ، أفاق
صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم ير امامه غير
خادمه « بلال » ، وهو خصى اسود من ذوي الاسنان ، رباه صغيراً
وكفله كبيراً ، وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء ، فأشار اليه إشارة
الواله المتلطف ان يأتيه بجرعة ماء ، فجاء بها ، فتساند على نفسه حتى
شرب ، وكان الماء قد حل عقدة لسانه ، فسأله : في أي ساعة من ساعات
الليل نحن يا بلال ؟ فأجابه : نحن في الهزيع الاخير يا سيدي ، فقال :
ألم تعد سيدتك الى الآن ؟ قال : لا ؛ فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة
كادت تخترق حجاب قلبه ، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : انها
تعلم أني مريض ، وأنني في حاجة الى من يسهر بجاني ويتعهد أمرني
ويرفه ^(٢) عني بعض ما اعالجه ، وليس بين سكان القصر من هو أولى بي
واقوم عليّ منها ، واين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم لي بكل محرجة
من الأيمان عليه ؟ اين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومسائها
وبكورها واصائلها ؟ اين النعيم الذي كنت اقلبها في اعطافه والعيش
الذي كنت ارشفها كؤوسه ؟ إن علمت أني اصبحت بين حياة لا ارجوها ،
وموت لا اجد السبيل اليه برمت ^(٣) بي واستثقلت ظلي واستبطات اجلي
واستطالت ضجعتي ، فهي تفر من وجهي كل ليلة الى حيث تجدد ذات
العيش ومواطن السرور ، آه من العيش ما اطوله ، وآه من الموت ما
ابعداه !

(١) الغداف : الغراب الأسود ؛ وليلة غدافية شبيهة به .

(٢) رفه عنه : نفس عنه وخلف . (٣) برم به : سمه وضجر منه .

ما زال يحدث نفسه بمثل هذه الاحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت اعصابه . فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كأس الموت جرعاً مريرة ، بيدانه لشقائه لم يأت على الجرعة الاخيرة منها .

أفاق من غشيته مرة ثانية ، فلم ير بجانبه تلك التي تسيل نفسه حشرات عليها ، فسأل الخادم : ألا تعلم اين ذهبت سيدتك يا بلال؟ قال : خير لك ألا تنتظرها يا مولاي ، وألا تلومها في بعدها عنك ؛ فان لها عند بعض الناس ديناً فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه ؛ قال : ما عرفت قبل اليوم ان بينها وبين احد من الناس شيئاً من ذلك ، ومتى كانت الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الساعة من الليل ؟ وهل اعياها ان تجد من يقوم لها بذلك ، فهي تتولاه بنفسها ؟ وهل قرغت من أمر دينها بعد اختلافها اليه سنة كاملة ! قال : ان بينها وبين غريمها صكاً مكتوباً ان يؤدي ما عليه من الدين اقساطاً في كل ليلة قسط ، على ان تتناوله بيدها وان تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي ، قال : ما سمعت في حياتي بأغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصك ، ومن هو غريمها ؟ قال : انت يا سيدي . فنظر اليه نظرة الحائر المشدوه ^(١) وقال : إني أكاد اجن لغرابة ما اسمع ، واحسب انك هاذيماً تقول او هازي . فدنا منه الخادم وقال : والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها ، وكأس تشربها ،

(١) المشدوه : المدموش .

وملاعب تجرر فيها أذيالك، ومراقص تهتك فيها أموالك ، تاركاً زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة وتبكي الوحدة ، تتقلب على أحر من الجمر شوقاً اليك ووجداً عليك ، فلا تعود اليها الا اذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح ؛ انك سلبتها تلك الليالي السابقة فاصبحت غريبها فيها ، فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتي عليها ، ذلك هو دينها وهذا غريمها ؛ ألا تذكر انك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتلكها عليه وهو واقف موقفك هذا في حسرتك هذه ، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب ؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم حقه ، ويأبى الا ان يأخذه عيناً بعين وتقداً بنقد ، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته ، ويقض^(١) مضجك كما تقض مضجعه ، وانا اعيذك بعدلك وإنصافك ان تكون من لواة الدين ، او تكون من الظالمين .

قال حسبك يا بلال ؛ فقد بلغت مني ، وان لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي ، فادع لي ولدي ، قال : لم يعد يا سيدي من الوجه الذي بعثته فيه حتى الآن ، قال : لا اذكر أني بعثته في وجه ما ، وابن ذهب ، قال : ذهب الى الحانة التي يختلف اليها ، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع ، إنني طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارعاً اليك ان تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك ، فكنت تعرض عني إعراض من يرى ان تدليل الولد

(١) أقض مضجعه ؛ جعله خشناً .

وترفيهه^(١) وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال ؛ كنت اسالك ان تعلمه العلم وان تهديه الى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة ، فكنت ترى ان الذي يحتاج الى العلم إنما هو الذي يرتزق منه . وان ولدك عن ذلك من الأغنياء ، فلا تشك من عمل يديك ، ولا تبك من جناية نفسك عليك ، فانت الذي ارسلته الى الحانة ، وانت الذي أبقيته فيها الى مثل هذه الساعة من الليل ، وانت الذي ابعده عن فراشك احوج ما كنت اليه .

وما وصل الخادم من حديثه الى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده ، واذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الشكلى فقدت واحدها ، فقال السيد : هات يدك يا بلال واحملني الى جوار النافذة لأروِّح عن نفسي بعض ما ألم بها ، او أودع الى جانبها نسيمات الحياة ، ثم اعتمد على يده حتى وصل الى النافذة : فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين الى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال اثوابها البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة . رأها متحابين متعاطفين ؛ لا يتعاتبان ولا يتشاحان^(٢) ولا يشكوان هما ولا يندبان حظاً ؛ رأها قويين نشيطين يجري دمها في عروقها صافياً متسلسلاً وكأنها يحاولان ان يخرجوا من إهابها^(٣) مرحاً ونشاطاً ؛ رأها راضيين

(١) رفهه : جمعه مرفهاً ، أي لين الميش .

(٢) من المشاحة . رمي المحاصمة والمجادلة .

(٣) الإهاب : الجلد .

بما قسم الله لهما من خشونة الملابس وجشونة^(١) المطعم فلا يتشبهان ولا يتمنيان ولا ينظران الى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة ؛ سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فاذا البستاني يقول لزوجته : والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه ، وآنيته وخرثيه^(٢) ؛ على ان تكون لي تلك الزوجة الخاتنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران ، على البقاء في مثل هذا المكان أفاصي تلك الهموم والاحزان . فقالت : لا احسب ان سيدنا ينجو من خطر هذا المرض ، فقد مر به على حاله تلك عام كامل ، وهو يزداد كل يوم ضعفاً ونحولاً ، قال : قد علمت ان الطبيب قد نفذ يده من الرجاء فيه واضمر اليأس منه . ولا عجب في ذلك ، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها : قالت : ما أشقاه ، أكانت نفسه عدوة اليه فجنى عليها هذا الشقاء ، وذلك البلاء ، قال : ما كان عدواً لنفسه ، ولا كانت نفسه عدوة اليه ، ولكنه كان رجلاً جاهلاً مغروراً ، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد اخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه ؛ قالت : أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده ؟ قال : أعلم انه سيكون لولده ؛ قالت : ولكنني أعلم انه سيكون لفلان ، قال : ان فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه ، قالت : إنه ليس بصديق السيد ، بل صديق السيدة ، فهو خاطب زوجته قبل وفاته ، وزوجها بعد مماته .

(٢) الخرثي : أثاث البيت .

(١) جشونة المطعم : خشونته .

فأسمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً ، وسقط
عن كرسيه وهو يقول : أشهد أني من الأشقياء . وما زال في غشيته تلك
حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن
المؤلم .

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر ، ورأى زوجته
تضحك ترباً من اترابها وتغمزها بظرفها ان قد حان حينه ودنا اجله ،
ورأى صديقه او ولي عهده يأمر في القصر وينهي ، ويتصرف تصرف
السيد المطاع ، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت ، ويعد عدته للانتقال
من القصر الى القبر ، وهنا سمع كأن هاتفاً يهتف به من السماء ويقول :
أيها الرجل ، لو وفيت لزوجك لو فت لك ، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك ،
ولو احسنت اختيار صديقك ما خانك ، ولو رحمت نفسك ما خسرت
حياتك .. فأغضب عينيه وهو يقول « فلتكن مشيئة الله » .

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجه وولده وصديقه
ونفسه وبستانه وقصره :

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها، والاجسام ارواحها، لست احمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا انظر اليك بالعين التي نظر بها اليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك، لأنني اعتقد ان لك شركاء في جريمتك . فلا بد لي من ان انصفك، وان كنت لا تستطيع ان انفعك .

شريكك في الجريمة أبوك، لأنه لم يتعهدك بالترية في صغرك، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين، بل كثيراً ما كان يبخب^(١) لك اذا رآك هجمت على تربك وضربته، ويصفق لك اذا رأى انك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك، او اختطاف لقمة من يده، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي انت معلق به اليوم، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات، ويصعد الزفرات، ولو عرف انها جريمته، وانها غرس يمينه

(١) بخب : قال له « بخ بخب » .

لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على ان لم يكن
حبلك في عنقه وجامعتك^(١) في يده .

شريكتك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي اغراك بها ،
مهد لك السبيل اليها ، فقد كان يسميك شجاعاً اذا قتلت ، وذكياً فطناً
اذا سرقت ، وعالماً اذا احتلت ، وعاقلاً اذا خدعت ، وكان يهابك هيئته
للفاتحين ، ويحلك لإجلاله للفاضلين ، وكثيراً ما كنت تحبان ترى
وجهك في مرآته وجهاً ابيض ناصعاً ، فتتمنى ان لو دام لك هذا الجمال ؛
ولو انه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريرتك
بصورتها الشوهاء ، وهنالك ربما وددت يمدع الانف لو طواك بطن
الارض عنها وحالت المنية بينك وبينها .

شريكتك في الجريمة حكومتك ؛ لأنها كانت تعلم ان الجريمة هي الحلقة
الاخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات ، وكانت تراك تمسك بها حلقة وتعلم
ما سينتهي اليه أمرك فلا تضرب على يدك ، ولا تعترض سبيلك ؛ ولو
انها فعلت لما اجترمت ، ولا وصلت الى ما اليه وصلت .

كانت حكومتك تستطيع ان تعلمك وتهذب نفسك ، وان تغلق بين
يديك أبواب الحانات والمواخير ، وان تحول بينك وبين مخالطة الاشرار
بإبعادهم عنك وتشريدهم في مجاهل الارض ومخارمها .. وان تعديك^(٢)
على قتيلك قبل ان يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك .. وان تحسن
تأديبك في الصغيرة قبل ان تصل الى الكبيرة .. ولكنها اغفلت أمرك

(١) الجامعة ؛ الغل . (٢) أعدى الأمير فلاناً على فلان ، اذا نصره وأعاناه عليه .

فنامت عنك يوماً طويلاً .. حتى إذا فعلت فعلتك استيقظت على صوت
صراخ المقتول .. وشمرت عن ساعدها لتمثل منظرًا من مناظر الشجاعة
الكاذبة .. فاستصرخت جندها ؛ واستنصرت قوتها وأعدت جذعها
وجلادها ؛ وكان كل ما فعلت إنها اعدمتك حياتك .

هؤلاء شركاؤك في الجريمة .. وأقسم لو كنت قاضياً لأعطيتك من
العقوبة على قدر سهمك في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين
شركائك ولكني لا أستطيع ان انفعك .

فيا أيها القاتل المظلوم : رحمة الله عليك .

★

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء .

يا صاحب النظرات :

سمعت بالصدق ، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر .. وسمعت بالكذب .. وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب .. وقرأت ما كتبه حكماء الامم من عهد آدم الى اليوم .. وإجماعهم ان الصدق فضيلة الفضائل والاصل الذي تتفرع عنه جميع الاخلاق الشريفة .. والصفات الكريمة .. وانه ما تمسك به متمسك الا كان النجاح في أعماله ألق به من ظله .. وأعلق به من نفسه . سمعت هذا وقرأت ذلك فلم يبق في نفسي ريب في ان ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء ، وعيشي من الضنك ، وحياتي من الهموم والأكدار ، إنما جرّه عليّ شؤم الكذب ، وان ما كنت أتخيله قبل اليوم من ان هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة ، إنما هو ضرب

من ضروب الوهم الباطل .. وتزعة من نزعات الشيطان ، فعاهدت الله ونفسي الا اكذب ما حييت ، واعدت لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعدما وجهت وجهي الى الله تعالى وسألته ان يمدني بموته ونصره .

ها أنا ذا كرك لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد ، وما رأيت من آثارها ونتائجها .

الموقف الأول : جلست في حانوتي فما وقف بي مساوم الا صدقته القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا يستطيع ان أعد نفسي راجحاً اذا تجاوزت عن بعضه .. فيأبى الا الحطيطة^(١) فأباها عليه ، فينصرف عني استثقالا للثمن واستعظاما لقدره ، وما هو الا الربح الذي اعتدت ان آخذه منه في مثل تلك الصفقة ، الا أنني كنت اكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح ، فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني الى سواي ، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلني الليل ، ولم يفتح الله علي بقوت يومي ، وما هي الا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق .

الموقف الثاني : جلست في مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضيقة المعروفين بمشايع الطرق .. وقد حف به جماعة من عبدته وسدنة^(٢) هيكله فسمعتهم يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريباً يذهب

(١) الحطيطة : ما يحيط من الثمن :

(٢) السادان : خادم الهيكل او خادم الكعبة والمراد به الحاجب ، والجمع : سدنة .

فيه الى أنه العقود عن العمل ، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه ، واعراض عن كل سعي يؤدي الى آية غاية ، ويعتمد في هديانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء ، وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه ، او قرأها في كتابه ، واكثر ما كان يدور على لسانه حديث « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما رزق الطير تغدو خصاصاً وتروح بطاناً »^(١) . فقلت له ، وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه : يا شيخ : أردت ان تحتج لنفسك فاحتججت عليها ، أتعمد الى حديث يستدل به رواته على وجوب السعي والعمل فتستدل به على البطالة والكسل ، ألم تر ان الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطاناً الا بعد ان أمرها بالغدو ، وهي التي ترويهما القطرة ، وتشبعها الحبة ، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي ، وهو من لا تنفي مطالبه ، ولا تنتهي رغباته ؟ أيها القوم ، إنكم تقولون بالسنتكم ما ليس في قلوبكم ، إنكم عجزتم عن العمل ، وأخذتم الى الكسل ، وأردتم ان تقيموا لأنفسكم عنراً يدفع عنكم هاتين الوصتين فسميتم ما أنتم فيه توكلاً ، وما هو الا العجز الفاضح ، والإسفاف الدنيء .

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ ، ونادى في قومه : ان أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسي ، فتالبوا عليّ تالبهم على قصاع الثريد ، وأوسعوني لطماً وشفعاً ، ثم رموا بي خارج الباب ، فما بلغت منزلي حتى هلكت او كدت ، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة الارموني

(١) الحماص جمع خبيص ، وهو ضامر البطن ، والبطان جمع بطين ، وهو مثله البطن .

بالنظر الشرر ، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون به من الشيطان
الرجيم .

الموقف الثالث : لا أكتمك يا سيدي ، أي كنت أبغض زوجتي
بغضاً يتصدع له القلب ، غير أي كنت أصانعها وأتودد اليها وأمنحها من
لساني ما ليس له أثر في قلبي ، مداورة لها وإبقاء على ما تحتويه يدي من
صباية مال كانت لها ، فرأيت ان ذلك اكذب الكذب وأقبحه ، فأليت
على نفسي ألا اسدل بعد اليوم من دونها حجاباً يحول بينها وبين سريرتي ،
فانقطع عن مسمعها ذلك السلسيل العذب من كلمات الحب ، فاستوحشت
مني وأظلم ما بيني وبينها ، فما هي الا عشية او ضحاها ، حتى وهنت
تلك العقدة ، وانحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق بأية الطلاق .

الموقف الرابع : حضرت مجتمعاً يضم بين حاشيته جماعة من الفضولين
الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون الى الحديث عن الناس وتتبع
عثراتهم ، ويحاولون ان ينبشوا دفائن صدورهم ، ويتغلغلوا في أطواء^(١)
سرائرهم ؛ ويغالون في ذلك مغالاة الكيائي في تحليله وتركيبه ، فرأيتهم
يتناولون بالسنتهم رجلاً عظيماً من اصحاب الآراء السياسية لا أعتقد ان
بين السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمته إخلاصه ، او
وقف المواقف المشهورة وقوفه ؛ او لاقى في ذلك السبيل من صدمات
الدهر وضربات الايام ما لاقاه ، سمعتهم يسمونه خائناً ، فوالله لان تقع
السما على الارض أحب اليّ من ان بتهم البريء او يجازي المحسن سوءاً

(١) أطواء الثوب : طوائفه ومكاسر طيه .

على إحسانه ؛ سمعت ما لم املك نفسي معه ؛ فقلت يا قوم ، أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً^(١) ثم لا تزالون عبيد الاوهام ، أسرى الخيالات ، سراعاً الى كل داع ، سعادة مع كل ساع ، تنظرون بغير روية ، وتحكمون بغير علم ، إنكم بعملكم هذا تزهدون المحسن في إحسانه ؛ وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم ؛ وتثبطون همه كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم ؛ أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم ، ان نراكم طعمه كل آكل ؛ ولعبة كل لاعب ، ويستهيؤكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بها المرضعات اطفالهن ثم يدعوكم الى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودمك واخلاصكم ، والثاني بغضكم وموجدتكم . خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم ، فارادوا شراً بي ! فما خلصت من بينهم الا وأنا ألس رأسي بيدي لأعلم اين مكانها من عنقي !

الموقف الخامس : قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً^(٢) كبيراً كنت ذاهباً الى موعد لا بد لي من الوفاء به ، فرض عليّ ان يسمعي قصيدة من طريف شعره ، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده ، فاستعفيته بعد ان كاشفته بعذري فابى ، فانتحيت به ناحية من الطريق فانشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً ، وأنا اشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة ، حتى تمنيت أنه لو ضربني بها جملة واحدة يكون فيها انتضاء أجلي ليريجني من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع ، وكلما أتى على بيت

(١) يريد ان تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف . (٢) الطومار : الصحيفة .

منها أقبل عليّ بوجهه ، وأطال النظر في وجهي وحدث في عيني ، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي ، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكاس فيستمر في شأنه حتى أنشد نحو خسين بيتاً ، ثم وقف وقال : هذا هو القسم الاول من اقسام القصيدة ، فقلت ؛ وكم عدد أقسامها يرحمك الله ؟ قال : عشرة ليس فيها أصغر من أولها ، قلت : أتأذن لي ان اقول لك يا سيدي ان شعرك قبيح ، وأقبح منه طوله ، وأقبح من هذا وذاك صوتك الحشن الاجش ، وأقبح الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل عليّ فوات الغرض الذي ما خرجت من منزلي الا لأجله . فتلقاني بضربة يجمع يده ^(١) في صدري ، فرفعت عصاي وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها - يعلم الله - الا ان اصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه فسقط مغشياً عليه . وسقطت القصيدة من يده فأسرعت اليها ومزقتها ، وأرحت نفسي منها ، وأرحت الناس من مثل مصيبي فيها ، وكان الشرطي قد وصل الينا فاحتملنا جميعاً الى المحفر ثم الى السجن حيث اكتب اليك كتابي هذا .

فيا صاحب النظرات أفتني في أمري ، وأنر ظلمة نفسي ، فقد اشكل عليّ الأمر ، واصبت أسوأ الناس بالصدق ظناً ، بعد ما رأيت أني ما وقفت موقفه في حياتي الا خمس مرات ، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي ، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة اخرى ؛ ذلك الى ما اقايسه اليوم في هذا السجن من انواع الآلام ، وصنوف الاقسام .

* * *

(١) جمع اليد : ميثها حين تلعبها .

أيها السجين :

كتبت إليّ - مسح الله ما بك ، واهمت صواب الرأي في حالك -
تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره ، وكاد
يزلق بك الى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لأفضيلة الفضائل ، وما كان لك
ان تجعل للياس هذا السبيل الى نفسك ، وان يبلغ بك الجزع من تكبات
العيش وضربات الايام مبلغاً يذهب برشدك ، ويطير بلبك ؛ فما انت
بأول صادق في الارض ولا بأول من لقي في سبيل الصدق شراً ؛ وكابد
ضراً .

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مراراتها حق
الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال .
ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش او كسب المال ، وإنما هي
حالة من حالات النفس تسمو بها الى أرق درجات الإنسانية وتبلغ بها
غاية الكمال .

ان الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله ، او يرفه بها عيشه ،
يحتقرها ويزدرها ؛ لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع
ليس من صواب الرأي ان يجعل الإنسان حالة عيشه ميزاناً يزن به
اخلاقه فان اتسع عيشه اطمأن اليها ، وان ضاق أساء الظن بها ، فكم
رأينا بين الفاضلين اشقياء ، وبين الأرزدين كثيراً من ذوى النعمة والثراء
لا يستطيع الرجل الفاضل ان يبلغ غايته من عيشه الا اذا استطاع
ان ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام ، ولن يستطيع ذلك

الا اذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ولن يكونوا كذلك الا اذا كانوا فضلاء او أشباه فضلاء ، والسواد الأعظم الذي يمك بيده اسباب العيش ويملك يناعيه : سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويجب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يجبب اليه نفسه ، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش ، وقلب يحمل بغض القلوب ليلبغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما ينزل المجاهد حياته ودمه ليلبغ غايته من الفوز والانتصار .

الصدق جنة حفت بالمكاره ، فان كان للصادق في جنة الصدق أرب فليحمل في سبيلها ما حملة الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية .

كما ان الجود يفقر والإقدام قتال ، وكما ان لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات توغر طريقها وتبعد منالها الا على أيدي الصابرين المخلصين ، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون ، للصادقين وهم الأقلون .

أتريد أيها الرجل ان تسمى صادقا ، وان تنال أشرف لقب يستطيع ان يناله بشر ، وان يوافقك الجمد طائعا مذعنا دون ان تبذل في سبيله شيئا من مالك او راحتك ؟

إنك ان أدت ذلك او قدرته في نفسك ؛ تظلم الفضيلة ظلما بينا وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطىء النعال .

أيجزتك انصراف الاغنياء عن حانوتك او اتهامك بالزندقة والإلحاد
او المروق والحيانة ، وترى ان ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق
وإحرازك فضيلته ، وانت تعلم ان الفاضلين قد بذلوا من قبلك اكثر مما
بذلت ، في سبيل إحراز ما احرزت ، فما ندموا ولا حزنوا ؟
أيها السجين الشريف :

هنيئاً لك السجن الذي تكابده ، وهنيئاً لك البغض الذي تحتمله ،
وهنيئاً العيش الذي تعالج همومه ، فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير
من اولئك الذين يعدم الناس سعادة ، ويسمونهم عظماء .
لا تظلم الصدق ولا تكن سيء الظن به ، وكن احرص الناس على
ولائه ومودته ، وإياك ان يخدعك عنه خادع ، واصبر قليلاً يثمر لك
غرسه ويمتد عليك ظله ، وهنالك تجد في نفسك من اللذة والغبطة ما لو
بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم ، وارباب الكنوز كنوزهم ، لما استطاعوا
اليه سيلاً .

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدؤون ساعة واحدة عن تصديع رؤوسنا
وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التي يطرونها علينا كل يوم من سماء
الصحف ، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولا ايض
مستطيلا تخيلناه حية رقطاع ، ففزعنا والقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر
التملس لينجو بنفسه ويسلم بحياته .

من لي بذلك القلم العريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية
عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتفخيم ، فأكتب به الى هؤلاء
المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم : ان علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون
المقفى ، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من
إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه ، وإنما جروا في ذلك التعريف مجرى
علماء العروض الذين لا مناص لهم من ان يقفوا في تعريف الشعر عند هذا

القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير اوزانه وقوافيه وعلله
وزحافاته .

لا تظنوا ان الشعر كما تظنون ، والا لاستطاع كل قارىء بل كل
ناطق ان يكون شاعراً ؛ لأنه لا يوجد في الناس من يعجزه تصور النغمة
الموسيقية والتوقيع عليها من اخصر طريق .

أيها القوم : ما الشعر الا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدل
نشاته ولا تزال كامنة فيه كمن النار في الزند حتى اذا شدا^(١) فاضت
على اسلات أقلامه^(٢) كما تفيض الكهرباء على اسلاكها ، فمن احس منكم
بهذه الروح في نفسه فليعلم انه شاعر ، او لا فليكيف نفسه مؤنة التخطيط
والتسطير ، وليصرفها الى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من
اعمال الحياة ، فوالله للمحراث في يد الفلاح ، والقدم في يد النجار ،
والمسبر في يد الحداد : اشرف وانفع من القلم في يد النظام .

فان غم عليكم الأمر ، واعجزكم ان تعلموا مكان تلك الروح الشعرية
من نفوسكم ، فاعرضوا انفسكم على من يرشدكم اليكم ويدلكم عليكم ،
حتى تكونوا على بينة من أمركم .

(١) شدا : أخذ طرفاً من الأدب والعلم .
(٢) الأسلات جمع أسلة : وهي نبات رقيق النضن .

الحرية

استيقظت فجر يوم من الايام على صوت هرة تموء^(١) بجانب فراشي
وتتمسح بي ، وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً ، فرايني أمرها ، وأهمني همها
وقلت : لعلها جائعة ، فنهضت ، واحضرت لها طعاماً فعافته ، وانصرفت
عنه . فقلت : لعلها ظمآنة ، فأرشدتها الى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر
الى نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والاحزان ، فآثر في
نفسي منظرها تأثيراً شديداً ، حتى تمنيت ان لو كنت سليمان افهم لغة
الحيوان ، لأعرف حاجتها ، وافرج كربتها ، وكان باب الغرفة مرتجاً ،
فرأيت انها تطيل النظر اليه وتلتصق بي كلما رأته اتجه نحوه ، فادركت
غرضها وعرفت انها تريد ان افتح لها الباب ، فأسرعت بفتحه فما وقع
نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من
حزن وهم الى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو في سبيلها ، فعدت الى

(١) المراء : صوت الهرة .

فراشي واسلمت رأسي الى يدي ، وانشأت افكر في أمر هذه الهرة ،
واعجب لسانها واقول : ليت شعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية
فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقيها ؟ اجل . انها تفهم معنى الحرية حق
الفهم ، وما كان حزنها وبكاؤها وامساكها عن الطعام والشراب الا من
اجلها ، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها الا سعياً وراء
بلوغها .

وهنا ذكرت ان كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا
يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة ، والوحش المعتقل في
القفص ، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان
بينهم من يفكر في وجهه الخلاص او يتلمس السبيل الى النجاة مما هو
فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ
بآلامه واسقامه .

من اصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها : ان يكون
الحيوان الاعجم اوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان
نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته ؟ وهل يحمل به ان يتمنى الخرس والبله
ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل ان يصبح ناطقاً مدركاً ؟

يخلق الطير في الجو ، ويسبح السمك في البحر ، وييم الوحش في
الادوية والجبال ، ويعيش الإنسان رهين المحبسين : محبس نفسه ومحبس
حكومته من المهد الى اللحد .

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل واغلالا ، وسماها تارة

ناموساً وأخرى قانوناً ، ليظلمه باسم العدل ، ويسلب منه جوهرة
حريته باسم التاموس والنظام .

صنع له هذه الآلة الخفيفة ، وتركه قلقاً حذراً ، مروع القلب ، مرتعد
الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات
رجليه وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله ، لينجو من عقاب
المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما أكثر جهله ! وويح له ما أشد
حمقه ؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه ؟ او
سجن اضيق من السجن الذي هو فيه ؟

ليست جنائية المستبد على اسيره انه سلبه حريته ، بل جنائته الكبرى
عليه انه افسد عليه وجدانه ، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا
ينرف دمعة واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وادرك حقيقة ما يحيط
بجسمه وعقله من القيود ، لانتحر كما ينتحر البلبل اذا حبسه الصياد في
القفص ، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من اشعة الحرية ،
ولا تخلص اليه نسمة من نسماها .

كان في مبدأ خلقه يمشي عرياناً ، او يلبس لباساً واسعاً يشبه ان
يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء ، او هبة النكباء ، فوضعه في القباط كما
يضعون الطفل ، وكفنوه كما يكفنون الموتى ، وقالوا له : هكذا نظام
الأزياء .

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهي نفسه وما يلتئم مع طبيعته ، فحاولوا

بينه وبين ذلك ، وملأوا قلبه خوفاً من المرض او الموت ، وأبوا ان يأكل او يشرب الا كما يريد الطبيب ، وان يتكلم او يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني او الحاكم السياسي ، وان يقوم او يقعد او يمشي او يقف او يتحرك او يسكن ، الا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات .
لا سبيل الى السعادة في الحياة ، الا اذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر الا ادب النفس .

الحرية شمس يجب ان تشرق في كل نفس ، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة ، يتصل اولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر .
الحرية هي الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان اشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في ايدي الاطفال بحركة صناعية .

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً ، او طارناً غريباً ؛ وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار .

ان الإنسان الذي يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسوّل ولا مستجد ، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ، فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ، ولا يد لاحد عنده .

عبرة الهجرة

ان في اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الارض او السماء ، او الماء او الهواء .

ان ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وايثاره ، وصدقه واخلاصه ، اكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر ، ومشى الشجر ، ولين الحجر ؛ وذلك لانه ما كان يريهم في الاولى ما كان يريهم في الاخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة ، وسحر السحرة ، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده ، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الاثر الذي تركته ، ذلك هو معنى قوله تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

كان صلى الله عليه وسلم شجاع القلب ، فلم يهب ان يدعو الى التوحيد

قوماً مشركين يعلم انهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم
غضبهم لاعراضهم ؛ ويحبون آلهتهم حبهم لابنائهم .

كان على ثقة من نجاح دعوته ، فكان يقول لقريش - اشد ما كانوا
هزاءً به وسخرية - : « يا معشر قريش ، والله لا يأتي عليكم غير قليل
حتى تعرفوا ما تنكرون ، وتحبوا ما انتم له كارهون » .

كان حليماً سمح الاخلاق فلم يزعجه ان كان قومه يؤذونه ويزدرونه
ويشعثون^(١) منه ويضعون التراب على رأسه ، ويلقون على ظهره أمعاء
الشاة وسلى^(٢) الجزور ، وهو في صلاته ، بل كان يقول : اللهم اغفر
لقومي فانهم لا يعلمون .

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس ، لبث في قومه ثلاث
عشرة سنة يدعو الى الله فلا يليق دعوته الا الرجل بعد الرجل ، فلم يبلغ
الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأس الى قلبه ، فكان يقول « والله لو وضعوا
الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان أترك هذا الأمر حتى يظهره الله
الله او أهلك فيه ما تركته » .

وما زال هذا شأنه حتى علم ان مكة لن تكون مبعث الدعوة ، ولا
مطلع تلك الشمس المشرقة ، فهاجر الى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من
السكون الى الحركة ، ومن طور الحفاء الى طور الظهور .

لذلك كانت الهجرة مبدءاً تاريخ الإسلام لأنها اكبر مظهر من مظاهره ،

(١) يقال شعث فلان من فلان : تنقصه ،

(٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للانسان .

وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها اجمل ذكري للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله .

لقد لقي صلى الله عليه وسلم في هجرته عناء كثيراً ومشقة عظيمة ، فان قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به ، بل مخافة ان يجد في دار هجرته من الاعوان والانصار ما لم يجد بينهم ، كأنما يشعرون بأنه طالب حق ، وان طالب الحق لا بد ان يجد بين المحقين أعواناً وأنصاراً ، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعد ما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، عبثاً بهم وتضليلاً لهم عن اللحاق به ، ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يتسلقان الصخور ، ويتسربان في الاغوار والكهوف ، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب ، حتى انقطع عنها الطلب وتم لهما ، ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق .

ان حياة النبي صلى الله عليه وسلم اعظم مثال يجب ان يحتذيه المسلمون للوصول الى التخلق بأشرف الاخلاق والتحلي بأكرم الخصال ، واحسن مدرسة يجب ان يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والاخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة الى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل .

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكام الرومان وعلماء الافرنج، فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل، والبر والثبات والحب والرحمة ، والحكمة والسياسة ، والشرف الحقيقي ، والإنسانية الكاملة ، وهي حياة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحسبنا بها وكفى .

الانصاف

اذا كان لك صديق تحبه وتواليه ، ثم هجمت منه على ما لم يحل في نظرك ، ولم يتفق مع ما علمت من حاله ، وما اطرد عندك من أعماله ، او كان لك عدو تدم طباعه ، وتنقم منه شئونه ، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التي ذممتها وحمد عدوك على الخلة التي حمدتها ، عدك الناس متلونا او مخادعا او ذا وجهين تمدح اليوم من تدم بالأمس ، وتذم في ساعة من تمدح في أخرى ، وقالوا : إنك تظهر ما لا تضمر ، وتخفي غير الذي تبدي ، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك ، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلاها ، ولسموا ما بدا لهم منك اعتدالا لاناقا ، وإنصافا لا خداعا ، لأنك لم تغل في حب صديقك غلو من يعنيه الهوى عن رؤية عيوبه ، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف ، فعنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقد خلاله ، لاصلاح ما فسد من الاولى ، واعوج من الاخرى .

إن صديقك الذي يبسم لك في حالي رضاك وغضبك ، وحلمك
وجهللك ، وصوابك وسقطتك ، ليس ممن يغتبط بمودته ، او يوثق
بصداقته ، لانه لا يصلح ان يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك
عن نفسك ، وتصدقك عن زينك وشينك وحلوك ومرك ، وهو إما
جاهل متهور في ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ما تريد ان ترى نفسه ، لا
ما لا يجب ان تراه ؛ وإما منافق مخادع قد علم ان هواك في الصمت عن
عيوبك وتجرير الذبول ، فجارك فيما تريد ، ليبلغ منك ما يريد .

فها انت ذا ترى ان الناس يعكسون القضايا ، ويقبلون الحقائق ،
فيسمون الصادق كاذباً ، والكاذب صادقاً ؛ ولكن الناس لا يعلمون .

المدنية الغربية

ساودّع في هذه النظرة الخيال والشعر ، وداع من يعلم ان الامر
أعظم شأنًا وأجل خطراً من ان يعبت فيه العايب بأمثال هذه الطرائف
التي هي بالهزل أشبه منها بالجد ، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن
فراغه ولعبه لا في مواطن جدّه وعمله .

ان في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا
تعهدنا والاحتفاظ بها والحذب عليها حتى تؤديها الى أخلاقنا من بعدنا ،
كما أداها الينا أسلافنا سالمة غير ماروضة^(١) ولا متآكلة ، فان فعلنا فذاك ،
أولا فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكتاب الأمناء .

الامة المصرية أمة مسلمة شرقية ، فيجب ان يبقى لها دينها وشرقيتها
ما جرى نيلها في أرضها ، وزهبت أهرامها في سمائها ، حتى تبدل الارض
غير الارض والسموات .

(١) الخشب المأروض : الذي أكلته الأرض

ان خطوة واحدة يخطوها المصري الى الغرب تدني اليه أجله ،
وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده الى يوم
يبعثون .

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم ان يكون من
المدنية الغربية ان داناها الا كالغربال من دقيق الخبز ، يسك خشاره
ويفلت لبابه ، او الراوق^(١) من الخمر ، يحتفظ بعقاره ، ويستهن
برحيقه ، فخير له ان يتجنبها جهده ، وان يفر منها فرار السليم من
الاجرب .

يريد المصري ان يقلد الغربي في نشاطه وخفته ، فلا ينشط الا في
غدواته وروحاته ، وقعدته وقومته ، فاذا جد الجد وأراد نفسه على ان
يعمل عملاً من الاعمال المحتاجة الى قليل من الصبر والجلد ، دب الملل الى
نفسه ديبب الصهباء في الاعضاء والكرى بين أهذاب الجفون .

يريد ان يقلده في رفايته ونعمته فلا يفهم منها الا ان الاولى التأنث
في الحركات ، الثانية الاختلاف الى مواطن الفسق ومخابىء الفجور .

يريد ان يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها الا نعيقها ونعيبها ،
وضجيجها وصفيرها ، فاذا قيل له : هذه المقدمات ، فإين النتائج ؟ أسلم
رجليه الى الرياح الاربع واستن في فراره استنان المهر الأرن^(٢) فاذا سمع
صفير الصافر مات وجلاً ، واذا رأى غير شيء ظنه رجلاً .

يريد ان يقلده في السياحة ، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب

(٢) الأرن : النسيط .

(١) الراوق : المصفاة .

الارض الميتة فصل الربيع ، حتى اذا حان حينه طار الى مدن أوروبا
طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوي على شيء مما
وراءه ، حتى يقع على مجامع اللهو ومكان الفجور ، وملاعب القمار ،
وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب ، لا
يملك من الاول ما يقوده الى طريق السفينة التي تحمله في أوبته ، ولا من
الثاني اكثر من الجمالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين
حوادث صحيفته ، حادثة عودته موشاة بجمل الاجلال والاحترام مطرزة
بوشائع الإكرام والاعظام .

يريد ان يقلده في العلم ، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شذقيه
ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل
شائن .

يريد ان يقلده في الاحسان والبر ، فيترك جيرانه وجارته يطوون
خايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى إذا سمع دعوة
إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة أملت بسد يأجوج
وماجوج سجل اسمه في فاتحة الاكتتاب ، ورصد هبته في مستهل جريدة
الحساب .

يريد ان يقلده في تعليم المرأة وتربيتها ، فيقنعه من عملها مقال تكتبها
في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل ؛ ومن تربيتها التفنن في الازياء ،
والمقدرة على استهواء النفوس ، واستلاب الألباب .

هذا شأنه في الفضائل الغربية ، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة

لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحى بها مقصداً ، ولا يذهب فيها إلى مذهب ،
فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير
الثياب ، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار ، ويجارونهم في أداء صور
العبادات ، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل
الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب ، وإن كانوا احرص على الدنيا من
صيافة اليهود .

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي ، فينتحر كما
ينتحر الغربي ، ويلحد كما يلحد ، ويستهتر في الفسوق استهتاره ،
ويترسم في الفجور آثاره .

إن في المصريين عيوباً جمة في اخلاقهم وطباعهم ، ومذاهبهم وعاداتهم ،
فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحها ، فلندع إلى ذلك باسم المدينة
الشرقية لا باسم المدينة الغربية .

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة
وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس ورومة وسويسرا ونيويورك ، وإن دعوناهم
إلى مكرمة ، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة ؛ وأقوال أنبياء الشرق
وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر ؛ وإن دعوناهم إلى
حرب ، ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعيد بن أبي وقاص وموسى بن
نصير ، وصلاح الدين ؛ ما يغنيننا عن تاريخ نابليون وولنجتون
وواشنطن ونلسن وبلوخر ؛ وفي وقائع القادسية وعمورية وأفريقية
والحروب الصليبية ، ما يغنيننا عن وقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز

والسبعين .

ان عاراً على التاريخ المصري ان يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونايرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد ، ويروي من الشعر لشكسبير وهو جو ما لا يروي للمتني والمعري .
لا مانع من ان يعرب لنا العربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعراتهم ، على ان ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية مسلمة ، ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متهوراً ، ولا مانع من ان ينقل الينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهن ، على ان ننظر اليه نظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار ، لا على ان تقلدها ونقلدها وننتحلها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شئونها ، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا .

وبعد . فليعلم كتاب هذه الامة وقادتها : أنه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً . فلا يخذعون أمتهم عن نفسها ، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزييناً يرزوها في استقلالها النفسي ، بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي .

يوم الحساب

سأهت الكوكب ليلة أمس حتى ملني وملته وضاق كل منا
بصاحبه ذرعاً ، وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه ، وأدنيه
فيبعده ، حتى أسلس قياده ، وسكن جماحه .

لم تخالط جفني سنة الكرى حتى خيل اليّ أنّي قد انتقلت من العالم
الاول الى العالم الثاني ، ورأيت كاني بعثت بعد الموت وكان أبناء آدم
بجتماعون في صعيد واحد يحاسبون على اعمالهم ، فالهمت أنه موقف
الحشر ؛ وأنه يوم الحساب .

وأنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ،
ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا الموقف الذي ينشد فيه
كل ذي نفس نفسه ، فلا يجد اليها سبيلاً ، فطفقت أتصفح وجوه
الواقفين ، وأقلب النظر في الغادين والرائحين ؛ عليّ أجد صديقاً أستانس
به في وحدتي ؛ وأستعين بمرافقته على وحشتي ، فلا أرى الا خلقاً غريباً ،

ومنظراً عجبياً ، ووجوهاً ما رأيت لها في حياتي شبيهاً ولا ضربياً ، ولو
لا أني أعلم ان الحساب خاص بالانسان لظننت ان الله يحاسب في هذا
الموقف جميع أنواع الحيوان .

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغها من نفسي رأيت على البعد وجهاً
يبتسم لي ويدنو مني رويداً رويداً ؛ فأرقلت نحوه حتى بلغتته فاذا
صديقي «فلان» واذا وجهه يتلألأ تلالؤ الكوكب في علياء السماء ؛
فسألته ما فعل الله به ؟ فقال حاسبني حساباً يسيراً ثم غفر لي ، وها أنذا
ذاهب الى ما أعد الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم ، فعجبت
لشأنه وقلت في نفسي : لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعد ما هان
على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه : لا يتقي مائماً ، ولا يهاب منكراً ؛
ولا يخرج من حان الا الى حان ، ولا يودع جمعاً من مجامع الفسق الا على
موعد من اللقاء ، فنظر اليّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت
منها ان الرجل قد ألم بما ضمّرتة في نفسي ، فذكرت ان قد كشف الغطاء
في هذه الدار ؛ وان قد رفع الحجاب بين الناس : فلا سر ولا جهر ، ولا
بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللسان وخطرات الجنان ، نظر
اليّ تلك النظرة وقال : لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجب ،
واعلم ان الله حاسبني على كل ما كنت أجتري من الآثام في الدار الأولى ،
الا أنه وجد لي في جريدة حسناتي حسنة ذهبت بجميع السيئات : ذلك
أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر ،
نكبه دهره نكبة ذهبت بماله ، فأهمني أمره وأزعجني ان أراه في مستقبل

أيامه بائساً معدماً ، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدي اليهم نعمته ، فاحتلت على ان ادخل في بيته خادماً كانت في بيتي وجعلت لها جعلاً على ان تدس في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بما تاها ، ولا يقف على سرّها ؛ وما زال هذا شأني وشأنه ، لا يعلم من اين يأتيه رزقه ، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله ، وذهاب ماله ، حتى فرّق الموت بيني وبينه ، فما نفعتني عمل من اعمالى ما نفعتني هذا العمل ، وما كان الاحسان وحده سبب سعادتى ؛ بل كان سببها أنه اصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت اليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة . فقال : اما الوحشة فلن أفارقك حتى يأتي دورك ، اما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شأنك ، فقلت : انت من السعداء ؛ فهل تستطيع ان تشفع لي او تطلب لي شفاعه من ولي من الأولياء او نبي من الأنبياء ؟ قال : لا تطلب المحال ، ولا تصدق كل ما يقال ، فقد كنا مخدوعين في الدار الاولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها لنا تجار الدين بئس غال ولا يتقون الله في غشنا وخذاعنا ؛ وما الشفاعة الا مظهر من مظاهر الاكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقربين ؛ فلا يشفع عنده احد الا بإذنه ، ولا يأذن بالشفاعة لأحد الا اذا كان بين اعمال المشفوع له او في اعمال سريره ما يقتضي إثارة بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى اجل من العبث وأرفع من المحاباة .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة

العذاب تحيط برجل يساق الى النار ، ورأينا في يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه، وهو يصرخ ويقول: « أهلكني يا أبا حنيفة » فسالت صاحبي : ما ذنب الرجل ؟ فقال : انه كان في حياته يتخذ في اعماله ما يسمونه « الحيل الشرعية » فكان يهب ما لأحد أولاده على نية استرداده قبل ان يحول عليه الحول ، ليتخلص من فريضة الزكاة ، ويطلق زوجته ثلاثا ، ثم يأتي بمحلل يحللها له فيعود الى معاشرتها ؛ وكان يرابي باسم الرهن ، فاذا جاءه من يريد ان يقترض منه مالا أبى ان يقرضه الا اذا وضع في يده رهناً ، فاذا وضع يده على ضيعته ألزمه ان يستأجرها منه بمال كثير يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح واصل المال ؛ وكان اذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته ، او لا يأكل رغيفاً أكله الا لقمته منه ، فذنبه أنه كان يعتمد الى الاحكام الشرعية فينتزع منها حكمها واسرارها ، ثم يرفعها الى الله قشوراً جوفاء ليخدع بها ويغشه فيها كما يفعل مع الاطفال والبله ، مستنداً على تقليد أبي حنيفة او غيره من كبار الأئمة ، وابو حنيفة ارفع قدراً وأهدى بصيرة ، من ان يتخذ هزواً وسخرية ، وان يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين .»

وما انقطع عنا صوت هذا الشقي ، حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة ، قد احاط به ملكان وشدا عنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة ، وقد اخذ كل منهما بطرف منها ، وهو يهمهم بكلمات مبهمه فيقرعه احدهما على رأسه ويقول له : « أمكر وانت في الحديد؟ » فدنوت منه وانعمت النظر في وجهه فعرفته ، فتراجعت ذعراً وخوفاً وصحت

ايكون هذا من اشقياء الآخرة ، وقد كان بالأمس من أقطاب الاولى !
فقال لي صاحبي : ان هذا الذي كنت تحسبه في أولاه من الاقطاب كان
اكبر تاجر من تجار الدين ، وما هذه اللحية والسبحة والمهمة الاحبائل
كان ينصبها لاصطياد عقول الناس واموالهم ، ولكن الناس لا يعلمون .

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يرون بنا : هذا الى جنته ،
وذاك الى ناره، وانا اسأل عن شأن كل منهم واحداً فواحداً فأرى سعيداً
من كنت احسبه شقيماً ، وشقيماً من كنت احسبه سعيداً ، فسجلت ان
الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم ، لا على جوارحهم ،
ويسألهم عن نياتهم ، لا عن افعالهم ، وان لا سعادة الا الصدق ، ولا شقاء
الا الكذب ، وعامت ان الله لا يغفر من السيئات الا ما كان هفوة من
الهفوات ، يلم بها صاحبها المأماً ، ثم يندم عليها ، ورأيت ان اكبر ما يعاقب
عليه جنابة المرء على اخيه بسفك دمه او هتك عرضه او سلب ماله، وان
اضعف الوسائل الى الله ذلك الركوع والسجود ، والقيام والتعود ، فلو
ان امرأ قضى حياته بين ليل قائم ، ونهار صائم ، ظلم طفلاً صغيراً في
لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته الى سيئات ، وما اغنى عنه نسكه
من الله شيئاً .

وبيتاً انا احدث نفسي بهذا الحديث ، واقلب النظر في وجوه تلك
المواعظ والعبر ، اذ قال لي صاحبي : اتعرف هذين ؟ وأشار الى رجلين
واقفين ناحية يتناجيان : احدهما شيخ جليل ابيض اللحية ، وثانيهما
كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده ، فما هي الا النظرة الاولى حتى

عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام « محمد عبده » ورجل المرأة « قاسم امين » فقلت اصاحبي : هل لك في ان ندنو منها ونسرق نجواها من حيث لا يشعران ؟ ففعلنا ؛ فسمعنا الاول يقول للشاني : ليتك يا قاسم اخذت برأيي واحللت نصحي لك محلا من نفسك فقد كنت أنهاك ان تفاجيء المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل ان تاخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها وارقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء ؛ فقال له صاحبه : اني اشرت عليها ان تتعلم قبل ان تسفر ، وان لا ترفع برقعها قبل ان تنسج لها برقعاً من الادب والحياء ؛ قال له : ولكن فاتك ما كنت تنبات به من انها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل ، وضعيفة لا تعباً بهذا الاستثناء ، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فقتل نفسه ، فقال : اتأذن لي يا مولاي ان اقول لك : انك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ ، وانك نصحتني بما لم تنتصح به ، انا اردت ان انصح المرأة فافسدتها كما تقول . وانت اردت ان تحيي الإسلام فقتلته ؛ انك فاجات جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما اردت ؛ وفهموا غير ما فهمت . فأصبحوا ملحدين ، بعد ان كانوا مخرفين ، وانت تعلم ان ديناً خرافياً خير من لا دين . اولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التاويل قاعدة حتى اولوا الملك والشيطان والجنة والنار اوبينت لهم حكم العبادات واسرارها وسفوت لهم رأيهم في الاخذ بقشورها دون لبائها ، فتركوها

جملة واحدة وقلت لهم : ان الولي اله باطل ، والله اله حق ؛ فانكروا
الالوهية حقها وباطلها ؛ فتهلل وجه الشيخ وقال له : ما زلت يا قاسم في
اخراك ، مثلك في دنياك ، لا تضطرب في حجة ، ولا تنام عن نار ، لا
تحمل هما ، ولا تخش شراً ، وثق ان الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا ،
ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا ، انا ما اردنا الا الخير لامتنا ، وما اردنا
لها الا ما تحتمله عقولنا ، فان كذبت فراستنا او اخطأ تقديرنا فذلك لان
المستقبل بيد الله .

وما وصلا من حديثها الى هذا الحد حتى تركا مكانها ، وذهبا لشأنها ؛
فقلت لصاحبي : هل لك ان تريني الميزان والصراط والجنة والنار ، فاني
ما زلت في شوق الى رؤية تلك الاشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها في
« خريطة الآخرة » التي رسمها الشعرا في بعض كتبه ، قال : اما الميزان
فتقدير الاعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات ، واما الصراط فهو
سبيل الانسان الى سعادته او شقائه ، واما الجنة والنار فلا علم لي حتى
الساعة بهما .

وبينا انا كذلك اذ سمعت صوتاً صارخاً ما قرع سمعي في حياتي مثله
يناديني باسمي ، فعلمت ان قد جاء دوري ، فأدر كني من الهول والرعب
ما ايقظني من نومي ، فاستيقظت فلم أر حساباً ولا عقاباً ولا موقفاً ولا
محشراً ، فعلمت انها خيالات واوهام ، او اضغاث احلام ، وما نحن
بتاويل الاحلام بعالمين .

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم امام المرأة، فلمحت في رأسي شعرة بيضاء ، تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء .

رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي^(١) فارتعت لمرآها كأنما خيل الي أنها سيف جرده القضاء على رأسي ، او علم ابيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب يندرنى باقتراب الاجل ، او ياس قاتل عرض دون الامل ، او جذوة نار علقت باهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل ، ولا بد لها منها ترفقت في مشيتها واتادت في مسيرها من ان تبلى مداها ، او من خيط خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتعدده لباساً لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل .

ايتها الشعرة البيضاء ! ما رأيت بياضاً اشبه بالسواد من بياضك ، ولا نوراً اقرب الى الظلمة من نورك ، لقد ابغضت من أجلك كل بياض

(١) الفرق : موضع افتراق الشعر .

حتى يياض القمر ، وكل نور حتى نور البصر واحببت فيك كل سواد
حتى سواد الغربان وكل ظلام حتى ظلام الوجدان .
أيتها الشعرة البيضاء ! ليت شعري ! من أي نافذة خلصت الى
رأسي ؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت الى فودي ؟
كيف طاب لك المقام في هذه الارض الموحشة التي لا تجددين فيها انيساً
يسامرك ، ولا جليساً يساهرك ، وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل
الفاحم ولم يعيش بصرك في هذا الظلام القاتم .
أيتها الشعرة البيضاء ! لقد عييت بأمرك ، وبعلت^(١) بجملك ،
واصبحت لا اعرف وجه الحيلة في البعد عنك ، والفرار من وجهك ، ولا
ينفعني معك ان اتزعك من مكانك ، لأنك لا تلبثين ان تعودتي اليه ، ولا
ينقذني منك ان اخضبك بالسواد ، لأنك لا تلبثين ان تنصلي^(٢) ولايني لا
احب ان اجمع على نفسي بين مصيبتين : مصيبة الشيب ومصيبة الكذب .
أيتها الشعرة البيضاء ! يخيل اليّ وانا انظر اليك انك من ذات الحيلة
والدهاء والكيد والخبث ، وانك تهمسين في آذان اخواتك السود اللواتي
يجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك ، والتردي بردائك ، وكاني بك ..
وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حرباً شعواء ، وقتنة عمياء ،
يختلط فيها الرامح بالنابل^(٣) والدارع بالحاسر^(٤) ويهلك فيها القاعد
والقائم والمظلوم والظالم ..

(١) بعل الشيء : برم به واستغله .
(٢) نصل الشعر : خرج من الخضب .
(٣) الرامح : حامل الرمح . والنابل : ذو النبل .
(٤) الدارع : لابس الدرع ، والحاسر : خلفه .

ان كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شان ذلك السائح الابيض، الذي ينزل بأمة الزنج مستكشفاً ، فيصبح مستعمراً ، ويدخل ارضها سلباً ويفارقها حرباً ، فاسأل الله لرأسي العافية منك ، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك ، فكلاهما مشؤوم الطلعة في مقامه وارتحاله ، وكوكب النخس في وقوفه وتسياره .

أيتها الشعرة البيضاء ! ما انت وما شأنك ؟ وما وفودك الي ؟ وما مكانك مني ؟ وما مقامك عندي ؟ ان كنت ضيفاً ، فإني استئذان الضيف وتلفه ، وتعلمه وتودده ، وان كنت نذيراً ، فأنا اعلم من الموت وشأنه ما لا احتاج معه الى نذير ، فلم يسبق الا تكووني اوقح الخلاق وجهاً ؛ واصلبها خدأً ، وانك قد نزلت من السهابة والفضول منزلة لا أرى لك فيها شيئاً الا تلك الحية التي تلج كل جحر من اجحار الهوام والحشرات تعده جحرها ، وتحسبه بيتها .

أبلغ بك الشان وانت التي يضربون الامثال بدقتها وخفائها ، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها ، فلا يكادون يعرفون السبيل الى مدارجها ومكانها ان تملئي من الرعب قلباً لا يروعه السيف المجرد ، ولا السهم المسدد ؟

أيتها الشعرة البيضاء ! هل لك ان تتجاوزي عما اسأت به اليك في إطالة عتبك ، واستثقال ظلك ؟ فلقد رجعت الى نفسي فعلمت انك اكرم الخلاق عندي ، واعظمها شأناً في عيني .

هنيئاً لك رأسي مصيفاً ومرتعباً ، وهنيئاً لك فودي مراداً ومسرحاً ،

فانت رسول الموت الذي ما زلت اطلبه منذ عرفته فلا اجده سبيلا ،
ولا اعرف له رسولا .

ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه ،
فيحزن على ذهابه ؛ ولم يذق حلاوة الحياة ، فيجزع لمرارة المات ، ولم
يستنشق نسيمات السعادة غصناً رطباً ؛ فيأسى عليها عوداً يابساً .

ما الذي ينقمه من شؤونك رجل يعلم انك وحي الامل الذي يشره
بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناء .. الا لحظات قليلة
يكدرها ما يحيط بها من الهموم والأحزان .. كما تكدر أنفاس الحزن
الحارة صفحة المرأة .

أليس كل ما أعدّه عليك من الذنوب انك طليعة الموت ، والموت
هو الذي يخلصني من منظر هذا العالم الملوء بالشرور والآثام ، الحافل
بالآلام والأسقام الذي لا اغمض عيني فيه الا لأفتحها على صديق يغدر
بصديقه ، وأخ يخون اخاه ، وعشير يحدد أنيابه لمضغ عشيره ، وغني
يضن على الفقير بفتات مائدته ، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة الموت
فلا يظفر بأمنيته ، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته ، ومملوك لا يميز
بين ملك الملك وربوبيته ، وقلوب تضطرم حقداً على غير طائل ،
ونفوس تتفانى قتلاً على لون حائل ، وظل زائل ، وغرض باطل ،
وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها وانياب تمزقها ، وعيون حائرة في
رؤوس طائفة ، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها ، وتلع ولا تكاد تبصر
ما امامها ؛ ان كان هذا هو ظاهر ذنبك عندي فاستكثري من ذنوبك ،

فاني لك من الغافرين .

أيتها الشعرة البيضاء ! مرحباً بك اليوم ، ومرحباً بأخواتك غداً ..
ومرحباً بهذا القضاء المختبئ ، ورائك أو الكامن في اطوائك ، ومرحباً
بتلك الغرفة التي اخلو فيها بري ، وآنس بنفسي ، من حيث لا اسمع
حتى دوي المدافع ، ولا أرى حتى غبار الوقائع .

أهلاً بوافدة للشيب واحدة وان تراءت بشكل غير مودود

* * *

الصيد

حدّث احد الاصدقاء قال : بينا انا في منزلي صبيحة يوم إذ دخل علي رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها عليّ فلم اسأله فيها بل تقدته الثمن الذي أراده ، فأخذه شاكرًا متهللاً وقال : هذه هي المرة الأولى التي اخذت فيها الثمن الذي اقترحتة ، احسن الله اليك كما احسنت اليّ وجعلك سعيداً في نفسك كما جعلك سعيداً في مالك ؛ فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت في ان تتفتح لها ابواب السماء المغلقة دوني ، وعجبت ان يهتدي شيخ عامي الى معرفة حقيقة لا يعرفها الا القليل من الخاصة ، وهي ان للسعادة النفسية شأناً غير شأن السعادة المالية ، فقلت له : يا شيخ ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال ؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال : لو كانت السعادة سعادة المال لكنت انا اشقى الناس ، لأنني افقر الناس ، قلت : هل تعد نفسك سعيداً ؟ قال : نعم ، لأنني قانع برزقي مقتبط بعيشي ، لا احزن على فائت من العيش ، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع ، فن أي باب يخلص الشقاء

الى قلبي؟ قلت: أيها الرجل، اين يذهب بك؟ ما أرى الا انك شيخ قد
اختلس عقله، كيف تعد نفسك سعيداً وانت حاف غير منتعل، وعار
الاقليلا من الأسمال البالية، والاطهار السحيقة؟ قال: ان كانت السعادة
لذة النفس وراحتها، وكان الشقاء ألمها وعناءها، فانا سعيد؛ لأنني لا اجد
في رثائة ملبسي، ولا في خشونة عيشي، ما يولد لي ألماً، او يسبب لي
هماً، وان كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك، فانا لا افهمها الا كذلك؛
قلت: ألا يحزنك النظر الى الاغنياء في أثاثهم ورياشهم، وقصورهم
ومراكبهم، وخدمهم وخبولهم، ومطعمهم ومشربهم؟ ألا يحزنك هذا
الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم؟ قال: إنما يصغر جميع هذه المناظر
في عيني ويهونها عندي أني لا اجد اصحابها قد نالوا من السعادة بوجودها
اكثر مما نلته بفقدانها.

هذه المطاعم التي تذكرها ان كان الغرض منها الامتلاء فانا لا اذكر
أنى بت ليلة في حياتي جائعاً، وان كان الغرض منها قضاء شهوة النفس
فانا لا آكل الا اذا جعت؛ فاجد لكل ما يدخل جوفي لذة لا أحسب ان
في شهوات الطعام ما يفضلها؛ أما القصور فلان لدي كوخاً صغيراً لا
أشعر أنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فاقرع السن على ان لم يكن قصراً
كبيراً؛ وان كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي ان أحمل
شبكة على عاتقي كل مطلع فجر واذهب بها الى شاطئ النهر فأرى
منظر السماء والماء، والاشعة البيضاء، والمروج الخضراء، فاهي الالفتة
الجيد ان يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مجن من ذهب او

قطعة من لهب ، فلا يبعد عن خط الافق ميلا او ميلين حتى ينثر فوق
سطح النهر حليه المتكسر ، او درّه المتحدر ، فاذا تجلى هذا المنظر أمام
عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها ، ملك علي شعوري ووجداني ،
فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة ، حتى أحب ان اعود
الى نفسي الى يوم النشور ، ولا ازال هكذا هائماً في أحلامي حتى اشعر
بجذبة قوية في يدي ، فانتبه فاذا السمك في الشبكة يضرب ، وما
اضطرابه الا أنه فارق الفضاء الذي يهيم فيه مطلق السراح ، وبات في
الحبس الذي لا يجد فيه مراحاً ولا مضطرباً ، فلا اجده شبيهاً في حالتيه
الا الفقراء والاغنياء . يمشي الفقير كما يشتهي ويتنقل حيث يريد كأنما هو
الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير ، ولولا ان
تخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء ؛ ولا تنقل حيث
يشاء ، أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق ،
ومن الأرصاد أغلال وأطواق ، ولا يخرج من منزله إلا اذا وقف أمام
المرآة ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظراً ومنظوراً ، ثم يطيل
التفكير : هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً ؟ حتى اذا استوثق
لنفسه بذلك خرج الى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة
التي استقر رأيه عليها ، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات ،
حتى لا يخرج بذلك عن حكمها ؛ ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار
بمشاهدة الكون وآياته ، مخافة ان يغفل عن اشارات السلام ، ومظاهر
الإكرام .

فاذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الاسواق او على أبواب المنازل ، فاذا أدبر النهار عدت الى منزلي ، فيعتنقني ولدي وتبش في وجهي زوجتي ، فاذا قضيت بالسعي حق عيالي بالصلاة حق ربي نمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة ، لا أحتاج معها الى ديباج وحرير او مهد وثير ، فهل أستطيع ان أعد نفسي شقياً ، وأنا أروح الناس بالآ ، وان كنت أقلهم مالا ؟

لا فرق بيني وبين الغني ، إلا ان الناس لا ينهضون لإجلالي اذا رأوني ولا يمدون أعناقهم نحوي اذا مررت بهم ، وأهون به من فرق لا قيمة له عندي ، ولا أثر له في نفسي ، وما يعنيني من أمرهم ان قاموا او قعدوا ، او طاروا في الهواء ، او غاصوا في أعماق الماء ، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم ، وما دمت لا أنظر اليهم الا بالعين التي ينظر بها الإنسان الى الصور المتحركة .

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم الا تلك العلاقة بيني وبين ربي فانا أعبده حق عبادته وأخلص في توحيده ، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه ، ولا أكتمك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس ، ولقد اخذ هذا اليقين مكانه من قلبي ، حتى لو طلع على الملك المتوج في مواكبه وكواكبه ، وراياته وأعلامه ، لما خفق قلبي خفقة الرهبة والخشية ، ولا شغل من نفسي مكاناً اكثر مما يشغله ملك التمثيل .

ولقد كانت هذا اليقين اكبر سبب في عزائي ، وراحة نفسي من

المهموم والاحزان ؛ فما نزلت بي ضائقة ولا هبت عليّ عاصفة من عواصف
هذا الكون الا انتزعني من بين مغالبها وهونها عليّ ؛ حتى لا أكاد اشعر
بوقعها ؛ وكيف أتالم لمصاب أنا اعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه ،
وأنتي مأجور عليه على قدر احتمالي إياه ، وسكوني اليه ؟

آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره ؛ وباليوم الآخر ثوابه وعقابه ؛
فصغرت الدنيا في عيني ، وصغر شأنها عندي حتى ما افرح بخيرها ، ولا
احزن لشرها ، ولا أعول على شأن من شئونها حتى شأن الحياة فيها ؛
وأقسم ما خرجت مرة الى ضفة النهر حاملاً شبكتي فوق عاتقي الا وقع
الشك في نفسي : هل اعود الى منزلي حاملاً او محمولاً ؟

ما العالم الا بحر زاخر ، وما الناس الا اسماكه المائجة فيه . وما ريب
المنون الا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما
تمسك وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غداً ،
فكيف اغتبط بما لا املك ، او اعتمد على غير معتمد ، إذن أنا اضل
الناس عقلاً واضعفهم إيماناً !

قال المحدث : فأكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار ، واعجبت
بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه .
وقلت له : يا شيخ ان الناس جميعاً يبكون على السعادة ويفتشون عنها
فلا يجدونها . فاستقر رأيهم على ان الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك
عنها ، فكيف تعد العالم سعيداً وما هو إلا شقاء ؟ قال : لا يا سيدي ، ان
الإنسان سعيد بفطرته ، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء الى نفسه ،
يشدد طمعه في المال فيتعذر عليه مطعمه ، فيطول بكأؤه وعناؤه ،

ويعتقد ان بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه ، فاذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه ، انّ وشكا شكاة المظلوم من الظالم ؛ ويبالغ في حسن ظنه بالأيام ، فاذا غدرت به في محبوب لديه من مال او ولد ، فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والآلم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر ، وقتل الايام علماً وتجربة وعرف ان جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة ، ووديعة موقوتة ، وان هذا الإحراز الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها .. ان اكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما يأتي من طريق الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتالم كلما وقع نظره على محسود ؛ والحقود يتالم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه ، والطماع يتالم كلما ناجته بالإثم سريرته ؛ والظالم يتالم كلما سمع ابتهاج المظلوم بالدعاء عليه ، او حاقت به عاقبة ظلمه ؛ وكذلك شأن الكاذب والنام والمغتتاب ، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل .

ومن أراد ان يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة ، والا فهو أشقى العالمين ؛ وان احرز ذخائر الارض وخزائن السماء .

قال الصديق : فما وصل الصياد من حديثه الى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال : استودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك واحببتها لك ، وهي : ان يجعلك الله سعيداً في نفسك ، كما جعلك سعيداً في مالك ..

والسلام عليك ورحمة الله .

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين ، ولو ربي التلميذ تربية دينية لما هان عليه ان يخسر سعادته الأخروية خسراناً مبيناً أسفاً على ان لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية ، ولو ربي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لانها لم تقدم اليه في لفاقة الشهادة المدرسية ، ولو ان أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه : ان جناية المرء على نفسه اكبر إثماً عند الله واعظم جرماً من جنايته على غيره ، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته ، وهي الساعة التي ينيب فيها العاصي الى ربه ، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه . ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الاخلاق والآداب ان العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب ان ينظر اليه طالبه من حيث ذاته ؛ لامن حيث كونه وسيلة من وسائل العيش ، لما جرى على القاعدة الفاسدة « والشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ولو أنه رباه

على الاستقلال الذاتي وعلمه ان الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد في خدمة الامة او المجتمع سواء أكان في قصر الملك أم في دار الوزارة ، وفي حانوت التجارة ، أم في معمل الصناعة ، لما اكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار ، ولا احتفل بها احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها ، ولو أنه نفث في روعه روح الشجاعة النفسية وعوده الصبر والجلد في مواقف الشدة والبلاء ، لما جزع هذا الجزع الفاضح ، ولا جن هذا الجنون الذي خيل إليه ان عذاب التزع أهون من عذاب الهم .

لا يجني الطالب على نفسه ؛ وإنما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه .

أما الوالد فانه يقول له وهو ذاهب به الى المدرسة : ستكون غداً يا بني مديراً كهذا المدير ، ووزيراً كهذا الوزير ؛ وكلما أراد ان يحضه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله في الامتحان صور له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنع ؛ وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي فيقول له : اذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضل من حياتك ، أما الاستاذ فانه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني ، إذ يراه بعينه يتجرع مرارة النل ، ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً ؛ ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف ، حرصاً على منصبه وإرعاء عليه . فكأنما يلقي عليه درساً عملياً موضوعه « ان من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته ، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة » ؛

أما المجتمع فإنه يحترم الموظف الصغير ، أكثر مما يحترم العالم الكبير ،
ويطير الى تهنئته بإقبال المنصب عليه وتعزيتته يوم إداره عنه ؛ كان
الكوكب لا يدور الا في دائرة المناصب نحوساً وسعوداً ؛ فاذا رأى
الناشيء ذلك اكبر الوظيفة أيما إكبار ؛ ولج به الحرص عليها والتصق بها
وكان سروره وحزنه على قدر قريبها منه ، او بعدها عنه ؛ فاذا وفق اليها
لطم بأنفه قبة السماء . وداس بنعله هام الجوزاء ، وان يئس منها قتل
نفسه وهو يتمثل بقول الشاعر الاحق :

* فلما الثريا وإما الثرى *

أيها الناشيء : لقد جهل أبوك ، وغشك أستاذك ، وخذعك هذا
المجتمع الفاسد ، فكن احسن حالاً منهم ، واعلم ان شرف العلم اكبر من
شرف المنصب . وان المنصب ما كان شريفاً الا لانه حسنة من حسنات
العلم ، وأثر من آثاره ، فان فاتك حظك منه فلا تحفل به ، فهو أحقر
من ان تشتد في أثره ، او تبذل حياتك وجداً عليه ، ولا تحسد ارباب
المناصب على مناصبهم ؛ فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول ، وظاهر
من النعمة ، وبهرج من الابتسام ؛ ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دماً ،
وفؤاد يضطرم لوعة وأسى .

خذ لنفسك حظها من العلم والادب ، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد
ربحت كل شيء .

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة ، سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات ، وفي الحقائق أم في الخيالات .

ما كان الوجه الجميل جميلا الا للتناسب بين اجزائه ، وما كان الصوت الجميل جميلا الا للتناسب بين نغماته ، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسنة ، ولولا التناسق في ازهار الروض ما هام به الشعراء .

ليس للتناسب قاعدة مضطربة يستطيع الكاتب ان يبينها ، فالتناسب في المراثيات غيره في المسموعات ، وفي الرسوم غيره في الخطوط ، وفي الشئون العلمية غيره في القصائد الشعرية ، على أنه لا حاجة الى بيانه ما دامت الاذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح اليه ، وما لا يلائمها فتتنفر منه .

ان كثيراً من الناس يستحسنون الانف الصغير في الوجه الكبير والرأس الكبير في الجسم الصغير ، ولا يفرقون بين البرص في الجسم

الاسود ، والحال في الحد الابيض ، ويطربون لنقيق الضفادع كما يطربون
لخرير المياه ، ويفضلون أصوات النواير على أنغام العيدان ، ويعجبون
بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعي اكثر ما يعجبون بشعر أبي
الطيب وأبي تمام والبحري، ويضحكون لما يبكي، وييكون مما يضحك ،
ويرضون بما يغضب ، ويغضبون بما يرضى !

اولئك هم اصحاب الازواق المريضة ، واولئك هم الذين تصدر عنهم
افعالهم واقوالهم مشوهة غير متناسبة ولا متلائمة ، لانهم لم يدركوا سر
الجمال فيصدر عنهم ولم تألفه نفوسهم ، فيصبح غريزة من غرائزهم .

ان رأيت شاعراً يتديء قصائد التهنئة بالبكاء على الاطلاق ، ويودع
القصائد الرثائية بالنكات الهزلية ، ويتغزل بمدوحه كما يتغزل بمشوقه ؛
او متكلماً يقتضب الاحاديث اقتضاباً ، ويهزل في موضع الجد ، ويجد في
موضع الهزل ؛ او صحفياً يضع العنوان الضخم للخبر التافه ، ويكتب
مقدمة في السماء لموضوع في الارض ، او حاكماً يضع الندى في موضع
السيف ، والسيف في موضع الندى ، او ماشياً يتلوى في طريقه من
رصيف الى رصيف ، كأنما يرسم خطأ متعرجاً ، او لابساً في الشتاء غلالة
الصيف ، وفي الصيف فروة الشتاء ، فأعلم ان ذوقه مريض ، وأنه في
حاجة الى معالجة ذوقه ، كحاجة المجنون الى علاج عقله ، والمريض الى
علاج جسمه .

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه ، ولا كل مريض يرجى ابلاله ،

كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فان رأيت من تؤمل في
اصلاحه خيراً ، وتجد في نفسه استعداداً لتقويم ذوقه ، فعلاجه ان تحفه
بأنواع الجمال ، وتدأب على تنبيهه الى متناسباته ومؤلفاته ، وان
استطعت ان تعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى
فافعل ، فانها المقومات للأذواق ، والغارسات في النفوس ملكات الجمال .

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب ، فلا تامن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد ، وأهرب من وجهه الهرب كله ، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك : الرجل الكاذب .

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع ، ولعلمهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية ، ولو شاءوا لأضافوا الى كذب الاقوال كذب الافعال .

لا فرق بين كذب الاقوال وكذب الافعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه ، ولا فرق بين ان يكذب الرجل فيقول : إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضني مسالا أرده إليك ، ثم لا يؤديه بعد ذلك ، وبين ان يأتيك بسبحة بهمهم بها فتنتطق بسبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء ، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى ، لا بل يستطيع كاذب الافعال ان يخدعك

ألف مرة قبل ان يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حر كاته وسكناته.

ليس الكذب شيئاً يستهان به ، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له ، بل هو الرذائل نفسها . وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة .

المنافق كاذب لان لسانه ينطق بغير ما في قلبه ، والمتكبر كاذب لانه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته . والفاسق كاذب لانه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه ، والنام كاذب لانه لم يتق الله في فتنته ، فيتحرى الصدق في نيمته ، والمتملق كاذب لان ظاهره ينفعل ؛ وباطنه يلذعك .

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات وتتحدث بخوارق العادات .

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة ، وويل له من صديق يخون العهد ، ورفيق يكذب الود ، ومستشار غير أمين ، وجاهل يفشي السر ، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه ، وشيخ يدعي الولاية كذباً ، وتاجر يغش في سلعته ، ويحنث في إيمانه ، وصحفي يتجر بعقول الاحرار ، كما يتجر النحاس بالعبيد والإماء ، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء .

غرفة الاحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه ، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه ، فكان يروقي منظره ويؤنسني محضه ، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته ، او فسقه واستهتاره ، لانني ما فكرت قط ان أتلقى عنه علوم الشريعة او دروس الاخلاق .

قضيت في صحبته عهداً طويلاً ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئاً حتى سافرت من القاهرة سقراً طويلاً فتراسلنا حيناً ، ثم انقطعت عني كتبه فرايني من أمره ما رايني ، ثم رجعت فجعلت أكبر همي ان أراه فطلبتة في جميع المواطن التي كنت ألقاه فيها فلم أجده ، فذهبت الى منزله ، فحدثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد ، وأنهم لا يعرفون أين مصيره ، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان ، يغالب أولهما ثانيها حتى غلبه ، فأيقنت أني قد فقدت الرجل ، وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً .

هنالك ذرفت من الوجد دموعاً لا يذرفها الا من قلّ نصيبه من
الاصدقاء ، وأقفر ربه من الاوفياء ، وأصبح غرضاً من اغراض الايام ،
لا تخطئه سهاماً ولا تغبه آلامها^(١) .

بيناً أنا عائد الى منزلي في ليلة من ليالي السرار^(٢) إذ دفعني الجهل
بالطريق في هذا الظلام المدهم الى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه
في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان ، او ماوى الغيلان ،
فشعرت كأنى أخوض بجرأ أسود ، يزخر بين جبليين شامخين ، وكان
أمواجه تقبل بي وتدبر وترتفع وتنخفض ، فما توسطت لجته حتى سمعت
في منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تتردد في جوف الليل ، ثم تلتها
أختها ثم أخواتها ، فآثر في نفسي مسمعها تأثيراً شديداً وقلت : يا للعجب !
كم يكتّم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين ، وخفايا المحزونين ..
وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة
المساعد ان استطعت ، او الباكي ان عجزت ، فتلمست الطريق الى ذلك
المنزل حتى بلغت ، فطرقت الباب طرقة خفيفاً فلم يفتح ، فطرقت
أخرى طرقة شديداً ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسليخ العاشرة من
عمرها ، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها ، فاذا هي في
ثيابها الممزقة ، كالبدن وراء الغيوم المتقطعة ، وقلت لها : هل عندكم
مريض ؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها ، وقالت : أدرك أي
أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت ؛ ثم مشت أمامي فتبعتها حتى

(١) أغبه الألم ؛ جاءه حيناً بعد حين . (٢) ليالي السرار ؛ الليالي الأخيرة من الشهر .

وصلت الى غرفة ذات باب قصير مسمم ، فدخلتها ، فخيّل إليّ أنّي قد انتقلت من عالم الاحياء الى عالم الاموات ، وان الغرفة قبر ، والمريض ميت ، فدنوت منه حتى صرت بجانبه ، فاذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشي . فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه واطال النظر في وجهي ، ثم فتح شفثيه قليلا قليلا ؛ وقال بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت صديقي » فشعرت كأن قلبي يتمشى في صدري جزعاً وهلعاً ، وعلمت أنّي قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها ، وكنت أتمنى ألا أعثربها ، وهي في طريق الفناء ، وعلى باب القضاء ، وألا يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً ، وبين اضالعي دفيناً ، فسألته ما باله ؟ وما هذه الحال التي صار إليها ؟ وكان أنسه في أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور ، فأشار إليّ أنه يحب النهوض ، فمدت يدي إليه ، فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص عليّ القصة الآتية :

منذ عشر سنين كنت اسكن أنا ووالدتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من ارباب الثراء والنعمة ، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور اجنحتها على مثلها حسناً وبهاء ، ورونقاً وجمالاً ، فآلم بنفسي من الوجد بها ما لم استطع معه صبراً ، فما زلت بها أعالجها فتمتنع . واستزها فتعتذر ، وأتأتى الى قلبها بكل الوسائل فلا اصل اليه . حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فأنحدرت منه اليها ، فسكن جاحها ، وأسلس قيادها ، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد ، وما هي الا أيام قلائل

حتى عرفت ان جنيناً يضطرب في احشائها ، فاسقط في يدي ، وطفقت
أرتثي بين ان أفي لها بوعدها او اقطع حبل ودّها ، فأثرت أخراهما على
أولاهما ، وهجرت ذلك المنزل الذي كنت تزورني فيه ، ولم أعد أعلم بعد
ذلك من أمرها شيئاً .

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال ، وفي ذات يوم جاءني منها مع
البريد هذا الكتاب ، ومد يده تحت وسادته واخرج كتاباً بالياً مصفراً ،
فقرأت فيه ما يأتي :

« لو كان بي ان اكتب إليك لأجدد عهداً دارساً ، او وداً قديماً ، ما
كتبت سطرأ ، ولا خططت حرفاً ، لأنني اعتقد ان عهداً مثل عهدك
الغادر ، ووداً مثل ودك الكاذب ، يستحق ان احفل به فاذكره ، او
أسف عليه فاطلب تجديده .

انك عرفت حين تركتني ان بين جنبي ناراً تضطرم ، وجنيناً
يضطرب ، تلك للأسف على الماضي ، وذاك للخوف من المستقبل ، فلم
تبال بذلك وفزرت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر الى شقاء انت
صاحبه ، ولا تكلف يدك مسح دموع انت مرسلها ، فهل استطيع بعد
ذلك ان اتصور أنك رجل شريف ؟ لا ... بل لا استطيع ان اتصور
انك إنسان؛ لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجاوات
وأوابد الوحش الا جمعتها في نفسك ، وكل ما في الامر أنك رأيتني
السبيل الى إرضائها فمررت بي في طريقك إليها ، ولولا ذلك ما طرقت
لي باباً ، ولا رأيت لي وجهاً .

خُنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعديك ذهاباً بنفسك ان
تتزوج امرأة مجرمة ساقطة ، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة الا صنعة
يديك وجريرة نفسك ، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة ، فقد دافعتك
جهدي حتى عييت بأمرك ، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير ،
بين يدي الجبار الكبير .

سرت عفتي ، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب ، استثقل الحياة
واستبطنى الاجل ، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع ان تكون
زوجة لرجل ولا أما لولد ، بل لا تستطيع ان تعيش في مجتمع من هذه
المجتمعات البشرية الا وهي خافضة رأسها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدها
على كفها ، ترتعد اوصالها وتذوب احشاؤها ، خوفاً من عبث العابثين
وتهكم المتهاكمين.

سلبتني راحتي لأنني اصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة الى الفرار من
ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة ابي وامي ، تاركة ورائتي تلك
النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد الى منزل حقير في حي مهجور لا
يعرفه احد ، ولا يطرق بابه ، لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من ايام
حياتي .

قتلت امي وابي ، فقد علمت انها ماتا ، وما احسب موتها الا حزناً
لفقدي ، وياساً من لقائي .

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك ، والهلم الطويل

الذي عاجلته بسببك . قد بلغا مبلغها من جسمي ونفسي ، فأصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفساً في نفس ، واحسب ان الله قد صنع لي ، واستجاب دعائي ، واراد ان ينقلني من دار الموت والشقاء ، الى دار الحياة والهناء .

فانت كاذب خادع ، ولص قاتل ، ولا احسب ان الله تاركك دون ان ياخذ لي بحقي منك .

ما كتبت اليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً ، او اخطب إليك وداً ، فانت اهون عليّ من ذلك ، إنني قد اصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها ، سعادتها وشقتها ، فلا امل لي في ود ، ولا متسع لعهد ، وإنما كتبت إليك لان لك عندي وديعة وهي فتاتك ، فان كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الابوة ، فأقبل اليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما ادرك امها من قبلها .

فما اتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدّر على خديه فسألته : وماذا تم بعد ذلك ؟ قال : إنني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في جميع اعضائي ، وخيل اليّ ان صدري يحاول ان ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً ، فأسرعت الى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن ، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها ، ورأيت فتاتها الى جانبها تبكي بكاءً مرّاً ، فصعقت لهول ما رأيت ، وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية ، واساود ملتفة ، هذا ينشب اظافره ، وذاك يحدّد انيابه ، فما افقت حتى

عاهدت الله ألا ابرح هذه الغرفة التي سميتها « غرفة الاحزان » حتى
اعيش فيها عيشها ؛ واموت موتها .

وها أنذا اموت اليوم راضياً مسروراً ، فقد حدثني قلبي ان الله قد
غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء ، وكابدت من الشقاء .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه
وسقط على فراشه فاسلم الروح وهو يقول : ابنتي يا صديقي ؛ فلبثت
بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ، ثم كتبت الى
اصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته ؛ ومارئى مثل يومه يوم كان
اكثر باكية وباكياً .

ولما حثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

يعلم الله أني اكتب قصته ، ولا املك نفسي من البكاء والنشيج ؛ ولا
أنسى ما حييت ندائه لي وهو يودع نسمات الحياة ، وقوله : « ابنتي يا
صديقي » .

فيا اقوياء القلوب من الرجال ، رفقا بضعفاء النفوس من النساء .
انكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن ، وعفتن .. أي قلب
تفجعون ، وأي دم تسفكون !!

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء .

ما من عامل يعمل في هذه الحياة الا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوره ، يقتل القاتل وفي اعتقاده ان الشرف في ان ينتقم لنفسه او عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم ، ولا يبالي ان يسميه القانون بعد ذلك مجرماً ؛ لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية ؛ وهي في نظره اعدل من القانون حكماً ، واصدق قولاً .

يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفى عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذي يظل الاعفاء والمستقيمين ، وأنه استطاع ان يعمل عملاً لا يقدم عليه الا كل ذى حذق وبراعة ، وشجاعة وإقدام .

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن ، وفي اعتقاد كل منهم ان الشرف كل الشرف في إحراز المال وان كان السبيل اليه دنيئاً وسافلاً ، وان للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته اصوات المعترضين والناقدين شيئاً

فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه .

هكذا يتصورّ الأديباء انهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه ، وما افسد عليهم تصورهم الا الذين احاطوا بهم من سجرائهم وخاطائهم وذوي جامعتهم ؛ اولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه ، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستهتر فيطرونه ويجلونه ، ويكرمون صاحب الذهب ، ولو ان كل دينار من دنائره محجم من الدم ، واولئك الذين يسمون الفقير سافلا ، وطيب القلب مغفلاً ، وطاهر السرير بليداً ، والحليم عاجزاً .

لا تعجب ان سمعت ان جماعة الاغنياء الجهلاء تنعكس في ادمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوباً غير ثوبها ، وتترامى في لون غير لونها ، فان بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم وتمتدح افهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى ليكاد يفخر بالاولى ويستحي من الاخرى .

لولا فساد التصورّ ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة ، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية او الاجتماعية ، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب اسماء العلماء والحكماء والاطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها واصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة ، ولولا فساد التصورّ ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسي

القضاء يفتل شاربه ويصمر خديه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء الى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل ، ولا ذنب له عنده الا أنه جاع وضافت به مذاهب العيش فسرق درهماً، وهو يسرق الدنانير في جميع أثنائه واوقاته . ولولاه لما توهم اللص الكبير أنه اشرف من هذا اللص الصغير ، ولو باتا عند قدرهما لوقفاً معاً في موقف واحد امام قاض عادل يحكم بإدانة الاول لأنه سرق مختاراً ليرفه عيشه ، وبراءة الثاني ، لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت .

فمن شاء ان يهذب أخلاق الناس، ويقوم معوجها، فليهذب تصوراتهم وليقوم أفهامهم ، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم .

ليس الرأي من ان يشير المعلم على المتعلم ان يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزاناً يزن به اعماله او مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته ، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقه بوزنه وتقديره .

ليس من الرأي ان يرشد المعلم المتعلم الى ان يطلب في حياته الشرف الاعتباري فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك .

الاترام يعدون اشرف الشرف ان يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة او الذهب او يحلي بها صدره ، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله ، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها ؟

لا شرف الا الشرف الحقيقي ، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته

او ماله او راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه او خدمة نوع من انواعه .

فالعالم شريف ، لأنه يجلو صدأ العقل الإنساني ويصقل مرآته ؛
والمجاهد في سبيل الذود عن وطنه شريف ، لأنه يحمي مواطنيه غائلة
الاعداء ويقيمهم عادية الفناء ؛ والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه
شريف لأنه يأخذ بأيدي الضعفاء ويحيي أنفس البائسين ؛ والحاكم العادل
شريف ، لأنه رسول العناية الإلهية الى المظلومين يمنهم ان يبغى عليهم
الظالمون ؛ وصاحب الاخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه
وجمال صفاته في عثراته وخلطائه ، ويلقي عليهم بالتقوية الصالحة افضل
درس في الاخلاق والآداب ؛ والصانع والزارع والتاجر اشراف متى
كانوا أمناء مستقيمين ، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع
البشري ويحتملون في سبيل ذلك ما يحتملون من المؤنة والمشقة حذراً
عليه من التهافت والسقوط .

فان رأيت في نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء ، فاعلم أنك
شريف والافاسلك طريقهم جهديك ، فان لم تبلغ غايته فاخذ القليل خير
من ترك الكثير ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي .

المحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصة قصصها أحد الكتاب موضوعها ان كاتبها غاب عن بلده بضعة اعوام ، ثم عاد اليها بعد ذلك فزار صديقاً له من اسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الاخلاق الكريمة والانفس العالية ، فوجده حزينا كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره ، فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويحلمها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده ، وانها فرت منه الى عشيق لها رقيق الحال وضع النسب ، فاجتهد الكاتب ان يلقي تلك الفتاة ليغرف منها سر فرارها من بيت زوجها ، فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت اليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه في الاربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين ، وقالت : انها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وان خالفت الشرائع الدينية ؛ لان الاولى عادلة ، والثانية ظالمة ، وقالت : ان ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة ، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع الا ان تاذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها

للمام الازواج بنسائهم ما دامت لا تحببه ولا تألف عشرته ، وقالت : لو ادرك الناس اسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية ، وأنها ربما تعدّ المرأة في بيت زوجها زانية ، وفي بيت عشيقها طاهرة ، اذا كانت تكره الاول .

هذا ملخص القصة على طولها ، واحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء او تأييد مذهب من المذاهب ، لان الكاتب قد أعذر^(١) تلك الفتاة فيا فعلت ، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها^(٢) وقضى لها فيما كان بينهما . وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية ، فالحق أقول : ان الكاتب أخطأ في وضعها وما كنت احسب الا ان مذهب الإباحية^(٣) قد قضى واتقضى بانتقضاء العصور المظلمة ، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الامة العربية ، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به .

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة ، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها اليها دافع خداع او سائق حاجة ثم تاب اليها رشدتها وهداها ، فقلنا : لا بأس بتهوينهم ذنباً جسمته العادة ، وألبسته ثوباً اوسع من ثوبه ، ولا بأس برحتهم فتاة مذنبه تحاول الرجوع الى ربها ، والتوبة من ذنبها ، ويأبى المجتمع البشري الا ان يسد عليها

(١) أعذرهما : قبل عذرهما .

(٢) أعداها عليه : ألصف لها منه .

(٣) مذهب قديم كان يستعمل أصحابه كل شيء رأياً واعتقاداً .

ابواب السماء المفتحة للقائلين والمجرمين .

أما وقد وصل الحد الى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمها عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها الى ذلك داع من الهوى ، فهذا ما لا يطاق احتمال ولا يستطيع قبوله ؛ ان فتاة الرواية لم تهف في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد ، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها ، ولم يسقها الى ذلك سائق شهوة بشرية ان صح ان تكون الشهوة البشرية عنراً يدفع مثلها الى مثل ما صنعت ؛ لأنها فرّت من فراش زوجها ، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع ؛ لأنها كانت أهنا النساء عيشاً ، واروحن بالآ ، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في اعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد ، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة .

ان كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً في وضع كلمة الفساد في معاجمهم ، لأنها لا مسمى لها في هذا العالم ، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح ، ولا يمكن ان يكون المراد منها فتاة المواخير لأنها لم تترك وراءها زوجاً معذباً منكوباً ، ولم ترض عن حياتها الجديدة التي انتقلت اليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة .

كل الأزواج ذلك الزوج الا قليلا ، فاذا جاز لكل زوجة ان تفر من

زوجها الى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الاول وبرقت لها بارقة الأانس من بين ثنايا الثاني ، فويل لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم الف سلام .

أيها الكاتب ! ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة احد من الناس ان يقف دورة الفلك ويصد كر الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الاربعين من عمره مخافة ان تراه زوجته غير اهل لعشرتها اذا علمت ان في الناس من هو اصغر منه سناً وأكثر منه روثقاً وانضر شباباً .

إن الضجر والسامة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه ، وعلم ان نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشرتها ، ويطول ائتلافها ، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب ، وأمر الزوجين أن يعتبروا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينها وبين رجوعها الى طبيعتها ، وذهابها في أمر الزوجية مذهبها في المطاعم والمشارب ، من حيث الميل لكل جديد ، والشغف بكل غريب .

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته ، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلاً من الزواج ، فقد خالف إرادة الله وحاول ان يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية .

أي امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله بأجمل

منه؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتعمق ان يكون في منزله أجمل منها، لولا هذا الرباط المقدس : رباط الزوجية ، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأمانى وتلك الهواجس وهو الذي يعيد الى النفوس الثائرة سكونها وقرارها .

لا بأس ان يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه ، ولا بأس ان تصنع المرأة صنيعه ، ولكن لا على معنى ان يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج ، يحيا بحياته ويموت بموته . فالقلوب متقلبة ، والأهواء نزاعة ، بل بمعنى ان يكون كل منها لصاحبه صديقاً أكثر منه عشيقاً ، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها ، ويمتد ظلها ، أما الحب فظل ينتقل ؛ وحال تتحول .

الاسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجيبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام ، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الإسلام يضمن به ضنه بنفسه وماله ان يؤمن بالوحدانية ، ويصدق الرسالة المحمدية ، ويقوم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع اليه سبيلاً !

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته ان الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة ، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدينة الرومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران .

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل ، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من ان يناقشه وينظره ويخاطبه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام ؟ وكيف يسمح لنفسه ان ينظر اليه بالعين التي ينظر بها المسلم اليه من

حيث كونه نبياً مرسلًا موحى إليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ أما ما نقرؤه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته ، فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق ، فلم يعبت التعصب الديني بكتاباتهم ، ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم ولا ريب في أن اللورد كرومر ليس واحداً منهم ، فإن من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خيل إليه أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره .

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجيليين ، وجرائدهم ومجلاتهم ، من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه ؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب ، وليست مسألة الإعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال ، وإنما الإعراب ما نطق به العرب ، واللحن ما لم ينطقوا به ؛ فلو أنهم اصطالحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكأن رفع الأول ونصب الثاني لحناً ، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات ، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دونها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتتبعوا

تراكييه وأساليبه ، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد ، فالقرآن حجة على النجاة ، وليست النجاة حجة على القرآن ، فإذا وجد في بعض تراكييب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النجاة حكمنا بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء ، على أنهم قصرُوا في شيء من ذلك ، وما تركوا كثيراً ولا قليلاً ولا نادراً ولا شاذاً إلا دونوه في كتبهم ، فلا القرآن بملحون ، ولا النجاة مقصرون ، ولكن البشريين جاهلون ، فإذا كانت التعصب الديني انطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه .

إننا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ولكننا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا ، وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم .

يقول اللورد كرومر : إن الدين الإسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدينة الإسلامية ، ولا يصلح للنظام الاجتماعي ، ويقول : إن ما لا يصلح له الدين الإسلامي يصلح له الدين المسيحي ، ويستدل على الإسلام بالمسلمين ، وعلى المسيحية بالمسيحيين .

في أي عصر من عصور التاريخ ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدينة وال عمران ؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليك تارة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس

الانسانية ، وبكت الارض منها والساء ؟ أم في العصر الذي كانت ارادة
المسيحي فيه صورة من ارادة الكاهن الجاهل ؛ فلا يعلم الا ما يعلمه اياه ،
ولا يفهم الا ما يلقيه اليه ، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه
بكفر او ايمان ، وبهيمية او انسانية ، فيكاد يتخيل ان له ذنباً متحرراً
وخيشوماً طويلاً ، وانه يمشي على اربع اذا قال له الكاهن : انت كلب :
او قال له : انك لست بإنسان ؟ أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي
ان دخول الجمل في سم الخياط اقرب من دخول الغني في ملكوت
السماوات ؟ أم في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الاعظم على المسيحي
ان ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس . وان يتلقى علماً في مدرسة
غير مدرسة الكنيسة ؟ أم في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب
فدعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائض الشكوى فطردها
من الجوفولت الادبار ؟! أما في العصر الذي اهدى فيه الرشيد العباسي
الساعة الدقاقة الى الملك شارلمان ، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها
فرّ من وجهها ظناً منه انها تشتمل على الجن والشياطين ؟! أم في العصر
الذي ألقت فيه محكمة التفتيش لحاكمة التهمين بزاولة العلوم فحكمت في
وقت قصير على ثلاثمائة واربعين ألفاً بالقتل حرقاً او صلباً ؟ أم في العصر
الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق
عظمها لانها كانت تشغل بعلم الرياضه والحكمة ؟

هذا الذي نعرفه ايها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان
والمدينة والعمران في العصور المسيحية ، ولا نعلم اكانت تلك المسيحية

التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك ام باطلة ،
وانما نريد ان نستدل بالمسيحيين على المسيحية ، وان لم تقف على حقيقتها
كما فعلت انت في استدلالك بالمسلمين على الاسلام وان لم تعرف حقيقته
وجوهره ، على ان استدلالنا صحيح واستدلالك باطل ، فان المدنية
الحديثة ما دخلت اوربا الا بعد ان زحزحت المسيحية منها لتحتل محلها
كالماء الذي لا يدخل الكاس الا بعد ان يطرد منه الهواء لانه لا يتسع لهما ،
فان كان قد بقي اثر من آثار المسيحية اليوم في اكواخ بعض العامة في
اوربا فما بقي الا بعد ان عفت عنه المدنية ورضيت بالابقاء عليه ، لا
باعتبار انه دين يجب أجلاله واعظامه ، بل باعتبار انه زاجر من الزواجر
النفسية التي تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شررة النفوس
الجاهلة ، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيث يستدل به
عليها ، او باعتبار انه أثر من آثارها ، ونتيجة من نتائجها ، ولو كان بينه
وبينها علاقة ما افرقت عنه خمسة عشر قرناً كانت فيها اوربا وراء ما
يتصوره العقل من المهجية والوحشية والجهل ، فما نفعها مسيحيتها ولا
اغنى عنها كهنتها .

اما المدنية الاسلامية فانها طلعت مع الاسلام في سماء واحدة من مطلع
واحد في وقت واحد ، ثم سارت الى جانبه كتفاً لكتف ما ينكر من
امرها ولا تنكر من امره شيئاً ، فالتعبد في مسجده ، والفقيه في درسه ،
والمعرب في خزانة كتبه ، والرياضي في مدرسته ، والكيائي في معمله ،
والتقاضي في محكمته ، والخطيب في محفله ، والفلكي امام اسطرلابه ،

والكاتب بين محابره وأوراقه ، اخوة متصافون واصدقاء متحابون لا
يختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا ينبغي احد منهم
على احد .

ايها الفيلسوف التاريخي : ان كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر
فالمدينة الغربية اليوم اثر من آثار الاسلام بالامس ، والانحطاط الاسلامي
اليوم ضربة من ضربات المسيحية الاولى . واليك البيان :
جاء الاسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج اليه في معاده ومعاشه
ودنياه وآخرفته ، وما يفيدته منفرداً ، وما ينفعه مجتمعاً .

هذب عقيدته بعد ما افسدها الشرك بالله والاسفاف الى عبادة التماثيل
والاوثان ، واحناء الرؤوس بين ايدي رؤساء الاديان ، وارشده الى
الايان بالوهية اله واحد لا يشرك به شيئاً ، ثم ارشده الى تسريح عقله
ونظره في ملكوت السموات والارض ليقف على حقائق الكون وطبائعه ،
وليزداد ايماناً بوجود الإله وقدرته وكمال تديره ، ليكون اقتناعه بذلك
اقتناعاً نفسياً قليياً ، فلا يكون آلة صماء ، في يد الاهواء تفعل به ماتشاء ،
ثم ارشده الى مواقف تذكره بربه وتنبيهه من غفلته وتطرد الشرور
والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلاً ، وهي مواقف العبادات
ثم اطلق له الحرية في القول والعمل ، ولم يمنعه من الشرك بالله والاضرار
بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها ، وعلمه أن الإنسانية لا
فرق بين فقيرها وغنيها ووضعها ورفيعها وضعيفها وقويها ، وأن الملك
والسوقة ، والشريف الهاشمي ، والعبد الزنجي : امام الله والحق سواء ،

وأنت الأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، والنفع والضر ، والثواب والعقاب ، والرحمة والغفران : بيد الله وحده لا ينازعه منازع ، ولا يملكها عليه احد من الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، ثم نظر في اخلاقه فأرشده الى محاسنها ، ونفره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب ، والنوم والمشي ، والجلوس والكلام ، والتحية والسلام ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ويرحم الوالد ولده . ويعطف الأخ على أخيه ، ويكرم الزوج زوجته ، وتطيع الزوجة زوجها ، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الاقرباء وذوي الرحم ، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير وندبه إلى الصدقة ومساعدة الاقوياء للضعفاء ، وعطف الاغنياء على الفقراء . ثم شرع له الشرائع للمعاملة الدنيوية . ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والاجازة والمزارعة والوقف والوصية والميراث ، ليعرف كل إنسان حقه ، فلا يغبن أحداً ، ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه ان يبغى بعضه على بعض بشتى اوسب او قتل او سرقة او انتهاك حرمة او مجاهرة بمعصية او شروع في فتنة او خروج على امير او سلطان ، ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافات وشروطها ، والقضاء وصفاته ، والامارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفين في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ، ومواضع المسألة لهم .

وجملة القول : ان الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الانسان يمشي في ميادات هذه الحياة خطوة من مهده الى لحده ، الا مديده اليه وأنار له مواقع أقدامه ، وأرشده الى سواء السبيل .

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء العرب فلأت الكون نوراً وإشراقاً ، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ، ومنكر لوجودها ولكنهم كانوا جميعاً سواء في الانتفاع بنورها ، والاستنارة بضيائها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع .

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت اشعتها البيضاء الى أوروبا من طريق اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا ، فأبصرها عدد قليل من أذكيا الغربيين ، فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الاسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ ، فقالوا : أيمن أن يعيش الانسان حراً على ظهر المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسرقه كاهن؟ أيمن ان يبیت المرء ليلة واحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في مرقده ، لا يروعه دولا ب العذاب ، ولا سيف الجلاذ؟ أيمن ان تملك النفس حریتها في النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها؟ أيمن ان يطلع فجر المدينة على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت ابصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضاً ؟

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول اولئك الأذكياء هي الخطوة الاولى التي مشتها اوربا في طريق المدنية والعمرات بفضل الاسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الافراد من مخالطة المسلمين في اوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم ، ثم اخذوا يعلمونها للناس سراً ويثيرونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ، ويلقون في سبيل نشرها عناء شديداً ، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى امره بالثورة الفرنسية ، فكانت هي القضاء الاخير على الوحشية السالفة والمهجية القديمة .

أيها الفيلسوف التاريخي : انك لا بد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ ان يعلمه ، كما تعلم ان المدنية الاسلامية اذا وسعت غيرها فأحر بها ان تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه ، فما كفالك ان انكرت فضل صاحب الفضل عليك ، حتى انكرت عليه فضله في نفسه !

لا حاجة بي ان اشرح لك المدنية الاسلامية او اسرد لك اسماء علمائها وحكائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والاخلاق والعمران ، أو أعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب ، او اصف لك مدنها الزاهرة ، وأمصارها الزاخرة ، وسعادتها وهناءتها ، وعزتها وسطوتها ، فانت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول .

غير اني لا انكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الاخيرة من الضعف

والفتور ، وما اصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب ذلك الاسلام كما تتوهم ، بل المسيحية التي سرت عدواها اليهم على ايدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا ببلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء ، وامرائه الجهلاء ، فأمدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين ، حتى افسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم ، ووقعوا الفتنة فيهم ، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الاسلام وقوته فكان من امرهم بعد ذلك ما كان .

كل ما نراه اليوم بين المسلمين : من الخلط في عقيدة القضاء والقدر ، وعقيدة التوكل ، وتشديد الأضرحة وتخصيص القبور وتزيينها والترامي على اعتبارها ، والاهتمام بصور العبادات واشكالها دون حكمها واسرارها ، واسناد النفع والضرر الى رؤساء الدين ، وأمثال ذلك أثر من آثار المسيحية الأولى ، وليس من الإسلام في شيء .

أيها الفيلسوف التاريخي : لا تقل اننا متعصبون تعصباً دينياً فانك قد اسأت الينا والى ديننا ، فلم نر بدأ من الذب عنا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب ، على أنه لا عار علينا فيما تقول ، وهل التعصب الديني الا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم ؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله .

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافض

أهناء أم عزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم وما ثرم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعد ما كانوا فينا سفراء خير بين المدينة الغربية والمدينة الشرقية .. يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى ، وبعد ما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة .

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون الينا فنسئء اليهم ، ويعطفون علينا فنسميمهم تارة دخلاء ، وأخرى ثقلاء ، كأنما كنا نحسب انهم قوم من شذآذ الآفاق او نفايات الأمم جاءوا الينا يصادروننا في أرزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو انصفناهم لعرفناهم وعرفنا ان اكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، وانما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً ، وكذلك شأن كل حكومة مستبدّة مع احرار النفوس وأبأة الضيم،

فأخرجت صدورهم ، وضيقت عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تاراً
وراءهم شرفاً ينعام ، ومجداً يبكي عليهم ، وتزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ،
واساتذة كباراً ، فما احسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم .

وبعد : فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، وأصبحنا اليوم كلما
ذكرناهم خفقت افئدتنا مخافة ان يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعلم انشكر
للدستور ان فرج عنهم كربتهم ، وامنهم على أنفسهم ، وردهم الى اوطانهم
أم ننقم منه أنه كان سبباً في حرماننا منهم ، بعد أنسنا بهم ، واغتباطنا
بحسن عشرتهم وجميل مودتهم ، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام
العثماني الجديد في هناء أم في عزاء ؟ .

فيا أيها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا اذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

الزوجتان

حدثني احد الاصدقاء قال : ساقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين .

أويت الى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية الإهاب فما استقبلت اول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فتسمعت فاذا الخادم تقول : ان امرأة سيئة الحال رثة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول : ان لها عندك شأنا ، فقلت في نفسي : لا شأن لي مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها اليّ اكثر من حاجتي الى النوم ، على ان النوم لا يفوتني ، فليل الشتاء اطول من يوم القضاء ، فارتديت ردائي ونزلت ، فاذا فتاة في ملاء بالية وخمار خلق ينم بجهاها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس ، وإذ هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي : أما في الناس أخوهمة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفئ هذه الجذوة التي تتأجج بين اضالعي بقطرة

واحدة من الرحمة ؟ فقلت : من انت يرحمك الله ؟ قالت : انا فلانة زوج فلان ، فدهشت وغصت برريقي حتى ما اجد بلة احرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت ، وقلت : يا للعجب ! زوج فلان على عظمه وعظمتها ، وجلاله وجلالها ، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزة ! وسالتها : ما شانك يا سيدتي ومم تبكين ؟ قالت : لا تحدث نفسك بريية ولا تذهب بك الظنون مذاهبها ، فوالله ما جئت اليك تحت ستر الليل الا وانت اوثق الناس عندي ، وأرفعهم في عيني ، ولولا شدة اقلقت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضت اليك سواد الليل في مثل هذه الساعة ولا احتملت في سبيل ذلك ما احتملت ، قلت : عهدي بسيدتي رحية البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزواج عذب الاخلاق كريم السجايا يؤثر هوى نفسه على هواك ، ولا يعدل بك أحداً ، قالت : انك تقص عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر ، والكوكب السيار ، فاستمع مني حديث اليوم :

اظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنه كان منذ ثلاثة اعوام ، وان أبي قد آثره وفضله على جميع الخاطبين اليه من علية القوم وجلتهم ، وانا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شراً ولا اعتمد ان يسيء الاختيار لي ، ولكنه كان رجلاً طيب السريرة طاهر القلب ، فخدعه الخادعون عني ، ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية ، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتطبت به واغتبط بي برهة من الزمان حسبتها دائماً لا انقطاع لها

حتى يفرق بيننا الموت ، وكنت امرأة اجمع في نفسي جميع ما يمت به النساء الى الرجال ، فما خنته ولا ضقت ذرعاً به ، ولا قطبت في وجهه مرة ولا اتلفت له مالا ، ولا نقضت له عهداً ، فجازاني بالإحسان سوءاً ، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان ، وخان ودي ، ونقض عهدي ، لا لذنب جنيته ، او وصمة يصمني بها ، ولكنه رجل ملول متبرم ، ولا تغضب يا سيدي ان قلت لك : ان قلب الرجل متقلب متلون يسرع الى البغض كما يسرع الى الحب ، وان هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها اوثق منه عقداً ، وامتن وداً ، وأوفى عهداً ، ولو وفي الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع ان يفرق بين قلبيهما الا ريب المنون . قلت : اننا لا اغضب لشيء الا للإنسانية ان يخفر ذمامها ، وينقض عهدا ، ثم ماذا تم بعد ذلك ؟ قالت : مات أبي كما تعلم وخلف لي مالا امكنت منه زوجي فأتلفه بين الخمر والقمر ، فكنت أغضى على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده ، حتى اذا صفرت يدي واقفر ريعي احسست منه مللاً كان يدعو الى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي ، وكان كثيراً ما يتهم بي ويقول : انني لا احب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا افهمها ، وآونة كان يعرض بي قائلاً : ان الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة ، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التعريض احياناً الى التصريح ، فيقول كلما دخل علي متاففاً متذمراً : ليت لي زوجة كفلانة فانها تحسن الرقص والغناء والتوقع على الآلات الموسيقية ، فكنت أشك

في سلامة عقله ، واقول في نفسي : كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهتره على الحية المحتشمة ، ووالله ما تمنيت مرة ان اكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت ابذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس . وبعد ؛ فما زال الملل يدب في نفسه ديبب الصهباء في الاعضاء حتى تحول الى بغضاء شديدة ، فما كان يلحظني الا شراً ولا يدخل المنزل الا لتناول غرض او قضاء حاجة ، ثم يخرج لشانه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور ، وجنان وقور ، حتى عرض له بعد ذلك ان نقل الى منصب أرق من منصبه في بعض بلاد الاقاليم ، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلي ، فلبثت اترقب كتاباً منه يدعوني فيه الى اللحاق به ؛ فما أرسل كتاباً ولا رسولا ولا نفقة ، فاستكثبت اليه الكتاب فما اسلس قياده ، ولا طأوع عناده ، فسافرت اليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معي ، فما نزلت من القطار حتى قبض الله لي من وقفي على حقيقة أمره ، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية ، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية ، فداخلني من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع ، ولا أظن الا ان العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حساباً غير يسير .

وكانه شعر بمكاني ، فجاء اليّ يتهددني ويتوعدي فتوسّلت اليه

بيكاء طفلته التي كنت احملها على يدي ، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها ، وذهبت في استعطافه واستدناؤه كل مذهب ، فكنت كائنني اخاطب ركوداً صماء^(١) او استنزل أبوداً عصماء^(٢) ثم طردني وأمر من حملني الى المحطة ، فعدت من حيث اتيت .

فما وصلت الى المنزل حتى خلعت ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة في ذمام الليل ، لأنني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم ، ولأنني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى ان تري لي رأياً في التفريق بيني وبينه ، علني أجد في فضاء الحرية منفذاً كسم الحياط أرشفت منه ما أتبلغ به وأنا وطفلي حتى يبلغ الكتاب أجله .

فأحزنتني من أمر تلك الفتاة البائسة ما احزنتني ، ووعدتها بالنظر في أمرها بعد ان هونت عليها بعض احزانها ولواعجها ، فعادت الى منزلها وعدت الى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة ، وقد اكتنفتني هتان : هم تلك البائسة التي لم أر في تاريخ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها ولا نجماً انخس من نجمها ، وهم ذلك الصديق الذي ربحته سنين عدة وخسرتة في ساعة واحدة ، فقد كنت أغبط نفسي عليها فأصبحت أعزبها عنه ، وكنت أحسبه إنساناً فاذا هو ذئب عملس^(٣) تستره الصورة البشرية

(١) الركود - من الركود - وهو الثبات والسكون . والصخرة الصماء : الصلبة المصمتة .

(٢) أبدت البهيمية : توحشت . والمصماء من الظباء : التي في ذراعيها بياض وسائرهما أسود .

(٣) العملس : السريع .

وتواريه البشاشة والابتسامة .

هذا ما قصه عليّ ذلك الصديق الكريم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة ، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه امس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة ، وهذا نصه :

سيدي :

يهمني كثيراً ان أرى بين كتب التهنئة التي ترد اليّ كتاباً منك لأسر بشاركتك إياي في سروري وهنائي .

انك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها « فلان » وغدر بها وهجرها الى أخرى غيرها بعدما جردها بما كانت تملك يدها وما كان من أمر بجيشها عندي وبث شكواها اليّ ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك ، فأعلم انها دفعت زوجها الى موقف القضاء فضاقت بأمرها ذرعا فطلقها ، وكنت افكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة اجد السعادة في العيش بجانبها ، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا اكرم عنصراً ولا أذكى قلباً منها ، فتزوجتها فامتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانية المعذبة من شقوتها وبلاتها ، وابشرك ان الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاماً شديداً ، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر ،

والشقاء الاكبر ، وانها امرأة قد اخذت التربية الحديثة من نفسها ماخذاً عظيماً فحولتها الى فتاة غربية في جميع شؤونها واطوارها ، والرجل المصري شرقي بفطرته كائناً من كان ، أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه ، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء ، اضعاف ما كانت تقاسيه منه اشرف النساء ، والسلام ؟

*

في سبيل الاحسان

الإحسان شيء جميل ، وأجل منه ان يحل محله ، ويصيب موضعه .
الإحسان في مصر كثير ، ووصوله الى مستحقه وصاحب الحاجة
اليه قليل ؛ فلو أضاف المحسن الى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع
في ظلمة الليل شكاة بئس ، وأنة محزون .

ليس الإحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس ؛ فالعطاء قد يكون
نفاقاً ورياءً ، وقد يكون احبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس
الاعناق ، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليندل قليلا ويربح
كثيراً .

إنما الإحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتالم لناظر البؤس
ومصارع الشقاء ؛ فلو ان جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحساناً
— صادر عن تلك العاطفة الشريفة — لما تجاوز محله ، ولا فارق موضعه .

فوضى الاحسان :

الاحسان في مصر فوضى لا نظام له ، يناله من لا يستحقه ، ويحرم منه مستحقه ، فلا بؤساً يرفع ، ولا فقراً يدفع ، فثله كمثل السحاب الذي يقول فيه ابو العلاء :

ولو ان السحاب همي بعقل لما أروي مع النخل القتادا^(١)

الاحسان في مصر ان يدخل صاحب المال ضريحاً من اضرحة المقبورين فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة او الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً وأنعم بالآ ، او يهدى ما يسميه نذراً من نعم وشاء الى دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل لحمه والسوس الذي ينخر عظمه ، وما أهدى شاته ولا بقرته - لو يعلم - الا الى « وزارة الأوقاف » وكان خيراً له ان يهديها الى جاره الفقير الذي يبني ليله طاوياً يتشهى ظلفاً^(٢) يمك رمقه ، او عرقوباً يطفىء لوعته .

واعظم ما يتقرب به محسن الى الله ، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتها : ان ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات ، ينشدون مواطن الصلوات ، لا اماكن الصلوات ، او يبني بنية ضخمة مرفوعة القباب ، فسيحة الرحاب ، موهة الجوانب

(١) القتاد : شجر صلب له شوك لا فائدة منه .

(٢) ظلف البقرة : ظفرها

والأركان ، مذهبة السقوف والجدران يسميها « سبيلا » ولا يهولنك هذا الاسم الضخم ، فكل ما في الأمر ان السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر الا بضع خطوات ، على ان الماء كالهواء ملء الارض والسماء ، ويقف الضياع الواسعة من الارض لتنفق غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات ، وترديد الصلوات ، وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه احسن اليهم ، ولو عرف موضع الاحسان لأحسن اليهم بقطع ذلك الاحسان عنهم علمهم يتعلمون صناعة او مهنة يرتزقون منها رزقاً شريفاً ، فان كان يظن أنه يعمل في ذلك عملاً يقربه الى الله تعالى اجل من ان يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلماً الى طعام يطعمونه ، او درهم يتناولونه ، او يفتح ابواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق ، ولو انصفوهم لسموهم قطاع الطرق ، ولا فرق بين الفريقين : الا ان هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصى ، واولئك يتسلحون بالسبح والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع ، فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ولا خفاً ولا حافراً ، ولا شيئاً مما تنبت الارض من بقلها وقتائها وقومها وعدسها وبصلها .. الا أتوا عليه .

أسوأ الاحسان :

لم أر مالا أضيع ولا عملاً اخيب ولا إحساناً أسوأ من الاحسان الى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الارض ويقلبونها ظهراً لبطن ، ويجمعون في مفارق الطرق ، وزوايا الدروب ، وعلى ابواب الاضرحة والمزارات

يصموت الاسماع بأصواتهم المزعجة ، ويقذون النواظر بمنظرهم
المستبشعة ، ويزاحمون بناكبهم الفارس والراجل ، والجالس والقائم ،
فلو ان نجماً هوى الى الارض لهووا على أثره ، او طائراً طار الى الجو
لكانوا قوادمه وخوافيه ^(١) .

وان شئت ان تعرف التسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق
عطفك وحنانك ، وهل ما تسديه اليه من المعروف تسديه الى صاحب
حاجة ، فأعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد
ينفق عليها ، ولا مسكن له يحتاج الى مؤن ومرافق ، ولا شهوة له في
مطعم او مشرب او ملبس . حتى لو علم ان الانتقطاع عن ذلك الخسيس
من الطعام والقدر من الشراب ، لا يقعه عن السعي في سبيله لاتقطع
عنه ، وهو لو شاء ان يتزوج او يتخذ له ماوى يأوي اليه لفاعل ، ولو جد
في حرفته متسعاً لذلك ؛ ولكنه الحرص قد افسد قلبه وامات نفسه ، فهو
يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد ، ليجمع مالا لا فائدة من جمعه ،
ولانية له في اصلاح شأنه به اذا اجتمع عنده ما يقوم له بذلك ، بل ليدفنه
في باطن الارض حتى يدفن معه ، او لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه
الغاسل من بعده ، ولقد يبلغ به الحرص الدقء والشره السافل ، ان يحمل
في المال ما لا يستطيع مجاهد ان يحمل في سبيل الله ، فيتعمد قطع يده او
ساقه او إتلاف عينيه او إحداهما ، ليستعطف القلوب عليه ، وكثيراً ما
يحسد صاحبه اذا رآه اكثر منه دمامة ، واعظم تشويهاً .

(١) القوادم : الريشات التي في مقدم الجناح ، والحراقي : التي اذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

كما يحكى ان شحاذاً مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب
تقابل مع آخر كفيف البصر ، فتنافسا في مصيبتها أيتها أذى للأعين ،
واقتل للنفوس ، واجلب للرحمة والشفقة ، فقال الأول للثاني : لقد
وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك افضل حباله لاصطياد
القلوب واستفراغ الجيوب . فقال له صاحبه : واين يبلغ العمى من هذه
القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهباً ؟

ان اكبر جريمة يجرمها الإنسان الى الإنسانية ان يساعد هؤلاء
المسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغري كل من شعر
في نفسه بالميل الى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم، والاحتراف
بجرفتهم ؛ فكانه قطع من جسم الإنسانية عضواً كاملاً ، لو لم يقطعه لكان
عضواً عاملاً ، فكانه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة التي بذلها
الانبياء والحكماء قروناً عديدة لإصلاح المجتمع الانساني ، وتهذيب اخلاقه ،
وتخليصه من آفات الجود والخبول ؛ فهل رأيت معروفاً اقبح من هذا
وإحساناً أسوأ من هذا الاحسان ؟ !

تنظيم الاحسان :

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الاحسان بما يستهان
به ، فلو قال قائل : انها تبلغ في مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب
لما اخطأ التقدير .

سالت رجلاً من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والاحسان عن كمية

ما ينفقه كل عام في هذا السبيل ، فأطلعني على جريدة حسابه فرأيتها
هكذا :

جنيه

- ١٠ ولائم لمشايخ الطرق .
 - ٦٠ ليالي في موالد البيومي والعفيفي والدشطوطي .
 - ٧٢ مراتب قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله .
 - ٣٠ هبات لجماعة الطوافين في البلاد الذين يستجدون باسم المجد
القديم والشرف الدائر .
 - ١٨ صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً .
 - ١٠ توضع في صناديق الأضرحة .
 - ٤٠ ثمن خبز ولحم وملابس توزع في المواسم الدينية .
- ٢٤٠ المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الاحسان رجل واحد من
متوسطي الثروة في عام واحد ، وفي مصر مئات مثله وعشرات يزيدون
عليه وآلاف يقولون عنه ، فلا غرابة في ان يقدر هذا النوع من الاحسان
بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسله
وحمل العامل على ترك عمله ، وفي اعتقادي لو ان هذا المقدار حل من
الاحسان محله ، واصاب منه موضعه ، وأنفق في سبيل الخير النافعة ،
ووجوه البر الحقيقية ، لأرتقى بالأمة المصرية الى ذروة الكمال ، ولكان له
الأثر الجليل في وصولها الى ما تتطلع اليه من هناء العيش وسعادة الحياة .

لذلك أقترح في تنظيم الاحسان اقتراحاً نافعاً وأدعوا الكاتبين الذين لا مصلحة لهم في إثارة الخواطر وتهيج النفوس ، وضرب الناس بعضهم ببعض ، ان يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد .

أقترح ان يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها واصحاب الرأي فيها بتأليف مجتمع في القاهرة يسمى « مجتمع الاحسان » ويكون له في كل مدينة من الأقاليم فرع تابع له .

أما أعماله التي احب ان يقوم بها بالاتحاد مع فروعها فهي ثلاثة :

ا - استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الاحسان ، وما هو الغرض منه ، وما هي أفضل وجوهه ، وأي أنواعه اجمع لخيري الدنيا والآخرة .

ب - بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الاحسان هذا بيت مال لهم او وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها وحسبها ان تأخذ من كل فرد في عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام ، فلا يكون بعد ذلك مأخوذاً بشيء من الاحسان امام ربه ، وامام أمته اكثر مما قدمه لهذا المجتمع .

ج - إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكسبهم الدهر

وتنكر لهم بعد العزة والنعمة ، وصيانة ماء وجوههم ان تراق على تراب
الاعتاب ، والانفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفتنة ويرجى
ان تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء ، الى امثال هذه الاعمال
الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الاحسان بدونها ، ولا ينصرف معناه
الا اليها .

أنا اعتقد اعتقاداً لا ريب فيه ان من يخطو الخطوة الأولى في سبيل
هذا العمل الجليل ، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الانسان ، هو
افضل عامل في الوجود واشرف إنسان .

*

أدب المناظرة

أنا لا أقول إلا ما اعتقد ، ولا اعتقد إلا ما اسمع صداه من جوانب نفسي ؛ فربما خالفت الناس في أشياء يعلمون منها غير ما أعلم ، ومعدرتي اليهم في ذلك ان الحق أولى بالجمالة منهم ، وان في رأسي عقلا اجله عن ان اتزل به الى ان يكون سيقة^(١) للعقول ، وريشة في مهاب الاغراض والأهواء .

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس ان يرميني بجارحة من القول او صاعقة من الغضب لأني خالفت رأيه او ذهبت غير مذهبه ، او ان يرى ان له من الحق في حملي على مذهبه ، اكثر مما يكون لي من الحق في حمله على مذهبي .

لا بأس ان يؤيد الانسان مذهبه بالحجة والبرهان ، ولا بأس ان ينقض أدلة خصمه ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها ، ولا ملامة عليه في ان

(١) السيقة : ما يساق سوقا ؛ ومنه « إنا ابن آدم سيقه يسوقه الله » .

يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل الى نشر الحقيقة التي يعتقدونها الا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا اعتقد انها تنفعه او تغني عنه شيئاً ، وهي وسيلة الشتم والسباب .

ان لاخلاص المتكلم تأثيراً عظيماً في قوة حجته وحلول كلامه المحل الاعظم في القلوب والأفهام ، والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مختص فيها يقول ، فعبثاً يحاول ان يحمل الناس على رأيه ، او يقنعهم بصدقه ، وان كان اصدق الصادقين .

أتدري لم يسب الانسان مناظره ؟ لأنه جاهل وعاجز معاً ، أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادي مناظره وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة الى البحث في شؤون المناظر وأطواره وصفاته وطبائعه ، كان كل مبحث عنده مبحث « فسيولوجي » ؛ وما أعجزه فلأنه لو عرف الى مناظره سبيلاً غير هذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين ، محقاً كان أم مبطلاً .

لا يجوز مجال من الأحوال ان يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتأييدها ، واحسب ان لو سلك الكتاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم ، وما اختلفوا فيها الا لأنهم فيما بينهم مختلفون . يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها ، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من اجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وان كان هو

قويًا في ذاته ؛ لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمدَّ قوته من القلب ، فاذا جيء بالحجج والبراهين لجأ الى المراوغة والمهاترة ، فيقول لمناظره مثلا : إنك جاهل لا يعتد برأيك او إنك مضطرب الرأي لا ثبات لك ، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس ؛ وهنالك يقول له الناس : رويداً ، لا تخلط في كلامك ، ولا تراوغ في مناظرتك ، ولا شأن لك بعلم صاحبك او جهله ، فانه يقول شيئاً ، فان كان صحيحاً فسلم به ، او باطلاً فيبين لنا وجه بطلانه ، وهبه قولاً لا تعلم قائله ، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته ، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم ، والمرء يخطيء مرة ويصيب ، فاذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرَّ الى اضعف الوسائل وأوهنها ، فسب مناظره وشتمه وذهب في التمثيل به كل مذهب ، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة والخذلان في ذلك الميدان .

على ان اكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فان لكل شيء جهتين : جهة مدح ، وجهة ذم ، فإما ان تتساويا ، او تكبر إحداها الأخرى ، فإن كان الاول فلا معنى للاختلاف ، وان كان الثاني وجب على المختلفين ان يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق ، لا ان يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الاخير .

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه ؛ فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحدى الليالي وهما يتناظران في المرأة ، يعلو بها الملك الى مصاف الملائكة ، ويهبط بها الوزير الى منزلة

الشياطين ، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته ، فلما علا صوتها واشتد لجأها خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة ، ثم عاد وبين أنوابه لوح على احد وجهيه صورة فتاة حسناء ، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء ، فقطع عليها حديثها وقال لهما : أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها ، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسنة فامتدحها ورجع الى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذمًا قبيحًا ، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن انه يذم الصورة التي رآها هو . فلما عادا الى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفها الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكا كثيرا ، ثم قال لهما : هذا ما اتنا فيه منذ الليلة ، وما أحضرت اليكما هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلا لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتم تختلفان فيه لو انكما تنظران الى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيهما ، فشكر له همته ، وأثنيا على فضله وحكمته ، وانتفعا بجيلته انتفاعا كثيرا ، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلا .

الإحسان في الزواج

ورد إليّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع :

حضرة السيد الفاضل :

ضممني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فأخذته الرأفة بها فتزوجها ، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له ، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات ، ولم يستطع احد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه ، فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب اليك بذلك علك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة ، والسلام .

ف.س

أيها السائل الكريم :

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلا الى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها

إلا هذا السبيل ، كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا ، فقد أخطأ خطأ
جماً ، لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا أمر نفسه ، ولا يشغله من شؤون
تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته ، ويتعلق بلذته ، وآية ذلك أنه
لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها ، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها
ملكة الفساد الراسخة في نفسها ، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المهذب الذي
يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها ، بل لا
يكفيها مؤونة العيش ، ولا يرفهها ولا يقلبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر
بان في قلبه بقية من الشغف بها ، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم ان فراقها
لا يهيج له وجداً ، ورجوعها الى عيشها السالف لا يثير منه غيرة ، فارقها
فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها ، ولا يخالطه أسف على
سقوطها ، وهناك تعود تلك المسكينة الى عشا الذي طارت منه وقد
أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة
ما الله عالم به .

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاء لشهوته وإثارة للذته ، لا ينفعها
ولا يحسن اليها ؛ لأنه لا يهذب نفسها ، ولا يفني لها بما عاهدها عليه من
البقاء معها ، والاستمرار على عشرتها ، بل يسئ اليها بسوء تصرفه معها
فبيغض اليها الصلاح ويوجب اليها الفساد ، وعندئذ انه في عمله هذا فاسق
لا متزوج ، لأنه لو لم ير أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع
في الاستمتاع ما سمي مهراً ولا عقد عقداً .

فإن كان حقاً ما تقول من ان باعته الى ذلك الرحمة والرافة والحنان

والشفقة فقد أحسن كل الإحسان ، ولا أحسب ان بين أعماله الصالحة عملاً
هو افضل عند الله ذخراً واعظم أجراً ، من هذا العمل الصالح .

العرض أثن من الحياة ، فان كان من يمنح الحياة فاقدها شريفاً ،
فاشرف منه من يرد العرض الضال الى صاحبه المفجوع فيه .

ليت الرجال يتفقون جميعاً على ان يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة
كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها الى البغاء ، بل ليتهم يتفقون
على الزواج منهن قبل ان تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن .

لم لا يكون باباً من ابواب الاحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال
الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجهن من اولادهم واقربائهم ،
وإن لم يكن من ذوات الجمال أو ذوات النسب ؛ لأنه إحسان ، والاحسان
لا يجمل الا اذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء .

لو عرف المحسنون معنى الاحسان لعرفوا أن إنفاق الاموال على بناء
التكاييا والزوايا ، وتوزيعه على المتسولين والمتكفين ، ووقفه على
القارئين والذاكرين ، لا يدخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره
لهم الاحسان الى النساء بالعصمة من البغاء .

البغاء للبغى شقاء ما جناه عليها إلا رجل ، فجدير به ان يغرم ما
أتلف ، ويصلح ما أفسد .

يهاجم الرجل المرأة ويعد لها جمتها ما شاء الله ان يعده من وعد
كاذب ، وقول خالب ، وسحر جاذب ، حتى اذا خدعها عن نفسها ،

وغلّبها على أمرها وسلبها أئمن ما تملك يدها ، نفض يده منها وفارقها
فراقاً لا لقاء بينهما من بعده .

هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين ، مسبلة دمعها على
خدها ملقّية رأسها على كفها ، تظلي أناملها التراب ، لا تدري اين تذهب ،
ولا ماذا تصنع ، ولا كيف تعيش ا

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ؛ لأن الرجل
يسميا ساقطة ؛ وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه ؛ لأن
الرجل اهل شأنها ، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش ؛
وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ؛ لأن الرجل يؤثر ان يمنحها القنطار
حراماً ؛ على ان يمنحها الدرهم حلالاً ، فلا تجد لها بدأ من ان تطلبه من
طريق البغاء .

فها انت ذا ترى ان شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة ،
وان الرجل هو الذي يمثل جميع ادوارها ، ويظهر في كل فصل من
فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فإننا لا نزال
نعتقد ان الرجل غريم المرأة ، وان حقاً عليه ان يؤدي دينه ، ويفرم
أرش " جنائته .

ان أبي الرجل ان يتزوج المرأة بغيا فليحل بينها وبين البغاء ، ولا
سبيل له الى ذلك الا اذا اعتبر الزواج باباً من ابواب الإحسان ، أي أنه

(١) الأرش : دية الجراحات .

يتزوجها لها اكثر مما يتزوجها لنفسه ، واحق النساء بالإحسان اولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال ، وحلية الحسب والنسب ؛ فان أبي الا ان يتزوج من المرأة السعيدة ، فليذكر أنه هو الذي اخذ الشقية من يدها ، وساقها بنفسه الى موطن الشقاء ، وربما ما بيده في هوة الفسق والبغاء .

*

لا هجية في الاسلام^(١)

أيها المسلمون : ان كنتم تعتقدون ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق
المسيحيين ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقطعاً بالرماح ، وحرقاً بالنيران ،
فقد اساتم بربكم ظناً ، وانكرتم عليه حكمته في افعاله وتدييره في شؤونه
واعماله ، وانزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه ويزرع
الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، وينظم العقده ليبده .

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتمهده
بعطفه وحنانه . ويمد برحمته وإحسانه ، ويرسل اليه في ذلك السجن
المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، وينود عنه آفات الحياة
وغوائلها : نطفة ، فعلقة ، فضفة ، فجنيئاً ، فبشراً سوياً .

ان إلهاً هذا شأنه مع عبده ، وهذه رحمته به وإحسانه اليه ، محال
عليه ان يأمر بسلبه الروح التي وهب إياها ، او يرضى بسفك دمه الذي

(١) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أطننة من ولايات
الدولة العثمانية وقتلهم وإمام رقتيلهم بهم في عام ١٩٠٩ .

أمدته به ليجري في شرايينه وعروقه لا يسيل بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال .

في أي كتاب من كتب الله ، وفي أي سنة من سنن أنبيائه ورسله ، قرأتتم جواز ان يعمد الرجل الى الرجل الآمن في سربه ، والقابع في كسر بيته ، فينزع نفسه من بين جنبيه ، ويفجع فيه اهله وقومه ، لأنه لا يدين بدينه ، ولا يذهب مذهبه في عقائده .

لو جاز لكل إنسان ان يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها واصبح ظهر الارض أعرى من سرة أديم .

ان وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والاديان والطبائع والغرائز سنة من سنن الكون ، لا يمكن تحويلها وتبديلها ؛ حتى لو لم يبق على ظهر الارض الا رجل واحد ، لجرد من نفسه رجلا آخر يخاصمه وينازعه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

ان الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تنتج الا من التحاك بين جسمين مختلفين ، فمحاولة توحيد المذاهب والاديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه .

أيها المسلمون : ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفي والانتقام منهم ، او القضاء عليهم ، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية ان يعترضها في طريقها معترض او يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الارض ومغاربها حائل ، أي ان القتال كان ذوداً ودفاعاً ، لا تشفياً وانتقاماً .

وأية ذلك ان السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب فيه حتى يصل اليها أمر الخليفة القائم ان لا تزج الرهبان في أديرتهم ، والقساوسة في صوامعهم ، وان لا تحارب الامن يقاومها ولا تقاتل الا من يقف في سبيلها ، ولقد كان أخرى ان تسفك دماء رؤساء الدين المسيحي وتسلب ارواحهم لو ان غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم ، والقضاء عليهم .

لو انكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى اصبحت رقعة الارض خالصة لكم ، لانقسمت على انفسكم مذاهب وشيعا ، ولتقاتلت على مذهبكم تقاتل ارباب الأديان على أديانهم ، حتى لا يبقى على وجه الارض مذهب ولا متمذهب .

أيها المسلمون : ما جاء الإسلام الا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام .

ما جاء الإسلام الا ليستل من القلوب أضغانها واحقادها ، ثم يلاها بعد ذلك حكمة ورحمة ، فيعيش الناس في سعادة وهناء ، وما هذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل الا بمثابة العمل الجراحي الذي يتدرع به الطبيب الى شفاء المريض .

عذرتكم لو ان هؤلاء الذين تريقون دماءم كانوا ظالمين لكم في شان من شؤون حياتكم ، أو ذاهبين في معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها ، وتخشون عاقبتها ، أما والقوم في ظلالكم والكون تحت اجنحتكم أضعف من ان يدوا اليكم يد سوء ، أو يبتدروكم ببادرة شر ، فلا عذر لكم .

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الاطفال الذين لا يسألهم الله عن دين
ولا مذهب قبل ان يبلغوا سن الحلم ، والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن
في الحياة أخذاً ولا رداً ، والشيوخ الهالكين الزاحفين وخدمهم الى القبور
قبل ان تزحفوا اليهم ، وتتعجلوا قضاء الله فيهم .
أما وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فانتم مجرمون لا مجاهدون ،
وسفاكون لا محاربون .

من أي صخرة من الصخور ، أو هضبة من الهضبات ، نحت هذه
القلوب التي تنطوي عليها جوائنحك ، والتي لا تروعا أنات الشكالي ، ولا
تحركها رنات الأيامي ؟

من أي نوع من أنواع الاحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون
ان تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تاكل أطرافه وتمشى في أحشائه
على مرأى ومسمع من أمه ، وأمه عاجزة عن معوته ، لأن النار لم تترك
لها يداً تحركها ، ولا قدماً تمشي عليها ؟

لا أستطيع أن أهنتكم بهذا الظفر والانتصار ؛ لاني اعتقد ان قتل
الضعفاء جبن ومعجزة ، وان سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية
أخرى ان يعزى فيها صاحبها ، لا ان يهنا بها .

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشامت لكم شر استكم
ووحشيتكم ، ولكن حذار ان تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية
فإنه سبحانه وتعالى أجل من ان يامر بقتل الابرياء ، أو يرضى باستعطاف
الضعفاء ، فهو أحكم الحاكمين ، وارحم الراحمين .

البخيل

سألني سائل : ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه ؟ وأي
غرض يرمى اليه من ذلك ؟ فأجبتة بهذا الجواب :

البخل إحدى الملكات النفسية ، والملكة صفة راسخة في النفس
تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار ، فكما لا يسأل المسرف
عن سبب إمرافه ، والغاضب عن غايته من غضبه ، والحاسد عن غرضه
من حسده ، كذلك لا يسأل البخيل عما يستفيدة من بخله وحرصه ،
فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم الى الرغبة عن
التخلي عنها حيناً ، فلا يجدون الى ذلك سبيلاً ، لمكان تلك الملكات من
نفوسهم ، وتزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات ، ولا تزعزعها الارادات ،
وربما عرض للبخيل ما يدفعه الى بذل شيء من ماله ، فاذا وضع يده في
كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه ، احس كأن تياراً كهربائياً قد
سرى من نفسه الى يده فتشنجت اعصابها وتصلبت أناملها واعيت على

الالتواء والانشاء ، فأخرجها صفراً كما ادخلها ، وبودّه ان لا يفعل لولا ان للفريزة قوة فوق قوة الإرادة ، وسلطاناً تخضع له الرغبات وتنقاد اليه العقول ، الا اذا كان وراءها وازع من القانون يزعمها ؛ فانه يكسر شرتها احياناً ، وان لم ينتزعها انتزاعاً .

ويحكى ان شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية ، فأراد نفسه على ان يبذل لها شيئاً من ماله فتأبت عليه ، فأذت لوكيله ان يجلس لها من ماله ما يسد خلتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه ، علماً بأنه لا يستطيع ان يكون كما يريد .

فالوجه في السؤال ان يقال : ما هي الاسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل ؟ فيكون الجواب عن ذلك : ان الاسباب تختلف باختلاف الاشخاص واطوارهم واخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكر أهم تلك الاسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع .

الأول - الوراثة : وهي وان كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة احياناً من التغير والاتقلاب بمعاشرة المتصفين باضدادها والتاثر بمخالطتهم ، الا انها كثيراً ما تنمو وتتجسم اذا اغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق ثنائها .

الثاني - التربية : اذا نشأ الطفل بين اهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه ، اخذ اخذهم في الحرص ، وتخلق فيه باخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في

استحسان او استهجان، كأنما هي عدوى الامراض التي تسري الى الانسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بسريانها.. ويحكى ان رجلا دخل منزلا يعرف اهله بالشح والحرص، فرأى طفلا صغيراً في يده ليمونة، فطلب اليه ان يعطيه إياها، فأجابه الطفل « ان يدك لا تسعها » ا

الثالث - سوء الظن بالله: ذلك ان المتدين اذا اخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء، فهو ارحم من ان يغفل شأنهم ويكلهم الى انفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الايام، فلا يلج به الحرص على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الارزاق ومقسم الحظوظ والحدود، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه

الرابع - النكبات: كثيراً ما تحمل بالانسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها؛ ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال، كان يقع الرجل في خصومة يرى أنه لو لا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها، فكلما تمثلت له نكبة لجج به الحرص واغرق في المنع، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له؛ ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والوجاع، فانه مها حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة وبالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة، ولا تضيع من ذاكرته آلامها. فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل اليه ما لا يتخيل، ويريه ما لا يرى،

كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في ابشع صورة وافظع شكل فهاله منظره ، وذهب الخوف منه برشده ، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان ، وفي حالتي الامن والخوف ، والوحشة والانس .

الخامس - اللؤم : فان النفس اذا خبثت طينتها ولؤم طبعها ، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه ، وبغض الخير للناس قاطبة ، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيدة ألماً على ألم ، وحسرة فوق حسرة ، وهو لو استطاع ان يمنع عنهم سارية السماء ، ويعترض دونهم نابتة الارض لفعل .

السادس - سقوط الهمة : اذا نشأ الانسان عالى الهمة طموحاً الى المعالي محباً للذكر الحسن والثناء الجميل ، سهل عليه ان يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده او ذات نفسه ، وحب المجد ، اسال الذهب من خزائن الاغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهياً مقسماً بين شفرات السيوف ، وأسنة الرماح ، طلباً لسعادة الحياة بالذكر ، وسعادة الممات بالخلود . فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه الى بذل المال على مكائته الراسخة في قلبه ، وامتزاج حبه بلحمه ودمه ، أيدفعه حب الثناء ، وهو لا يشعر بلذته ؟ او خوف المذمة ، وهو لا يتألم منها ، ولا يحس بمرارتها ؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات ؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الخطيئة من المكارم بلقمة بمضغها ، وحلة يلبسها .

السابع - فساد المجتمع الانساني : ذلك ان كثيراً من الناس قد بلغ

بهم حب المال والتعبد له ان صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها ،
خير يطمعون فيه ، بل لأنه ذو مال وذو المال في نظرهم احق الناس
بالمحبة والاكرام والاجلال والاعظام ، وان لم يحصلوا منه على طائل ،
فلو انهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة
لاصبحوا من عباده المقربين ، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء ان ينال
هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها الا الحرص على ما
في يده ، وهو عمل يتكلفه ولا يتعمل له ، بل هو أشهى الاشياء اليه ،
واكثرها ملاءمة لفطرته ؛ ليزداد شرفاً وعزاً ، كلما ازداد ثراء ووفراً ،
ومن هنا قال احد البخلاء لاولاده : يا بني لان يعلم الناس ان عند احدكم
مائة الف درهم اعظم له في اعينهما من ان يقسمها فيهم ، وقال رجل لآخر :
يا بخيل ؛ فقال له : لا احرمنى الله بركة هذا الاسم ؛ فاني لا اكون بخيلاً
الا اذا كنت غنياً فسم لي المال ولقبني بما تشاء .

هذه هي أهم الاسباب التي تآلفت منها رذيلة البخل ؛ فان اغفلنا
النظر اليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيدة البخيل من بخله ،
حتى على نفسه وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غير مساق الى هذا المورد
الويل بسائق الغريزة الفاسدة ، كان منال النجم اقرب من تطبق حاله
هذه على قاعدة من قواعد العقل ؛ لان الله تعالى خلق الانسان وركب
فيه رغبات الشهوات مختلفة ، بعضها نفسي ، والآخر جسدي ؛ فهو لا
يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها ، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة
والمضغة ، والجرعة والظلة ، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة

نزوات نفسه ونزعاتها الى ميولها ورغباتها ، لا يمكن أن يحمل حاله على حمل العجز ، لأنه قادر ؛ ولا على الزهد ، لأنه ما زهد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع ؛ ولا على الخوف من الفقر ، لأن عنده من المال ما يفي الاعمار ، فهيهات أن يفنيه عمر واحد ، ولا على رغبة في سعادة الذرية ، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعاده ؛ فاما أن يشقى في حياته ، ليسعد ولده بعد مماته ، فما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، فلم يبق لنا الا أن نتوسل الى علماء النفس أن ياذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون ، حتى لا يكون مقصورا على العربدين والهاذين ، بل يكون شاملا للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون ، والذين يجلبون لانفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على انفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان ، كما تتوسل الى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين ؛ فإن تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً ، اما حبسه فيضر صاحبه ، ويضر معه الناس أجمعين .

*

البعوض والانسان

جلست ليلة امس الى منضدتي وعلقت قلبي بين اصابعي ، وأنشأت
أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن اكتب فيه .. وتلك عادتي التي
يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي : أنني لا أميل الى الكتابة في
بياض النهار ، ولا احب ان اخط حرفاً على ما أحب وأرتضي إلا في
ظلام الليل وهدوته .

ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من إخواننا
الفضوليين أنني اريد بذلك مراعاة النظر بين سواد المداد وسواد الظلام،
او انني اترقب طلوع النجم لاتسلق اشعته الى سماء الخيال ، فكل ذلك لم
يكن، وليس في الناس من هو ادري بدخيلة امري مني ، وكل ما في المسألة
ان هذه عادتي وتلك طريقتي ، وكفى .

لم اكد افرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في
اذني ، ثم احسست بلذعاته في يدي، فتفرق من ذهني ما كان مجتمعاً وتجمع

من همي ما كان مفترقا ، ولم ار بدأ من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل .

طارده بالمذبة فما اجدى ذلك نفعا لانه على الطيران اقوى مني على المطاردة ، وفتحت النوافذ لآخرج ما كان داخلا ، فدخل ما كان خارجا ، وحاولت قتله فوجدته مبعثرا ؛ ولو كان مجتمعا في دائرة واحدة لملك بضربة واحدة ، ولم ارى في حياتي امة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير امة البعوض ؛ فما اضعف هذا الانسان ، وما اضل عقله في اغتراره بقوته واعتداده بنفسه ، واعتقاده ان في يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد ؛ وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود ، ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا ان يرسل اشعة عقله دفعة واحدة ، ويشحذ سيف ذكائه ، ويبتعث عزمته ويقترح فكرته .

يزعم ذلك ، وهو يعلم انه اضعف من ان يحتال لنفسه في مدافعة اصغر الحيوان جسما وعقلا ، وادناها قيمة وشانا ، بيد انه يعلم ذلك بلسانه ، وفي فلتات وهمه . ولو علمه علما يتغلغل في نفسه ، ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غلوائه ، وخفض من كبريائه ، وعلم علم اليقين ان الانسان العاقل ، والحيوان الملهم ، والنبات النامي ، والجناد الجامد ، سواء بين يدي القوة الالهية الكبرى ، التي لا ينفع نفعا حول ولا قوة .

علمت أني عييت بأمر هذا الحيوان ، فلذت بجانب الصبر ، والصبر - كما يعلم معشر الصابرين - حجة العاجز ، وحيلة الضعيف وأيسر ما يستطيع ان يدافع به دافع عن نفسه ملامة اللاتمين ، وفضول المتطفلين ، وقلت

في نفسي : لو كان البعوض يفهم ما اقول لقصصت عليه قصتي ، وشرحت له عذري ، وسألته ان يمنحني ساعة واحدة اقوم فيها بكتابة رسالتي هذه ، ثم هو بعد ذلك في حل من جسمي ودمي ، ينزل منها حيث يشاء ، ويمتص منها ما يشاء ، ولكنه - ويا للأسف - لا يسمع شكاتي ، ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم قيمة المروءة ، لأنه ليس بإنسان .

احسب ان لذعات البعوض قد اخذت مأخذها من عقلي وفهمي ؛ وأني قد بدأت أهذى هذيان المحموم ؛ فن ابن لي ان لو كانت البعوض إنساناً كان يسمع شكاتي ، ويكشف ظلامتي ، او أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة ، ومتى كان الإنسان احسن حالاً من البعوض وارحم منه قلباً واشرف غاية ، فأتمنى لو كان مكانه ؟ بل ، ومن ابن لي ان هذا الذي احسبه بعوضاً ليس بإنسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لي في صورته الضئيلة وجناحه الرقيق ؟ وأي غرابة في ان أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواء في حب الشر والميل الى الأذى ، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الجواهر الذاتية ، والاجزاء المقومة للماهية ؟

أي قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعاً في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفرداً ؟

ان البعوض في امتصاصه الدم من الجسم اقل من القاتل ضرراً واشرف غاية ، واجمل مقصداً ؛ لأنه ان أذى الجسم فقد أبقى على الحياة ؛ ولأنه يطلب عيشه الذي يحيا به ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف

له طريقا سواه ولا يستطيع ان يرى لنفسه غيره ولو استطاع لعافت نفسه ان يكون كالانسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر .

إني وجدت بين الانسان والبعوض شبيهاً قريباً في صفات كثيرة انا ذاكر لك طرفاً منها وتارك لفطنتك الباقي .

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله ، فلا يزال يشرب حتى يميتليء فينفجر ، فهو يطلب الحياة من طريق الموت ، ويفتش عن النجاة في مكان الهلاك ، وهو اشبه شيء بشارب الخمر : يتناول الكاس الأولى منها ، لأنه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته ، فتطمعه الأولى في الثانية ، والثانية في الثالثة ، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويؤدي بها ، من حيث يظن أنه ينعشها ، ويجلب اليها سرورها وهنائها .

البعوض سيء التصرف في شؤون حياته ؛ لأنه لا يسقط على الجسم الا بعد ان يدل على نفسه بطنينه وضوضائه . فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه ، او يفتك به قبل بلوغه اليه ، فمثله في ذلك كمثل بعض الجبهة من اصحاب المطالب السياسية : يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير انهم لا يكتمونها ، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلة اليها الا بين الصراخ والضجيج ، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ؛ ويشهدوا الملاً الأعلى والأدنى عليها ، وهناك يدرك عدوم مقصدهم ، فيعد له عدته ويتلمس وجه الحيلة في إفساده عليهم هادئاً ساكناً من حيث

لا يشعرون .

البعوض خفيف في وطأته ، ثقيل في لذعته ، فهو كذلك صاحب
الذي يسرك منظره ، ويسوءك مخبره ! يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال
رقة وصفاء ، والسحر الحلال جمالاً وبهاء ، وبين جنبيه في مكان القلب
صخرة لا تنفذها أشعة الحب ، ولا يتسرب اليها سلسبيل الوفاء ، يقول
لك : إني أحبك ليغلبك على قلبك ، ويملك عليك نفسك ، فان تم له ما
أراد سلبك مالك ان كنت من ذوي المال ، وجاهك ان كنت من ذوي
الجاه ؛ فان لم تكن هذا او ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك ،
ويثلم شرفك ، فان فاته ما يشفى به داء بطنته ، لا يفوته ما يطفىء به
نار حقدته وموجدته .

لا يزال البعوض ملحاً في مهاجمتي ، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد
بما كتبت ، والسلام .

الجزع

يا صاحب النظرات :

لي صديق سقط في امتحان « البكالوريا » هذه السنة فآثر فيه ذلك
السقوط تأثيراً كبيراً ، فهو لا ينفك باكياً متألماً حتى أصبحنا نخاف
عليه الجنون ، وكلما عزيناه عن مصابه يقول : كيف أستطيع معايشة
إخواني ومعارفي ؟ وكيف أستطيع مقابلة والدي وأهلي ؟ فهل لك أيها
السيد ان تعالج نفسه بنظرة من نظراتك ، التي طالما عاجلت بها قلوب
المحزونين ؟؟

حقوقي

ليست المسألة مسألة صديقك وحده ، بل مسألة الساقطين أجمعين ،
فان المرء لا يسكاد يتناول نظره منهم في هذه الايام الا وجوهاً قد نسج
الحزن عليها غبرة سوداء ، وجفوناً تحار فيها مدامها حيرة الزئبق
الرجراج ، حتى ليخييل اليك ان نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم

فزالت أقدامهم ، او فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها
فأثكلتهم ذخائر نفوسهم ، وجواهر عقولهم ، وأقامت بينهم وبين سعادة
العيش وهناءته سداً لا تنفذه المعاول ، ولا تنال من أيده الزلازل .

خفض عليك قليلاً أيها الطالب ، فالأمر أهون مما تظن ، واصغر مما
تقدر ، وأعلم وما احسبك الا عالماً أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ الى
سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك ، ولم يهوبك
القضاء الى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر .

إنك قد سعيت الى غرض فان كنت هيات له أسبابه ، وأعددت له
عدته ، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله ، فقد
أعذرت الى الله والى الناس والى نفسك ، فحزني بك ان لا تحزن على
مصاب لم يكن عملاً من أعمال يديك ، ولا جناية من جنایات نفسك
عليك ، وان كنت قصرت في تلمس أسبابه ، ومشيت في سبيله مشية
الظالم المتعاس ، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك ان تترقب
فواته قبل وقت فواته ؟ وما بكأؤك على مصاب كان خيراً لك ان تعلم
وقوعه قبل يوم وقوعه ؟

ما لك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام ، ومطاوعة الاقدار ؟ وهل
تستطيع ان تبرز لنا صورة العهد الذي اخذته على الدهر ان يكون لك
كما تحب وتشتهي ؟ وعلى الفلك ان لا يدور الا بسعدك ، ولا يجري الا
بجدك ؟ وعلى القلم ان لا يكتب في لوحة الا ما دللته عليه ، وأوحيت
به اليه ؟

لا تجعل للياس سبيلا الى نفسك ، فلعل الأمر يعوض عليك في غدك
ما خسرت في أمسك ، وامض لشانك ولا تلتفت الى ما وراءك ، فان تم
لك في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك ، او لا ، فما فقدت إذ
فقدت الا ورقة كان كل ما تستفيده منها ان تشتري بها قيذاً لرجلك ،
وغلا لعنقك ، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من
الرؤساء المدلين بانفسهم ، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الاسراء
في سجون الأسرى .

ان اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار
العظيم دليل على أنك كنت تريد ان تجعلها منتهى املك ، وغاية همتك ،
وانك لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد ، فان صدقت فراستي
فيك ، فاعلم ان الله قد خار لك في هذا المصير ، وساق اليك من الخير ما
لا تعرف السبيل اليه ، وأنه ما خيب رجاءك في هذا الكمال الموهوم الا
لتطلب لنفسك كلاً معلوماً ، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في
صفحات الاوراق ، الا لتسعى وراء السعادة المكتوبة في صفحات القلوب

ان كنت تبكي على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك ، لاشان
للحكومة فيه ، ولا حاجب لها عليه ، وما هو الا ان تجدد في التزيد من
العلم والمعرفة ، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية ، فاذا انت
شريف في نفسك ، وفي نفوس الخاصة من الناس ، واذا انت في منزلة
يحسدك عليها كثير من ارباب الشهادات والمناصب ، ولا حي الله شرفاً
يحیی بورقة ويموت بأخرى، ولا مجدأ يأتي به سطر ويذهب به سطر، وان

كنت تبكي على العيش ، ففي أين كتاب من كتب الله المنزلة قرأت ان
ارزاقه وقف على الموظفين ، وحبائس على المستخدمين ؟ وأنه لا يأمر
بصرف درهم واحد من خزائنه الا اذا جاءته سفتجة بتوقيع أمير ، او
اشارة وزير ؟

أيها الطالب :

قل لأبيك واخيك واهلك واصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا
استحياء : ان الذي وهبني عقلي لم يسلبنيه ، وان الذي صور لي اعضائي
لم يحل بيني وبين الذهب بها فيما خلقت له ، وان الذي خلقتني سوف يهدين ،
لانه الرزاق ذو القوة المتين .

النبوغ

من المعجز ان يزدرى المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً ، وان ينظر الى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم الى الحيوان الناطق ، وعندى ان من يخطىء في تقدير قيمته مستعلياً ، خير ممن يخطىء في تقديرها متدلياً ؛ فان الرجل اذا صغرت نفسه في عين نفسه يابى لها من اعماله واطواره الا ما يشاكل منزلتها عنده ؛ فتراه صغيراً في علمه صغيراً في أدبه ، صغيراً في مروءته وهمته ، صغيراً في ميوله وأهوائه ، صغيراً في جميع شؤونه واعماله ؛ فان عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيراً في جانب النفس الصغيرة .

ولقد سأل احد الأئمة العظماء ولده ، وكان نجيباً : أي غاية تطلب في حياتك يا بني وأي رجل من عظماء الرجال تحب ان تكون ؟ فاجابه : احب ان اكون مثلك ، فقال : ويحك يا بني لقد صغرت نفسك ، وسقطت همتك ، فلتبك على عقلك البواكي ، لقد قدرت لنفسى يا بني

في مبدأ نشأتي ان اكون كعلي بن أبي طالب ، فما زلت اجد واكده حتى بلغت المنزلة التي تراها ، وبينني وبين علي ما تعلم ، من الشاؤ البعيد والمدى الشاسع ؛ فهل يسرك ، وقد طلبت منزلتي ان يكون ما بينك وبينني من المدى مثل ما بيني وبين علي ؟

كثيراً ما يخطيء الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس ؛ وبين الكبر وعلو الهمة ، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعاً ، ويسمون الرجل اذا ترفع بنفسه عن الدنيا ، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبراً ؛ وما التواضع الا الأدب ، ولا الكبر الا سوء الأدب ؛ فالرجل الذي يلقاك متبسماً متهللاً ، ويقبل عليك بوجهه ، ويصغي اليك اذا حدثته ويزورك مهتماً ومعزياً ، ليس صغير النفس كما يظنون ، بل هو عظيمها ؛ لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه نتواضع ، والأدب ارفع لشأنه فتأدب .

فتى كان عذب الروح لامن غضاضة ولكن كبرا ان يقال به كبر

فاذا بلغ الذل بالرجل ذو الفضل ان ينكس رأسه للكبراء ، ويتهافت على ايديهم واقدامهم لثماً وتقبيلاً ، ويتبذل بمخالطة السوق والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب ، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ، ويبصص برأسه ، وهو سائر في طريقه بصبصة الكلب بذنبه ، ويجلس في مدارج الطرق ، وعلى افواه الدروب جلسة البائس المسكين ، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متأدب .

ان علو الهمة اذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه الى التنطع
وسوء العشرة - كان احسن ذريعة يتذرع بها الإنسان الى النبوغ في هذه
الحياة ، وليس في الناس من هو احوج الى علو الهمة من طالب العالم ، لأن
حاجة الأمة الى نبوغه اكثر من حاجتها الى نبوغ سواه من الصانعين
والمحترفين ، وهل الصانعون والمحترفون الا حسنة من حسناته ، وأثر
من آثاره ؟ بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والنفوس .

فيا طالب العلم كن عالي الهمة ، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء
الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل
الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب ، او خرافة من
خرافات الجان ؛ وحذار ان يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم
استسلام العاجز الضعيف وتقول : من لي بسلم اصعد فيها الى السماء حتى
أصل الى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال ؟

يا طالب العلم ، انت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من
قبلك الى خلق غير خلقك ؛ وجو غير جوك ، وسماء وأرض غير سمائك
وأرضك ، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك ؛ ولكنك في حاجة الى نفس
عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهممهم ، وأمل أوسع من رقعة الارض ،
وأرحب من صدر الحليم ، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك
في خلواتهم من وصفك بالوقاحة او بالسماجة ، فنعم الخلق هي ان كانت
السييل الى بلوغ الغاية ، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون .
جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم الى سماء المجد والشرف : علو الهمة

والفهم في العلم ، أما علو المهمة فقد عرفته . وأما الفهم في العلم ، فأليك
الكلمة الآتية :

العلم علمان : علم محفوظ وعلم مفهوم ، أما العلم المحفوظ فيستوي
صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين ان تسمع من الحافظ كلمة ،
او تقرأ في الكتاب صفحة ؛ فان أشكل عليك شيء مما تسمع ، فانظر ان
نطق الكتاب بشرح مشكلاته ، نطق الحافظ بتفسير كلماته .

الحافظ يحفظ ما يسمع لأنه قوي الذاكرة ، وقوة الذاكرة قدر
مشترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل ؛ لأن الحافظ ملصقة مستقلة
بنفسها عن بقية الملكات : وانك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين
الطفولة والمهرم ، والذي يبكي على الحلو بكاء الطفل عليها ، ويرتعد
فرقاً حينما يسمع أبنته تخيف طفلها بأسماء الجن والشياطين ، ويسرد لك
من تواريخ شيبته وكهولته ما لو دوتته لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً
ملوءاً بالغرائب والنوادر ؛ وقيل لأحد العلماء : ان فلاناً حفظ متن
البخاري ، فقال : لقد زادت نسخة في البلد !

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين ؛ لأن من فهم
معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه ، وخالط لحمه ودمه ووصل
من قلبه الى سويدائه ، وكان احدى غرائزه ، فلا يرى له بدأ من العمل
به رضي أم أبى .

لولا ان العلم الديني قد اصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت في العلماء
من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على ابواب الاحياء والاموات

في مزاراتهم وفي مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره ،
ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى « قل لا املك لنفسي نفعا ولا
ضرا » من يسند النفع والضر الى كل من سال لعابه وتمزق إهابه ، ولا
وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على
ألسنة الانبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا تجد فرقا
بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات .

لو كان العلم المحفوظ علماً - وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الاثر
وقلة الجدوى - ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة ، ولا قدّسه كاتب ،
او ترنم بمدحه شاعر ، فاذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا
المحفوظ ؛ وآية فهم المعلوم تآثر العالم به ، وظهوره في حركاته وسكناته ،
وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها ، ولا تثق بالحافظ فيما
ينقل اليك . فربما مرّ بالمعلوم محرفاً فاخذه على علاته ، واقبح ما عرفنا
من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض وتقيضه ، والغث والسمين ،
والجيد والزائف ، فكان ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الادوية
الشاقية ، بالعقاقير السامة .

وجملة الأمر ان الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسال عن
مذهب ، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدي به ، ولا ذوق له في الفهم
فيعتمد على شرحه وتأويله .

أما العلم المفهوم فهو الوسطة التي اذا جمع المتعلم بينها وبين علو
الهمة طار الى المجد بجناحين . وكان له سبيل مختصر الى منزلة العظماء

ودرجة النابغين ، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور^(١) ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابع في كل عصر من العصور واحدة منها ، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ الا اذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة ، او كشف حقيقة ، او اصلح هفوة او اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك الا اذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكون مفهوماً الا اذا أخلص المتعلم اليه ، وتعبد له وأنس به أنس العاشق بمعشوقه ، ولم ينظر اليه نظر التاجر لسبعته ، والمحترف لحرفته ؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه ، لا ما يغلو جوهره ؛ والمحترف لا يهيمه من حرفته الا لقمة الخبز وجرعة الماء ، احسن أم أساء .

لا يزور العلم قلباً مشغولاً بترقب المناصب ، وحساب الرواتب ، وسوق الآمال وراء الأموال ، كما يزور قلباً مقسماً بين تصفيف الطرة ، وصقل الغرّة ، وحسن القوام ، وجمال الهندام ، وطول الهيام بالكاسين: كاس المدام ، وكاس الغرام .

(١) المراد ان العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر ، فالعلم دائم فيها من ابتداء الدنيا الى انتهائها .

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله ، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة ، تشكو ألماً في عنقها ، وجرحاً في ذراعها ، وهماً في نفسها ، وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما هي مركبة على زئبق رجراج ؛ فسالت: ما شأنها ؟ فعلمت ان أهلها زوجها وهي في هذه السن وعلى السداجة من رجل وحشي الخلق والخلق . ثم زفوها اليه فحاول ان يفترشها ، وهي على حالة لا تستطيع معها ان تلم بفراش فامتنعت عليه ، فأراد اغتصابها فمعجز ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرت منه الى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بلادة وغفلة ، وأعادوها الى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه اليه مرة أخرى ؛ وهنالك عاد زوجها الى عادته معها ، فعادت هي الى فرارها ، فعاد أهلها الى قسوتهم وجبروتهم . فلما أعيأها الامر خرجت الى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا

مستقرأ ، حتى رفع امرها الى ذلك الحاكم ، فامر باستدعائها وآواها في منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهة الأسد. وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت اليه حادثة اخرى تشبه الحادثة الاولى من جميع وجوها ، إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجته عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقي ثمود الناقة من قبل .
إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها .

إنها لا تحسن عملاً ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها الا قلب الرجل ، فإن استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشاً رغداً ، أو لا ، فلا مفر لها من الشقاء ؛ من المهد الى اللحد .
ودون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجر أهوال عظام ، وعقبات جسام ، لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام .

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير اولئك الجهلاء اولياء امر تينك الفتاتين : استتقل اهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة . والقومة والقعدة ، ورأوا انها عائلة عليهم ، وان لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً . وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب ، أي خاطب كان ، يحمل في جبينه آية البشرية بالخلاص منها .

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم ، وقلوبهم من القسوة ، وهذه

منزلة فلذات اكبادهم من نفوسهم، لا يمكن مجال من الاحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج، او يحسنوا الاختيار لها حين يختارون فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شأنا من شؤون أهله ، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل .

فإن كانت ذات جمال او مال ، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق ، وإلا فهي تقاسي كلا صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع، آلاماً جثامية تطفئ نور شبيبتها وتبدل زهرة حياتها ، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء ان بكى ما يجعل أخلاقها قضاء مملوءاً بالكذب والكيد ، والخبث والرياء ، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام .

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازي، فما أنس لا انس ليلة زرت فيها صديقاً لي ، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية وكانما هي الخلال رقة وذبولاً ، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف رداؤها ، فتسبل فضل مثرها على ماقيها المقرحة رافة بهم ان يلماوا ببعض شأنها فييكوا لبكائها ، فسالتها عن شأنها فاخبرتني انها مطلقة من زوجها وان بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و « الإرادة » تامل في إنقاذه ، فجاءت الى هذا الصديق تستعين به على امرها ، ثم اخذت

تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة ومعالجة القوت ما أسأل
شئوننا ؛ وصعد زفرائنا وأمسكناله أكبادنا خشية أن تصدّعا .

فخففت أنا والصديق شيئا من آلامها فالصرفت ؛ وفي صباح تلك
الليلة سمعنا ان امرأة فقيرة ماتت بحمي دماغية فسالنا فعلمنا انها صاحبينا
بالأمس ، وانها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة .
أيها الرجل :

إن كنت تعتقد ان المرأة انسان مثلك وهبها الله مدارك مثل
مداركك ، واستعدادا مثل استعدادك ، فعلمها كيف تأكل لقمتها من
حرفة غير هذه الحرفة النكدية ، والا فاحسن اليها وارحمها كما ترحم كلبك
وشاتك .

إن كنت زوجا فلا تطردها من منزلك بعد ان تقضي ما ربك منها
كما تصنع بنعلك التي تلبسها ، وان كنت أبا فهذه فلذة كبذك فلا تضق
بها ذرعا ، ولا تلق بها في حجر وحش ضار يأكل لحمها ويمتص دماها ، ثم
يلقي اليك بعظامها ،

ويا أيها المحسنون : والله لا اعرف لكم بابا في الاحسان تنفذون منه
الى عفو الله ورحمته اوسع من باب الاحسان الى المرأة .
علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها اولادكم قبل المدرسة ، وأدبوها
لينشأ في حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم .

القسم الثاني

البیان

قال لي أحد الوزراء ذات يوم : « إني لتأتيني أحيانا رقع الشكوى
فاكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة ، والكلمات الجارحة ،
لولا أن الله تعالى يلهمني نيات كاتبها وأين يذهبون ، ولولا ذلك
لكنت من الظالمين » .

ذلك ما يراه القارىء في كثير من المخطوطات التي يخطها اليوم
كاتبوها في الصحف ورقع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة .

هزل في موضع الجمد ، وجد في موضع الهزل ، وإسهاب في مكان
الإيجاز ، وإيجاز في مكان الإسهاب ، وجهل لا يفرق ما بين العتاب
والتأنيب ، والانتقام والتأديب ، والاستعطف والاستخفاف ، وقصور
عن ادراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والامراء ، والعلماء
والجهلاء ، حتى إن الكاتب ليقم في الشوكة يشاكرها مناحة لا يقيمها في
في الفاجعة ينجع بها ، ويكتب في الحوادث الصغار ما يعجز عن كتابة

مثله في الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه ويناجي
أجيريه بما يناجي به أميره .

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متشعبة ، واختلفوا في شأنه
اختلافاً كثيراً ، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون ؟ وهذا لفظه
دال على معناه دلالة واضحة لا تشبه وجوهاً ولا تشعب مسالكها ؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس ، وتصويره في نظر
القارئ ، أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ، ولا يقصر عنه ،
فإن عقلت به آفة تينك الآفتين فهي العي والحصر .

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر
الأساليب فأغصوا بها صدور كتابتهم ، وحشوها في حلوقها حشواً يقبض
أوداجها ويجبس أنفاسها ، فإذا قدر لك أن تقرأها ، وكنت ممن وهبهم
الله صدراً رحباً ، وفؤاداً جلدأ ، وجناناً يحتمل ما حمل عليه من آفات
الدهر وأرزائه ، قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة ، أو كتاباً مضطرباً
من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول ، والتبسط في الحديث
واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع ، فلا يزالون يجترون
بالكلمة اجترار الناقة بجرتها ، ويتمطقون بها تطلق الشفاه بريقتها ، حتى
تسف وتتبذل ، وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق ولا تطرف عليها العيون ،
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنماً .

يخيل إليّ أن الكتاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في صدر الإنسان حيناً يخلو بنفسه ، ويانس بوحده ، فإنني لا أكاد أرى بينهم من يحكم وضع فمه على أذن السامع ، وينفت في روعه ما يريد أن ينفت من خواطر قلبه ، وخواالج نفسه .

الكلام صلة بين متكلم يفهم ، وسامع يفهم ، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف ، فإن أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك ، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك منها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة ، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب في اوصافهم ونعوتهم ، وتصوراتهم وخيالاتهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاقبون ويؤنبون ، ويعظون وينصحون ويتغزلون وينسبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأية لغة يحاول ان يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يلاً ما بين جانحيه حتى يتدفق مع المداد من انبوب يراعه على صفحات قرطاسه .

إنني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابي والمهمذاني والحوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكتّابون في هذه الصحف والأسفار فأشعر بما يشعر به المتنقل دفعة

واحدة من غرفة مُحكمة النواقد، مُسبلة الستور، الى جو يسيل قرا وضرا،
ويترقرق ثلجاً وبرداً .

ذلك لاني أقرأ لغة لاهي بالعربية فأغتبط بها ، وهي بالعامية فالهو
بأحاضها ومجونها .

رأيت أكثر الكتّابين في هذا العصر بين رجلين : رجل يستمد روح
كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة
والروايات المترجمة ، فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها في
روح قارئ كتابته أدون مما أخذها ، فيدلى أخذها كذلك الى غيره أسمح
صورة وأكثر تشويهاً ، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما
يبقى من الاطلاع البالية بعد كسر الغداة ومر العشي ، وطالب قصارى
ما يأخذه من استاذة : نحو اللغة وصرفها ، وبديعها وبياتها ، ورسمها
وإملاؤها ، ومترادفها ومتواردها ، وغير ذلك من آلتها وأدواتها ، أما
روحها وجوهرها فأكثر اساتذة البيان عنده علماء غير ادباء ، وحاجة
طالب اللغة الى استاذ يفيض عليه روح اللغة ، ويوحى اليه بسرّها ،
ويفضي له بلبها وجوهرها اكثر من حاجته الى استاذ يعلمه وسائلها
وآلتها ، وعندى أن لا فرق بين استاذ الاخلاق واستاذ البيان ، فكما ان
طالب الاخلاق لا يستفيدا إلا من استاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه .
كذلك طالب البيان لا يستفيدة إلا من استاذ مبين .

ولا يقنغن في روح القارئ أني أحاول استلاب فضل الفاضلين او

أني أريد ان انكر على شعراء الامة وكتابتها ما وهبهم الله من نعمة البيان،
فما هذا اردت ولا اليه ذهبت ، وإنما اقول إن عشرة من الكتاب المجيدين ،
وخسة من الشعراء البارعين ، قليل في بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية
اليوم ومرعاها الحصيب .

وبعد : فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلا اليه إلا مزاولته
المنشآت العربية منشورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المثبت
المتفهم لا وقوف المتنزّه المتفرج . فإن رأيت انك قد شغفت بها وكلفت
بمعاودتها والاختلاف اليها ، وأن قد لذت لك منها ما يلذ للعاشق من زورة
الطيب في غرة الظلام ، فاعلم انك قد اخذت من البيان بنصيب ، فامض
لشانك ، ولا تلو على شيء مما وراءك ، تبلغ من طلبتك ما تريد .

ولا تحدثك نفسك اني أحملك على مطالعة المنشآت العربية لاسلوب
تسترقه او تركيب تختلسه ، فإني لا احب ان تكون سارقاً او مختلساً ،
فإن فعلت لم يكن دركك دركاً ، ولا بيانك بياناً ، وكان كل ما أفدته^(١)
ان تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين اجزائها ، وبردة
مرقعة لا تلاؤم بين ألوانها وإنما اريد ان تحصل لنفسك ملكة في البيان
راسخة تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، وإلا كان شانك
شان أولئك القوم الذين علقن ذاكرتهم بطائفة من منشور العرب
ومنظومها ، فقتنوا بها ، وظنوا انهم قد وصلوا من البيان الى صميمه .
فإذا جد الجد وأرادوا انفسهم على الإفصاح عن شيء مما تختلج به نفوسهم ،

(١) بمعنى : أفاد واستفاد .

رجعوا الى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها ، فان وجدوا بينها قلباً لذلك المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً وحشروه في كتابتهم حشراً . وإلا تبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة او هجروا تلك المعاني الى معان أخرى غيرها ، لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها ، فلا بد لهم من إحدى السوأتين : إما فساد المعاني واضطرابها ، او هجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحذر أن تكون واحداً منهم ، أو أن تصدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة ، وأنهم ما لجأوا الى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها . فاللغة العربية ارحب صدرأ من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعدما احتملت من دقائق العلوم والمعارف ما لا قبل لغيرها باحتماله ؛ وقدرت من هواجس الصدور وخوارج النفوس على ما عيئت به اللغات القادرات .

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها ، وإنما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في ارجائها ، والتغلغل في أعماقها ، واقتناعهم من بجرها بهذه البلة التي لا تثلج صدرأ ، ولا تشفي أواما .

وكل ما يعد عليها من الذنوب انها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة ، وهو في مذهبي أهون الذنوب واضعفاً شأناً ، ما دعنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل اليه ، او التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق ، فالامر أهون من ان نحار فيه ،

واحقر من ان تقضي اعمارنا في العراك بيبابه ، والمناظرة في اختيار اقرب الطرق اليه ، واجداها عليه .

واعلم انه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد ان تراوله من المنشآت العربية ، فليس كل متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك ، ولا احسبك إلا واقفاً بين يدي هذا الامر موقف الحيرة والاضطراب ، لان حسن الاختيار طلبه تتعثر بين يديها الآمال ، وتتقطع دونها أعناق الرجال ، فالجا في ذلك إلى فطاحل الادباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقاً سليماً ، وقريحة صافية ، وملكة في الادب كمصفاة الذهب ، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقي اليها من البذور الطيبة ، عدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة ، يتناثر منها منشور الادب ومنظومه ، تنائر الورد والانوار من حديقة الازهار .

السيرة

لو كشف للإنسان عن سريرة الانسان لراى منها ما يرى الاعمى من غرائب هذا الكون وعجائبه حين تدركه رحمة الله بعد طول محنته فيرتد بصيراً .

تترامى لك السريرة في ظاهرها كأنها أديم السماء او صفحة الماء ، فإن بدا لك ان تكتنه باطنها فانك غير بالغ من ذلك ما ربك إلا إذا استطعت ان تخترق جلدة السماء ، فترى ما وراءها من بدائع الكائنات ، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب الخلوقات .

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثاً تمج الشمس لعابها من نافذة غرفته فإذا هو مائج وضاء يروح ويغدو رواح السانحات وغدو البارحات ، ويعجز عن رؤية الجرائم فيستمين عليها بمنظار يجسمها له ويدنيها منه حتى ليكاد يلمسها بيمينه ، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد الى الوصول اليها سبيلاً .

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى عليه ، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فحجزوا عجزه ، فلج بهم الشوق إليها لجأجا طار بعقولهم وذهب بالباهم ، فتراموا على أقدام المنجمين والعرافين لثما وتقبيلا ، وابتدروا النصب والتاثيل ركوعاً وسجوداً ، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيام الابل العطاش بمنازل الماء ، يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجع فيه النفثات ، ولا تجدي معه العزائم والرقى .

انك لترى الرجل يتلأأ جبينه تلالؤ الكواكب في جنح ليل مبرد ، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكام عن الأزهار ، فتحسده على نعمته وسعاده ، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد ، وان بين جنبيه - لو علمت - هما يعتلج ، وقلبا يدب فيه اليأس ديبب الأجال في الاعمار ، وكبدأ مقروحة لو عرضها في سوق الموموم والاحزان ما وجد من يبتاعها منه بأبخس الاثمان .

وانك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الحلو ، وثغره المبتسم ، ويروقك منه كلفه بك واعظامه لك واعجابه بشمائلك ومحاسنك ، وتشيعه لأرائك ، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو تيسر لك أن تبتاع أقدام السليك^(١) بجميع ما تملك يدك ففرت من وجهه فرارك من وجه الاسود السالخ^(٢) ووددت بجدع الانف ان لا يصافح وجهه وجهك من بعدها حتى في جنات النعيم .

(٢) ذكر الحيات .

(١) السليك : رجل معروف بسرعة عذره في العرب .

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبدلت الارض غير الارض ، والسماوات غير السماوات ، وكان للكون نظام غير هذا النظام ، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات .

لو علم الجند أنهم لا يجاربون الا ليعضوا « نيشانا » في صدر القائد ، او جوهره في تاج الملك ، وأنهم كثيراً ما يكونون مخدوعين في مواقفهم باشرار الوطنيه وحبائل الدين ، لما دالت الدول ، ولا أثقلت التيجان ، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان . ولو علم جهلة المتدينين ان أكثر زعماء الأديان إنما يشتررون منهم عقولهم واموالهم بالقليل التافه من المدهشات الدينية والأحلام النفسية ، ويملاون قلوبهم بالخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلام بثمن غال ، لضعفت اصوات النواقيس ، وقصرت قامات المناثر ، ولهلك أرباب الطياليس والقلائس جوعاً وسغباً ، ولأصبحت حبات السبح اكسد في سوق الأديان من بعد الآرام في سوق الأنعام ، ولو علم الابن ان أباه يحبه لما يرجوه من منفعتة في شيخوخته ، وأنه إنما يعجب بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه ، ويفخر بقوة عقله وحسن تدييره في فخره بذكائه ونبوغه ، لضعفت صلة الود بينه وبينه ، ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر . ولو علمت الزوجة ان زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب نفسها ، وأنه يتربص بها الدوائر ويمعد ليومها الساعات والأيام ليستبدل بها خيراً منها ، لما وثقت بوده ولا اطمأنت لعهده ولما كان للمنازل سقوف تظل الأسرة والمهاد .

زيد وعمرو

أراد داود باشا - أحد وزراء تركيا في العهد القديم - أن يتعلم اللغة العربية ، فأحضر احد علمائه ، وأخذ يتلقى عنه علمه مه عهداً طويلاً ، فكانت نتيجة عمله ما ستراه .

سأل شيخه يوماً : ما الذى جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويبرّح به هذا التبريح المؤلم ؟ وهل بلغ عمرو من النذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه ، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير ؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظاً وحنقاً ، ويضرب الارض بقدميه ؛ فأجابه الشيخ : ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي ، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين . فلم يعجبه هذا الجواب ، واكبر ان يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية . فغضب عليه وأمر بسجنه ، ثم أرسل الى نحوى آخر

فسأله كما سأل الأول ، فأجابه بمثل جوابه ، فسجنه كذلك ، ثم ما زال يأتي بهم واحداً بعد واحد . حتى امتلأت السجون وأقفرت المدارس ، وأصبحت هذه القضية المشثومة الشغل الشاغل عن جميع قضايا الدولة ومصالحها ، ثم بدا له ان يستوفد علماء بغداد ، فأمر باحضارهم ، فحضروا وقد علموا قبل الوصول اليه ماذا يراد بهم ، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحذى والبصر بموارد الامور ومصادرها ، فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه ، فأجابه رئيس العلماء : ان الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق ان ينال لاجلها من العقوبة اكثر مما نال ، فانبسطت نفسه قليلا وبرقت أساريز وجهه ، وأقبل على محدثه يسأله : ما هي جنائيتي ؟ فقال له : انه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو ، فسلط النحويون عليه زيذاً يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله - يشير الى زيادة واو عمرو واسقاط الواو الثانية من داود - فاعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب ، وقال لرئيس العلماء : انت أعلم من أفلتته الغبراء ، وأظلتته الخضراء ، فاقترح عليّ ما تشاء ، فلم يقترح عليه سوى اطلاق سبيل العلماء المسجونين ، فأمر باطلاقهم ، وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلوات .

أحسن داود باشا في الاولى وأساء في الاخرى ، ولو كنت مكانه لما اطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهداً وثيقاً ان يتركوا هذه الامثلة البالية الى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم ، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه

الحوادث الدموية بين زيد وعمرو ، و خالد وبكر .

لا ينال المتعلم حظه من العلم الا اذا استطاع تطبيقه على العمل والانتفاع به في مواضعه ومواطنه التي وضع لأجلها ، ولن يستطيع ذلك الا اذا استكثر له معلمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم ، وافتن له في إيرادها افتناناً يقرب الى ذهنه تلك الصلة من العلم والعمل ، ويسهل له الوصول الى القدرة على تلك المطابقة ، وان اكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة ، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم ! فلو أنك أردت أحدهم على ان يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية ، وفي النحو عن ضرب زيد وعمراً ، وقتل خالد بكراً ، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدر ، واستعارة الأظافر للمنية ، وفي الصرف عن فعلل وافعول لوجدت في نفسه من الجهد والمشقة ، وفي لسانه من العى والحصر ما يحزنك على اعوام طوال قضاها بين الحابر والدفاتر ، ثم لم يحصل من بعدها على طائل .

علام يتعلم الطالب النحو والصرف ان عجز عن ان يقرأ صحيحاً كل كتاب وكل صحيفة ؟ وعلام يتعلم علوم البلاغة ان عجز عن معرفة أسرار الكلام ، وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أساليبه ، وعن الإبانة عما يدور في نفسه إبانة واضحة لا يشوبها قلق ولا اضطراب ؟ وعلام يتعلم المنطق ان عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها في كل ما يعرض عليه منها ، وان لم يكن الموضوع الإنسان ، والحمول

الحيوان الناطق ؟ ١

عجيب جداً ان يفهم الصانع الأمي ان العلم للعمل ، فلا يتعلم النجارة الا ليصنع الأبواب والصناديق ، ولا الحداد الا ليصنع الاقفال والمفاتيح ، وان يجهد المتعلم هذه القضية الضرورية ، فلا يهتم من العلم الا الاستكثار من المعلومات والقواعد ، وان عاجز بعد ذلك عن التصرف فيها ، والاتفايع بها في موطنها .

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من اسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها في مستقبل الأيام ان ينبغ منها العلماء الذين تستطيع ان تبتنع بهم الأمة اتفباع . امثالها بامثالهم في مشارق الارض ومغاربها ، فويل للعلم من العلماء .

أبو الشمق^(١)

ان كثيراً من الفقراء لم تمتد يد الفقر الى رؤوسهم ، كما امتدت الى جيوبهم ، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء ، ويفهمون كما يفهمون . وكما ان في أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس ، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس .

ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذاهبين الذين ملا المال فراغ أذهانهم حتى أنسام كل شيء وأنسام أنفسهم قبل ذلك ، فآخذوا يتجادبون أسلاك الأحاديث الذهبية : ما بين تاجر يعجب بصفقتة الراجحة ، وزارع يفخر بقلته ما أعطى وكثرة ما أخذ . وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار ، والكل متفقون على ان السعادة التي أظلمت أجنتها في هذا العهد الأخير : عهد العدل والانصاف ، عهد الحرية والمساواة ، عهد الرقي والعمران : هي أشبه شيء بسعادة

(١) هو في الأصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر .

المتقين في جنات النعيم .

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفه ، ويهز رأسه ،
ويصعد أنفاسه ، ويمضغ أضراسه ، ويئن من أعماق قلبه أنينا يكاد يسمع
فيه السامع قول الشاعر :

فيا لك بحر ألم أجد فيه مشربا على ان غيري واحد فيه مسبحا

فما هو الا ان قضوا لباتتهم من الكلام المملول ، والحديث المعاد حتى
قاموا يطيطرون الآمال وراء الأموال . فأشرت الى أبي الشمقمق ان يختلف
ففاعل . فسألته مالك لم تشترك معنا فيما كنا فيه ؟ فأجاب إني أكره
الفضول في الحديث وقد فرق المقدار بيني وبينكم في المال ، فلا اشترك
في المقال ، فقلت : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي
نهضتها الأمة المصرية في عهدها الأخير وانت فرد من أفرادها ، وجزء
من أجزاء جسمها ، فنهوضها نهوضك ، وسقوطها سقوطك ، والأمة -
كما تعلم - هي الفرد المتكرر والواحد الدائر ، فانت الإمة والإمة انت ،
فقال والله لا أدري أتكلمني بلسان الصوفية ؟ ولست بصوفي ، أم بلغة
الفلاسفة ؟ ولا أفهم للفلسفة معنى ، وكانك تقصدي بالفرد المتكرر ،
فان كنت تريد أنني فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال في العوز والفاقة ،
وواحد لا سندي ولا عضد ، ودائر في مدارج الطرق ومعايير السبل ،
فقد اصبت واحسنت ، وان كنت تريد معنى غير ذلك ، فأنا لا أفهم الا
كذلك ، فهل لك ان تعفيني من الجواب على هذه المعميات وترن كلامك
على مقدار عقلي وتحديثي فيما يتناوله سمعي وبصري ؟ فقلت : أنا لم اخرج

بك عن المألوف المعروف ، ولا أريد الا ان الامة ليست في الخارج شيئاً
غير أفرادها ، فإذا سعدت او شقيت فالسعداء والاشقياء أبناءها ،
وحسبك ان ترى تقدم الامة المصرية في ثروتها وعمرانها ، وبذخها وترفها ،
وكثرة ناطقها وصامتها ، فتسعد بسعادتها وتنها بهنائها ، فقال : ان لم
تبين لي سهمي من هذه السعادة ، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق
سعادة ولا أتصور ارتقاء ، وما دمت أرى ان لي هوية مستقلة عن هوية
سواي من السعداء ، ويداً تقصر عما تتناوله أيديهم ، وبطناً لا يمتلئ بما
تمتلئ به بطونهم ، وما دمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي
الممزق .. وقيصي الخرق .. ويقاسمني همي .. ويشاطرني فقري ..
فهيئات ان أسعد بسعادتهم ، وأسر بسرورهم .. وهيئات ان أفهم معنى
قولك انت الامة والامة انت .. فقلت: ان الغيث اذا نزل يسقي الخصب
والجديب .. والنجد والوهد ، وينتظم من الارض الميت والحى . فقال :
كل سماء فيها هذا الغيث الاسماء مصر فإني أراه :

كبدر أضاء الارض شوقاً ومغرباً . وموضع رجلي منه أسود مظلم
مالي وللروض الذي لا أستنشق روحه وريحانه .. والقصر الذي لا
ادخله مالكا ولا زائراً .. وهب ان الطرق مفروشة بالحرير والديباج ..
لا بالحصى والمدر .. فهل أبقى لي الدهر من حاسة اللمس شيئاً فاستطيع
ان اميز بين خشن اللمس وناعمه ، ومعوج الارض ومستقيمها ؟ وهبني
اذا مشيت خضت في بحر مائج بانوار الكهرباء . فهل يغنى ذلك عني
شيئاً ؟ وهل يكون نصيبي منه الا انكشاف سواتي ورتائة حالتي لأعين

الناظرين ؟ ولقد حجب اليّ الظلام حتى تمّنت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤنة الرتق والفتق .. والتمزيق والترقيع .. وبعد: فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعينني ويشملني ؟ هل ترقت غرائر الإحسان في نفوس المحسنين ؟ وهل خفقت قلوب الاغنياء رحمة بالفقراء ؟ فقلت : نعم .. أما ترى الاموال التي يتبرع بها الاغنياء للجمعيات الخيرية ، والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات ؟ فقال : ان هذه التي تسميها مكارم ، لا يسميها اصحابها الامغام ، أجام اليها التملق للكبراء ، وحب التقرب من الرؤساء ، والطمع في الزخرف الباطل والجاه الكاذب .

مالي وللمدارس والمستشفيات ، وانا جوعان خبز لا جوعان علم .. ولا مرض عندي الا مرض الفاقة ، فهل اجد في المدارس خبزاً او في المستشفيات دواء كذلك الدواء الذي وصفه احد الاطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا اليه مرضاً فعرف سر مرضه فأعطاه علبه وكتب على غطائها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير .

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى .. فلا قدرة لي على العمل وعندي صبية صفار ليس بينهم من يستطيع عملاً او يحسن صنعا ، ولقد كان لي في الزمن الذي تدمونه ، والعهد الذي تنقمون عليه ، منفسح عظيم في منازل المحسنين ومورد نير من صدقاتهم وهباتهم ، وظل ظليل من تحنن الاغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين ، أما اليوم فاني أبيت طاوياً ،

واصبح شاكياً ، وأغدوا راجياً وأروح يائساً .
وهنا ارسل من جفنيه دمعة ليست بأول دمعة ارسلها على رداثه ،
ولكنها أحر من سابقتها ، لأنه لم يبك في غير خلوته غير هذه المرة .
ثم نهض ومد يده الي مودعا ، فسحت يميني دمعة واحدة من
دموعه الكثيرات .

*

دورة الفلك^(١)

أيها القصر :

أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك ؟ أين النسر الطائر الذي كان يخلق في اجوائك ؟ أين الملك القادر الذي كان يطلع شمسا في صباحك وبدرا في مسائك ؟

أين الاعلام والبنود تخفق في شرفاتك ؟ والقواد والجنود تخطر في عرصاتك ؟ أين الشفاه التي كانت تلم ترابك ؟ والافواه التي كانت تقبل اعتابك ؟ والرؤوس التي كانت تطرق لهيبتك ؟ والقلوب التي كانت تخفق لروعتك ؟

أين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء ؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء ؟ أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس ، والنعم والبؤس ، والرفع والخفض ، والإبرام والنقض ؟

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا .

كيف استطاع الدهر ان يمد يده الى شملك فيبيده ؟ وجمعك فيفرقه ؟
وسمائك فيكور شمسها ؟ وأرضك فيزعج أنيسها ؟

اين كانت أسوارك وابوابك ، وحراسك وحجابك؟ وكيف عجزت
ان تمتنع على القضاء ؟ وتصد عن نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر لإذريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآزره
تحمل عنه ساكنوه وهتكت على عجل أستاره وستائره

أيها السجن :

حلّ بارجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا ، فكيف وسعته ؟ وتعجز
عن احتاله قلل الجبال الرواسي فكيف احتملته ؟ رفقاً به لا ترعجه ، ولا
تخرج صدره ، وضم جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع ،
واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع ، وارحم هذا الجلال
الذاهب ، والعز الزائل ، والرأس الذي يبضته حوادث الدهور ، والظهر
الذي قوسته ايدي المقدور .

أيها الدهر :

ألا تستطيع ان تنام عن الإنسان لحظة واحدة ؟ ألا تستطيع ان
تسقيه كأس السرور خالصة ، لا يمازجها كدر ، ولا يشوبها عناء ؟

ان كنت تريد ان تسلبه فلم اعطيته ؟ وان كنت تريد ان تعطيه فلم
سلبته ؟ كان خيراً له ان لا تعطيه حتى لا تفجعه في تلك العطفية ، وان لا
تسقيه كأس السرور حتى لا يتجرّع ذلك السم الذي أودعته تلك الكأس

أيها الرجل المودع :

كان ارتفاعك عظيما ، فوجب ان يكون سقوطك عظيما .

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة ، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطبت .
كما يجزع ويقطب كل من ذاق من الشراب ما لا عهد له به ولا قبل له
باحتاله .

لا تأس على ما فاتك ، فإنما كان وديعة من ودائع الدهر ، أعاركها
برهة من الزمان ، ثم استردها .

إنك لا تدري ، لعل الله أراد بك خيراً فنحك قبل حلول اجلك
فرصة من الزمان تخلو فيها بنفسك ، وتراجع فيها فهرس أعمالك ، فان
رأيت خيراً اغتبطت او شراً استغفرت .

قضى الله ان يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل عبرة من العبر ترعجبه
من رقدته ، وتوقظه من غفلته ، فكنت انت عبرة هذا الدهر وموعظته .

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالاحلام مغرور

*

تأين فولتير^(١)

في مثل هذا اليوم ، منذ مائة عام ، مات الرجل العظيم ، مات الرجل الخالد ، مات فولتير .

ما مات « فولتير » حتى احدودب ظهره تحت ائقال السنين الطوال ، وائقال جلائل الاعمال ، وائقال الامانة العظمى التي عرضت على السموات والارض ، فابين ان يحملنها ، فحملها وحده وهي تهذيب السريرة الإنسانية فهذبها ، فاستنارت ، فاستقام أمرها .

مات فولتير مردولا محبوباً في آن واحد يبغضه الحاضر لأنه يجهله ، ويحبه المستقبل لأنه عرفه .

ان في هاتين العاطفتين - البغض والحب - سرأ عظيما من اسرار المجد العظيم ، لذلك الرجل العظيم .

(١) وهي ترجمة خطبة خطبها « فكتور هيجو » في باريس في حفلة تأين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨ م بعد مرور قرن على وفاته ، مع بعض تصرف .

كان وهو على سرير الموت محفوقاً بعاطفتين مختلفتين شكلاً، متفقتين معنى ، لأنها جميعاً في سبيل مجده وفخاره ، كان ينظر أمامه ، فيسره منظر التبجيل والتعظيم من مستقبله ، ويلتفت وراءه فيطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يضمه الماضي في صدره لاولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه .

كان « فولتير » رجلاً واكبر من رجل ، كان وحده أمة كاملة ، إنه عاهد نفسه على انجاز عمل عظيم فأنجزه ولم يخلف وعده ، وكان الإرادة الإلهية التجلية في الشرائع تجليها في الطبائع ، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه ؛ فوجدت فولتير اصلبها عوداً ، فاخترته للقيام بالعمل الذي قام به فاتمه .

إننا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسألة الاجتماعية الكبرى ، جئنا لرفع شأن المدنية ونكرم الفلسفة اكراماً ينفعها ويفيدها ، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأى القرن التاسع عشر فيه، جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين ، اجتمعنا لنمجد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى اليها العلماء والعاملون ، والكتاب المجدون ، وجملة القول أننا ما اجتمعنا هنا الا لنمجد العاطفة الشريفة السامية ، عاطفة السلام العام .

إننا نمجد السلام حباً في المدنية ، وحرصاً على جمالها وروتقها ، فالسلام فضيلة المدنية ، والحرب رذيلتها .

نحن في هذه الساعة العظيمة ، في هذا الموقف الرهيب ، نجثو على الركب ، ونعفر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية ، ونقول للعالم الذي

ينصت لسماح صوت فرنسا « لا قوة الا قوة الضمير ، ولا مجد الا مجد الذكاء » هذا في سبيل العدل ، وهذا في سبيل الحق .

لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنسية على هذا المنال : الشعب في المنزلة الدنيا ، وفوق الشعب الدين والقضاء ، وهذا يمثل « القضاة » وذاك يمثل « الإكليروس » .

أتدرون كيف كان الشعب ؟ وكيف كان الدين ؟ وكيف كان القضاء في ذلك العهد ؟ كان الشعب جهلاً ! والدين رياء ! والقضاء ظلاماً !

ان كنت في شك ، ما اقول فاني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيها غناء ومقتنعاً .

في ١٣ اكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شاب مصلوباً في الطبقة الارضية من بيت في مدينة « تولوز » فهاج الشعب ولغظ « الإكليروس » وبجث القضاة ، فكانت النتيجة ان كان الشاب منتحراً ، فسمي قتيلاً ، وكان والده بريئاً ، فسمي قاتلاً .

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته ان يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانتياً ولأنه كان يمنع فتاه ان يتدين بالكنيسة ، إنها لجناية عظيمة جداً ينكرها الدين ، ويحيلها العقل ، ولكن هان أمرها ، ولم يحفلوا بالشريعتين : شريعة القلب ، وشريعة العقل ، فحكموا ان الشيخ الكبير قتل ولده الصغير .

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها .

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق الى الميدان العام شيخ ابيض الشعر
و « جان كالاس » ثم جرّد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدت
ليه أطرافه وترك رأسه متديلاً .

ثلاثة رجال تلوثت ايديهم بدم القتييل : كاهن يحمل الصليب ، وجلاد
يحمل القضيب ، وقاض يحمل في صدره عهد القوم اليه بالتنكيل
والتعذيب .

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته ، وتمشى قلبه في
صدره ، لينظر الى الصليب في يد الكاهن ، بل الى القضيب في يد الجلاد .

ورفع الجلاد القضيب ، وضرب ذراع الشيخ ضربة قاسية صاح على
أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمى عليه ، فتقدم القاضي الرحيم وأمره له بالمنبهات
فانتعش ، فضربه الجلاد الضربة الاخرى فوق الذراع الاخرى فعاد الى
صرخته وإغمائه فعادوا الى تنبيهه وانعاشه ، وهكذا حتى تم لكل ذراع
من ذراعيه ضربتان وصدعتان ، فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات .

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهن ومدّ
اليه الصليب ليقبله فحوّل وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من
نفوس المتدينين ، فأقبل الجلاد وسدد الى صدره الطرف الغليظ من
لقضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية .

على هذه الصورة مات « جان كالاس » .

وما هي الا أيام قلائل حتى عرف الناس ان الفتى مات منتحراً ، لا

مقتولا فحكموا ببراءة الشيخ بعد ان نفذ فيه سهم القضاء ، وماذا يعنيه
بعد الموت ، أمات ظالماً أم مظلوماً !

أما الحادثة الاخرى فهي عبرة الشباب كما كانت الاولى موعظة
الشيخوخة .

بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ الحادثة الاولى وجدوا في « ايفل »
في ليلة عاصفة صليباً أكل السوس احشائه حتى عاف البقاء فيه مطرحة
فوق الجسر بعد ان عاش فوق السور ثلاثة قرون .

من ألقى به من أعلى السور ؟ من أهانه ؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر
المقدس ؟ من ذا الذي اجرم هذا الجرم العظيم ؟

ربما عصفت به ريح ، او عبث به عابر طريق ، او هوى به ضعف
الشيخوخة واعياء الهرم ، لا .. لا .. كل ذلك لم يكن ، لأن الدين أبى الا
ان يوجد مجرماً .. هنالك اعلن مطران « اميان » براءة من غفران الله
ورحمته لكل مؤمن علم او ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه .

ان الحرمان في الكتلكة جريمة هائلة فظيعة قاتلة متى أوحى به
التعصب النميم ، الى الجهل العظيم ، كان! هذا الحرمان سبباً في ان القضاء
عرف او ظن أنه عرف ان ضابطين اسم احدهما « لابر » والآخر
« ديتالون » مرا على جسر « ايفل » في تلك الليلة المشؤومة يترنحان
سكرأ ، وينشدان نشيداً عسكرياً ، مرأ بالجسر وأنشدا النشيد ، فهما
المجرمان ، وكانت المحكمة تقدر « ايفل » ولم تكن بأقل عدلا وانصافاً

من « مجلس الكايتول » في « تولوز » فأمرت بالقبض على الرجلين ،
فاختفى « ديتالون » وقبض على « لابر » .

وأسلم الى القضاء ، فاعترف بالشبذ وانكر المرور على الجسر ،
فحكمت محكمة إيفل بالاعدام ، وأيد حكمها برلمان باريس ، فذنت
الساعة الخيفة الهائلة .

لقد تفتنوا في تعذيب « لابر » وارهاقه ليكشفوا عن سر فعلته ،
وعن شركائه في جريمته ، أي جريمة المرور على الجسر ، وانشاد النشيد .
لقد عذبه عذاباً أليماً ، حتى ان الكاهن الذي جرى به ليعلم اعترافه
أغمي عليه حينئذ سمع قرعة عظام ركبتيه .

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثاني ، وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦
وجيء بالشاب المظلوم الى ساحة « إيفل » الكبرى حيث تشتعل نار
العذاب وتضطرم اضراما ، فاسمعه نص الحكم ، ثم بتروا يده ، ثم استلوا
لسانه بقابض من الحديد فاستاصلوه ، ولكنهم رحوه بعد ذلك فقطعوا
رأسه وألقوا بها في النار .

على هذه الصورة مات « الشيفاليه دي لابر » كما مات من قبله
« جان كالاس » .

احزنك هذا المنظر يا فولتير ، وآلم نفسك ، وملك عليك عواطفك
وشعورك ، فصحت صيحة الرعب والفرع ، فكانت تلك الصيحة الحجر
الاول في بناء مجدك الخالد العظيم .

هنالك انبعثت نفسك الى النزول في ميدان المجتمع الانساني لتكف عادية الظالمين ، وتعلم أظفار الوحوش الضارية ، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه ، وتنتصف منه للمستقبل ، فاتصفت وانتصرت ، وكنت من المحسنين .

فيأياها الرجل العظيم اطبت حياً وميتاً .

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقى ، وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء ، يغدو اليها الانسان لاهياً ، وروح ساهياً ، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه ، ولا يخفضه فيرى ما تحته .

حدث ذلك وايام البلاط أعياد ، و « فرسايل » تتلألاً حسناً وبهاء ورواقاً زماء ، وظرفاء الشعراء امثال « سان أولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالفزول الرقيق والوصف الجميل .

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها ، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية ان يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع ، بذلك القضيب الحديد ، وان يستل لسان الفقى لأنه انشد الاناشيد .

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قوى عظيمة هائلة ، قوة البلاد وقوة الاشراف ، وقوة المال ، وقوة الشعب المائج المتدفع ، وقوة الحكومة التي كانت أسداً على الرعية ، ونعاماً بين يدي الملك ، تجثو أمامه خاضعة صاغرة ، الا ان جثيها كان على جثة الشعب .. وقوة « الاكليروس » المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى .

تقدم فولتير وحده وأثار حرباً عواناً على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة .. ولم يره أكبر من ان ينخزل .. ولم ير نفسه اصغر من ان ينتصر .

أتدرون ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها .. وتسبق الصاعقة في انقضاضها .. ما كان له سلاح غير القلم ، فبالقلم حارب ، وبالقلم انتصر .

انتصر فولتير ، فولتير وقف وحده نلك المواقف المشهودة ، فولتير أدار وحده رحى تلك الحرب الهائلة ، حرب العلم والجهل ، والعدل والظلم ، والعقل والهوى ، والصلاح والفساد ، فتم على يديه الغلب للخير على الشر ، وفاز فوزاً مبيئاً .

وكان « فولتير » قلباً وعقلاً .. كان له رقة الفتاة في غلاتها^(١) وشدة الاسد في لبدته .

« فولتير » مح الخرافات الدينية والعادات الفاسدة ، وارغم انف الكبرياء وأذل عز الرؤساء ، ورفع السوقى الى حيث لا يبجل ظلم القاضي ولا تنطع الكاهن .

علم ومدن وهذب ، ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس ، فلم تنكسر سورته ، ولم تفتقر عزيمته . بل كان يلقي الاستبداد بالسخرية ، والغضب بالاستخفاف ، والقوة القاهرة بالابتسام المؤثرة .

(١) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب .

اقف هنا قليلا اجلالا لابتسامه « فولتير » .

« فولتير » هو الابتسامه ، والابتسامه هي فولتير .

أفضل مزايا الرجل الحكيم ان يملك نفسه عند الغضب ، وكذلك كان فولتير .. كان عقله ميزان اعماله ، فما غلبه حتى الغضب للحق .

كنت تراه عابسا مقطبا ، فما هي الا كرة الطرف ان ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب .

تكاد تكون ابتسامته ضحكا ، لولا حزن الحكيم ، وهم العاقل .

كانت ابتسامته كبارقة السيف يرتاع لها الاعداء ، ويرتاح لها الاولياء .
كان يبتسم للقوي فيخجله بتهكمه واستخفافه ، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه .

فلنمجد تلك الابتسامه التي كانت اشعتها كاشعة الفجر ، تحو الظلام وتبعث الانوار .

نعم الابتسام ، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح ، وبدد ظلمات التقليد .

ان ابتسامه فولتير أنشأت هذه الهيئه الاجتماعيه وزينتها بالاخاء والموده والحرية والمساواة ، فنال العقل منزلته من الاجلال والاعظام ، سواء أسكن القصر الكبير ، أم الكوخ الحقير ، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسده ، والخرافات الدينيه تصرف الحاكم القدير ، ونشر السلام اجنحته البيضاء على المجتمع الانساني

فقرت السيوف في الاغمد ، وهدأت الدماء في المروق ، والارواح في الاجسام ، كل ذلك بفضل ابتسامه فولتير ، وسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء ، والنفوس عن الخاطئين ، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامه تتلألأ بين لألاء النجوم .

فلنمجده ابتسامه فولتير كل التمجيد ولنكبرها كل الاكبار .

هل كان « فولتير » يحلم دائما فلا يستخف حمله الغضب ؟ كلا : بل كان يغضب احيانا في سبيل الحق .

ان التوسط وحفظ الموازنة بين الاخلاق هو القانون العقلي للإنسان ، حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى ، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض ، وان الفلسفة هي الاعتدال وامتلاك ازمة النفس في جميع مواقفها ومذاهبها ، الا ان حب الحق يجب ان يكون دائما في مرتبة الغلو حتى تهب عاصفته قوية هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها .

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله ، أما الاولى فيكفلها العدل وأما الثانية فيحرسها الامل ، لذلك يحب الناس القاضي العادل ، والكاهن الصالح : لأن الاول صورة العدل ، والثاني مثال الرجاء ، فاذا انقلب العدل ظلماً ، والامل يأساً ، عافها الانسان ولوى وجهه عنها ، وقال للقاضي « لا أحب قانونك » وللكاهن « لا أو من بك » وهنا يهب الفيلسوف الغيور غاضباً ، فيحاكم القضاء امام العدل والكهنوت امام الله ، وكذلك فعل فولتير « فكان من الحسنين .

ان الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيداً الا قليلا ، وكلما كثرت

العطاء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره ، فهو كالشجرة الباسقة تكون في الغابة الشجراء أطول منها في التربة الجرداء ، لانها تكون بين لدايتها وارتابها ، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة : روسو وديدور وبوفون وبورماشيه وموتسكيو ، اولئك القوم المفكرون المخلصون هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الاشياء ، والتفكر الصحيح الموصل الى اتقان الاعمال ، وعلموهم ان صلاح القلب اثر من آثار صلاح العقل ، فاجادوا وافادوا .

مات اولئك القوم العطاء ، وهوت من أفتها كواكبهم ، ولقد كانوا في حياتهم جسداً وروحاً ، اما الجسد فقد طواه القبر ، واما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم .

اجل ، ان الثورة روحهم ، والمظهر الساطع المتلألئ بمحكتهم ومبادئهم .

هم في الحقيقة ابطال الثورة المقدسة ، التي هي خاتمة الماضي ، وفتحة المستقبل .

انك تراهم بعين بصيرتك ، في كل مواقعها ومواقمها ، واذا استطعت ان تنفذ بعين بصيرتك في مواطن الاشياء ، رأيت على نور الثورة الساطع ان ديدور كان واقفاً وراء دانتون ، وروسو وراء روبسبير ، وفولتير وراء ميرابو ، ووجدت ابطال الثورة صنيعة ابطال الفلسفة^(١)

ان الكلمة الاخيرة التي انطق بها في هذا الموقف العظيم ، هي دعاء

(١) دانتون ، وروبسبير ، وميرابو ، ابطال الثورة الفرنسية .

المجتمع البشري الى التقدم بهدوء وسكون ، وثبات ووقار .

ولقد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها ، وهي الاخاء الانساني والتعارف النفسي ، فن العبث ان تشغل القوة بعد ذلك مكاناً في هذا المجتمع ، فان فعلت كان أليق الاسماء بها اسم الاستبداد .

ان المجتمع الانساني انكر على القوة حقها المزعوم ، وضاق صدره بجرائمها وآثامها ، فقضاها بين يدي الحق ، وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه ، ففضي عليها « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » .

شف ثوب الرياء عما تحته ، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فأصبح الابطال والمجرمون في نظر الانسانية سواء لانهم جميعاً يسفكون الدماء .

هدم التمدين تلك القاعدة الفاسدة : وهي ان الجرم العظيم اصغر من الجرم الصغير ، فأدرك الإنسان ان قتل الشعوب اكبر إثماً ، واعظم جريمة من قتل الافراد ، واستكبر ان يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عازراً ، وبالجمله : عرف ان الجريمة جرمية ، حيثما حلت ، وفي أي مظهر ظهرت ، وان القاتل لا يعني عنه من الله شيئاً ان يسمى القيصر او يدعى الامبراطور . ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء ألبس تلج الملك ، او قلنسوة الاعدام ! .

فلنصرح بالحقيقة المقررة الثابتة ، ولنحتقر الحرب اشد الاحتقار ، ان الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود .

ان منظر السماء والأشلاء افطع منظر .

لا يعقل ان يكون الشر طريق الخير ، وان يكون الموت وظيفة الحياة .

أيتها الأمهات الجالسات حولي : خففن من احزانكن فقد اوشكت يد الحرب ان تكف عن اختلاس أفلاذ اكبادكن .

أتشقى المرأة فتسلد ، ويفرس الزارع فيكسو الارض بساطها الاخضر ، ويمجد العامل فيملا الخزائن فضة وذهباً ، ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات ، حتى اذا اخذت الارض زخرفها ، وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها ، وذهبتا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال ؟ !

آه ... اتنا لا نستطيع مع الاسف ان نخدع أنفسنا ، وتنكر ان الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها ، وتنقص من سرورها .

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء .

ان الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لا تزال باقية .

فلنذكر عند ملوك الحرب : فولتير وجان جاك وديدور وموتسكيو ملوك السلام ، ولنوجه وجوهنا الى تلك الروح العالية ، الى تلك الحياة العظيمة ، الى ذلك الدفين المقدس ، الى فولتير ، ولنجد امام قبره ضارعين متوسلين ، عسى ان يمدنا بروح من عنده ، ويهدينا الى

حظيرة السلام المقدسة ، فانه وان مر قرن على موته لم يزل في الأحياء
الخالدين .

لنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال : كفى
كفى انها همجية ، انها وحشية ، انها تشوه وجه المدينة الجميل .
ان أسلافنا من الفلاسفة رسل الحق الى البشر .

فلنضرع اليهم في تذكارهم هذا ان يتداركوا الفتنة قبل وقوعها ،
وينادوا : ان الحياة ملك الإنسان ، وعزيز عليه ان تسلب منه ، وان
التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والافكار ، فلا يعترض سبيلها
معارض .

ان النور لا أثر له بين اضواء القصور ، فلنطلبه بين ظلمات القبور .

العلماء والجهلاء

لا تخشون ان الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا ترام ،
او ان بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم
الذي يتصوره الناس عندما يرون التفريق بينهما ، واتزالهما منازلها ،
فالعلماء والجهلاء - ان دقت النظر - سواء لا فرق بينهما الا ان هؤلاء
يعلمون المعلومات منظمة ، واولئك يعلمونها مبعثرة ، وان هؤلاء يحسنون
البيان عنها واولئك لا يبينون .

ومن نظر الى الاشياء نظراً نافذاً وجد ان المعاني الصحيحة ،
والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر والنفع والضرر ، والمسائل
المنوطة بالإنسان في حياته المادية والمعنوية ، يشترك في العلم بها الناس
جميعاً عامتهم وخاصتهم ، كبارهم وصغارهم ، من نشأ تحت سقوف
الجامعات ومن عاش تحت سقوف السموات ، لأن العلم ينبوع يفور من
الداخل ، لا سيل يتدفق من الخارج ، ولأن المعلومات كامنة في النفوس

كمون النار في الزند ، والقوة في المادة ، وما وظيفة العلم الا استشارتها من مكانها ، وبعثها من مراقدها .

وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم وآية فضلهم ، الا وترى في السنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها ، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب ، ولا قضية من قضايا الاخلاق التي تعدها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلاق ، الا وهي ملقاة تحت أقدام العامة ، ومذلة بين أيدي الغوغاء والأمين .

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يحول في خواطرهم ويهجس في ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة لما خيل اليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً ، او معنى غريباً .

ليس هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون احاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون ، او أدركوا ما لا عهد لهم به من قبل ، بل لأنهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم ، ويجمع لهم شتات المعاني المبعثرة في أنحاء أدمغتهم ، ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الانس بأفكار تشابه أفكارهم ، وآراءهم .

ولا أخشى بأساً ان قلت : ان علم العامة أفضل من علم الخاصة ، لانه أولاً علم خالص من شائبة التكلف والتعمل ، حتى إنك لتجد في بعض الاحايين بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الشكلى لغرابته وشدوده ، وما يترفع أضييق العامة ذهناً وأضعفهم فهماً ان يجمل

له شأنًا ، او يقيم له وزناً ؛ وثانياً : لانه يعلق بالنفس ويتغلغل بين أطوائها تغلغلاً تظهر آثاره على الجوارح ، وكثيراً ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه ، وان كانت صحيحاً ما يقولون من ان العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء .

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ولا تنظر اليهم نظراً يلاً قلبك رهبة ولا تغل في احتقار الجهلاء وازدراء العامة والدهماء ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الالقاب .

ان في اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها ، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه ، وتفرقه مذاهب وشيعاً ، وركوب كل فريق رأسه ، وهيامه على وجهه ، ووقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارى - ينشدون فلا يجدون ويجدّون فلا يصلون - لدليلاً على ان الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا مسميات ، وان حقائق الاشياء واسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها واحتجتها من دون عباده ، ولم يمنحهم الابلة تزيدهم وجداً كلما وجدوا بردها وتملاً قلوبهم شوقاً كلما تذوقوا طعمها :

ضربك في بني الدنيا كثير وعز الله ربك من ضرب
وما العلماء والجهلاء إلا قريب حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة

سيدي المحترم :

لا تعجب ان رأيت إعجابي بك ظاهراً في كل سطر من سطور كتابي هذا فإننا أنطق بلسان كثير من العقلاء ، الذين يحبونك حباً جماً ، ويمتقدون أنك فريد في أدبك ، فريد في قلمك ، فريد في تسامحك وتساهلك ، لذلك أردنا ان نوجه اليك السؤال الآتي راجين منك الاجابة عليه :

لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تحكم على المرأة الفاسقة حكماً صارماً فتنبذها وتحتقرها ، ولا تحكم على الرجل الفاسق مع ان جريمتها واحدة ؟ هذا ما أردنا ان نسترشد برأيك فيه ، والسلام ؟

« سائل »

يمتد كثير من الناس ان الرجل والمرأة سواء في الذكاء والعقل ، وعندني أنهم أصابوا في الأولى وأخطأوا في الاخرى .

تستطيع المرأة ان تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة ،
ولا تستطيع ان تجاريه في الاناة والرفق وامتلاك هوى النفس ، والاخذ
بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب .

تستطيع المرأة ان تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والاطوار ،
وان تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات ، ولكنها لا تستطيع
ان تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع ، لان بين جنبيها نفساً غير نفسه ، وهوى
غير هواه ، ولان لها قلباً صغيراً لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله
الكبير .

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه .. وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها ،
فما وقفت معه في موقف الاسقطت بين يديه عجزاً وضعفاً .. لانه
يعرف السبيل الى قلبها .. ولا تعرف السبيل الى عقله .

لا تعجب ان قلت لك : ان الذكاء غير العقل ، فالله ووض والمحتالون
والمزورون والكاذبون والفاسقون والمنافقون اذكياء .. وليس بينهم
عقل واحد .. لانهم يوردون أنفسهم موارد التلف والملاك ، من حيث
لا يغنى عنهم ذكاؤهم شيئاً .. وكثيراً ما يكون الذكاء السيد داعية
الجنون ؛ حتى انك لا تكاد ترى ذكياً من الاذكياء ، الا وترى له في
شؤونه واطواره احوالاً شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل ..
ولا قاعدة من قواعد الطبيعة . وعندى ان اكثر ما يصيب النوابغ
والاذكياء من بؤس العيش وسوء الحال عائد الى ضعف في عقولهم ..
وتقص في تصوراتهم ، وبعد . فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد

الشجاع .. وكثيراً ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه اذا كان طائشاً
أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن او الغضب .

فما يغني المرأة ذكاؤها اذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها ويمسك
بيدها ان تعثر في عدوها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة .

سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن ..
ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس في استطاعتهم ان ينازعني
فيه مع شدة ذكائهم .. ولا في استطاعة انصارهم من الرجال ان
ينقضوه .. ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

لولا ان الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان .. وذلك
الغلب .. ولا استطاع ان يقودها وراءه كما يقاد الجنيب^(١) ولا ان يملك
عليها أمر فقرها وغناها وحبسها وإطلاقها وحجابها وسفورها ويستأثر
من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى في نفسها
قوة لدفعها ، والخروج عليها .

القوي يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتى نفسه وهواه ،
وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان ، وشأن الرجل مع المرأة .

الإنسان نوع من أنواع الحيوان ، لم يكن في مبدأ خليقته خيراً منها
في شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان أوفر منها عقلاً وأوسع حيلة ،
فما زال يطلب لنفسه الغاية التي تناسب استعداده وفطرته ، حتى أصبح
سيد الحيوان فمدن المدن ومصّر الامصار ، وشاد وبنى ، وتأنق وترفه ،

(١) الجنيب : المهر الذي يقاد الى مهر آخر .

ثم طرد صاحبه الى الصحارى والرمال ، ورؤوس الجبال ، ياكل بعضه بعضاً ، ويتفانى شقاء وجهلاً ، والرجل أخو المرأة وقسيمها في الرحم والمهد ، والابوة والامومة ، والقومة والقعدة ، والنومة واليقظة ، ولكنه وجد في نفسه فضلاً عليها في قوة العقل والتدبير .. وكان ظالماً خشن النفس قاسي القلب فابى الا ان يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها ، فتم له ما أراد .

ملك عليها جسمها لانه حجبتها عن النور والهواء فاذنعت .. وملك عليها نفسها لأنه ألقى في روعها ان ذنبها في جريمة الفسق المشتركة بينه وبينها اكبر من ذنبه ، وان جنائيتها ضعف جنائيته فصدقت ، وطلب منها ان تسلم اليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف بأموالها فسلمت .. واصبحت تنظر الى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها ، والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها معها ، كما ينظر اليها هو بعين الإجلال والإعظام .

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه ، فاذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها رجاله ونساؤه .. وملا قلبها هولاً ورعباً واوسع نفسها تقربياً وتأنيباً من حيث لا تصبر على شرارة واحدة من هذه النار المتأججة .. لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة .. وما كان له ان يقصر في ممالأة نفسه ومحاباتها ، لأنه شره طماع محب لذاته ، ولا ان يعدل في القضاء في قضية هو الخصم فيها والحكم ، لأنه ظالم جبار .

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل ، لاستطاعت هي ان تحجبه في المنزل ، وان تتولى التصرف في شأنه ، وان تعبت بعقله ما شاءت ،

فتمعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه ، وان تنفذ الى قلبه فتلعب به
لعب الصبي بالكرة ، وان تحدثه فيصدق ، وتأمره فيأتمر .. وان تسن له
القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع
هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد .

لا أريد ان أقول : ان هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة
يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها ، بل أريد ان اقول : ان هذا
الفرق بينها هو سبب ذلك السلطان القاهر .. والحكم الجائر .

وجملة القول : ان حكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة
الرجل الزاني حكم ظالم ، ولو أنه أنصفها لعرف فرق ما بينها في القوة
العقلية ، فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة
المدافعة .. ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون ، ولان نساء
ساذجات بسيطات ، يصدقن الرجال في أقوالهم ، وينظرون الى
المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم ، فإن أردنا ان تنال المرأة حقها من
الرجل ، وان تنتصف منه . فليس سبيلها الى ذلك المغالبة والمصارعة .
فانها اضعف منه جسما وعقلا . بل السبيل اليه ان نعلمها لتعرف كيف
تستعطفه وتسترحمه ، وكيف تحمله على إجلالها واعظامها ، وان تعلمه
ليستطيع ان يكون شخصا كريما ، وإنسانا رحيما .

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً الى ترك ضلالة من الضلالات او بدعة من البدع ، الا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها ، ولا يخبو أوارها حتى تهلك ، او يهلك دونها .

ليس موقف الجندي في معترك الحرب باحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة ، وليس سلب الاجسام ارواحها ، بأقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها .. ولا يضر الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات ، وأنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم الى اليوم الاحماية للمذاهب وذوداً عن العقائد .

لذلك كان الدعوة في كل أمة أعداءها وخصومها ، لأنهم يحاولون ان يبرزوها في ذخائر نفوسها ، ويفجعونها في أعلاق قلوبها .

الدعاة احوج الناس الى عزائم ثابتة ، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة ، حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها او يموتوا في طريقها .

الدعاة الصادقون لا يبالون ان يسميهم الناس خونة او جهلة او زنادقة او ملحدين ، او ضالين ، او كافرين ، لأن ذلك ما لا بد ان يكون .

الدعاة الصادقون يعلمون ان محمداً صلى الله عليه وسلم عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً ، ومات سيد المرسلين ، وان الإمام الغزالي عاش بالكفر والاحاد ومات حجة الاسلام ، وان ابن رشد عاش ذليلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه اذا رأوه ، وفات فيلسوف الشرق ؛ فهم يحبون ان يكونوا امثال هؤلاء العظماء احياء وامواتاً .

سيقول كثير من الناس : وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً ، ولا تسمع له قولاً ، إنه يضر نفسه من حيث لا يتفح أمته ، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس .

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين ، وهذا هو الداء الذي ألمّ بنفوس كثير من العلماء فأمسك أسنتهم عن قول الحق ، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والارشاد ، فأصبحوا لاعمل لهم الا ان يكرروا للناس ما يعلمون ، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت الاذهان ، وتبلدت المدارك ، واصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ، ولا ينفذ اليه الهواء .

الجهل غشاء سميك يغطي العقل ، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً . فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها ، حتى اذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نوراً ، والألم لذة وسروراً .

لا يستطيع الباطل ان يصرع الحق في ميدان ، لأن الحق وجود ، والباطل عدم ، إنما يصرعه جهل العلماء بقوته ، ويأسهم من غلبته ، واغفاهم النداء به والنداء اليه .

محال ان يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد ، وإنما يهدمه افراد متعددون ؛ في عصور متعددة ، فيزهه الاول هزة تباعد ما بين احجاره ، ثم ينقض الثاني منه حجراً ، والثالث آخر ، وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر .

الجهلاء مرضى والعلماء اطباء ، ولا يجمل بالطبيب ان يحجم عن العمل الجراحي فراراً من ازعاج المريض ، او خوفاً من صياحه وعويله ، او اتقاء لسبه وشتمه ، فانه سيكون غداً اصدق اصدقائه واحب الناس اليه .

وبعد : فقليل ان يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيبا اليها الا اذا كان خائناً في دعوته ، سالكا سبيل الرياء والمداهنة في دعوته ، وقليل ان ينال حظه من اكرامها واجلالها الا بعد ان تتجرع مرارة الدواء ثم تشعر بحلاوة الشفاء .

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء ، وكظة^(١) الارض والسماء ،
ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد ، لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد .

اصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء الجامع
وخطباء المنابر كلهم يدعون الى الحق ، وكلهم يعظون وينصحون ،
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكن لا يوجد بينهم من
يستطيع ان يحمل في سبيل الدعوة ضراً ، او يلاقي في طريقها شراً .

رأيت الدعاة في هذه الامة اربعة : رجلا يعرف الحق ويكتمه عجزاً
وجبناً ، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر ، ورجلا يعرف
الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته ، فيهجم
على النفوس بما يزعجها وينفرها ، وكانت خيراً له لو صنع ما يصنعه
الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده ،
ورجلا لا يعرف حقاً ولا باطلاً، فهو يخبط في دعوته خبط الناقة العشواء
في بيدائها ، فيدعو الى الخير والشر والحق والباطل ، والضر والنافع ،
في موقف واحد . فكانه جواد امرىء القيس الذي يقول فيه :

* مَكَرٌ مَفَرٌ مُقْبِيلٌ مُدْبِرٌ مَعَا *

ورجلا يعرف الحق ويدعو الامة الى الباطل دعوة المجد المجتهد ،
وهو أخبت الاربعة واكثرهم فائلة ؛ لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ
غايته منه الا اذا أهلك الامة في سبيله ، فهو عدوّها في ثياب صديقها ؛

(١) الكظة : البطنة .

لأنه يوردها موارد التلف والمهلك باسم الهداية والإرشاد . فليت شعري
من أي واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها ؟ !

ما اعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها ؛ فقد أصبح دعواتها في حاجة
الى دعاة ، ينيرون لهم طريق الدعوة ، ويعلمونهم كيف يكون الصبر
والاحتمال في سبيلها . فليت شعري متى يتعلمون ، ثم يرشدون ؟

الحياة الذاتية

أكثر الناس يعيشون في نفوس الناس أكثر مما يعيشون في نفوس أنفسهم أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ، ولا يأخذون ولا يدعون إلا لأن الناس هكذا يريدون .

حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضمنية مدخلة في حياة الآخرين ، فلو فتش عنها لا يجد لها أثراً إلا في عيون الناظرين ، وآذان السامعين ، وأفواه المتكلمين .

يخيل اليّ أن الإنسان لو علم أن سيصبح في يوم من أيام حياته وحيداً في هذا العالم لا يجد بجانبه أذناً تسمع صوته ، ولا عيناً تنظر شكله ، ولا لساناً يردد ذكره ، لا أثر الموت على الحياة عله يجد في عالم غير هذا العالم - من آذان الملائكة أو عيون الجنة - مقاعد يقتمدها فيطيب له العيش فيها . إذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين ، فأي مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكررة متعددة ، إنما هي

حياة واحدة يتفق جوهرها ، وتتعدد صورها ، كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق قديدا ، ونحسب كل موجة من امواجه قسماً من اقسامه ، فاذا دنونا منه لا نرى غيره ، ولا نجد لجزء من اجزائه حيزاً مستقلاً ، ولا وصفاً ثابتاً .

لا يحيا في هذا العالم حياة حقيقية ، الا ذلك الشاذ الغريب في شؤونه واطواره وآرائه واعماله ، الذي كثيراً ما نسميه مجنوناً ، فان رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفاً ، ونزيد بذلك أنه نصف مجنون ، فهو الذي يتولى شأن الانسان ، وتغيير نظاماته وقوانينه ؛ وينتقل به من حال الى حال بما يغير من عاداته ويحول من افكاره .

أية قيمة لحياة امرئ ، لا عمل له فيها الامعاجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناس ، فيأكل ما لا يشتهي ، ويصدق نفسه عما تشتهي ، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر ، وينام حيث لا يطيب له المنام ، ويلبس من اللباس ما يخرج صدره ، ويقصم ظهره ، ويشرب من الشراب ما يحرق امعاه ، ويأكل احشاءه ، ويضحك لما يبكي ويبكي لما يضحك ، ويبتسم لعدوه ، ويقطب في وجه صديقه ، وينفق في دراسة ما يسمونه علم السلوك - أي علم المداينة والملق - زمناً لو انفق عشر مشعاره في دراسة علم من العلوم النابغة لكان نابغته المبرز فيه حرصاً على رضاء الناس ، وازدلالاً الى قلوبهم .

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبة في غرائز الناس فلولا يدوقوها لما طلبوها ولا كلفوا بها ، وما جناها عليهم الا كلف

تاريخها برضاء شاريها ، وما كان الترف خلقاً من الاخلاق الفطرية في الانسان ولكن كلف المتشفون برضاء المترفين فتترفوا ، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه واثقال الحياة وأعبائها ، ما نغص عليهم عيشهم وافسد عليهم حياتهم ، وإنك لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب ويعلم ما يأخذ وما يدع ، يبيع منزله في نفقة عرس ولده او ابنته ، فلا تجد لفعله تاويلا الا خوفه من سخط الناس واتقاه مذمتهم ، وكثيراً ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضام ذكاه الاذكياء ، وأطفا عقول العقلاء ، وم رأينا من ذكي يظل طول حياته خاملاً متلفاً لا يجرؤ على اظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافة هزه الناس وسخرتهم ، وعاقل لا يئمه من الاقدام على اصلاح شأن أمته وتقويمها الا سخط الساخطين وتقمة الناقين .

وما اعجبت برجل في حياتي إعجابي بأديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدلي بها الى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يمضي لسبيله كأنه ما صنع شيئاً ، فلا يسير وراءها سير المتجسس ليعلم ما رأى الناس فيها ، وما حديثهم عنها ، وهل سخطوا عليها ، او رضوا بها ؟ ولا يسي متقللاً في الجامع والاندية ، مسائلها عن كل غاد ورائح ، ليجد خيراً فيضحك ويستبشر ، او شراً فيبكي ويتشس ، بل كثيراً ما رأته يسمع حديث الناس عنه في حالي رضام وسخطهم ساكناً هادئاً ، كأنما يتحدثون عن غيره ، ويعنون شخصاً سواه ، حتى كدت أتخيل الأ فرق عنده بين : احسنت واجدت ،

وأسات وأخطأت ، بل قلما رأيت على كثرة لصوفي به ، وتفقدني مواقع سمعه وبصره يقرأ ما تكتبه الصحف عنه ، وما تعلقه غلو آرائه وافكاره ، من مدح او ذم ، حتى كدت احمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة ، او العظمة والكبرياء ، لولا أنني فاتحته مرة في ذلك وسألته : لم لا تحفل برأي الكتاب فيك ، ولم لا تقرأ ما يكتبون عنك ؟ فأجاب : إنني ما اقدمت على الكتابة للناس في اصلاح شؤونهم ، وتقويم معوجهم ، الا بعد ان عرفت أنني استطيع ان انزل منهم منزلة المعلم من المتعلم ، للناس خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم ، فلا افرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، ولأني لم أكتب لهم ، ولم أتحدث اليهم ، ولم أشهدم أمري ، ولم أحضرم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطيع ان أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير او شر ، لأني راض عن طريقتي التي اكتب بها رسائلي ، فلا أحب ان يكدرها عليّ مكدر ، وعن آرائي التي أودعها إياها ، فلا أحب ان يشككني فيها مشكك ، ولم يهيني الله من قوة الفراسة ما استطيع ان أميز بين مخلصهم ومشوبهم ، فأقبل على الاول لاستفيد علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه ، فانا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة محدودة ، ثم علم ان على يمين الطريق الذي يسلكه روضة غناء تعتنق أغصانها وتشتجر أقماتها وتغرد أطيافها وتتألق ازهارها ، وان على يساره غاباً ترأر أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفتح أفاعيه وصلاله ، فمشى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة ان يلهو

عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة ان يبيع بنظراته
فضول تلك السباع المقعية والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه ، وأما
عامتهم : فهم بين ذكيّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب
وسلامة الوجدان ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه ، فانا أحد الله في
أمره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه ،
ولا يسمع الا ما يطربه ، فأكل أمره الى الله واستلهمه صواب الرأي فيه
حتى يجعل له من بعد عسر يسراً ، فانا إنما اكتب للناس لا لأعجبهم ، بل
لأنفعمهم ، ولا لأسمع منهم انت أحسنت ، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما
كتبت ، فلو ان هذه الملايين الاثني عشر السقي يحتضنها هذان الجبلان
أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضا عني ، ثم رأيت من بينها رجلاً
واحداً ينتفع بما أقول ، لكان الواحد المستفيد أثر في نفسي من الملايين
المعجبين ، أتدري لمّ عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها ؟ لأنهم يظنون
أنهم لا يزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون في مدارسهم وأنهم جالسون بين
يادي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان ، فتري واحداً منهم يكتب
وههه المالىء قلبه ان يعجب اللغويين ، او يزوق المنشئين ، او يطرب
الادباء ، او يضحك الظرفاء ، ولا يدخل باب أغراضه ومقاصده ان يتفقه
المسلك الذي يجب ان يسلكه الى قلوب الذين يقول إنه يمعظهم او ينصحهم
او يهذبهم او يثقفهم ، ليعلم كيف ينفذ الى نفوسهم ، وكيف يهجم على
قلوبهم وكيف يملك ناصية عقولهم ، فيعدل بها عن ضلالها الى هداها ، وعن
فسادها الى صلاحها ، فثله كمثل الفارس الكذاب الذي تراه حاملاً سيفه كل

يوم الى الجوهري ليرصع له قبضته او الحداد ليشحذ له حدّه ، او الصقيل
ليجولو له صفحته ، ولا تراه يوماً في ساحة الحرب ضارباً به .

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذنباً من
مذاهب الخير وطريقاً من طرق الهداية للضال عنها لو ان الفضيلة هي
الخلق المنتشر فيهم ، والغالب على أمرهم ، ولو كان الأمر كذلك لآثرت
ان يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي ، لا من حيث
تشخيصها في أذهان الناس وقولهم ، فاذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت
قلبه وأخذت مستقرها من نفسه جعلها ميزاناً يزن به أقواله وأفعاله كما
يزن به أقوال الناس وأفعالهم ، ثم لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا
عليه ، أحبوه أم أبغضوه ، فإنما يبكي على الحبيب النساء .

العبرات

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر ، واحسبني قادراً على الاستمساك في كل رزء مهما جلّ شأنه ، وعظم وقته ، فلما مات «مصطفى كامل» علمت ان من الرزايا ما لا يطاق احتماله ، ولا يستطاع تجرعه .

كل يوم نرى الموت ، ولا تزال نعد الموت غريباً ، هيهات الاغرابه في الموت ، ولكن الغريب موت الرجل الغريب .

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نأبه لها ، واكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع ، فلما مرت قافلة «مصطفى كامل» دهشنا وجزعنا ، لانه كان غريباً في حياته ، فأحرى ان يكون غريباً في مماته .

مات «مصطفى كامل» فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك ، لاتنا ما كنا نرى الا أمواتاً ينقلون من ظهر الارض الى بطنها . أما «مصطفى كامل» فكان حياً حياة حقيقية ، فكان موته كذلك .

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئاً اذا بذلوا لذلك الرجل العظيم

قطرة من المداد ، ولا الباكون أنهم ابلوا بلاء حسناً اذا بذلوا له قطرة من الدمع ، فانه كان يبذل لهم ماء حياته قطرة فقطرة حتى أفناه ، ومضى لسبيله وشتان ما بين صنيعهم وصنيعه .

اين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ، او قطرات المداد التي يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم ، من قطرات الحياة التي أراقها « مصطفى كامل » في سبيل وطنه وأمه ؟

كان « مصطفى كامل » سراجاً كبير الشعلة ، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيتته وشيكاً ، وتحترق ذبالبته ، فينطفئ نوره .

كان « مصطفى كامل » نشيطاً سريع الحركة فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما صاح « مصطفى كامل » وأسمع في صياحه عرفوا ان آذان السياسة لا يخترقها الا الصوت الجمهوري ، ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسئون الظن به ، فلا يصدقون ان تربة مصر تنبت أمثال « فولتير ، وهو جو ، وغاريبالدي ، وواشنطن » فلما نبغ بينهم « مصطفى كامل » عرفوا ان تربة الشرق لا تختلف كثيراً عن تربة الغرب لو تعهدوا الزارعون .

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقى يضرب بها على اوتار القلوب ، وكانما كان بينه وبينها سلك كهربائي ، فهي تتحرك

بجركته وتسكن بسكونه .

ما كان « مصطفى كامل » أذكى الناس ، ولا أعلم الناس ، ولا أعقل الناس ولكنه كان اشجع الناس .

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضي فلا ينثنى حتى الموت ، كان يخطفء احيانا في اتخاذ الوسائل الى آماله ، ولكنه كان اذا اتخذها لا يتمهل ريثا يتبين أي طريق يأخذ ، ولا أي مسلك يسلك ، مخافة ان تفتر همته بين الاخذ والرد ، فيكون خطؤه في ترده اكثر من خطئه في جهاده .

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له : إنك مخطفء او مضر ، او غير محسن ، او غير عظيم ، فما كان يصدق من ذلك شيئا كأنما كان ينظر بعين الغيب الى هذا اليوم الذي اتفق فيه اصدقاؤه وأعداؤه ، وخصومه واولياؤه ، على أنه رجل عظيم .

ما كان « مصطفى كامل » من الاغنياء ، ولا من بيت الملئك ، وما كان آمرآ ولا ناهيا . ولا رافعا ولا خافضا . ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته .. ما لم يلق واحد من هؤلاء ، ولا فضل لهم في ذلك عليه ، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول ، ويجلون المناقب والمزايا .

فيا أيها القارئ الكريم : ان كان لك ولد تحب ان تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة « مصطفى كامل » ليتعلم منها الشجاعة والإقدام .
ويا أيها المصري : كن احرص الناس على وطنيتك .. ولا تبغ بها

بدلاً من عرض الدنيا وزخرفها .. فانك ان فعلت كنت « مصطفي
كامل » .

ويا أيها الإنسان : أقدم على عظام الامور ، ولا تلتفت ينة ولا يسرة
واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين والناقين والهازئين
والساخرين فانهم سيعترفون بفضلك ، ويسمونك عظيماً كما سماوا
« مصطفي كامل » .

ويا أيها الراحل المودع : ان بين جنبي لوعة تعتلج لفراقك لا اعرف
سبيلا الى التعبير عنها الا القلم .

وهانذا اعالج القلم علاجاً شديداً على ان يسعني بحاجتي ، وأقلبه
ظهراً لبطن ، واكثر من استمداده ، واضغط به على القرطاس ضغطاً
شديداً ، فلا أراه يغني عني شيئاً .

خطر لي ان الحزن سويداء القلب ، وأنه بعيد الغور ولا تبلغه هذه
الأداة القصيرة التي في يدي ، فاستبدلت بها أداة اطول منها ، فكانت
حكماً حكماً سابقتها .

إذن كيف أعبّر عن وجدي أيها الفقيد الكريم ، وقد خرس القلم
وعبي اللسان ؟

الآن عرفت السبيل ووصلت الى ما أريد .

انت الآن في عالم الأرواح .. وقد انكشف لك كل شيء من أسرار
النفوس ودخائل القلوب ، ولا بد ان يكون قد انكشف لك ما يكن قلبي

من الوجد عليك .. والأسف على فراقك .. فما حاجتي بعد ذلك الى
ترجمة القلم او تعبير اللسان .

أيها الراحل المودع : طببت حياً وميتاً ، خدمت أمتك في حياتك
وبعد مماتك ، ولولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية في نفوس المصريين ،
ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع ان الأمة المصرية على اختلاف مشاربها
ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة هي حب الوطن وحب رجاله العاملين .

دمعة على الاسلام

كتب إليّ أحد علماء الهند كتاباً يقول فيه : إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثاً بلغة «التاميل» ، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس .. موضوعه : تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني ، وذكر مناقبه وكراماته ، فرأى فيه من الصفات والالقباب التي وصف بها الكاتب السيد عبد القادر ولقبه بها صفاتاً وألقاباً هي بمقام الالوهية أليق منها بمقام النبوة .. فضلا عن مقام الولاية كقوله «سيد السموات والارض و«النفاع الضرار» و«المتصرف في الاكوان» و«المطلع على اسرار الخليقة» و«محيي الموتى» و«مبريء الاعمى والابرص والاكمة» و«أمره من أمر الله» و«ماحي الذنوب» و«دافع البلاء» و«الرافع الواضع» و«صاحب الشريعة» و«صاحب الوجود التام» الى كثير من امثال هذه النعوت والالقباب ا

ويقول الكاتب : إنه رأى في ذلك الكتاب فضلا يشرح فيه المؤلف

الكيفية التي يجب ان يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه : « أول ما يجب على الزائر : يتوضأ وضوءاً سابغاً ، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار ، ثم يتوجه الى تلك الكعبة المشرقة .. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول :

« يا صاحب الثقلين .. أغثني وأمدني بقضاء حاجتي .. وتفريج كربتي . أغثني يا محي الدين عبد القادر .. أغثني يا ولي عبد القادر .. أغثني يا سلطان عبد القادر .. أغثني يا بادشاه عبد القادر .. أغثني يا خوجة عبد القادر » .

« يا حضرة الغوث الصمداني ، يا سيدي عبد القادر الجيلاني ، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج اليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة » .

ويقول الكاتب أيضاً : ان في بلدة (ناقور) في الهند قبراً يسمى « شاه الحميد » ، وهو أحد اولاد السيد عبد القادر - كما يزعمون - وان الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله .. وان في كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزاراً يمثل مزار السيد عبد القادر .. فيكون القبلة التي يتوجه اليها المسلمون في تلك البلاد والمملجا الذي يلجأون في حاجاتهم وشدائدهم اليه .. وينفقون من الاموال على خدمته وسدته .. وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الارض جميعاً لصاروا اغنياء . هذا ما كتبه اليّ ذلك الكاتب .. ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الارض الفضاء ، وأظلمت الدنيا في عيني .. فما أبصر مما

حولى شيئاً .. حزناً واسفأ على ما آلت اليه حالة الإسلام بين اقوام
أنكروه بعد ما عرفوه ، ووضعوه بعد ما رفعوه .. وذهبوا به مذاهب
لا يعرفها .. ولا شأن له بها .

أي عين يجعل بها ان تستسبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدمع
فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن ، منظر اولئك المسلمين ، وهم
ركع سجد على اعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه في
حياته . فاحرى ان يكون كذلك بعد مماته !

أي قلب يستطيع ان يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة فلا
يطير جزءاً حيناً يرى المسلمين اصحاب دين التوحيد اكثر من المشركين
اشراكاً بالله ؛ واوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات !

لم ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين .. لم يحملون لهم في صدورهم
تلك الموجدة وذلك الضغن ، وعلام يحاربونهم ، وفيهم يقاتلونهم وهم لم
يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم ، ولم يفرقوا فيه إغراقهم ؟ !

يدين المسيحيون بألهة ثلاثة ، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد
وبعده عن العقل . فيتأولون فيه ويقولون ان الثلاثة في حكم الواحد ،
أما المسلمون فيدينون بالآلاف من الآلهة اكثرها جذوع اشجار ، وجثث
اموات ، وقطع احجار ، من حيث لا يشعرون ! .

كثيراً ما يضرر الإنسان في نفسه أمراً وهو لا يشعر به ، وكثيراً ما
تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتغال نفسه عليها ، ولا أرى مثلاً

لذلك اقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم الى سكان القبور ويتضرعون اليهم تضرعهم للإله المعبود فاذا عتب عليهم في ذلك عاتب ، قالوا : إنا لا نعبدهم ، وإنما نتوسل بهم الى الله ، كأنهم يشعرون ان العبادة ما هم فيه ، وان اكبر مظهر لألوهية الإله المعبود ان يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين ، يلتمسون إمداده ومعونته ، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الاموات من حيث لا يشعرون .

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية ، وليعتق رقابهم من رق العبودية ، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويهم ، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل . وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى ، فكانوا ذوي أنفة وعزة ، وإباء وغيره ، يضربون على يد الظالم اذا ظلم ، ويقولون للسلطان اذا جاوز حده غيرها سلطانها : قف مكانك ، ولا تغل في تقدير مقدار نفسك ، فإنما انت عبد مخلوق لا رب معبود ، واعلم أنه لا إله إلا الله .

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد ، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى ، فقد ذلت رقابهم ، وخفقت رؤوسهم ، وضرعت نفوسهم ، وفترت حميتهم ، فرضوا بخطة الخسف ، واستنموا الى المنزلة الدنيا ، فوجد اعداؤهم السبيل اليهم ، فغلبوهم على أمرهم ، وملكوا عليهم نفوسهم واموالهم ومواطنهم وديارهم فاصبحوا من الخاسرين .

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم ، وان يبلغوا ما يريدون
لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها الا اذا استرجعوا قبل ذلك ما اضاعوه
من عقيدة التوحيد ، وان طلوع الشمس من مغربها ، وانصباب ماء
النهر في منبعه ، اقرب من رجوع الإسلام الى سالف مجده ، ما دام
المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله ، ويقولون
للأول كما يقولون للثاني : « انت المتصرف في الكائنات ، وانت سيد
الأرضين والسموات » .

ان الله أغير على نفسه من ان يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه
ويتخذونه وراءهم ظهيراً ، فاذا نزلت بهم جائحة ، او ألمت بهم ملة .
ذكروا الحجر قبل ان يذكروه ، ونادوا الجذع قبل ان ينادوه .

بن أستغيث ؟ وبن أستنجد ؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملة الفادحة ا
أدعو علماء مصر وهم الذين يتهافتون على « يوم الكنسة ^(١) » ، تهافت
الذباب على الشراب ؟ أم علماء الأستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني
فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدي الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية ! أم
علماء العجم وهم الذين يحجون الى قبر الإمام كما يحجون الى البيت الحرام ،
أم علماء الهند وبينهم امثال مؤلف هذا الكتاب .

يا قادة الامة ورؤساءها ، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها ،
وقلنا ان العامي اقصر نظراً واطرف بصيرة من ان يتصور الالهية إلا
اذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والاضرحة والقبور ، فما عذرکم أنتم

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين الى ضريح الإمام الشافعي للتبرك بكنس ترابه .

وأنتم تتلون كتاب الله ، وتقرؤون صفاته ونعوته ، وتفهمون معنى قوله تعالى « قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله » وقوله مخاطباً نبيه : « قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا » وقوله « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » .

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم : « كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في ابتداع من خلف » فهل تعلمون ان السلف الصالح كانوا يخصصون قبرا ، او يتوسلون بضريح ؟ وهل تعلمون ان واحداً منهم وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، او قبر احد من اصحابه وآل بيته ، يسأله قضاء حاجة ، او تفريج هم ؟ وهل تعلمون ان الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله واعظم وسيلة اليه من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ؟ وهل تعلمون ان النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصور والتائيل نهى عنها عبثاً ولعباً ؟ أم مخافة ان تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى ؟ وأي فرق بين الصور والتائيل وبين الاضرحة والقبور ، ما دام كل منها يجر الى الشرك ، ويفسد عقيدة التوحيد ؟

والله ما جهلتم شيئاً من هذا ، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم ، وانتقاص أمركم ، وسلط عليكم اعداءكم يسلبون اوطانكم ، ويستعبدون رقابكم ، ويخربون دياركم ، والله شديد العقاب .

السياسية

حضرة السيد الفاضل :

مالك لا تكثر من الكتابة في الشؤون السياسية ، إكثارك منها في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية ؟ وكيف يضيّق بالسياسة قلمك ، وقد وسع ما هو أدقّ مذهباً منها ، فاكتب لنا في السياسة ، فامتك تحب ان تراك سياسياً ، والسلام .

« فلان »

أيها الكاتب :

يعلم الله أني ابغض السياسة واهلها بغضي للكذب والغش ، والخيانة والغدر .

أنا لا أحب ان اكون سياسياً ، لأنني لا احب ان اكون جلاداً ، لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين ، الا ان هؤلاء يقتلون الافراد ، واولئك يقتلون الامم والشعوب .

هل السياسي الارجل قد عرفت أمته أنه لا يوجد بين افرادها من هو أقسى منه قلباً ، ولا اعظم كيداً ، ولا اكثر دهاء ومكرآ ، فنصبته للقضاء على الامم الضعيفة ، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات ، واجزل لها من الخيرات ؟

ليس اكبر السياسيين مقاماً ، واعظمهم فخراً ، واسيرهم ذكراً ، ذلك الذي تقرأ صفحات تاريخه فترى حروفها أشلاء القتلى ، ونقطها قطرات الدماء ؟

أيستطيع الرجل ان يكون سياسياً الا اذا كان كاذباً في اقواله وافعاله ، يبطن ما لا يظهر ويظهر ما لا يبطن ، ويبسم في موطن البكاء ، ويبكي في موطن الابتسام ؟

أيستطيع الرجل ان يكون سياسياً .. الا اذا عرف ان بين جنبيه قلباً متحجراً لا يقلقه بؤس البائسين ولا ترعجه نكبات المنكوبين ؟

كثيراً ما يسرق السارق ، فاذا قضى ماره من عمله .. رفع يديه الى السماء متضرعاً الى الله تعالى ان يرزقه المال حلالاً حتى لا يتناوله حراماً ، وكثيراً ما يقتل القاتل ، فاذا فرغ من أمره ، جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الثاكل وحيدها ، ويتمنى بجدع الأنف لو رد اليه حياته ، وافتداه بنفسه . أما السياسي فلا يرى يوماً في حياته اسعد من اليوم الذي يعلم فيه ان قد تم له تدييره في هلاك شعب . وقتل أمة ، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره - كما يسميه هو - او في يوم جريمته - كما يسميه انا وتسميه العدالة الإنسانية - يسمع هتاف الهاتفين باسمه ، واسم الجريمة التي ارتكبها

مطمئن القلب ، مثلج الصدر ، حتى ليخيل اليه ان الفضاء بارضه وسمائه
اضيق من ان يسع قلبه الطائر المحلق فرحاً وسروراً .

يقولون : ان السياسة ليست علماً من العلوم التي يتلقاها الإنسان في
مدرسة او يدرسها في كتاب ، وإنما هي مجموعة افكار قانونها التجارب ،
وقاعدتها العمل .. اتدري لماذا ؟

لأن العلماء اشرف من ان يدونوا المكيد والحيل في كتاب .. ولأن
المدارس اجل من ان تجعل بجانب دروس الاخلاق والآداب ، دروس
الاكاذيب والاباطيل ، والافكل طائفة من المعلومات المتشابهة تدخل
بطبيعتها تحت نظام عام يؤلفها ، ويجمع شتاتها ، ويسمى علماً .

هؤلاء هم السياسيون ، وهذه هي اخلاقهم وغرائزهم ، فهل تظن يا
سيدي ان رجلاً نصب نفسه لخدمة الحقيقة ، ومناصرتها على الباطل ،
واستنقاذ الفضيلة من مخالب الرذيلة ، ووقف قلمه على تهذيب النفوس
وترقية الاخلاق .. وملاً في رسائله فضاء الارض والسماء بكاء على الضعفاء
والمساكين والمظلومين والمضطهدين ، يستطيع ان يكون سياسياً ، او
محاسباً للسياسيين ؟

★

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا : ان الكتاب يعرف بعنوانه .. فاني لم أرى بين كتب التاريخ اكذب من كتاب « بدائع الزهور » ولا اعذب من عنوانه ، ولا بين كتب الأدب اسخف من كتاب « جواهر الأدب » ولا أر من اسمه ، كما لم أر بين الشعراء اعذب إسماً ، واحط شعراً من « ابن مليك » و « وابن النبيه » و « الشاب الظريف » .

لقد كثر الاختلاف بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول : ان العناوين أدل على تقائضها منها على مفهوماتها .. وألصق بأضدادها منها بمنطوقاتها ، وان العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير ، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل .

الأنباء :

لولا خداع العناوين ما سمعنا صالحاً تقياً كل من حرك سبخته .. واطال لحيته ، ووسع جيبته ، وكور عمامته ، ولقد نعلم ان وراء هذا

العنوان كتاباً اسود الصفحات كثير السقطات ، وان تحت هذا الستار
الحريري الرقيق نفساً سوداء مظلمة ، لا ينفذ اليها شعاع من اشعة
الرحمة ، ولا تهب عليها نسمة من نسبات الإحسان .

لن يؤمن المؤمن حتى يينزل في سبيل الله ، او في سبيل الجماعة من
ذات نفسه ، او ذات يده ، ما يشق على مثله الجود بمثله ، أما الجود
بالشفاه للهممة ، والانامل للمسبحة ، فعمل لا يتكلف صاحبه له اكثر
مما يتكلف لتقليب ناظريه ، وتحريك هديه ، وهل خلقت الشفاه الا
للتحريك ، والانامل الا للتقليب .

ان الإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم
الكاذبين ، فان بذل الضنين بماله في مواقف الرحمة والشفقة ، والشحيح
بنفسه نفسه في سبيل الذود عن حوضه .. والذب عن عشيرته وقومه ..
وضيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد في مغالبة شهوات نفسه ومقاومة
نزواتها . فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط
يقينه خداع ولا كذب او لا فاهون بهمته ومسواكه ومسبحته ، وهو
بعنوان المنافق الكاذب اجدر منه بعنوان التقي الصالح « احسب الناس
ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » .

الأمجاد :

يقولون ان الالد سر أبيه ، ويريدون بذلك أنه المرأة التي ترتسم
فيها صورته ، والبذرة التي تكمن فيها حقيقته ، وعلى هذه القاعدة بني
البانون قاعدة المج ، فأعظ لرجل الذي يمسك بطرف سلسلة في

النسب يتصل طرفها الأعلى بعظيم من عظماء النفوس ، او شريف من شرفاء الاخلاق .

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ، ويتوسعون في معناه ، حتى نظموا في سلوكه الجبارة الذين يسمونهم أمراء ، والظلمة الذين يسمونهم ملوكا ، والسفاحين الذين يسمونهم قوادا ، واللصوص الذين يسمونهم أغنياء ، فساقهم الخطأ في فهم الشرف الى الخطأ في فهم المجد فسموا ماجدا كل من ولد في فراش ملك وان كان الحاكم بأمر الله ، او امير وان كان الحجاج ، او وزير وان كان ابن الزيات ، او قائد وان كان تيمورلنك ، او غني وان كان قارون .

لا مجد الا مجد العلم ولا شرف الا شرف التقوى ، ولا عظمة الا عظمة الآخذين بيد الإنسانية المعذبة ، رحمة بها وحنانا عليها .

اولئك هم الأجداد ، واولئك الذي يفخر الفاخر بالاتصال بهم ، والانتفاء اليهم ، واولئك هم المفلحون .

الأغنياء :

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الارض وراء لقمة يتبلغون بها او خرقة يتقون بها لفحة الرمضاء ، وهبة النكباء ، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاء ونحيباً على صغار كفراخ القطا يتلوون في مضاجعهم من الجوع تلوى الافاعي المضطربة فوق الرمال الملتببة وتحت الشمس المحرقة ، اسوأ حالاً ولا أنكد عيشاً ، ولا اعظم

شقاء من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس اغنياء .

ياكل الموسر الباخل كما ياكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ، وينام كما
ينام ، ويشتهي كما يتشهى حتى لتسكاد تشب امعاؤه من جوفه وتسيل
احشاؤه من بين أشداقه . شوقاً الى ما حرم على نفسه من اطايب العيش
ولذائذه ؛ ويستن^(١) استنان الجواد الضامر في ميدان السبق وراء الدرهم
البعيد مناله ، حتى تنبهر أنفاسه ، وتتخاذل اوصاله ، حتى لو تخيل ان
نجوم السماء دنائير منشورة ، لطار اليها بغير جناح ، فسقط هاوياً ؛ او ان
في بطن الارض كنزاً مذكوراً ، لتمنى ان لو انفجر بركانها تحت قدميه
فابتلعته فاصبح من المالكين .

الغني هو الغني بما في يده عما في أيدي الناس ، والفقير هو الذي لا
يقنعه في هذه الحياة مقنع ؛ ولا تقف به نفسه عند مطمع .

فانظر تحت أي عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين!؟

المهرمون :

حضرت مجلساً من مجالس الاحكام ، حكم فيه قاض مرتش على متهم
سرق رغيماً ، فوضعت يدي على فمي مخافة ان يخرج أمر نفسي من يدي
فاهتف صارخاً لما ألم بقلبي من الرعب والفرع ، صرخة تدوي بها جوانب
القاعة دوي الموج الثائر ، في البحر الزاخر قائلاً فيها : مهلاً رويداً أيها
الحاكم الظالم ، فانت الى قاض عادل تقف بين يديه ، احوج منك الى كرسي

(١) استن الجواد : عدا عدواً شديداً ..

فخم تجلس عليه ، ولو عدل القانون بينك وبين هذا الماكر بين يديك ليت ،
وأعلا كما الاسفل .

إنك ترتزق في كل شهر ثلاثين ديناراً ، فلم ترتش الا لأنك شره
طماع ، ولم يسرق ذلك السارق الرغيف الا لأنه جائع مرتاع ، ولو ملك
ثلاثين درهماً فقط ما فعل فعلته التي فعل ، فانت مجرم الا أنك في وشاح
شريف ، وهو شريف الا أنه في شملة مجرم .

فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين ، ولعبت بعقول الناس فيها
العناوين .

ربّ نفس بين جدران السجون اطهر قلباً ، وأتقى ردتاً ، وايض
عرضاً ، من مثلها بين جدران القصور ، ورب طريدة من طرائد المجتمع
الإنساني ساقها القدر الذي لا مفر منه الى وقفة بين اعواد المشتقة ، كان
أجدر بها ذلك المرابي الذي ينصب حباله ماله لخراب البيوت العامرة ،
وقتل النفوس الطاهرة ، او ذلك القائد الذي يسفك في موقف واحد من
مواقفه دم مائة الف او يزيدون ، في غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع
والفخر الموضوع ، او ذلك السياسي الذي يدبر المكيدة للقضاء على أمة
ضعيفة آمنة في سربها ، سعيدة في عيشها ؛ فيستعبد احرارها ، ويستذل
اعزائها ، ثم يسلبها أئمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها ، وسعادتها
وهناؤها .

المتمدينون :

ليس بين المصري وبين ان يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب

العصري او الإنسان الراقي الا ان يصقل جبهته ، ويصفف طرته ، ويفتح
فه للابتسام المتصنع ويقوِّس يده للسلام المتعمل ، ويكثر في حديثه من
ذكر المدينة الغربية وشؤونها ، وسرد اسماء نساها ورجالها . وطرفها
ونوادرها ، ويستحسن ما تستحسنه - وان كان البراز والانتحار -
ويستطرف ما تستطرفه - وان كان الزندقة والإلحاد - ثم يزعم أنه أرق
الناس أدباً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأدقهم نظراً في إدراك سقطات الناس
وعثراتهم ، وتحليل طبائعهم وغرائزهم . ثم لا يحول تمدينه هذا بينه وبين
ان يكون فاسقاً ينتهك الحرمات او مدمناً يترامى على اعتبار الحانات ،
او احمق لا يصفح عن ذنوب ، ولا يغضى عن هفوة . وسفيهاً يشتم حتى
أميره وسلطانة ، ووالده واستاذة ، او وقاح الوجه لا يستحي لمكرمة ،
ولا يستخذي لمروءة ، وشحيحاً لا يشرك صاحبه في مطعم ولا في
مشرب ، ولا يفتح بابه لضيف زائر او طارق حائر ، زاعماً ان التمدين
شيء وذاك شيء آخر . ان كان حقاً ما يقولون من ان التمدين يصقل
الطبائع الخسنة ، وينير النفوس المظلمة ، ويهذب الاخلاق الجافية ويوسع
الصدر الحرجة ، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن
نسميهم همجيين مهذبون .

لو كان بي ان اكتب لمحو الفساد من المجتمع الانساني والقضاء على
شروره وآثامه لما حركت يداً ، ولا جردت قلماً ، لأني أعلم ان طلب
المحال عثرة من عثرات النفوس ، وضلة من ضلالات العقول ، ولكنني

اطلب مطلباً واحداً - لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم
ويبين تصوره وإدراكه - هو ان يهذبوا قليلا من هذه المصطلحات التي
أنسوا بها والعناوين التي جمدوا عليها ، فلا يسمون المنافق تقياً ، ولا
التمجد ماجداً ، ولا البخيل غنياً ، ولا الفقير مجرماً ، ولا المتوحش
متمدناً ، حتى لا ينزع محسن عن إحسانه ، ولا يستمر مسيء في
إساءته .

الإغراق

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده الى يوم يبعثون .

يسمع السامع ان زيدا ملك كريم ، ثم يسمع أنه شيطان رجم ، فيخرج منه صفر اليدين ، لا يعلم اين مكانه من هذين الطرفين .

يقولون ان المشعوذين اذا أرادوا ان يسحروا أعين الناس علقوا في سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها في الارض قطعة أخرى ثم يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تضطرب بين هذين الجاذبين .

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرقين اضطراب الحديد في أيدي المشعوذين .

الحقيقة بين الكاذب والكاذب ، كالجبل بين الجاذب والجاذب ، كلاهما ينتهي به الأمر الى الانقطاع .

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الاشخاص أنه جالس على كرسي القضاء ، وان الناس سيسالونه عما قال ، كما يسالون القاضي عما حكم ، ما طاش سهمه في حكمه ، ولا ركب متن الغلو في تقديره .

كما أنه يجب على القاضي ان يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة ، كذلك يجب على الكاتب ان يضع كل شخص في المنزلة التي وضعت فطرته فيها ، وان لا يعلو به فوق قدره ، ولا ينزل به دون منزلته .

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ القديم متناقضات الحكم على الاشخاص ، وليس بينهم من لم يتمن ان يكون في موضع اولئك المؤرخين المتطرفين ، حتى لا يغلو غلوهم ، ولا يتطرف تطرفهم في أحكامهم .

أيها الكتاب المحزونون : لا يحزنكم ما كان ، ففضى ذلك الزمان بخيره وشره ، ولا سبيل الى رجوعه ، ولئن فاتكم ان تكونوا مؤرخي العصر الماضي ، فلن يفوتكم ان تكونوا مؤرخي العصر الحاضر ، وكما ان للماضي مستقبلا وهو حاضركم هذا ، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل آت يحاسبكم فيه رجاله على إغراقكم في أحكامكم ، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم ، وتطرفهم في آرائهم .

ان من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم ان تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم ، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون .

كل كاتب عندكم أكتب الكتاب وكل شاعر أشعر الشعراء ، وكل

مؤلف أعلم العلماء ، وكل خطيب رئيس الأمة ؛ وكل فقيه إمام الدين ،
فاين الفاضل والمفضول ؟ واين الرئيس والمرؤوس ، وكيف يكون
زيد اليوم أفضل من عمرو ، ويكون عمرو غداً أفضل منه ؛ واين ملكة
التمييز التي وهبكم الله إياها لتمييزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم ؟
وهل بلغ التفاوت بينكم في عقولكم وأذواقكم ان يكون الرجل الواحد
في نظر بعضكم خير الناس وفي نظر البعض الآخر شر الناس ؟ !

إني حبست الآن قلمي عن الكتابة لأتجرد من نفسي ساعة من الزمان ،
فتخيلت كأني رجل من رجال العصور الآتية ، وأني ذهبت الى دار من
دور الكتب القديمة لأراجع تاريخ أحد عظماء عصركم هذا ، فقرأت ما
كتبتموه عنه في كتبكم وجرائدكم ، فرأيت تارة عظيماً وأخرى حقيراً ،
ومرة شريفاً ، ومرة وضيعاً ، ورأيت عالماً وجاهلاً ، وذكياً وغيبياً ،
وعاقلاً ومموراً^(١) في آن واحد فخرجت أضل مما دخلت ، لا أعرف
من تاريخ الرجل اكثر من أنه رجل ، أي أنه ذكر بالغ من بني آدم !

أيها القوم : إنكم لا تستطيعون ان تكونوا رجالاً عادلين في
احكامكم وآرائكم ، الا اذا اصلحتم نفوسكم أولاً ، وتعلمتم كيف
تستطيعون ان تتجردوا من أهوائكم واغراضكم قبل ان تتناولوا
اقلامكم .

(١) المرور : المصاب بخبل في عقله .

أيها القوم : ان عجزتم عن ان تكونوا عادلين ، فكونوا راحين ،
فارحوا أنفسكم واعفوها من الدخول في مآزق أنتم عاجزون عنها ،
وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات ، وسئمت نفوسنا تلك
المبالغات .

اللقطة

مر عظيم من عظماء هذه المدينة بزقاق من أزقة الأحياء الوطنية في ليلة من ليالي الشتاء ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، فرأى تحت جدار متداع فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء^(١) وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود ، وليس في يدها ما تتقيه به الا أسمال تتراءى مزقها^(٢) في جسمها العاري كأنها آثار سياط المستبدين ، في أجسام المستعبدين .

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤلمه مناظر البؤس ، وتزعج نفسه مواقف الشقاء ، ثم تقدم نحوها ووضع يده على عاتقها برفق فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة وهمت بالفرار من بين يديه وهي تصيح « لا أعود .. لا أعود » فلم يزل يمسحها^(٣) ويروضها

(١) القرفصاء : ان يجثي الرجل بيديه فيضعها على ساقيه وهو جالس .
(٢) المزق : القطع .
(٣) مسحة : أمر يده عليه .

حتى هدا روعها وعاد اليها رشدها وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل
الذي تخافه ، فنظرت اليه نظرة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت
عما وراءها من لواجع الأحزان وكوامن الأشجان .

– ما اسمك أيتها الفتاة ؟

– لا أعلم يا سيدي .

– بماذا ينادونك ؟

– يدعونني اللقيطة .

– وهل انت لقيطة كما يقولون ؟

– نعم يا سيدي ، لأنني لا أعرف لي أباً ولا أما ، في الأحياء ولا في
الاموات ، سوى رجل يتولى شأني ، ويضمني اليه في منزله ، وكنت
أحسبه أي فيمتلىء قلبي سروراً به ، وعطفاً عليه ، فلما رأيت أنه
يعذبني عذاباً أليماً ويحملني من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمله الآباء
أبناءهم علمت أنني وحيدة في هذا العالم ، وفهمت معنى الكلمة التي يناديني
بها ، فإلم بنفسي من الحزن والألم ما الله عالم به ، وكنت كلما مشيت في
الطريق ، ورأيت فتاة صغيرة سألتها ألك أم ؟ فتجيبني : نعم ، ثم تقص
عليّ من قصص نعمتها ورفاهيتها ، وعطف أمها عليها ، ورأفتها بها ما
يريدني هما ، ويملا قلبي ياساً ، حتى كأن يخيل اليّ أنني اذنبت قبل
وجودي في هذا العالم ذنباً عاقبني الله عليه بهذا الوجود ، بيد أنني صبرت
على هذا الرجل ، وعلى ما كان يكلفني به من التسول على قارعة الطريق ،
إبقاء على نفسي ، وضناً بحياتي ، ان تغتالها غوائل الدهر ، وكان كلما

رأى حاجتي اليه والى ماواه ، اشتط في ظلمي ، ولؤوم في معاملتي ، حتى صار يضربني ضرباً مبرحاً كلما عدت اليه عشاء بأقل من المبلغ الذي فرض عليّ تقديمه في كل يوم ، ولم أزل اصابره واحتمل منه ما يعجز عن احتماله مثلي برهة من الزمان ، حتى جاءني الليلة بداهية الدواهي ، ومصيبة المصائب ، فقد حاول ان يسلب من بين جنبي جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما يعزيني عما فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها ، فلم أر بدأ من ان أفر من بين يديه متسللة تحت جناح الظلام من حيث لا يراني . ومازلت امشي على غير هدى ، لا اعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، حتى أويت الى هذا الزقاق كما تراني . فهل لك يا سيدي ان تحسن اليّ كما احسن الله اليك ؟ وان تتباع لي رغيفاً من الخبز اتبلغ به ، فقد مر بي يومان لم ادق طعاماً ولا شراباً ؟

لم يسمع الرجل من الفتاة هذه القصة الحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقده وهي سلكه فانتثر ، ثم أخذ بيدها ، ومشى بها صامتاً واجماً يكاد لا يهتدي لسبيله حتى بلغ قصره ، وهناك صنع بها صنع الكريم بأهله ، وأبلغها من دهرها ما لم تكن تمنى نفسها بالوشل القليل منه ، وما هي إلا أيام قلانل حتى ظهرت في ذلك القصر العظيم فتاة جديدة من اجمل الفتيات وجهاً ، وأرقهن شمائل . . وأكرمهن اخلاقاً ، واكلمهن آداباً . . لا يعرف الناس عنها سوى أنها ابنة قريب لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة ، فكان الى هذا القصر مصيرها .

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي ريين التربية الحديثة

التي يسمونها «التربية العصرية» ويريدون منها التربية الأفرنجية
فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون الآتية :

- (١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجي ، وكلبها الرومي .
- (٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة .
- (٣) البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس .
- (٤) الكبرياء والعظمة ، واحتقار كل مخلوق سواها حتى ابويها .
- (٥) الأثرة وحب الذات حباً يملأ قلبها غيرة وحسداً ، حتى إنها لا
تستطيع ان تسمع وصفاً من اوصاف الحسن يوصف به سواها.

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد اصبحت تقاسمها قلب ابيها وقلوب
زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمال في الخلق ، وحلاوة في الطبع .
وعذوبة في النفس ، فاضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضره
دائماً امثالها من اللواتي ربين تربيتها ، ونهجن في الحياة منهجها ، فكانت
تتعمد اساءتها وازدراءها ، وتغري بتبكييتها وتأنيبها ، والفتاة لا تبالي
بشيء من هذا وفاء لسيدها وولي نعمتها ، وذهاباً بنفسها عن النزول الى
منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات ، حتى حدثت ذات يوم الحادثة الآتية:

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي ، فبينما هو صاعد في السلم
اذ عثر برقعة ملقاة ، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة :

سيدتي :

انا منتظر ك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو
المهودة . «حبيبك»

فما أتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت به الارض الفضاء ، وحتى
لمس قلبه يمينه ليعلم هل طار من مكانه ام لا يزال باقياً فيه ، ثم كأنه
اراد ان يخفف ما ألم بنفسه من الحزن والقلق فقال : لعل ذلك الموعد مع
تلك الفتاة اللقيطة ، ومن الظلم ان اتعجل باتهام ابنتي قبل ان اقف على
الحقيقة ، فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة ، فرجع ادراجه ، وما زال
يتفرق في مشيته ويتنقل في الحديقة من شجرة الى شجرة حتى وصل الى
شجرة اللقاء فكمن وراءها ينتظر ما خبا له الدهر من حدثانه ، وما
اضمر له الغيب في طياته .

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضيعة ، بل رسالة السيدة الشريفة .
وبينا كانت الثانية واقفة في غرفتها امام مرآتها تختار لنفسها اجمل الأزياء
واليقها بموقف اللقاء ، كانت الاولى نائمة في غرفتها نوماً هادئاً مطمئناً لا
ترعجه زورة الطيف ، ولا تروعه احلام الشباب ، حتى سمعت وقع اقدام
سيدها على سلم القصر فاستيقظت ، ثم رابها موقفه فأشرفت عليه من حيث
لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء .. وعرفت ان سيدها سيقف على سر
ابنته الذي كانت تعالج كتابه زمناً طويلاً . . وانه لا بد قاتل نفسه في
ذلك الموقف حزناً وياساً .. فعناها من امره ما عناها ، ثم اطرقت برأسها
لحظة تتلمس وجه الحياة في دفع هذه النازلة ، وتتطلب المخرج منها ، ثم
رفعت رأسها ، وقد قررت في نفسها امراً .

نزلت مسرعة من سلم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر الى ذلك الموعد فأدركتها ، وامسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفتت اليها وقالت لها : ماذا تريد مني ؟ أتتجسبن عليّ ! قالت لها : لا يا سيدتي . . وأفضت اليها بالقصة من مبدئها الى منتهاها ، فسقط في يدها ، وعلمت ان اباها قد وقف على سرها ، فقالت لها : لا ترعجي نفسك ، فإن اباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب فعودي الى غرفتك ، وسأذهب الى الموعد مكانك ، حتى إذا رأني هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجهما من الشك في امرك .

ثم استمرت ادراجها حتى وصلت الى تلك الشجرة ، وهنالك برز الرجل من مكمته ، واقترب منها حتى عرفها ، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته ، ثم قال لها :

ايتها الفتاة : إنني احسنت اليك ، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء ، فأسأت إليّ بما فعلت ، حتى كدت الليلة اهلك حزناً وكداً ، وألصق بابنتي ذنبك واحمل عليها عارك ، فاخرجني من منزلي ، فاللئيم ليس اهلاً للإحسان .

فخرجت خائبة تتعثر في اذيالها ، حتى وصلت الى شاطئ النهر ، وهنالك اخرجت مذكرتها من محفظتها ، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها اناملها :

« احمد الله اني قدرت على مكافاة الرجل الذي احسن إليّ بستر عاره ، وإزالة همه وحزنه » .

ثم ألفت بنفسها في النهر ، وما هي الا دورة او دورتان حتى افترق
ذانك الصديقان الوفيان ، جسمها وروحها ، فطفا منها ما طفا ، ورسب
ما رسب .

وفي صباح تلك الليلة عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدة
فعرفوها ، وعادوا بها الى منزل سيدها . . فبكاه بكاء كثيراً وندم على
ما اساء به اليها من طردها وازعاجها ، ثم امر بدفنها ، ولم يبق في يده من
آثارها غير حقيبتها .

مرت الأيام تلو الأيام ، وجاءت الحوادث إثر الحوادث ، وظهر
للرجل من اخلاق ابنته وطباعها ، وتهتكها واستهتارها ، ما لم يكن
يعرفه من قبل ، حتى ضاق بامرها ذرعاً ، وجلس في غرفته في إحدى
الليالي يفكر فيما ساق اليه الدهر من خطوبه ورزاياه ، ثم ألم به الضجر ،
فقام الى صندوقه يفتش عن شيء يتلهم به ، فعثر بتلك الحقيبة ، ولم
يكن قد فتحها قبل اليوم ، فإنه ليقرأ إذ عثر بتلك الكلمة الأخيرة التي
كتبتها الفتاة على شاطئ النهر قبل موتها ، فما اتى على آخرها حتى عرف
كل شيء فسقط مغشياً عليه يعالج من الحزن والألم ما يعالج المحتضر من
سكرات الموت .

وما استفاق من غشيته حتى صار يهذي هذيان المحموم ، ولبث على
هذه الحال بضعة اشهر ، يمرض ثم يبيل ، ثم يمرض ثم يبيل ، حتى ادركته
رحمة الله فمرض مرضاً لم ينقض الا بانقضاء اجله .

فيا ايها الوالد المجهول ، الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا

الوجود الزاخر ، اعلمت قبل ان تفعل فعلتك التي فعلت انك ستبرز الى هذا العالم فتاة تلاقى شقاءه وآلامه ما لا قبل لها باحتماله ؟

ويا ايها الآباء العظماء : ان كنتم تريدون ان تسلموا بناتكم الى هذه المدنية الغربية تتولى شأنهن ، وتكفل لكم تربيتهن ، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والإباء والأنفة ، حتى اذا رزأكم الدهر فيهن . وفجعكم في اعراضهن وقفتم امام ذلك المشهد هادئين مطمئنين ، لا تتعذبون ولا تتألمون .

ويا ايها الناس جميعاً : لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب ، ولا تفرقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور ، ولا تعتقدوا ان الفضيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء ، فقد علمتم ما اضر الدهر في طبقات احداه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء .

*

الصندوق

حضرة السيد الفاضل :

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوق توضع فيه النذور ، ويبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه ، فإذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع مما فيه ، والباقي يوزع على اصحاب الأنصبه الكثيرين الذين يعدون بالمئات ، فهل ترون ان هذه القسمة شرعية ، مع ان الذين يأخذون الألواف أغنياء والذين يأخذون الآحاد فقراء ؟

افتنا ايها السيد الفاضل بما يوجبه الإنصاف والعدل الديني في هذه المسألة التي اصبحت الشغل الشاغل للكثير من الناس ؟

« ابن جلا »

ايها السائل : اراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال كأنك تعتقد انه ميراث شرعي ، وأن هؤلاء الذين تسميهم اصحاب الأنصبه من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين في مال المورثين .

ان الذي اعلمه ان هذا الحق المزعوم حق موهوب ، لا يستطيع ان يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية ، لأن الذين يضعون المال في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون بذلك ان يهبوه احدًا من السدنة والخدم ولو ان ذلك كان غرضهم لوضعوه في أيديهم بدلًا من الصندوق ولكنهم لما تصوروا ان ذلك الميت حي في قبره يسمع نجواهم ، ويفهم حديثهم ، ويلبي دعاءهم ، تجسم في نظرهم هذا الخيال ، فأرادوا ان يعطوه جميع احكام الأحياء وصفاتهم حتى حب المال وادخاره ، فخيّل اليهم ان الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي ، فهم يهبونه المال ويضعونه في صندوقه ، لأنهم يعجزون عن وضعه في يده .

اما كيفية تصرف الميت بهذا المال ، وكيف ينفقه وفي أي شيء ينتفع به ، فذلك أمر لا يخطر ببالهم ، ولا يدخل في باب مقصدهم وأغراضهم .

فإن وجد بينهم من يعلم ان مرجع هذا المال الى سدنة الضريح ، وخدمته فعلمه هذا لا يستفاد منه ان يهبه لهم ، او يمنحه لإياهم ، لأنهم لو ارادوه على ان يعطيهم ذلك المال ، او يعطيهم بعضه ويستبقي لنفسه البعض الباقي ، لما وسعه ذلك ولا رأى ان فعله أن عمل عملاً صالحاً .

بل هو يعتقد ان اخذهم المال من الصندوق بعد ان يضعه فيه أمر لا علاقة له به ولا شأن له فيه ، لأن المال قد خرج من يده الى صاحب الضريح ، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء .

فهو في جميع حالاته وشؤونه لا يهب هبة صحيحة ، ولا يتصرف

تصرفاً شرعياً ، ولا يضع صدقة في موضعها ، ولا يطرق باباً من أبواب
البر السنونة .

وعندي ان مثل هذا المال بعد ان خرج من يد صاحبه الى غير يد ،
وانقطعت ملكيته الاولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى ، يعتبر
مالاً مهملًا ، لا صاحب له ، ولا علاقة لاحد به .

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في هذا المال ان ينفق في مصارف
الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها ، وافتتحها بأداة الحصر التي
تمنع غيرها من الاشتراك معها في حكمها في قوله تعالى « إنما الصدقات
للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين
وفي سبيل الله وابن السبيل » .

فإن كان بين هؤلاء المتظلمين من قلة انصبتهم في ذلك الصندوق ذو
حاجة داخل في قسمه من الآية الشريفة ، فله الحق في ذلك المال من حيث
كونه فقيراً معدماً ، كعامّة فقراء المسلمين ، لا من حيث ان له صلة
بصاحب الضريح تسوّغ له ان يكون من ذوي الانصبّة والسهم في
صندوقه ، فإن أمثال هذه الصلوات والعلائق قد انقطعت بانقطاع الجاهلية
الاولى . فلا هياكل اليوم ولا سدنة ، ولا وسطاء ولا شفعاء ، ولا اقراط
تعلق في آذان الاصنام ، ولا عقود تقلد بها اعناق الاوثان ، ولا مال يوضع
مع الموتى في قبورهم لينتفعوا به بعد بعثهم من مراقدهم ، وإنما الناس
جميعاً سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى ، لا فضل لاحد منهم على احد

إلا بالتقوى ، ولا زلفى لاحد يزدلف بها إليه إلا يقينه وإيمانه ، وبره وإحسانه .

ذلك ما أراه في هذه المسألة وهذا ما اعتقده فيها ، ولا أعلم ان كنت ارضيت الناس فيما كتبت او اغضبت ، وإنما أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي ، وحسي ذلك وكفى .

الغناء العربي

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن ابرازها اللسان ، فبرزتها
الالخان فهو افصح الناطقين لسانا ، وأوسعهم بيانا ، وأسرعهم نفاذاً الى
القلوب وامتزاجاً بالنفوس ، واستيلاء على العقول ، وأخذاً بمجامع
الآفتدة ، وبيان ذلك ان النطق ثلاث طبقات تختلف درجاتها باختلاف
درجات الإبلاغ والتأثير فيها ، فادناها النثر وأوسطها الشعر ، وأعلاها
الغناء ، فلو أن عاشقاً برّح به المهجر مثلاً فأراد ان يبلغك ما في نفسه من
ذلك ، فإن قال لك : إني مهجور ، فحسب ، فقد أبلغك بعض ما في
نفسه . وترك في قلبك من الاثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التأثير ،
وإن انشدك قول الشاعر :

فواكبدا من حب من لا يحبني ومن زفرات ما لمن فناء

او قول الآخر :

كانت قطة علقته بجناحها على كبدي من شدة الحفقان

فقد سلك بك طريق الخيال ، وصور لك خواطر نفسه بصورة
اوضح من الصورة الاولى ، وترك في نفسك أثراً اعظم من الاثر الاول ،
وان رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل :

وارحمتا للغريب بالبلد لنا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

فقد صور لك قلبه كما هو . والمسك موضع الألم والحزن منه ، فبلغ
بك التأثير منتهاه ، وربما بكيت عند سماعه حزناً ورحمة ، وما بكيت إذ
بكيت الا لان الغناء لم يبق بقية من خواطر هذه النفس القريجة الا نطق
بها لك واسمعك اياها ، وكما ان الابيات قيود الماني كذلك الالحان قيود
الابيات ، فلا يزال المعنى مشرداً ههنا وههنا حتى يحتويه بيت من الشعر .
فإذا هو مستقر في مكانه ، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الأذان ذات
اليمين وذات الشمال ، حتى يقوده الصوت الحسن ، فإذا هو مستودع في
الصدر .

والغناء فن من فنون الطبيعة ، تهتدي اليه الامم بالفطرة المترنمة في
هدير الحمام وخرير المياه ، وحفيف الاشجار . فمن أبكاه الحمام غرد
تغريده كلما أراد البكاء ، ومن أطربه صوت الناعورة رن رنينها ليضطرب
جمله او ناقته فينشيطان للمسير ، وما زال هذا الفن مبتدياً ببداوة الامة
العربية لا يكاد يتخطى فيها حذاء الجمال ، ومناغاة الاطفال ، حتى اذا
انتقلت من مضيق الحاجيات الى منفسح الكماليات ، وتوسعت فيه
وزادت في أنغامه وضروبه ، وتفننت في آلاته وأدواته ، وكذلك كان

شان العرب في جاهليتهم ، ينظمون أشعارهم على نسب متوازية، وأنغام متوازنة . فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها ، والشطر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك ، فكأنما كانوا يهثون لأنفسهم بذهبهم هذا في الشعر ألحاناً موسيقية ، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هذا النوع من الموسيقى . وهو نوع التناسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر ، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لها من حضارتها وتقدمه متسع للبراعة في هذا الفن ومنتدح في مناحيه ومقاصده ، ووفد الكثير من مغني الفرس والروم موالي في بيوت العرب وفي أيديهم العيدان والطنابير ، والمعازف والمزامير ، يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية ، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بها أشعارهم تلحيناً بزوا فيه أساتنتهم ، وولدوا ألحاناً وأنغاماً لم يأت بها من قبلهم ، شأنهم في جميع الفنون والصناعات التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم ، وظهر فيهم رجال أذكىء كان لهم الفضل الباهر في تقديم الغناء واتساعه مثل ابن سريج ، ومخارق ، وطويس ، وإبراهيم الموصلی ، وابنه اسحاق ، وإبراهيم بن المهدي ، ومعبد - الذي طالما ضربت به وبجسن صوته الامثال على السنة فحول الشعراء . كقول أبي عبادة البحرني في وصف فرس كان اهداه اليه احد الامراء :

هزج الصهيل كأن في نبراته نغمات معبد في الثقل الاول
والثقل والخفيف الاول والثاني اسماء اصطلح عليها العرب ومرجعها

الى حركات الاصابع الخمس في أوتار العود الخمسة شدة وضعفاً ، وما
أحسن قول أبي العلاء المعري :

ولقد ذكرتك يا أميمة بعدما نزل الدليل الى التراب يسوفه^(١)
وهواك عندي كالغناء لانه حسن لديّ ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضارة الدين وغضاضته في ذلك العهد - عهد الصدر
الاول - وشدته في النهي والتلهي بالغناء والعزف والزممر وأمثالها ونعيه
على من يحترف ذلك او يتخلقه، فقد كان للمغنين الشأن الرفيع في مجالس
الخلفاء والامراء ، والنصيب الاوفر من جوائزهم وصلاتهم ، ولا غرو في
ذلك ، فسلطان الوجدان فوق سلطان الاديان ، ولقد بلغ من شان المغنين
وإدلالهم على الخلفاء أن اسحاق الموصلي شتم ابراهيم بن المهدي في حضرة
أخيه الرشيد غير هيب ولا وجل ، فما استطاع اخو الخليفة ان ينتصف
لنفسه منه هيبه واجلالا ، وكان ابن عائشة المغني لا يعني الا الملك ، او
ولي عهده ، حتى كان الخليفة اذا أراد ان يختار من بين ابنائه من يعهد
اليه بالامر من بعده لا يكتب له بذلك عهداً ، بل يأذن لابن عائشة ان
يعفي عنده ، فلا تطلع عليه شمس الغد حتى يفد الناس اليه يهنئونه بولاية
العهد ، فإن دعاه الى الغناء لديه أمير او وزير وجد من قوة الدالة بنفسه
ما يدفع به الطلب عنه . ويروى أن ابن عتيق وهو من تعلم في شرف
البيت وجلال المحل رأى ابن عائشة يوماً وحلقه مخدوش ، فقال : من

(١) ساف التراب : اشتمه . يريد انه ذكر حبيبه في أعظم أوقات شدته وهو وقت خلال
الركوب ونزول الدليل ، اشتم التراب ليستدل منه على الأرض .

فعل بك هذا؟ قال : فلان ، وأشار الى ضاربه . فمضى وتزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتليبيه^(١) وجعل يضربه ضرباً موجعاً ، والرجل يصيح : أي شيء صنعت؟ وما ذنبي اليك؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه وسألوه عن ذنبه ، فقال : انه اراد ان يكسر مزماراً من مزامير داود ، يريد أنه خنق ابن عائشة وخذشه في حلقة . وما يروى من حوادث آتية وترفعه انه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه :

أبعدك معقلاً أرجو وحصناً قد اعيتني المعازل والحصون

فاطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب ، فبينما هو يسير إذ نظر اليه رجل من اهل وادي القرى كان يشتهي الغناء فدنا من غلامه وقال : من هذا الراكب المختال؟ قال : ابن عائشة المغني ، فدنا منه وقال : جعلت فداك انت ابن عائشة؟ قال نعم ، قال : أم عائشة المؤمنين؟ قال لا ، انا مولى لقريش وعائشة امي ، وحسبك هذا فلا تكثر ، قال : وما هذا الذي بين يديك؟ قال غنيت امير المؤمنين صوتاً فاطربته فامر لي بهذا المال وهذه الكسوة ، قال : جعلت فداك هل تمن علي بان تسمعي ما اسمعته اياه؟ فقال له : ويلك أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق؟ قال فما اصنع؟ قال : الحقني الى المنزل ، يريد مخاتلته والنجاة منه وحرك بغلة شقراء تحته لينقطع عنه فعدا معه . حتى وافيا المنزل كفرنسي رهان ، ودخل ابن عائشة فمكث طويلاً طمعاً في ان ينصرف فلم يفعل ،

(١) التلييب : ما في موضع اللبب من الثياب : أي ما يدور بالمتع من القميص ونحوه .

فلما اعياه قال لغلامه : ادخله فلما دخل قال له : من أين صبك الله علي ؟
قال : انا رجل من اهل وادي القرى اشتبهى هذا الغناء ، قال له : هل لك
فيما هو اتفع لك منه ؟ قال : وماذاك : قال : مائتا دينار وعشرة اثناب
تتصرف بها الى اهلك ، فقال له : جعلت فداءك والله ان لي لبنية ما في
اذنها علم الله حلقه من الورق^(١) وأن لي زوجة عليها يشهد الله قيص ،
ولو اعطيتني جميع ما أمر لك به امير المؤمنين على خلتي وحاجتي لكان
الصوت اعجب إلي^(٢) منه ، وما زال به حتى رحه ابن عائشة وغناه
الصوت بعد الأي^(٢) فطرب الرجل له طرباً شديداً وجعل يحرك رأسه
وينطح بها الجدار حتى خيف ان يندق عنقه ، ثم انصرف ولم يرزاه في
ماله شيئاً .

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي سقناه له ما يدل على ان الغناء
العربي كان قريباً الى القلوب وأنه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار ،
فإذا لمسها رنت رنين الشكلى والمرزوءة في واحدها . وان الوجدان العربي
وجدان رائق شفاف تأخذ منه مختلفات الانغام ، فوق ما تأخذ الكهرياه
من الاجسام ، كما تبلغ منه نظرات الغرام ، فوق ما تبلغ من عقل شاربها
المدام .

وكانت الاصوات عندهم تنسب الى واضعيها وتسمى باسماء اصحابها
كما هو الشأن في الشعر ، فيقال : صوت اسحاق او معبد ، كما يقال شعر
مسلم او بشار ، وكان المغني احرص على صوته من الكريم على عرضه ،

(٢) الأي : الجهد .

(١) الورق : اللغزة .

فإذا صنع صوتاً لا يسمع لأحد من المغنين ان يأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف نسبته اليه ، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم ، وكان لإسحاق الموصلي القدرة الغربية على مخالطة المغنين عن اصواته ، حتى صنع مرة صوتاً وأراد الفحول منهم ان يأخذه بعدما سمعوه منه اكثر من سبعين مرة فما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه ، فكان احدهم لا يجزم ان رأى في صوت صاحبه ماخذاً ان يفجاه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ منها عظم شأن المجلس وشأن صاحبه ، وكانت تقع بينهم المناقشات الشديدة في ذلك كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء الغربي كان له عند العرب صبغة جدية فوق صبغة اللهو ، وان الغربيين في هذا العهد ليسوا بأعلم بصناعة الغناء ولا اقوم على امرها من العرب في ذلك العهد ، ولو ان العرب توسعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها . ولكنهم كانوا قلما يحفلون بإدخاله في الاغراض العالية كالحروب والشؤون الوطنية وامثال ذلك من المناحي والمقاصد الا قليلا ، كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن اعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم وعلموا ان سبيل الوشاية بهم الى الرشيد سبيل وعر دسواله من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة :

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفقت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامناً في نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالأمر من دونه ، فقال عند تمام الصوت : « نعم إني عاجز » ثم كان أمره معهم بعد ذلك ما كان ، ولقد مضى الصدر الاول من الإسلام وشأن فن الغناء العربي هذا الشأن العظيم خصوصاً في اواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، ثم اخذت شمس الباهرة تنحدر الى المغرب بانحدار اللغة العربية وشعرها حتى اصبح في حضارة الأندلس قدوداً وموشحات ، بعد ان كان قصائد ومقطعات ، فكان لا يسمع ابناء العرب في ذلك العهد الا الى قول المغني :

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح
او قوله :

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى
واجعلي سوارها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات فانها وان لم تكن شعرية اللفظ فهي شعرية المعنى عالية الخيال ، وهي على علاقتها خير من شعر العامة الذي قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغني به كالزجل ، والموالي ، والقوما ، والدوييت ، وكان ويكون ، غير ذلك مما يسمى في عهدنا هذه بالأدوار والتواشيح والأغصان والمذاهب وأمثالها .

فهل لجماعة المغنين في عصرنا ان يعفونا من : « احب جميل طبعه

الدلال ، ومن : « يا حلو صون عهد ودادي الله يصونك ، وياخذوا بنا
في مسلك اشرف من هذا المسلك ، ويعيدوا للغناء العربي عهده الأول كما
صنع شعراء العصر برفيقه الشعر ، فلقد كان الشعر والغناء اخوين
ألفين ، رضيعي ثدى وضجيعي مهد ، ثم ضربها الدهر بضرباته فافترقا فهاذا
علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما ، وماذا على المغنين والشعراء في مصر لو
عقدوا بينهم عهداً ان يهذبوا اخلاق امتهم ويرفعوا شأنها ليكون لهم من
الفضل في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء ، فينظم
الشاعر المقطعات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الاعمال ومكارم
الاخلاق ، كالشجاعة والشهامة والشرف وحب الوطن والاتحاد والتزهد
في صفائر الامور ، والترغيب في عظائنها ، فيأخذها منه المغني ولا
يتكلف في تلحينها اكثر ما يتكلفه في تلحين سواها من الادوار والمواويل
ثم يقنيتها في الناس غير مبال بما يفاجئه به ضعف النفوس الجامدون من
الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه ، وفي اعتقادي ان لهذه الطريقة
من الاثر الحسن في نفوس العامة وتهذيب اخلاقهم وطبائعهم ، وتقويم
ألسنتهم وعقولهم ، ما يخلد للملحنين والمغنين اجمل ذكر في تاريخ عظماء
الرجال .

التوبة

علم فلان ، وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو ، وقاضياً من قضاة المحاكم ، ان المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد ، فرنا اليها النظرة الأولى فتعلقها ، فكررها أخرى فبلغت منه ، فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا ، وقد ختمت روايتها بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها ابناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود .

عادت الفتاة الى اهلها تحمل بين جنبيها هما يضطرم في فؤادها ، وجنيناً يضطرب في احشائها ، وقد يكون لها الى كتمان الأول سبيل ، اما الثاني فسر مذاع ، وحديث مشاع ، إن اتسعت له الصدور ، لا تتسع له البطون ، وإن ضن به اليوم لا يضمن به الغد .

ذلك ما اسهر ليلها وأقضى مضجعها ، وملك عليها وجدانها وشعورها ، فلم تر لها بدأ من الفرار بنفسها ، والنجاة بحياتها ، فعمدت الى ليلة من

الليالي السوداء فلبستها ، وتلفعت بردائها ، ثم ألقت بنفسها في بحرها الأسود ، فما زالت امواجها تترامى بها حتى ألقتها الى شاطئ الفجر ، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية ، في بعض الاحياء الحاملة وذلك الجنين المضرب .

كان لها أم تحنو عليها ، وتفتقد شأنها ، وتجزع لجزعها . وتبكي لبكائها ففارقتها ، وكان لها أب لا هم له في حياته الا أن يراها سعيدة في آمالها ، مغتبطة بعيشها ، فهجرت منزله ، وكان لها خدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها افاصبحت لا تسامر غير الوحدة ، ولا تساهر غير الوحشة ، وكان لها شرف يؤنسها ويملا قلبها غبطة وسروراً ورأسها عظمة وافتخاراً . . . ففقدته . . . وكان لها امل في زواج سعيد من زوج محبوب فرزاتها الأيام في املها .

ذلك ما كانت تناجي نفسها به . . . صباحها ومساءها ، بكورها وأصائلها فاذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب احزانها علمت انه ذلك الفتى الذي وعدا ان يتزوجها فخدعها عن نفسها ، ولم يف بعهد لها ، فقذف بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير .

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها ، وياخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبيها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى لأنه قتلها ، وعلى المجتمع الإنساني لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته ، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين .

وما هي الا أيام قلائل حتى جاءها الخاض . . . فولدت وليدتها من

حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير
عجوز من جاراتها ألمت بشانها فمشت اليها وأعاتتها على امرها بضع
ساعات . . ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد . . وتعاني من
صروف دهرها ما تعاني .

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد ، وهو أحب المخلوقات
اليها واكثرهم قرباً الى نفسها . . فجلست ذات ليلة ، وقد وضعت طفلتها
النائمة على حجرها وأسندت رأسها الى كفها ، وظلت تقول :

ليت أمي لم تلدني ، وليتني لم اكن شيئاً .

لولا وجودي ما سعدت ، ولولا سعادي ما شقيت ، وإن كان في العالم
وجود أفضل منه العدم فهو وجودي .

لقد كان لي قبل اليوم سبيل الى النجاه من هذه الحياة ، اما اليوم ،
وقد اصبحت أما فلا سبيل .

أقتل نفسي فأقتل طفلي ؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة ؟

لا احسب ان الموت تاركه حتى يذهب بي الى قبري . فماذا يكون

حال طفلي من بعدي ؟

إنها ستعيش من بعدي ، وتشقى في الحياة شقائي ، لا لذنب جنته
ولا لجرمة اجرمتها ، سوى أنني أمها .

هل تعيشين ايتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومي حينما تسمعين

قصتي وتسمعين شكاتي ؟

لم يبق في يدي يا بنيقي من حلالي الا قليل سايبعا كما بعث سابقه ،
فماذا يكون شائي وشانك بعد اليوم ؟

محال أن اعود الى أبي فاقص عليه قصتي ، لأنه لم يبق لي مما يعزيني
عن شقاء العيش وبلائه ، الا ان اهلي لا يعرفون شيئاً عن جريمتي ، فهم
يبكونني كما يبكون موتاهم الاعزاء ، ولان يبكون مماتي ، خير لي ولهم من
ان يبكون حياتي .

وكذلك ظلت تلك البائسة المسكينة تحدث نفسها تارة ، وطفلتها
أخرى بمثل هذا الحديث المحزن الاليم ، حتى غلبها صبرها على أمرها ،
فأرسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كل ما يملك الضعفاء
العاجزون ، ويقدر عليه القانطون اليائسون .

دارت الايام دورتها وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها ، وما يحمل
بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حلى وثياب ، وأثاث ورياش ، ولم يبق
لها الا قيصها الخلق وملاعتها وبرقعها ، ولم يبق لطفلتها الا أسمال باليات
تم عن جسمها نيمة الوجه عن السريرة ، فكانت تقضي ليلها شر قضاء
حتى اذا طار غراب الظلام عن مجثمه اسبلت برقعها على وجهها ،
واتزرت بمئزرها ، وأنشأت تطوف شوارع المدينة ، وتقطع طرقها ، لا
تبغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال
يسايرها ويترسم مواقع اقدامها .

وأحسب ان عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فالت ببعض شأنها فاقترنت اثرها حتى دخلت غرفتها ، فوغلت عليها ، وسألتها ما خطبها ؟ فانست الفتاة عند رؤيتها ، وكذا يانس المصدر بنفثاته ، والبائس بشكاته ، فاصرحت لها بسرها وألقت اليها بجبيثة صدرها ، ولم تترك خبراً من اخبار نعيمها ، ولا حادثاً من حوادث بؤسها لم تحدثها به ، فمرفت الفاجرة محتتها ، ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الراح في زجاجتها ، وعلمت أنها ان احرزتها في منزلها فقد احرزت غنى الدهر ، وسعادة العمر ، وما هو الا ان ارسلت اليها بعض عقاربها ونفثت في نفسها بعض رقاها ، حتى غلبتها على امرها وقادتها الى منزلها ، وما هي الا عشية او ضحاها حتى بلغت بها الغاية التي لا مفر لها ولا لامثالها من بلوغها .

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد ، عيشاً أشقى من عيشها الاول في منزلها القديم لانها ما كانت تستطيع ان تصل الى لقمتها - وهي كل ما حصلت عليه في حياتها الجديدة - إلا اذا بذلت راحتها وشرّدت نومها ، وأحرقت دماغها بالسهر ، وأحشاءها بالشراب ، وصبرت على كل من يسوقه اليها حظها من سباع الرجال وذئابهم ، على اختلاف طبائعهم ، وتنوع أجلاقهم ، لانها لم تر بدأ من ذلك . . فاستسلمت استسلام اليانس الذي لم تترك له ضائقة العيش الى الرجاء سيلا .

ولو ان الدهر وقف معها عند هذا الحد لمان الامر ولألفت الشقاء ومرنت عليه كما يالفه ويمرن عليه كل من سار في الطريق التي سارت فيها ،

ولكنه أسي إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه ، فساق إليها ذئباً من ذئاب الرجال كان ينقم عليها شأناً من شؤون شهواته ولذاته ، فزعم أنها سرقت كيسه في إحدى لياليه التي قضاها عندها ، ورفع أمرها إلى القضاء ، واستعان عليها ببعض أتراها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وينفسن عليها حسنها وبهاها حتى أدانها .

جاء يوم الفصل في أمرها فسيقت إلى المحكمة ، وفي يدها فتاتها ، وقد بلغت السابعة من عمرها ، فأخذ القاضي ينتظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى دور الفتاة ، فما وقفت بين يديه ، ووقع بصرها عليه ، حتى شدهت عن نفسها وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهب برشدها ، ذلك انها عرفتته وعرفت أنه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها وعله بلائها ، فنظرت إليه نظرة شزراء ، ثم صرخت في وجهه صرخة دوى بها المكان دويًا وقالت :

رويدك يا مولاي القاضي ، ليس لك أن تكون قاضياً في قضيتي ا فكلانا سارق وكلانا خائن ، والخائن لا يقضي على الخائن ، واللص لا يصلح ان يكون قاضياً بين اللصوص .

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب ، وغضب لهذه الجرأة العجيبة ، وهم أن يدعو الشرطي لإخراجها ، فحسرت قناعها عن وجهها ، فنظر إليها نظرة ألم فيها بكل شيء ، فشعر بالردة تتمشى في أعضائه ، وسكن في كرسية سكون المحتضر في سرير الموت ، وعادات

الفتاة الى اتمام حديثها فقالت :

أنا سارقة المال ، وأنت سارق العرض ، والعرض أثمن من المال ،
فأنت اكبر مني جنائية ، وأعظم جرماً .

إن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع ان يعزي نفسه عنه باسترداده
او الاعتياض عنه ، اما الفتاة التي سرقت عرضها فلا عزاء لها ، لأن
العرض الزاهب لا يعود .

لولاك ما سرقت ، وما وصلت الى ما اليه وصلت ، فاترك كرسيك
لغيرك ، وقف بجانبني ليحاكنا القضاء العادل على جريمة واحدة أنت
مدبرها ، وأنا المسخرة فيها .

إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمة واحدة ، ثم تأتي بنا الى هذا
المكان ، فتقف أحدنا في أشرف المواقف ، وتقف الآخر في أدناها ،
لشريعة ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول ، او زمام غير
منقضب .

رأيتك حين دخلت هذه القاعة وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك
ويستنهض الصفوف للقيام لك ، ورأيت نفسي حين دخلت والعيون
تتخطاني والقلوب تقتحمني فقلت : يا للعجب !! كم تكذب العناوين ،
وكم تخدع الألقاب ، وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء ، وجهالة جهلاء !!

بخ بخ لأولئك الذين منحوك هذه الشهادة ، شهادة العلم والفضل
والاخلاق والآداب . ومرحى ومرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد ،

ووضعوا بين يديك هذا القانون ، وأوقفوا امامك هذا الشرطي يا تمر
بأمرك وينزل على حكمك .

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضاة نفوساً ليست بأقل
من نفوسنا شراً ، ولا أخبث منها مذهباً ، وربما لا يكون بيننا وبين
الكثير منكم فرق الا في العناوين والألقاب ، والشمائل والأزياء .

أتيت بي الى هنا لتحكم علي بالسجن ، كأن لم يكفك ما أسلفت إلي
من الشقاء حتى اردت ان تجيء بلاحق لذلك السابق .

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها؟ أأنت إنساناً ذا
شعور وإحساس فترثي لشقائي وبلائي ؟

إن لم تكن عندي وسيلة أمت بها اليك ، فوشيلتي عندك ابنتك
هذه ، فهي الصلة الباقية بيني وبينك .

فرفع القاضي رأسه ونظر الى ابنته الصغيرة نظرة رحمة واشفاق
وقد قرر في نفسه ألا بد له من أن ينصف تلك البائسة وينتصف لها من
نفسه ، غير انه أراد ان يخلص من هذا الموقف خلوصاً جيلاً ، فاعلن ان
المرأة قد أصيبت بدخل في عقلها ، وأن لا بد من إحالتها على الطبيب .
فصدق الناس قوله . ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه ، وقلب غير قلبه ،
وما هي إلا أيام قلائل حتى استقال من منصبه بحجة المرض ، ولم يزل
يسعى سعيه حتى ضم اليه ابنته واستخلص أمها من قرارتها وهاجر بها

الى بلد لا يعرفها فيه أحد ، فتزوج منها وأنس بعشرتها ، واحترف في دار هجرته حرفة لولا مخافة ان ادل عليه اذا ذكرتها لذكرتها ، ولا يزال حتى اليوم يكفر عن سيئاته الى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف الرعاية ، وأنواع الكرامة ، حتى نسيامات . ولم يبق أمامها إلا ما هو آت .

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد ، وما أسدى اليه من نعمة
لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين ، ولو وقف بين يديه تلك الوقفة
التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين .

لا يزال صاحب النعمة ضالا عن نعمته ، لا يعرف لها شأنا ، ولا يقيم
لها وزنا ، حتى يدلّه الحاسد عليها بنكرانها ، ويرشده اليها بتحقيرها ،
والغض منها ، فهو الصديق في ثياب العدو ، والمحسن في ثياب المسيء

أنا لا أعجب لشيء عجيب لهذا الحاسد ، ينتقم على محسوده نعم الله
عليه ، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه في هذه النعمة ،
وفي تلك الأمنية قد أضاف الى محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه
من النعم .

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها ، فإن أردت أن تزن نعمة
وافتك فارم بخيرها في فؤاد الحاسد ، ثم خالسه نظرة خفيفة ، فحيث

ترى الكتابة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها .

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأنًا ، وأهون خطراً من نعمة ليس لها حاسد ، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين ، وألقها في طريق الناقمين ، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها ، فاعلم انهم قد منحوك لقب « الحسد » فليهنأ عيشك وليعذب موردك .

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل ، فانظر الى أكثرهما تقمة على صاحبه ، وكلفاً بالغض منه ، والنيل من كرامته ، فاعلم أنه أصغرهما شأنًا وأقلها فضلاً .

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها ، فالشارب يتألم عند حلول المرض ، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر ، والسارق يتألم يوم دخول السجن .

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة ، لا تفارقه ساعة واحدة .

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها ، والنعمة موجودة من الموجودات الثابتة التي لا يلم بها الا التنقل من مظهر الى مظهر ، والتحول من موقف الى موقف فهيهات أن يفنى ألمه ، أو ينقضي عذابه ، حتى تقر عينه التي تبصر ، ويسكن قلبه الذي ينبض .

الحسد مرض من الامراض القلبية الفاتكة ، ولكل داء دواء ، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ، ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي

يחסده عليها ، ولا أحسب أنه ينفق من وقته ومجهوده في هذه السبيل
أكثر مما ينفق من ذلك الغض من شأن محسوده ، والنيل منه ، فإن كان
يחסده على المال ، فليُنظر أي طريق سلك اليه فيسلكه ، وإن كان يחסده
على العلم فليتعلم أو الادب فليتأدب ، فإن بلغ من ذلك ما أربه فذاك ،
وإلا فحسبه أنه ملاً فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك ،
والكمد القاتل .

الوفاء

يا صاحب النظرات :

تزوجت منذ سنة من زوج صالحة طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان ، وقد عرض لها في هذه الايام رمد في عينيها فذهب يبصرها فأصبحت عمياء ، وأصبحت أعمى بجانبها ، وقد بدا لي أن أطلقها وأتزوج من غيرها . . فماذا ترى ؟

« انسان »

أيها الإنسان : لا تفعل ، فانك ان فعلت كان عليك اثم الخائنين وجرم الغادرين ، وكن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم ، لتستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين .

لا تقل انها عمياء فلا خير لي فيها ، ولا غبطة لي بها ، فانك ستجد بين جنبيك من لذة المروءة والإحسان والجود والإيثار ما يحسدك عليه

الناعمون بالخور الحسان ، في مقاصير الجنان .

اجلس اليها صباحك ومساءك ، وحادثها محادثة الصديق صديقه ،
بل الزوج وزوجه ، وتلطف بها جهدك وروح عن نفسها ما يساورها من
الهموم والكروب وقل لها : لا تجزعي ولا تحزني ؟ فانما أنا بصرك الذي
به تبصرين ونورك الذي به تهتدين .

أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته ، والعهد وزمامه ، ألا تجعل لهذا
الخاطر السيء - خاطر الطلاق والفراق - سيلا الى نفسك ، فانها لم
تسء اليك فتسوء اليها ، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها ، فان كنت
لا بد تائراً لنفسك فائار من القدر ان استطعت اليه سيلا .

ان عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب فيمد يده بالعقوبة الى غير
من أذنب اليه ، ويعتدي عليه .

ان لم يكن احتفاظك بزوجك وابقاؤك عليها عدلاً يسالك الله عنه
فليكن احساناً تحاسبك الإنسانية فيه .

انك قد خسرت بصرها ، ولكنك ستريح قلبها ، وحسب الإنسان
من لذة العيش وهنائه في هذه الحياة قلب يخفق بجهه ، ولسان يهتف
بذكره .

انها أسعدتك برهة من الزمان ، فليخفق قلبك رحمة بها ، بقدر ما
خفق سروراً بعشرتها .

لا احسب أنها كانت تاركتك ، أو غادرتك ، لو أن هذا السهم

الذي أصابها قد أصابك من دونها ، فاحرص الحرص كله على ألا تكون
امرأة ضعيفة أسبق منك الى فضيلة الصدق والوفاء .

الى من تعهد بها بعد فراقك اياها ؟ وأي موطن من المواطن هياته
لقامها؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها؟ وتانس
بها في وحشتها ووحدها ؟

كيف بينا لك عيش ، او يغمض لك جفن ، اذا أظلك الليل فذكرتها
وذكرت انها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتاله ، وأنها
ربما طلبت جرعة ماء فلا تجد من يقدمها اليها ، او كسرة خبز فلا تجد
من يدلفها عليها ، او ربما قامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه
تلمس الطريق الى حاجة من حاجاتها فاخطأ تقديرها فصدمها الجدار في
جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها ؟

أيها الإنسان : إن لم تكن عادلاً ولا وياً ولا محسناً فارحم نفسك من
هذا الخيال الذي لا بد ان سيساورك ، يفت في عضدك ويزعجك من
مرقدك ، فان لم تكن هذا ولا ذاك ، فغيرك أخاطب لاني لا أحسن الا
مخاطبة الإنسان .

لني محدثك عن صديق لي من كرام الناس وأوفياهم تزوج امرأة
حسنة فاغتبط بها برهة من الزمان ، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به
زوجك ، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من
الشفق الأحمر في حاشية الأفق ، فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها
واستمسك بها ، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها

شيئا ، فكان يعتب عليها في بعض الأحيان في أشياء لا يؤاخذها عادة إلا الناظرون المبصرون ، يريد بذلك أن يلقي في روعها انه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة ، وأنه لا يرى شيئا جديداً طراً عليها ، رحمة بها وابقاء على ما كانت تحب ان تحاوله من الاعتداد بنفسها والإذلال بمزاياها .

ولقد قرأت جملة صالحة من نواذر العرب في آدابهم ، ومكارم أخلاقهم ورقة شعورهم ولطف وجدانهم ، فلم أر بينها نادرة اوقع في النفس ، ولا اجمل اثرأ في القلب ، من قول أبي عيينة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية ، وكان كفيف البصر : اختلفت الى القاضي احمد بن أبي دؤاد أربعين عاماً فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعي ، خذ بيده يا غلام ، بل يقول أخرج معه يا غلام .

فان كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء في صفحات القلوب ، ما سجل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريخ ، فلا تطلق زوجك ، ولا تنقم منها أمراً قد خرج حكمه من يدها ، وإن آبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش ، فاعلم انه ما من لذة يتمتع بها الإنسان في حياته الا ويشوبها الكدر ، او يعقبها الألم ، الا لذة البر والإحسان .

خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق ليلة أمس على كرسي قضائه ، ووقف عن عيئه رجل من ذوي الأسنان^(١) قدر « دميم » المنظر ، تسنح شعراته البيض في بادية رأسه ولحيته سنوح الشرر الابيض في الدخان الاسود ، وتمشى في أديم وجهه غبرة قائمة من رآها علم أنها نسيج دخان الحشيشة ، الذي ينفثه من فيه صباحه ومساءه وغدوه ورواحه ، ووقف عن يساره صبية ستة نحل الأبدان جوع الاكباد ، لم يترك لهم الدهر - آكل الناس وشاربهم - إلا هيكلًا من العظم تلمع في رأسه عينات جائلتان ، لا يستقران في محجرهما إلا اذا استقر الزئبق الرجراج في قرار مكين .

نظر اليهم قاضي التحقيق نظرات تمازجها الرحمة ، وتخالطها السفقة ، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون ، لولا ان من المناظر مناظر تستهوي القلوب القاسية ، وتذيب الأفتدة المتحجرة ، وأنشا يسألم

(١) جمع سن ؛ وهو المر .

واحداً فواحداً ما شأنهم؟ وما خطبهم؟ وما مصيرهم افككت جوابهم جواباً واحداً خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خلتهم^(١) من حيث يخفي مكانها فثغر^(٢) فيها ثغرة انحدر منها الى أعراضهم ، فبعث بها ما شاء وشاء العابثون ، فكانوا في داره الضروع التي يحتلبها ، حتى اذا استنفد درتها^(٣) ألح على دمائها فاستنزفها ، ثم قالوا إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم فاذا علم انهم هلكوا او كادوا طفق يعلمهم باللقمة بعد اللقمة ، والمضغة بعد المضغة ، ويرمقهم^(٤) العيش ترميقاً لا ابقاء عليهم ، بل على ما يصل الى يده من المال من طريقهم ، وزعموا انه كان يريه منهم في بعض الاحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه فيملاً ادمغتهم بدخان الحشيشة ليسرق عقولهم ، ويحل عقدة إبانهم ، ويتركهم لا يدرون ما يأتون وما يدعون .

وما وصلوا من شكواهم الى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي فراعته من أمرهم ما راعه ، ثم علم انه الجوع ، فأمر لهم بخبز وأدم فازدحوا عليه يتناهبونه ويزددونه ازدراد الوحش فريسته . وقد وقف ذلك الذئب المستانس ينظر اليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده اذا أفلت من حبالته .

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه ، فارتعت لسماع حديثه الارتياح كله ، وحسبت انه يحدثني عن حادثة وقعت في مبدأ الخليفة في

(١) الخلة : الحاجة .

(٢) ثغر الشيء : ثلثه وقتحه .

(٣) الدرّة : اللبن .

(٤) رمقه الشراب : أعطاه إياه حسرة حسرة .

مغارة من مغاور الجن او شفعة^(١) من شفعات الجبال ، وقلت له : أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن انسان ؟ قال : لا تعجل فما حدثتك الا عن رجل حمار لا يفارق وجهه صورة حماره ليله ونهاره ، وربما سرت اليه تلك النتيجة من هذه المقدمة فكيف بك لو علمت أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الاتقياء والصالحين ، والاشراف والمستورين ؟

قلت : لا تحدثني عن شيء ، فلم يبق في قلبي متسع ، لاحتماله أكثر مما احتملت والامر لله وحده .

ليست مسألة الزوايا وخبايها أمراً يستهان به ، أو تفضي العيون عليه فأننا نريد ان نعد لوطننا رجالاً ذوي شجاعة واقدام ، وعزة وأنفة ، من الذين اذا عظم الخطب كانوا حماة الديار ، واذا اشتد البأس لا يولون الادبار .

(١) الشفعة : رأس الجبل .

القمار

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعي ، ويريدون منه أن يكون الانسان مجنوناً في شأن واحد من شؤونه ، عاقلاً في باقيها ، وعندني أن الرجل اما أن يكون عاقلاً او مجنوناً ، ولا ثالث لهما .

العقل قوة يقتدر بها المرء على ضبط نفسه عن شهواتها ، فموقفه أمامها موقف واحد ، فاما أن يغلبها جميعاً أو تغلبه جميعها .

أما ما يراه الرائي أحياناً من استهتار الرجل في بعض الشهوات استهتاراً يستهلك نفسه وعقله ، وزهده في بعضها زهد الاعفاء القانعين ، فذلك لأنه رغب في الاولى فاسترسل وراء رغبته ، ولم يدعه الى الاخرى داع من شهوات قلبه وتزعجات نفسه ، ولو دعاه لحف اليه ولباه ، ولن يسمى الرجل زاهداً أو عفيفاً إلا اذا أمسك نفسه من شهوة تدعوه اليها فيدفعها ، وتثور ثائرتها بين جنبيه فيقمعها .

لا تقل ان السكير عاقل ان رأيت غير فاسق ولا عاهر ، واعلم انه

يؤثر الفسق ولا تجذبه اليه جواذبه ، ولو آثره لكان موقفه من المواخير موقفه من الحانات ، ولا تقل ان الفاسق عاقل ان رأيته غير سارق ولا مختلس ، فإنه لا يجب السرقة ولا الاختلاس ، ولو أنه احبها لكان في التسلل الى اعماق الدور والقصور ، أبرع منه في التسلل الى مكامن الفسق والفجور ، ولا تقل ان المقامر ان رأيته لا شارباً ولا فاسقاً ، فان القمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه ، ولم يدع فيها فضلة لسواها ، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين ، وأفسق الفاسقين .

ولو كنت من المصانعين ، الذين يزخرفون لارباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروها في نظرهم فضائل بما يلبسونها من أثواب التأويل ويصبغونها من ألوان التعليل ، لما استطعت ان تصانع المقامر لان حاله من الجهل الفاضح ، والغباوة المستحكمة ، أبعد الحالات عن عنذر المعتذرين ، وتأويل المتأولين .

ما جلس المقامر الى مائدة القمار ، الا بعد ان استقر في ذهنه ان الدرهم الذي في يده سيتحول بعد هنيهة من الزمن الى دينار ، ويعود به الى اهله فرحاً مغتبطاً ، وأحسب أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة ، تعجز عن ادراك هذه العقيدة ومثارها .

ان كان يؤمل الربح لانه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح . فلم لا يخاف الخسران لانه يرى عن يساره مائة خاسرين ؟ وان كان يضحكه منظر الربح لانه يرى في بعض مواقفه احد الرابحين ضاحكاً ، فلم لا يبكيه

منظر اصدقائه ورفقائه الخاسرين، وهم يتساقطون حوالبه تساقط جنود
المعركة تحت القذائف المنطلقة .

ما اشبه المقامر الذي يطلب من الدينار الواحد مائة دينار
بالكيميائي الذي يطلب من القصدير فضة ، ومن النحاس ذهباً ، كلاهما
يتاجر بالاحلام في سوق الاوهام ، فيربح ربحاً مقلوباً ويكسب كسباً
معكوساً ، وما اشبههما جميعاً بذلك الرجل الذي علم ان في صحراء من
صحاري اواسط افريقيا كنزاً دفيناً لا تعرف له بقعة معينة ، وليس عليه
دليل فحمل فأسه على كتفه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي
تستنفذ قوته وتستهلك منته . . وتبلغ من نفسه ما لا يبلغ كر الغداة ومر
العشى . . حتى اذا بلغ قرارتها . . وعلم انه لم يعثر بضالته . . تركها وبدأ
يحفر غيرها بجانبها . . فلا يكون نصيبه من الاخرى اوفر من نصيبه من
الاولى . . وهكذا . . حتى ادركه الموت ، وهو في بعض تلك الحفر . .
فكان هو نفسه الكنز الدفين . . الا انه كنز لا يطمع فيه طامع ولا يرغب
فيه راغب .

ان كنت لم تسمع في حياتك باجتماع النقيضين وتلاقي الضدين ، فاعلم
ان المقامر في آن واحد اجشع الناس ، وأزهد الناس ، فلولا حبه المال لما
هان عليه ان يبذل راحته وشرفه وسعادته وحياته في سبيله لتولوا
زهده فيه لما اقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغاية يطلبها
ولا للمراب يسعى اليه .

أنا لا أريد أن أنصح للمقامر بترك القمار ، لاني اعتقد ان من يملك

عقلاً مثل عقله ، وفهماً مثل فهمه ، لا يستطيع ان يفهم كلمة بما اقول ،
ومن عجزت حوادث الدهر وعبر الايام عن ان ترد عليه ضالة عقله
وتهديه السبيل الى نفسه لا تنفعه كلمة كاتب ، ولا موعظة واعظ ، وانما
اريد ان اقول للذين لم يقدر لهم ان يخطوا خطوة واحدة في هذه الطريق
الوعرة حتى اليوم : لا تقامروا جدّاً ولا هزلاً ، فان هزل القمار يجر الى
جده ، ولا تمروا بمعاهد القمار قصداً ولا عفواً ، فان من حام حول الحمى
يوشك ان يقع فيه ، ولا تصاحبوا المقامرين بحال من الاحوال ، فانهم لا
يرضون عنكم حتى تتخذوا ملتهم ، فان فعلتم خسرتم مالكم وشرفكم
وعزتكم وكرامتكم من حيث لا تجدون من رحمة القلوب وراقتها ما
يعوّض عليكم ما خسرتم ، فارحموا انفسكم ان كنتم راحمين ، واتقوا الله
ان كنتم مؤمنين .

الأوصياء

مرض فلان مرض الموت فلم يحفل بالمنية لأنه اقتطف زهرة الحياة
جميعها ، ولأن الثمانين قد ألحت عليه بصبحها ومساءها ، وليلها ونهارها ،
فلم تترك له خيطاً من خيوط الأمل ، ولا شعاعاً من أشعة الرجاء لولا
ان بين يديه ولداً صغيراً في السابعة من عمره قد ماتت أمه منذ عهد
قريب . والشيوخ الكبار الى ابنائهم الصغار حنين الإبل الى أعطانها ،
فنظر اليه ، وهو يحوم حول فراشه نظرة طويلة لم يسترجعها الا مبللة
بالدمع المنسجم ، ثم زفر زفرة حرى خيل لرائيها أنها الزفرة الاخيرة ،
وأنشأ يقول :

أي بني ، من لي بقلب يركبك مثل قلبي ، وعين تسهر مثل عيني ،
وروح ترفرف فوق رأسي مثل روحي ، ونفس تضم جوانحها عليك
مثل نفسي ؟

أي بني ، كاني بركب الموت ، وقد نزل بي ، وحل بساحتي ، وكاني

به ، وقد احتملني من فضاء القصر الى مضيق القبر ، ومن نور الحياة ، الى ظلمة الموت ، وكاني بك ، وقد طفقت تنشدني فلا تجديني ، وتفتش فلا تراني ففزعت وارتعت ، ثم صرخت فصعقت ، ولم تجد بجانبك من يمسح دمعك ويخفف حزنك .

من لي بصديق أثق بوده وإخلاصه ، ورحمته وحنانه ، فأكل اليه أمرك وأعتمد عليه في تأديبك وتخريجك ، وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك ؟

فما أتم نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يأنس به ويستخلصه لنفسه ، وقد سمع آخر نجواه ، فقال له : هوّن عليك يا مولاي فانا صديقك الذي تنشده ، وأنا والد ولدك من بعدك ، وخليفتك بعد الله عليه ؛ ثم تهافت على فراشه وظل يبكي لبكائه ، وينبش لنشيجه ، فاستنار قلب الرجل بنور الأمل وقال : أحمدك اللهم قدر رحمتك ولدي وحفظت بيتي .

وما هي الا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده ، ثم اجاب دعوة ربه تاركاً في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه ، وماله وولده .

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقاً له في الاعوام الاخيرة من اعوام حياته بعدما رآه يكثر الاختلاف اليه ، ويطيل اللبث بجانبه ، ويلتزم الوقوف عند أمره ونهيه ، ويخفف لقضاء حاجاته ولباناته ، ذلك الى ما

كان يراه متجملاً به من صلاح مملوءة بالركعات والسجادات ، والتسبيحات المتواليات وعفة حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته .. وتورع حتى عن الجرعة يتجرعها في حضرته .. فاستخلصه لنفسه .. وأنزل من قلبه المنزلة التي لا ينزل معه فيها غير ولده .. واصبح أثر الناس عنه حتى ما يستطيع فراقه لحظة ، ولا يصبر عنه ساعة ، الى ان أحس باقتراب الأجل ، فأوصاه بما أوصى ، وعهد اليه بما عهد .

هذا هو تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ ، أما تاريخه بعد مماته فاسمعه منه ما تهوى له الأفلاك عجباً ، وتخر له الجبال هدأً .

لم تكن صلواته الا رياء ونفاقاً، وركوعه وسجوده الا كيداً ومداهنة، وعفته وزهادته الا حباله نصبها ليعلق بها عقل الشيخ ، وقد علق ، فيسلبه ماله وولده ، وقد فعل ، وما كان اختلافه اليه ، ولا تردده عليه الا طمعاً في هذا المصير الذي صار اليه ، فلما علم ان قد تم له من أمره ما أراد ، أطلق يده في مال الصغير يعيث به عبث النكباء بالعود ، ويبتاع به لنفسه ما شاء ان يبتاع من قصور ودور وبساتين وضياع ، فنبه ذكره بعد ما كان خاملاً ، ونبت ريشه بعد ما كانت عارياً ، واصبح ضاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يذل من يشاء ويمز من يشاء .

أما شأنه مع الولد فقد علم أنه سيبلغ عما قليل أشده ، ويملك ريشه وأنه سيقطع عليه لذته ، ويقف له موقف المعارض سبيله ، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير ، فلم يربداً من ان يعد لذلك اليوم عدته

فعمد الى الولد فقطعه عن المدرسة لانه لا يجب ان ينشأ متعلماً ، ثم أغرى به من ساقه الى مواطن الفسق وبجامع الفجور ، لأنه لا يجب ان ينشأ عاقلاً ، وما زال ينفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب حتى علق الشراب برأسه علوق السلال بالصدور ، فأصبح بين الحانات والمواخير ، كالطائر بين الاغصان لا يرسل الساق الا ممسكاً ساقاً .

فكأنما وكل بعقله مقراضاً يبضع له في كل يوم منه بضعة حتى كاد يأتي عليه ، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحال الوصي على القاصر قياً على المعتوه ، ولم يبذل في سبيل الوصول الى ذلك اكثر من لقيات ألقاها من فتات تلك المائدة الى اعضاء المجلس الحسي ، فأدخلوه تلك الجنة الزاهرة بغير حساب .

شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين ، وإقامة القوام عليهم ، رحمة بهم ، فاستحالت على يد المجالس الحسبية نقمة عليهم واصبح اللص الذي يجهل صناعة فتح الاقفال ويتقي مغبة تعلق الجدران ، قادراً على ان يسرق ما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يامن على نفسه الوقوف أمام محكمة الجنایات ، وجر الاغلال الثقال في غيابات السجون . وانتقلت الثروات العظيمة من ايدي اصحابها مخافة ان يسرفوا فيها الى ايدي آخرين يبدونها تبديداً ، ويمزقون أديمها تمزيقاً ، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسب ، او وشيعة رحم ، حتى أصبح السعي الى جمع المال وادخاره للوارثين في هذا العصر عملاً من الاعمال الباطلة ، وضرباً من ضروب الخرق الواضح ، والجهل الفاضح ، فن لي

ان أنا دبرت المال وجمعته ان لا يكون خليفتي عليه من بعدي لصاً من اولئك اللصوص الذين تمنحهم المجالس الحسبية ، ما تمنعهم الشرائع الإلهية؟ ومن لي ان أعيش الى ان أدرك ولدي فأتولى أمر تربيته بنفسي قبل ان يظفر به في حدائته ظفر جارح من اظفار اولئك الأوصياء فيميت نفسه ، ويقتل عقله .. ويفسد عليه حياته ، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها ، ويزعج عظامي في مرقدها .

فلقد حدثني من قص علي تلك القصة ان ذلك الوصي لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ما أراد ، عمد الى تزويجه من فتاة حسنة من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أن له في ذلك مارباً من المآرب الفاسدة ، فإنها ما كادت تخلع ثوب عرسها حتى أنشأ يختلف اليها ، ويكثر ازديارها في الجناح الذي تسكنه من القصر ، بما له على زوجها وعليها من حق الولاية والرعاية وبحجة النظر في شؤونها ومراقبتها ، ثم ما زال يختلها عن نفسها ويزين لها ما يزينه الشيطان للإنسان حتى علقت بمجالاته ، كما علق بها غيرها من قبلها فكرهت زوجها ، وبرمت به ، فرا به من أمرها ما رابه ، فرصدها ليلة من الليالي حتى عرف سرها وموضع هواها ، فشكا فلم يجد سامعاً ، ثم بكى فلم يجد راحماً ، فكان يقضي كثيراً من ليلاليه في غرفة من غرف القصر واجماً مطرقاً مسلماً رأسه الى ركبتيه ، ودمعه الى خديه ، لا سمير له ولا مؤنس الا رنات الضحكات التي تنهل عليه من مخدع زوجه ، فكان يشب تارة وثبة الأسد فيشير في القصر نائرة شعواء تضح لها جوانبه ، فيتسارع اليه الخدم

فيضربون على يده وفمه ، وأخرى يعود اليه بلهه وخبله ، فينظر الى هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب .

مرت على تلك الحوادث سنوات استأثر فيها ذلك الوصي بتلك الدائرة الواسعة وألح عليها بكلكله ، حتى اجتز وبراها ، ثم استكشط جلودها فلم يبق منها إلا هيكل عظمي قائم ، فلما علم ان قد قامت قيامة الناس عليه ، وأن قصته مع الغلام وزوجته قد ملأت مسمع الحاققين ، وأن نجمه الثاقب قد مال الى الأفول ، عمد الى حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية الغريبة بهذا الفصل الحزن الأليم .

تفتح للغلام بعد انتباضه ، وابتسم اليه بعد تقطيعه ، وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من توب فاخر ، ومركب فاره ، ومزاهر وعيدان وكؤوس ودنان ، ثم خلا به في ساعة من ساعات نشوته وارتياحه فقال له : أيها الصديق قد آن أوان استقلالك بشأنك وانفردك بأمرك ، فاكثب الى المجلس الحسيني رقعة تطلب فيها رفع الحجر عنك ، واهكتب توقيعك على هذه « المخالصة » براءة لنمقي ، فاستطير الغلام فرحاً وسروراً ، وما لبث ان كتبت الاولى ووقع على الاخرى ، ثم اوعظ الى المجلس الحسيني بتلبية طلبه ، فلباه ، وقضى برفع الحجر عنه ، فاستقبل تلك النعمة استقبال الظاميء كأس الشراب ، وكان لا بد له من أن يشرب حتى يشم ، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجد ، وكان الرجل قد وكل به عوناً من أعوانه يداخله ويتحين فرصة حاجته الى المال فيمنحه ما يريد ، فكان يعطيه المال باليمين ، ويأخذ منه صك البيع

بالييسار ، وما زال هنا يعطي وذلك يأخذ حتى أصبح نصف « الدائرة »
بعد عامين ملحقاً لعون الوصي وللوصي غداً بثمن لا يساوي عشر
معشارها ، بل بغير ثمن ، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بالها ، وأنفق عليها
إلا ثمرتها ؟

هنالك قام الوصي وقعد ، ونادى في الناس بصوت يشبه صوت
الحق ونعمة تشاكل نعمة الصدق : أيها الناس قد كنت انذرتكم بصير هذا
الغلام ان صار أمره الى نفسه ، فكذبتم قولي ، وسفهت رأيي ، وما زلت
تقولون وتتقولون حتى اخرجتم صدري ، ودفعتموني الى الغدر بذلك
العهد الذي أخذه عليّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولده من بعده ،
ولا اتخلى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده ، فكان ما كان مما تعلمون من
تبييد ثروته ومزيقها ، فما أنتم ترون بأعينكم شؤم رأيكم وجريرة
سعيكم .

ثم أعاد كرتة على الغلام وسعى سعيه في المجلس الحسي فأعاد سيرته
الأولى ووضع في عنقه غلا لا فكك له من بعده ، الى يوم يبعثون .

ليت شعري ، هل يعلم ذلك المقبور في حده ما صنعت يد الحدثان
بماله وولده ، وان المال قد ورثه غير وارثه ، واستأثر به غير صاحبه ؟
وأن ولده قد أصبح ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير ، يطلب المضغة
فتعوزه ، والجرعة فتلتوي عليه ؟ وأنه يبني الليالي ذوات العدد مطرحاً
في زوايا الحانات ، لا وطاء غير أديم التراب ، ولا غطاء غير قطع

السحاب ؟ وهل اعد عدته للوقوف بين يدي الله تعالى في ذلك اليوم
المشهود ؟ يوم تكشف الهنات ، وتفضح العورات .. فيمسك ولده بيمنه
ووصيه بيسراه ، ثم يناجي ربه ويقول :

اللهم اعدني على هذا الكاذب الذي ختني وخذعني وخفر ذمتي
وخاس بمهدي وخان امانتي ، وافسد وصيتي ، وخذ لوليتي بحقه من
هذا الظالم الذي سرق ماله ، وهتك عرضه ، وعذب نفسه ، ونقص عيشه ،
فانت اعدل الحاكمين وارحم الراجين .

العام الجديد

في مثل هذا اليوم من كل عام يقف ركب العالم السائر بمنزلة من منازل الحياة ، فينزل عن مطاياه ليستريح فيها ساعة من وعشاء السفر بعد أن نال منه الأين والكلال ، وأضناه سري الليل وسير النهار ، ثلاثاً وخمسة وستين يوماً .

هنالك يجتمع السفر^(١) في صعيد واحد فيتعارفون ويتصافحون ، ويتفقد بعضهم بعضاً ، فيجدون أن فلاناً مات جوعاً ، وفلاناً مات ظمأً ، وآخر افترسه سبع ، وآخر قتله لص ، وآخر مات غيلة ، وآخر سقط عياً وآخر طارت به قنبلة ، وآخر هوت به طيارة ، وآخر اجتاحه بركان ، وآخر تردى عليه معدن ثم يعودون الى جرائد الإحصاء فيدونون فيها حاضرهم ، كما دونوا ماضيهم ، ثم يوازنون بين هذا وذاك فيجدون أن الحاضر شر ، وأن ميادين الحروب لا تزال ملوثة بالدماء ، ومصانع

(١) السفر : المسافرين .

الموت لا تزال تفتن في عدده وتستكثر من ادواته ، وأن جدر الشر القديمة لا تزال ناشبة بنفوس البشر ، حتى ما يتمنى احد ان تقع عينه على احد وان سحب البغضاء القائمة لا تزال مخيمة على المجتمع الانساني من ادناه الى اقاصه شعوباً وقبائل واجناساً وانواعاً ، ومذاهب وادياناً ، ومنازل واطناناً ، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه ، فإن عرف انه يوافقه أبغضه لأنه يخالفه في دينه ، فإن وافقه فيه ابغضه لأنه ينطق بغير لفته فإن نطق بها ابغضه لأنه لا يشاركه في وطنه فإن كان مشاركاً له ابغضه لأنه يزاحمه في حرفته فإن بعد عن طريق مزاحته ابغضه لأنه يخالفه في رأيه ، فإن لم يخالفه ابغضه لأنه لا يحاكيه في لونه ، فإن لم يجد شيئاً من هذا ولا ذلك ابغضه لانه شخص سواه ! مكان قضاء حتماً على الإنسان ان يبغض كل صورة غير الصورة التي يراها كل يوم في مرآته .

فاذا فرغوا من النظر في جرائم حسابهم ، والموازنة بين حاضرم وماضيهم ، اضافوا الى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب ، فتناسوا كل هذا ووضع كل منهم يده في يد اخيه مهنتاً له بالعيد السعيد داعياً له بدوام الغبطة والمنامة ، ثم تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية .

علام يهنئ الناس بعضهم بعضاً ؟ وماذا لقوا من الدنيا فحرصوا على البقاء فيها ؟ ويقتبطوا المراحل التي يقطعونها منها ؟ وهل يوجد بينهم شخص واحد يستطيع أن يزعم أنه أصبح سعيداً كما أمسى ؟ أو أمسى

سعيداً كما أصبح ؟ أو أنه رأى بروق السعادة قد لمع في إحدى لياليه ولم
يرجائه ما يرى في الليلة البارقة من رعود قاصفة ، ورياح عاصفة ،
وصواعق محرقة ، وشهب متطيرة ؟

بأية نعمة من النعم ، أو صنعة من الصنائع ، تمن يد الحياة على
إنسان لا يفلت من ظلمة الرحم الا الى ظلمة العيش ، ولا يفلت من ظلمة
العيش الا الى ظلمة القبر ، كأنما هو يونس ، الذي التقمه الحوت فشى في
ظلمات بعضها فوق بعض ، وأية يد من الأيادي أسدتها الأيام الى رجل
يظل فيها من مهده الى لحده حائراً مضطرباً ، يفتش عن ساعة راحة
وسلام تهدأ فيها نفسه ، ويثلج صدره ، فلا يعرف لها مذهباً ولا يجد إليها
سيلاً ، إن كان غنياً اجتمعت حوله القلوب الضاغنة ، واصطلحت عليه
الأيدي الناهبة ، فما قتلته ، وإما أفقرته ، وإن كان فقيراً عد الناس
فقره ذنباً جنته يده ، فتتناوله الأكف بالصفع والأرجل بالركل والأسن
بالتنفذ ، حتى يموت الموتة الكبرى بعد أن مات الموتة الصغرى ، وإن
كان عالماً ولع الحاسدون بذمه وهجوه ، وتفنتوا في تشويه سمعته ،
وتسويد صحيفته ولا يزالون به حتى يعطيهم العهود والمواثيق التي
يرضونها أن يعيش عالماً كجاهل وحيماً كيت ، وأن يكتم علمه في صدره ،
فلا يفضي به الى لسان ولا قلم ، حتى يدركه الموت ، وإن كان جاهلاً
اتخذ المالكون مطية يركبونها الى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا
يهانونها ولا يرفقون بها حتى يعقروها . وإن كان بخيلاً أزدوته القلوب ،
واتنعمته العيون وتقلصت له الشفاه ، وبرزت له الأنياب ، واتقبضت

له الامرة ، والتهبت له الانظار ، وأرسلت اليه الاغصان السنة نيرانها حتى تحرقه ، وإن كان كريماً محسناً عاش مترقباً في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن اليهم إما لانه أذاقهم جرعة باردة فاستعذبوها فاسترادوه فلم يفعل ، فهم ينتقمون منه ، أو لانهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يخيل اليهم أن المحسن يريد أن يبتاع منهم نفسه بما يسدي ، وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الإحسان بلا مقابل فهم ينتقمون عليه إن عرف كيف يفلت من أيديهم .

لا سعادة في الحياة إلا اذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشري ، ولن ينتشر السلام الا اذا هدأت أطباع النفوس ، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف ، فعرف كل ذي حق حقه ، وقنع كل بما في يده عما في يد غيره ، فلا يحسد فقير غنياً ، ولا عاجز قادراً ، ولا محدود محدوداً ، ولا جاهل عالماً ، وأشعرت القلوب الرحمة والحنان على البائسين والمنكوبين فلا يهلك جائع بين الطاعمين ولا عار بين الكاسين ، وامتلات النفوس عزة وشرفاً ، فلا يبقى شيء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال اموال الناس باسم الدين مرة والإنسانية أخرى ، ولا ترى طبيباً يدعي علم ما لم يعلم ليسلب المريض روحه وماله ، ولا محامياً يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق ما سلب منه خصمه ، ولا تاجراً يشتري بعشرة ويبيع بمائة ، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث ، وكاتباً يضرب الناس بعضهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزند ليظفر بالشرر المتطاير منها .

وما دامت هذه المطالب أحلاماً كاذبة وأمانى باطلة ، فلا مطعم في
سلام ولا أمان ، ولا أمل في سعادة ولا هناة ، ولا فرق بين أمس الدهر
ويومه ولا بين يومه وغده ، ولا فرق بين مغفلات أيامه غير ما عرفت
وما ذاق أحد من نغماته غير ما ذقت ، وليفرح بالعام الجديد من حمد ما
مضى من أيامه وسالف أعوامه .

*

سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير ، وهي الرواية المعروفة برواية 'يوليوس قيصر' موقفاً لبطلين من أبطال الفصاحة ، وفارسين من فرسان البيان . وقد وقف كل منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب ، ووقف الشعب الروماني بينها موقف الكرة من أقدام اللاعبين . . . تعلو بها حيناً وتسفل أحياناً ، فلا تثبت صاعدة ولا تستقر هابطة ، فعلت أن العامة عامة في كل عصر ، والشعب شعب في كل مصر . وأن سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر ، وأن رأس التاريخ اليسوعي ، مثله في ذنب التاريخ الحمدي ، تدنو به كلمة ، وتناهى به أخرى ، وتجذبه دمة وتدفعه ابتسامة ، وتطير بلبه الشرقيات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء .

علم بروتس الشريف الروماني أن يوليوس قيصر قد استمجد الشعب الروماني وأذل نفسه ذلاً . . . ملك عليه حواسه ومشاعره حتى ما يكاد

يشعر بمرارته ، وكذلك النذل اذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى
الشعور بتزوله فيها ، وعلم ان حياة ذلك الشعب يموت ذلك القيصر . .
فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده ، افتداء لامته ووطنه ، فطعنه طعنة
نجلاء ، سلبته نفسه في لحظة واحدة ، فهاج الشعب الروماني على القاتل
وأعوانه ، هياج الأمواج الثائرة على السفن الماخرة ، فوقف الرجل
خطيباً أمام ذلك الشعب الهائج المحتدم وقفه المستبسل المستميت ، وكان
لا بد له في هذا الموقف من أحد المصيرين ، إما نصر يعلوه به الى مدارك
الأملاك ، أو خذلان يهوي به الى مقر الأسماك ، ومن أحد المخرجين :
إما مخرجه مرفوعاً على محفة الابطال ، أو محمولاً على أعناق الرجال ،
فبعد لاي ما استطاع بعض الزعماء أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم
الى سماع دفاع القاتل عن نفسه ، أو التفكه بمنظره المضحك ، وهو يتلمس
في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جريمته .

الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة) : أيها الرومانيون ، أتمدونني
بالصبر قليلا على سماع ما أقول من حلو الكلام ومره ، إكراماً لموقفني
ولإكراماً للعدل ؟

أنا لا أريد أن أخدعكم ، ولا أعبت بعقولكم وأهوائكم بل أريد
منكم أن تنظروا الى قضيتي نظر الحذر التيقظ الذي لا يعطي هوادة
ولا يلقي قياداً لاني لا اعتقد ان في زاوية من زواياها كيناً اخاف ان

تقع عليه العيون .

أيها الرومانيون ، إن كان بينكم صديق لـ « قيصر » يحبه وينوب
حزناً عليه فليسمح لي ان اقول له : أيها الصديق الكريم ، ان بروكس
قاتل قيصر كان يحبه اكثر منك .

أيها القوم : والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، فاعلموا اني ما
قتلت قيصر لاني كنت ابغضه ، بل لاني كنت احب روما اكثر منه .
كان قيصر طماعاً فقتلته ، ففي ساعة واحدة منحته دمعي وقلبي
وخنجري .

انا لا اصدق ان بينكم من يحزن لموت قيصر ، فأنتم رومانيون ،
والروماني لا يجب ان يعيش ذليلاً .

من منكم يكره ان يكون رومانياً ؟ من منكم يكره ان يكون حراً ؟
من منكم يحتقر نفسه ؟ من منكم يزدري مصلحة وطنه ؟ ان كان بينكم
واحد من هؤلاء فليتكلم ، لانه هو الذي يحق له ان يثار لنفسه مني ، لاني
لم أسيء الى احد سواه .

الشعب - لا ، لا ، ليس فينا واحد من هؤلاء .

بروتس - إذن انا لم أسيء الى احد منكم .

وهنا دخل انطونيوس صديق قيصر ورأس الناقين على قتله
والطالبين بثاره هو وآخرون يحملون على ايديهم جثة قيصر لتأبينه في

هذا الجمع الحاشد فاستأنف بروتس الكلام وقال
ها هي جثة قيصر ، وما هو صديقه أنطونيوس جاء ليأبنه فاستمعوا
له واعلموا ان قيصر المذنب غير قيصر الماجد ، وقد سمعتم ما قيل عن
الاول فاسمعوا ما يقال عن الثاني ، واسمحوا لي ان أقول كلمة أختتم بها
خطابي .

أيها الرومانيون : ان الخنجر الذي ذبحت به قيصر في سبيل روما لا
يزال باقياً عندي لذبح بروتس في سبيل قيصر اذا أرادت روما ذلك .

تأثير الخطبة

- الشعب - ليحيى بروتس .
 - أحد الناس - أنا اقترح ان نحمله على الأكف الى منزله .
 - آخر - انصبوا له تمثالا
 - آخر - امنحوه عرش قيصر .
 - آخر - إنه أفضل من قيصر .
 - آخر - إن قيصر كان ظالماً .
 - آخر - إنه كان الظلم بعينه .
 - آخر - لتنهأ روما بالخلاص منه .
 - آخر - ألا نسمع تابين أنطونيوس ؟
 - آخر - نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك .
- وهنا تزل بروتس والقلوب طائرة حوله ، والعيون حائمة عليه . ثم
وقف على أثره أنطونيوس فرمقه الشعب بين الغضب والحقد .. ولولا

إشارة من بروتس ما استطاع ان يثبت في موقفه لحظة واحدة ، ثم أخذ يتلو كلمة التابين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحة وبيانا .

القصيدة

أنطونيوس – أيها الرومانيون ...
أحد الناس – اسمعوا ما يقول أنطونيوس .
آخر – لا .. لا نسمعه .
أنطونيوس – اسمعوني إكراما لبروتس .
أحد الناس – ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس ؟
آخر – لا يقول شيئا .
آخر – اذن نسمعه .
أنطونيوس – أيها الاصدقاء ، انني ما جئت هنا الساعة لأرثي قيصر بل لأدفن جثته .
أيها القوم : ما من أحد من الناس الا وله في حياته اعمال حسنة وأخرى سيئة .
أما حسناته فتموت بموته ، وأما سيئاته فتبقى من بعده الى يوم يبعثون .
كذلك كان قيصر في حياته ومماته . وكذلك كانت سيئاته .
أيها القوم : ما كنت لاستطيع ان أقف موقفي هذا بينكم ولا اب

أقول كلمة مما أريد ان أقول لولا ان بروتس قاتل قيصر امرني بالوقوف
وامرني بالكلام ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أطعته ، وأذعنت له لانه
رجل شريف .

أيها القوم : يقول الشريف بروتس ان قيصر كان رجلاً طماعاً ،
وأنا لا أستطيع ان أخالفه فيما يقول ، لانه رجل صادق لا يكذب .
أنا لا أستطيع ان أقول ان قيصر كان رجلاً قانعاً معتدلاً ، لان
الشريف بروتس يقول غير هذا .

كل ما أستطيع ان أقوله ان الفدية التي افتدى بها اعداؤنا أسرام
الذين جاء بهم الى روما قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها .

كل ما أستطيع ان أقوله اني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء
ويحزن لحزنهم ، ويبيت الليالي ذوات العدد ساهراً لا يغمض له جفن
حداً بهم ، وعطفاً عليهم .

كل ما أستطيع ان أقوله اني عرضت بنفسي تاج الملك على قيصر في
« لوبركال » عدة مرات فأباه زهداً فيه ، وتعففاً عنه .

كنت أستطيع ان أقول ان الطمع لا يسكن قلباً مثل هذا القلب ولا
يخالط فؤاداً مثل هذا الفؤاد ، لولا ان بروتس يقول ان قيصر رجل
وأنا لا أستطيع مخالفته ، لانه رجل شريف

أيها الرومانيون : انكم أحببتم قيصر قبل اليوم حباً جماً ، فما الذي
يمنعكم اليوم من البكاء عليه .

ان لم تبكوه لصفاته الكريمة ، فابكوه لانكم كنتم تحبونه ، ابكوه

لانه كان بالامس ينطق بالكلمة فتدوي في صدور العظماء دوي الرعد في آفاق السماء ، فاصبح اليوم مطر حاً مهيناً في ظل هذا الحائط ، ولا يجد بين الناس من يابه له ، ولا من يعطف عليه .

أيها العقل الإنساني : كيف حالت حالك ، وتغيرت آيك ؟ وكيف انتقلت من الصدور الإنسية ، الى الصدور الوحشية ، وكيف ضللت سبيلك ، وعميت عليك مذاهبك ، فحسبت الخير شراً ، والشر خيراً واختلط عليك الامر ، فلم تستطع ان تميز بين الحسنات والسيئات والمكرم والجرائم .

أيها الرومانيون : عفواً ان هذيت بينكم ، او اسأت اليكم ، واعلموا ان الحزن قد قسم فؤادي قسمين : قسم على هذا المنبر ، وقسم في ذلك النعش .

أيها الاصدقاء : ان بين جنبي قلباً يخفق بجنبكم والعطف عليكم والرافة بكم ولولا مخافة ان تنفجر صدوركم حزناً وجزعاً لقلت لكم : ان قيصر قتل مظلوماً .

انني اعتقد ان بروتس ورفاقه قوم شرفاء عظماء ، لذلك احب ان أسىء الى نفسي والى قيصر واليكم قبل ان اقول انهم أخطأوا في قتل قيصر .
« وهنا صمت أنطونيوس وارسل من جفنيه بضع قطرات من الدموع » .

الانقلاب

أحد الناس (يقول لصاحبه) - يلوح لي ان فيما يقول الرجل شيئاً معقولاً .

آخر - انك ان أنعمت النظر وجدت ان قيصر قد أسىء اليه .

آخر - لقد أثر في نفسي زهده في تاج الملك .

آخر - لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي رحمة بالفقراء .

آخر - ان الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون طماعاً ولا ظالماً .

آخر - اذا فسيكون لمقتل قيصر شأن غير الشأن الاول .

آخر - لا بد من عقاب القاتل .

آخر - (يقول لجليسه) أنظر الى أنطونيوس فهو يبكي وينتحب .

آخر - ليس في رومة رجل أشرف من أنطونيوس .

أنطونيوس - أتأذنون لي ان افارق موقفي هذا لحظة ، لاقف قليلاً

بجانب جثة القتيل ؟

الشعب - نعم ... نعم .

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل الى جثة قيصر ، وهو لا يزال

في ملابسه التي قتل فيها ، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائه)

ثم قال :

أنطونيوس - من كان يملك منكم دموعاً فليعدها لهذا الموقف

العظيم ، فانه موقف يحتاج الى كل ما في عيونكم من دموع .

انكم تعرفون جميعا هذا القباء ، ولكنكم لا تعرفون من تاريخه شيئا ، انا اعلم ان قيصر لبسه اول ما لبسه في مساء اليوم الذي انتصر فيه على « الدقي » ذلك الانتصار العظيم الذي نالت به روما فخر الابد .

(ثم وضع يده على احد الثقوب التي في القباء وقال) : في هذا القباء الشريف مزقت جثة هذا الفاتح العظيم .

ومن هذا الثقب مرّ خنجر بروتس الى صدر قيصر . ومن هذا الثقب أطل دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب ، واحسب ان جميع افراد النوع الإنساني قدموا بخاطر قيصر واحداً واحداً قبل ان يمر بخاطره صديقه : « بروتس » .

عرف قيصر ان قاتله هو صديقه ، وصنيعة إحسانه ، ففترت همته ، وعجز عن المقاومة ، لأن الطعنة التي اصابته في جسمه ، لم تكن بأقل من الطعنة التي اصابته في قلبه ، ولم يكن منظر المدي والخناجر ، ابشع في نظره من منظر الخيانة والغدر ، هنالك عجز قيصر عن ان يقول شيئا غير الكلمة التي ودع بها قاتله الوداع الاخير :

« وانت ايضا يا بروتس ؟ »

وهنالك تحت تمثال « بومباي » وجد قيصر قتيلا وقد لف وجهه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل .

ها انتم تبكون على قيصر ، فشكراً لكم على هذه الدموع العكرية التي طهرتم بها ما لوّثت به يد الظلم تربة هذه الارض من السماء .

انكم تبخون لمنظر قباء قيصر الممزق ، فكيف بكم لو شاهدتم ما
نزق من جثته ؟ .

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه ، وقال) :

ان في كل جرح من هذه الجروح لسانا يشكو اليكم ، فاستمعوا له
فهو أنطق من لسان الرثاء .

أحد الناس - يا له من منظر فظيع !

آخر - وارحمناه لقيصر !

آخر - ان يوما يقتل فيه قيصر ليوم شره مستطير !

آخر - يا للدنائة والسفالة !!

آخر - يا للغدر والخيانة !!

آخر - الانتقام .. الانتقام .

الشعب (وهو يضح ضجيجا عظيما) - حرقوا القتلة ، مزقوهم ،

لا تبقوا على أحد منهم .

أنطونيوس - مهلا . مهلا . أنا لا أريد ان اشعل بينكم فتنة عمياء

ولا أريد ان تطالبوا القتلة بالدماء التي أراقوها ، فأنني لا ازال اعتقد أنهم

قوم شرفاء وربما كانوا يعرفون أسبابا لقتله لا نعرفها ، وإنما أريد ان

اقول لكم : ان قيصر كان يحبكم حبا جما فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم

عليه .

لولا اني أؤثر البقاء عليكم ، ولولا اني احب تخفيف ما ألم بقلوبكم

من الحزن على فقيدكم ، لتلوت عليكم وصيته ، لتعلموا ان الرجل كانت
يجبكم وأنه ما كان خليقا ان يقتل بينكم ، وفيكم عين تطرف وعرق
ينبض .

الشعب - اقرأ الوصية .

أنطونيوس - إنني اخاف على صدوركم ان تنشق حزنا على القتل
الشهيد .

الشعب - نريد سماع الوصية .

انطونيوس - إنه يعطي كل فرد من افراد الشعب الروماني خمسة
وسبعين فرنكا ، ويوصي بجميع غاباته ومنتزهاته للأمة .

احد الناس - يا له من رجل كريم ا

آخر - يا له من رجل شريف !!

آخر - ويل للقتلة ا

آخر - الثورة .. الثورة .

آخر - سنحرق منزل بروتس .

ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة في
القاموس المحيط .

انطونيوس (في موقفه وحده) - ايتها الفتنة العمياء قد ايقظتك
من مرقدك فارفعي رأسك وامضي في سبيلك ، واشتعلني حتى يحرق

لسانك اديم السماء ووجه الغبراء .

وهكذا استطاع انطونيوس في موقف واحد ان يستعبد الشعب
الروماني لنفسه قبل ان يفيق من استعباد قيصر له وكذلك الأمم
الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من احدى العبوديتين : اما العبودية لحملة
التيجان ، او لحملة البيان .

*

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل :

لي في البلدة التي أسكنها كرامة الحاكم، لأنني أشغل وظيفة عالية فيها، وقد بدا لي أن أختلف إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاختلفت حتى فاجاني يوماً من الأيام ما لم يكن في الحسبان .

حدث أن صلوكا يعرفني، ويعرف مقامي، تمادى في وقاحته وسوء أدبه، حتى وقف يجانبي في الصلاة، فاشمأزت نفسي من هذا الأمر اشمئزاً عظيماً، وحاولت أحتمله فلم أستطع، فخفت إن أنا طردته أن يؤاخذني الناس به، فهل تعرف مسوغاً شرعياً يفرق بين درجات الناس في مواقف الصلوات؟

«سائل»

يا مولانا الحاكم :

رحمك بهذا الصلوك المسكين الواقف بجانبك، لا تضن عليه بمذقة من ظلك الظليل أن تمتد إليه فتقيه أشعة التصعلك الحارة التي يتلظى

فيها ، ولا تحرمه نفحة من نفحاتك العطرة التي تهب من بين أردائك عله
يخديفها روح الحياة ، ويتنسم منها نسيم السعادة والهناء ، فيبدأ ساعتها
الزمان عن الشعور بمصائبه ورزاياه ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، إن
الله يحب المحسنين .

ليفرخ روعك وليتلج صدرك ، واعلم ان هذا المسكين الواقف
بجانبك لا يستطيع مها نال منه العدم ، وبرح به الشقاء ، أن يقتطع
قطعة من سعادتك او يقتلذ فلذة من شرفك ، فشرfk كالمصباح تستمد
منه المصايح ، ونوره نوره ، وبهاؤه بهاؤه .

لا تظلم الرجل ولا تقل إنه وقح الوجه ، أو سيء الادب ، فإني - بما
أعلم من أخلاق هؤلاء البائسين وطباعهم وآمالهم التي تعتلج بها صدورهم
وتهتف بها احلامهم - أعتقد انه ما وقف بجانبك إلا طمعاً في دورة
الفلك التي علت بك ، وأنزلتك منازل العظماء ، أن تدور به كذلك
فتنزل منزلتك ، وتعلو به الى مقامك ، فاغفر له جهله وقصوره ، فمثلك
من يقبل العثرة ويستر الزلة .

إنك تريد مني أن أتمس لك من ابواب الشريعة الإسلامية باباً
يسوغ لك طرد هذا الصعلوك المجترى عليك من موقفه الذي اختاره
لنفسه بجانبك فاسمع ما ألقى عليك .

إن الذي وقفت بين يديه في مصلاك اعظم شأنًا وأجل خطراً ، من
أن يحفل بثوبك اللامع ، وجبينك الساطع ، وردائك المطرز ، وقيصك
المهبر ، وأن يعرف لك من الفضل والشرف أكثر مما تعرف لصاحبك فما

كان له أن يأمرك بالتقدم عليه في موقف الصلاة ، ولا أن يأمره ان يقف
منك موقف العبد من السيد ، والمحكوم من الحاكم .

إن للجمعة والجماعة فضائل كثيرة ، وحكما جمّة ، أرادها الشارع
منها ، وانك لن تجد بين هذه الحكم ، وتلك الفضائل ، حكمة أعلى ،
ولا فضيلة انفس من خلق التواضع الذي يشعر به العظيم عندما يرى انه
قد وقف من الفقير في ذلك الموقف المقدس موقف الاخ من اخيه والكفىء
من كفيئه .

ان كنت تريد يا مولانا الحاكم من اختلافك الى المسجد ألا تترك
للفقير موقفاً من المواقف يملك فيه الخيار لنفسه ، حتى موقفه بين يدي
ربه ، فخير لك ان تستصحب معك عند ذهابك شرطتك واعوانك
لتأمرهم فيه بما يرضيك من طرده واقصائه والتنكيل به جزاء له على
وقاحته وسوء ادبه ، فإن تم لك من ذلك ما أردت ، فاحذر ان تنطق
بعد ذلك بكلمة العبودية ، بعد ما نطقت بكلمة الالوهية ، حتى لا تجمع
على نفسك بين رذيلتي الظلم والرياء .

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم ان الله لا يقبلها منك ولا يجزل
لك ثوابها ، حتى تقف بين يديه موقف من خالطت الخشية قلبه ،
وملكت عليه السكينة سمعه وبصره ، فلم يعد يبصر شيئاً مما حوله ، ولا
يعلم أواقف هو في صفوف الملوك ، او في زمرة الصعاليك ؟
ايها العظماء :

ليست العظمة التي تعرفونها لانفسكم الا منحة من الفقراء اليكم فلولا

تواضعهم بين ايديكم ما علوتم . ولولا تصاغرهم في حضرتكم ما استكبرتم
فلا تجزوم بالإحسان سوءاً ، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر ، تستدفعوا
النقم ، وتستديموا النعم .

ايها العظماء :

ما هذه القصور التي تسكنونها ، ولا هذه الدور التي تغمروتها ، وهذه
الاردية التي تجرون اذيالها، الا الواناً واصباغاً لا علاقة بينها وبين حقائق
نفوسكم ، ولا صلة لها بجواهر افئدتكم وقلوبكم ، وما هو الا ان تطلع
عليها شمس الحقيقة حتى تذهب بها ذهابها بالوان السحاب واصباغ
التياب ، فإذا اتم عراة مجردون ، لا تشفع لكم الا فضائلكم ، ولا تنفعكم
الا مواهبكم ومزاياكم .

ايها العظماء :

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم ، فان كنتم من
ارباب الفضائل فحري بالفاضل ان لا يشوه وجه فضيلته برذيلة
الكبرياء ، اولاً ، فما تحمل الارض على ظهرها اسمج وجهاً ، ولا اصلب
خدأ من جهلة المتكبرين ، فانظروا اين تنزلون ، وفي أي مقام تقيمون ؟

الانتحار

قرأت في بعض الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد ، أو شدة مرض ، أو بؤس حال ، بل لأنه حزن على وفاة صديق له فقتل نفسه .

إن الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتصر ، فكيف هان عليه ، وهو في آخر يوم من أيام حياته ، أن يضم إلى خسارة دنياه ، خسارة آخرته ، وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء ؟

إن الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة ، رمتنا بها المدينة الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها .

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في شرفهم وكرامتهم ، وكنا إذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك ، قلنا يوشك أن يقتل الشرقي نفسه بنفسه إذا علم أن

تلك عادة من العادات الغريبة ، فقد صار قريباً ما كان بعيداً ، وأصبح مالوفاً ما كنا نعدّه فرضاً من الفروض .

الانتحار منتهى ما تصل اليه النفس من الجبن والخور ، وما يصل اليه العقل من الاضطراب والخبيل ، وأحسب ان الانسان لا يقدم على الانتحار ، وفي رأسه ذرة من العقل والشعور .

حب النفس غريزة ركبها الله تعالى في نفس الإنسان لتكون ينبوع حياته وعماد وجوده ، والمتحدر ييغض نفسه أشد مما ييغض العدو عدوه ، فهو شاذ في طبيعته ، غريب في خلقه ، معاند لإرادة الله تعالى في بقاء الكون وعمرانه ، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلب ولا عقل .

لا عذر للمتحدر في انتحاره مهما امتلأ قلبه بالهم ونفسه بالآسى ، ومهما ألت به كوارث الدهر ، وأزمت به أزمات العيش ، فإن ما قدم عليه أشد مما فر منه ، وما خسره اضعاف ما كسبه .

ولو كان ذا عقل لعلم ان سكرات الموت تجمع في لحظة جميع ما تفرق من آلام الحياة وشدائدها في الأعوام الطوال ، وان قضاء ساعة واحدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه ، وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة .

ما أكثر هموم الدنيا ، وما أطول احزانها ، لا يفيق المرء فيها من هم إلا الى هم ، ولا يرتاح من فاجعه الا الى مثلها ، ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض ، وفقر وغنى ، وعز وذل ، وسعادة وشقاء ،

فاذا صح لكل مهموم ان يمقت حياته ، ولكل محزون ان يقتل نفسه ،
خلت الدنيا من اهلها ، واستحال المقام فيها ، بل استحال الوفود اليها ،
وتبدلت سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ما سمي القاتل مجرماً الا لانه قاسي القلب متحجر الفؤاد ، وأقسى
منه قاتل نفسه ، لانه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين
القاتل والمقتول ، فهو اكبر المجرمين ، واقسى القاتلين .

يخدع المنتحر نفسه ان ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة ،
وأنه انما يفعل فعلته عن روية وبصيرة ، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المازق
الاول من مازق الموت حتى يثوب الى رشده وهداه ويحاول التخلص مما
وقع فيه لو وجد الى ذلك سبيلا .

ان ألقي نفسه في الماء تخبط وبسط يده الى من يرجو الخلاص على
يده وود لو يفتدي نفسه بكل ما تملك يمينه ، وان حبس نفسه في غرفته
ليموت مختنقاً بالغاز ولو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمة من
نسمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل ، فاسد السمع
والبصر .

ان فكرة الانتحار نزغة من نزغات الشيطان ، وخطرة من خطرات
النفس الشريرة ، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليترث ريثا يتبين كيف
يكون صبره على احتمال سكرات الموت ، وآلام النزاع ، وماذا يكون

حديث الناس عنه بعد موته ، وهل يمكن ان يوجد بينهم عاذر له او مشفق عليه ، او مقتصد في النيل منه والسخرية به ؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك اشكال العذاب وانواع العقاب التي أعدها الله في الدار الآخرة لامثاله .

اني لا اظنه بعد ذلك فاعلا الا اذا كان وحشاً في ثوب انسان ، او بطلا من ابطال المارستان .

★

الحياة الشعرية

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس احياناً لسمع في نظرهم وجه الحياة الحسية ومر مذاقها في أفواههم ، حتى ما يغتبط حي بنعمة العيش، ولا يكره ميت طلعة الموت .

لذلك ترى كل حي يهرب من الحياة الحسية جد الهرب ، لاجئاً الى الحياة الشعرية من اي باب من أبوابها ، لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح فؤاده ، ويثلج صدره ، وينفي عن نفسه السامة والضجر من صنوف المناظر وأفانين المشاهد، وغرائب المؤتلفات ، وعجائب المختلفات .

لولا حب الحياة الشعرية ما وجد في الناس كثير من المولعين بتدبير اعصابهم كشاربي الخمر ومدخني الحشيش وآكلي الأفيون . وهي وإن كانت في نظرهم حياة سعادة يتخللها شقاء ، إلا انها خير عندهم من حياة شقاء لا تتخللها سعادة ، ولولا حب الحياة الشعرية ما وجد في

الناس هذا الجم الغفير من الشعراء المتخيلين والعابدين المتبتلين .

لا يجد السكير لذة العيش وهناءته الا اذا أسلم نفسه الى كأس الشراب فنقلته من هذا العالم البسيط المحدود الى عالم واسع النطاق ، شاسع الاطراف يرى فيه كل ما تشتهي نفسه أن تراه ، فإن كان قبيح الوجه مشوه الخلقه تخيل انه شرك الابصار ، وفتنة النظار ، وأن القلوب محلقة على جماله تخليق الاطيار على الاشجار ، وإن كانت فقيراً معدماً لا يملك فلساً واحداً توهم أنه جالس على عرش الملك والصولجان في يمينه ، والتاج فوق رأسه واعتقد ان عبيد الله تعالى جميعاً عبيده ، وجنود المملكة بأسرهم جنوده ، حتى ذلك الجندي الذي يسحبه على وجهه الى غرفة السجن ليقتضي فيها ليلته ، وجملة القول ان عينه لا تقع على ما يحزنه من المنظورات ، وان اذنه لا تسمع ما ينفره من السموعات ، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه العجوز الشمطاء ، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء .

ولا يشعر المتعبد بنعيم الحياة الا اذا جن الليل ، وأوى الى معبده ، وخلا بنفسه ، فتخيل ان له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في جو السماء فيرى الجنة والنار ، والعرش والكروسي ، ويسمع صرير القلم في اللوح ، ويقرأ في أم الكتاب حديث ما كان وما يكون :

ولا يستفيق الشاعر من هموم الحياة وأكدارها ومصائبها وأحزانها ، الا اذا جلس الى منضدته ، وأمسك ييراعه ، فطار به خياله بين الازهار

والانوار ، وتنقل به بين مسارح الافلاك ومسابع الاسماك . ووقف تارة على الطلول الدوارس ، يبكي اهلها النازحين وقطانها المفارقين . وأخرى على القبور الدوائر ، يندب جسومها الباليات ، وأعظمها النخرات .

ليس الأمل إلا باباً من أبواب الحياة الشعرية ، ولا يوجد بين قلوب البشر قلب لا يخفق بالأمال العظام والأمانى الحسان ؛ فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التي يعيش في ظلها الناس جميعاً اذكياء واغبياء ، فهباء وبلداء ، والامل هو السد المنيع الذي يقف في وجه اليأس ، ويعترض سبيله ان يتسرب الى القلوب ، ولو تسرب اليها لضاقت بالناس هذه الحياة وثقل عبؤها على عواتقهم ، فطلبوا الخلاص منها ولو الى الموت ، طلباً للتغيير والانتقال ، وشغفاً بالتحوّل من حال الى حال .

يقولون : أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء ، ويقولون : ما لذة العيش الا للمجانين .

أتدري لماذا ؟ لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين ، وذلك ان عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية والمغالطات الشعرية ، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق المموسة ولا يسمح له علمه بأحوال الدنيا وشؤونها ، ومعرفة أن المصائب والآلام لازم من لوازمها التي لا تفارقها ، يؤمن منها في طبيعتها من دوام السرور واستمرار الهناء ، فلا يطالب

سعة العيش من وراء الأمل كبقية المؤمنين ، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين .

والحق أقول ، لولا الحياة الشعرية التي أحيانا أحيانا في هذه الكلمات التي أكتبها ، لاحتبت ، زاهداً في هذه الحياة الحسية ، ان تطلع الشمس من مغربها إيداناً بانقضاء العالم وفنائه ، ولتمنيت حباً في الانتقال من حال الى حال أن أنتقل ولو الى رحمة الله .

*

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات عمر الخيام^(١) يوماً من الايام كما يقف مسافر ضل
به سبيله في فلوات الارض ومجاهلها بواد معشب أريض في وسط فلاة
جرداء عند منقطع العمران ، فما خطوت فيه بعض خطوات حتى رأيت
ما شاء الله ان أرى من أنوار بيضاء ، وورود حمراء ، وألوان من النبات ،
مشتبهات وغير مشتبهات ، وغدران مطردة متسلسلة تنبسط في تلك
الديباجة الخضراء تبسط النجوم البيضاء في الديباجة الزرقاء وأسراب
من الحمام والمصافير والبلابل والشحارير ، تتطاير من فرع الى فرع ، وتنتقل
من غصن الى غصن ، وتجتمع لتفترق ، وتفترق لتجتمع ، وتقاتل مرة ،
وتتلام أخرى ، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء ، ثم تهبط
حتى تصافح صفحة الماء ، ولا تزال تفرّد في صعودها وهبوطها تفريداً
مختلف النغمات ، متنوع النبرات ، فيتألف من ذلك الاختلاف والتنوع

(١) عمر الخيام : شاعر فارسي كان في القرن السادس من الهجرة ، ورباعياته هذه مترجمة
الى اكثر لغات العالم .

نعم لنيدلا أعرف له شبيهاً الا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نعم
الخور الحسان ، في فرايس الجنان .

فلم أزل أتقلب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء ، وأجر ذبول تلك
الجداول البيضاء ، وأقلب طرفي فلا أرى راحاً ولا غادياً . أتسمع فلا
أسمع هاتفاً ولا داعياً ، حتى وقف بي الحظ على دوحة فرعاء ، مائلة على
رأس بعض الجداول ، وقد اضطجع في ظلها على قطيفة من ذلك العشب
الناعم رجل هائيء باسم ، يقرأ تارة سورة الجمال في وجه فتاة جالسة بين
يديه ، ويقبل أخرى ثغر الكاس التي تتلألأ في يمينه ، ويترنم بين هذا
وذاك بمقطوعات شعرية بديعة، يمثل فيها جمال الطبيعة وهدوءها وسعادة
الوحدة وهنائتها ، ويطير بأجنحة خياله في عالم بديع من عوالم الغيب ،
تاركاً هذا العالم الحافل بالمهموم والآلام ، طارداً عن نفسه كل خاطر من
خواطر الشرور والآثام ، ليستكمل لذته في الحياة التي يحياها بين ظله
ومائه وكاسه وفتاته .

فان مر بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عز
وسلطان ، ولنة واستمتاع ، قال : مالي وللملك والسلطان ، والحاشية
والجنند ، والقصور الشام ، والجنان الفيحاء ، هنالك الحنة والشقاء ،
والفتنة الشعواء ، والمهموم والأرزاء ، والنماء والأشلاء ، والعويل
والبكاء ، وهنا الراحة والسكون في ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لا
سيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، وبين هذين الثغرين : ثغر الفتاة ،
وثغر الكاس ، ودينك الصديقين : هذا الكتاب المفتوح ، وذلك الغصن

المطل ، كل ما يتمنى السعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناءة .

وان ذكر الآخرة وما أعد الله فيها من العذاب للمسرفين على انفسهم
قال : ان من العجز ان ابيع عاجل السعادة المعلوم بأجلها المجهول ، انا
اليوم موجود ، فلا بد ان أستمتع بمتعة الوجود ، أما الغد فلا علم لي به .
ولا بما قدر لي فيه ، وعسير عليّ ان أتصور أننا معشر الاحياء الناطقين
قطع من المعدن الصامت تدفن اليوم في باطن الارض لينبش عنا النابشون
غداً .

ثم يعود الى نفسه مستغفراً الله من ذنبه في شكه وارتيابه فيقول :
اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بك مذ آمنت ، ولا أضمرت لك في قلبي غير
ما يضر المؤمنون الموحدون ، فاغفر لي آثامي وذنوبي ، فاني ما أذنبت
عناداً لك ، ولا تمرّ دأ عليك ، ولكنها الكأس غلبتني على أمري ، وحالت
بيني وبين عقلي وانت اجل من ان تقاضيني مقاضاة الدائن غريمه ، لأنك
كريم . والكريم يمنح العطية منحاً ، ولا يقرضها قرضاً ، ويسبغ نعمته
الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين .

واحياناً يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي أحيائهم وأمواتهم ،
ويقول مخاطباً فتاته : رويداً أيتها الفتاة في خطاك على هذه الاعشاب
النايبة ، فلعل جذورها بمتدة الى كبد فتاة مثلك كان لها قلب مثل قلبك ،
ووجدات مثل وجدانك ، وجهال ورواء مثل جمالك وروائك ، ثم

ضرب الدهر ضرباته فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء ، وإذا هي في دجنة تلك الاعماق السوداء ، فارقتي بها ، واسكبي هذه الفضلة من كأسك على تربتها عليها تتسرب اليها فتطفئ ذلك اللاعج الذي يعتلج بين جوانحها .

ثم يتخيل أحيانا كأنه واقف بين يدي رجل خزاف يحرق حماته في تنوره فيقول له : رحمة أيها الخزاف بهذه النار ، فقد كانت بالأمس لإنسانا مثلك ، وستكون أنت في مستقبل الأيام حاة مثلها ؛ وربما ساقك القدر الى يد خزاف تحتاج الى رحمة ورققه ، فارفق بها اليوم يرفق بك خزافك غدا .

وأونة يلبس ثوب الواعظ المنذر فينعي على السعداء سعادتهم ، ويذكرهم بما آلت اليه حال الملوك السالفين ، والأقيال الماضين ، من خرائب دورهم وعمران قبورهم ، وغروب شمسهم ، وعفاء آثارهم .

ثم ينتقل من ذلك الى البكاء على نفسه ، وترقب ذلك اليوم الذي تصوح فيه زهرته ، وتنطفئ جذوته ، وتضعف منته ، ويحو نهار مشيبه ليل شبابه ، فيزحف الى قبره خطوة خطوة حتى يتردى فيه ، فيعود كما كان سرا مكتوما في ضمائر الأقدار ، وذرة هائمة في مجاهل الأكوان .

وهكذا ما زال يتنقل من عبرة بليغة ، الى عظة بديعة ، ومن خيال جميل الى تشبيه رقيق ، ومن وصف ناطق ، الى تمثيل صادق ، حتى أصبحت أعتقد أن هذه النفس التي تشتمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل

مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون بارضه وسماؤه ، وليله ونهاره ،
وناطقه وصامته ، وصادحه وباغه ، وأن فخار الأعراب بمتنبيها
ومعريها ، والفرنسية بلامرتبتها وفكتورها ، والسكسون بشكسبيرها
وملتونها ، والاطليان بدانتها ، والالمان بجيتها ، والرومان بفرجيلها ،
واليونان بهوميها ، ومصر القديمة بينتاؤورها ، ومصر الحديثة بأحدها ،
لا يقل عن فخار فارس بخيامها .

*

الى تولستوي^(١)

قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك ، وتتخذ
السبيل الى دار عزلتك ، فقد عشنا في كنفك على ما بيننا وبينك من بعد
الدار ، وشط المزار ، عهداً طويلاً كنا فيه أصدقاءك ، وإن لم نرك ،
وأبناءك ، وإن كان لنا آباء من دونك ؛ وعزير علينا أن تفارقنا قبل أن
تقضي حق عشرتك بدمعة نذرفها بين يديك في موقف الوداع .

حدثنا الناس عنك أنك ضقت بهذا المجتمع الإنساني ذرعاً بعد أن
أعجزك اصلاحه وتقويمه فأبغضته ، وعفت النظر اليه ، وأبغضت
لبغضه كل شيء حتى زوجك وولدك ، ففررت بنفسك منه الى غاب
تسمع زئير سباعه ، أو دير تانس برنة ناقوسه ، وأسجلت أن لا تعود
اليه ، وأن تقطع كل صلة بينك وبينه الى الأبد فعذرناك ، ولم نعتب

(١) كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الأخبار أن (تولستوي) الفيلسوف الروسي المشهور
ترك منزله ماناً على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة ، أو في إحدى الغابات .

عليك، ولم نسمك جباناً ولا رعيدياً، ولا مولياً ولا مدبراً، لأنك قاتلت فأبليت، حتى لم يبق في غمدك سيف، ولا فوق عاتقك رمح، ولا في كنانتك سهم، والعدو كثير عدده، صعب مراسه، وافرة قوته، والشجاعة في غير موضعها جنون، والوقوف أكثر من ثمانين عاماً أمام عدو لا أمل في براحه، ولا مطمع في زياله: عناد، وهل يكون مصيرك إن أنت ثبت في موقفك حتى سقطت قتيلًا في المعركة إلا مصير أولئك الفلاسفة العظماء من قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا فهدرت دماؤهم، واغتمضت عيونهم قبل أن يروا منظرًا من مناظر الصلاح والاستقامة في المجتمع البشري يعزون به أنفسهم عن أنفسهم، ويروحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزاع، وفي أفواههم من مرارة الموت.

ماذا لقيت من الدنيا؟ وما الذي أفدت منها؟ وأين وقع علمك وفضلك؟ ولسانك وقلمك؟ وقوة عارضتك، ومضاء حجتك، من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم وأفئدتهم، وظلم ألسنتهم وأيديهم؟

قلت لقيصر: أيها الملك، انك صنيعتة الشعب واجيره، لا إلهه ومعبوده، وانك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الأكار في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلاهما ماجور على عمل يعمل، وكلاهما ماخوذ باتقان ما يعمل، فكما ان صاحب المصنع يسأل العامل هل وفي عمله ليو في له اجره، كذلك يسألك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وكل اليك حراسته فانقذته كما هو من غير تبديل ولا تأويل؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويمهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبيهم وبعيديم؟ هل استطعت

ان تستخلص عقلك من يدي هواك ؟ فلم تدع للحب ولا للبغض سلطانا
على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومحجته ؟ وهل اصمت اذنك عن
سماع كلمات الملق والمداهنة والمدح والثناء ؟ فلم تفسد على الناس فضائلهم ،
ولم تقتل عزة نفوسهم ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك ، او الطمع في
ضعفك ، مذهب الزلفى اليك بالكذب والنميمة والتجسس ، والتسقط ،
وذلة الاعناق وصرع الحدود ؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه ، وراك
امينا على العهد الذي عهد اليك به ، ابقى عليك وابقى لك عرشك
وتاجك ، وحفظ لك يدك التي اصطنعتها عنده ، واحسن اليك كما
احسنت اليه ، او لا ، كان له معك شأن غير هذا الشأن ، ورأي غير ذلك
الرأي .

فما سمع منك هذه الكلمات حتى اكبرها واعظمها ، لانه لم يجد بين
الكثيرين الذين يعاشره من يسمعه مثلها فحقد عليك وأضمر لك من
الشر ما يضر أمثاله لامثالك ، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين
أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل لبعدهم لمقاتلة الحق
ومصارعته في مواقف خوفه وقلقه .

وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك - وأنت
نائم في سريرك ، بين روضك ونسيمك وظلك ومائك - هذه الارض
التي تضم بين أقطارها مليون فدان ، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين -
الذين يفلحونها ويحراثونها ، ويبدرون بذورها ويستنبتون نباتها ،
ويسوقون ماشيتها ، ويتقلبون بين حرها وبردها وأجيجها وثلجها -

شراً واحداً فيها ، فأعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم ،
وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك ، وموتهم في
سبيل حياتك ، واعلم أن الارض لله يورثها من يشاء .

ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من
نفسك ، فعمدت الى أرضك فجعلتها قسمة بينك وبين القائمين عليها من
الزارعين ، ثم عمدت الى فأسك فحملتها ، وماشيتك فأخذت بزمامها ،
ولم تزل سائراً حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقيتها لنفسك
فضربت مع الضارين ، وخضت ما الخائضين ! لتعلم ذلك الجبار بفعلك
ما لم تستطع أن تعلمه إياه بقولك ، فسخر منك ، ورثى لعقلك ، وألف
من أحاديثك رواية غريبة يروح بها عن نفسه - في مجتمعات أنسه ولهو -
ما يساوره من السامة والضجر .

وقلت للكاهن : إن المسيح عاش معذباً مضطهداً لانه لم يرض ان يقر
الظالمين على ظلمهم ، وأنه أبى أن يخفي المصباح الذي في يده تحت ثوبه ،
بل رفعه فوق رأسه غير مبال بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف
سوأتهم ، ويهتك استارهم ، وانت تزعم انك خليفته ، وحامل امانته ،
والقائم بنشر آياته ، المترسم مواقع اقدمه في خطواته ، فاهذه الجلسة
الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين ؟ وما هذه اليد التي تبسطها
اليهم بالمودة والأخاء كأننا تريد ان تعقد بينك وبينهم عهداً ان يظلموا ما
شاءوا ويسلبوا ما أرادوا باسمك واسم الكتاب الذي تحمله في يدك ، وما
هذه السلطة التي تزعمها لنفسك ان تدخل الجنة من تشاء ، وتخرج منها من

تشاء؟ وما هذه القصور التي تسكنها ، والديباج الذي تلبسه ، والعيش
البارد الذي تنعم به ؟ وانت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانتقطاع
عن الدنيا وزخرفها الى عبادة الله والانكماش في طاعته .

ذلك ما قلت للكاهن، فكان جوابه ان ارسل اليك كتاب الحرمان ،
وهو يعلم انك لا تعترف له بالقدره على اعطاء ولا منع ، ولكنه اراد تشويه
سمعتك والغض من كرامتك، واغراء العامة بك، فكان ذلك كل ما أفدت
من نصيحتك وعظمتك .

وأبكك منظر المنفيين في سيريا ، وما يلاقون من صنوف العذاب
ويعالجون من انواع الآلام ، فصرخت صرخة دوى بها الملاان : الاعلى
والادنى ، وقلت : ايها الناس ان الشر لا يدفع الشر ، وان الاشقياء مرضى
فعالجهم ولا تنتقموا منهم ، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم ، والانتقام
يلهب نارها ، واجعلوا المدارس مكان السجون ، والمعلمين مكان السجنائين .
فلم يسمع صرختك سامع ، ولا بكاء بكائك باك ، وما زال القضاة يحكمون
والجنود يصادرون ، والسجانون يعذبون ، والمسجونون يصرخون .

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب ، وبكاء النساء
المعولات خلف ازواجهن واولادهن واخوتهن ، وهم سائرون الى حرب
لا يعرفون لها مصدراً ولا مورداً ، وقد حمل بعضهم لبعض ضغائز
وسخائم لا سبب لها الا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة فخييل
اليهم انهم اعداء وهم اصدقاء ، فخلعوا ثوب الانسان ولبسوا فروة السبع ،

وأنشب كل منهم ظفره في صدر أخيه كأنه يفتش عن قلبه لينتزعه من مكانه ، ذلك القلب الذي لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكاناً علياً
لو لا جور السياسة وظلالها .

فما اغنى عنك بكاؤك وحنينك ، ولا اجدى عليك عويلك وانينك ،
فال حرب لم تزل باقية ، ومصانع الموت لم تكثف بما أعدت من المهلكات
لمعارك الأرض حتى اصبحت تعد مثلها لمعارك السماء .

فهنئاً لك ايها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلك العزلة ألهادئة
المطمئنة ، لقد نجوت بها من حياة لا سبيل للعاقل فيها الا ان يسكت
فيهلك غيظاً ، او ينطق فيموت كدأ .

ربما استطاع الحكيم ان يحيل الجهل علماً ، والظلمة نوراً ، والسواد
بيضاً والبحر برأ ، والبر بجرأ ، وان يتخذ نفقاً في الارض او سماً في
السماء . ولكنه لا يستطيع ان يحيل رذيلة المجتمع الإنساني فضيلة ،
وفساده صلاحاً .

ما دام الإنسان لا ينتهي عن ظلم الإنسان حتى يخافه ، وما دام لا
يحسن اليه الا اذا اراد ان يتخذ عبداً يعبده من دون الله ، وما دام للأثرة
هذا السلطان الاكبر على افراد المجتمع ، ومن اكبر كباره الى اصغر
صغاره ، فإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغابات والاحراش بالامس ،
لا فرق بينه وبينه سوى أنه قد أوى اليوم بشروره ومفاسده الى بيت
من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه ، ولكن الزجاج شفاف لا يكتم ما
وراءه .

وارحمتاه

في ذلك الإقليم القاحل في تلك الصحراء المحرقة طائفة من فقراء المسلمين وبائسيهم ، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله ، والثقة به ، ولا من الحياة غير السنة تهتف به في صباحها ومساءها ، وبكورها وأصائلها بالدعاء الى الله تعالى أن يتولى امرها ، ويسدد خطاها ، وييسر لها السبيل الى الخلاص من عدوها القاهر الذي نزل بها في دار أمنها وسكونها نزول القضاء النافذ ، يريد أن يسلبها ما أبقت الأيام في يدها ؛ وما أبقت في يدها سوى لقيات غير سائفة ، وجرعات غير هنيئة ، وظل غير ظليل .

وارحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس ، إنهم عاجزون عن ان يعدوا لعدوم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عما قليل اشلاء مبعثرة تحت كل كوكب، وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات

(١) كتبت اثناء الحرب بين ايطاليا وطرابلس الغرب .

المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطير في آفاق السماء طيرات ذلك
الدخان في أجواز الفضاء .

وارحمته لهم ، انهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً ، ويستصرخون
فلا يسمعون مجيباً ، وقد تقطعت بهم الاسباب ، وأعوزتهم الوسائل ،
وسدت في وجوههم السبل ، فلا يبق لهم منها إلا سبيل الموت ، وفي
الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها ، لولا انهم
يتركون من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم ارامل ضعفاء ، وأيتاماً
صغاراً ، وشيوخاً كباراً ، لا يعلمون ماذا اضر لهم القدر في صبره من
نعيم او شقاء .

كأني أراهم وقد غلت في صدورهم حمية الدين والوطن ودارت في
رؤوسهم سكرة العزة العربية ، فأبوا إلا أن يزحفوا الى الموت الأحمر
زحف المستقتل المستبسل الذي يعلم ان باب الحياة السعيدة الأبدية لا
يفتح إلا بين يدي الارواح التي احتقرت اجسادها وازدرتها ، فتجردت
من اثوابها الرثة البالية وألقته من ورائها ، وكأني ارى الرجل منهم ،
وقد دخل الى بيته ليمدّ عدته ، ويودع اهله الوداع الاخير ، فبكت أمه
وناحت زوجته وصاح ولده ، فبكى لبيكائهم ، ورن لرنينهم ، لا جزعاً
من الفراق ، لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى ، ولا خشية من الموت ،
لأنه يعلم ان الحياة الذليلة احقر من ان يضن بها صاحبها ، بل مخافة ان
تستبد باعراض بيته وحرماته ، تلك الايدي الظالملة التي لا ترحم صغيراً ،
ولا تعطف على كبير ، او ان يهلكوا من بعده جوعاً وفقراً ، لأنه لم

يترك لهم قوتاً يتبلغون به ، ولا عماداً يعتمدون عليه ، فإذا علم ان موقفه بين اهله موقف جليل يكاد يغلب فيه على صبره ، نظر نظرة في السماء ارسل فيها الى ربه جميع ما تهتف به نفسه القريحة من وجد ورحمة وبكاء وحنين ، وأمل ورجاء ، ثم انقلت من بين ايديهم ، ومضى لسبيله لا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يبلغ ساحة الحرب ، فلا يزال يقرع باب الحياة الاخرى حتى يفتح له .

هنالك تنوح النائحات ، وتبكي الباقيات ، وتطير النفوس ، وتصعق القلوب ، وترن المنازل والدور بالنحيب والتعداد ، وهنالك ترى المرأة المسلمة الخبأة التي لم ترف في حياتها وجه الشمس إلا من كوة بيتها ؛ برزة أوجه ، عارية الرأس حيرى مولهة هائمة في الطرق والمذاهب ، تسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها او زوجها او اخيها ، فإما بقيت في حيرتها بياض يومها وسواد ليلها ، وإما عادت الى بيتها بالثقل القاتل ، والحزن الدائم ، وهنالك ترى الشيوخ الكبار والاطفال الصغار ، والمعاجزين والضعفاء لاثنين بالتلال والآكام ، يحاولون ان يتقوا بها صواعق الحرب وشهبها ، فلا تقيهم ، او عائدين بالمضايق والشعاب يفرون اليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم ، وهناك ترى اولئك القوم الذين يسمون انفسهم مجاهدين ، او فاتحين ، او قواداً عظاماً ، او سواساً كباراً ، يشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفرخ المحتال ، وينظرون الى اولئك المساكين الذين سرقوا حرثهم واستقلاهم، وانتهبوا ارواحهم واموالهم ، نظر السيدالى مولاه الذي ملك

ولاه بماله ، واستعبده بفضله وإحسانه ، وربما رموا اليهم في تلك الساعة ببقيات كتلك التي يلقيها سيد الكلب الى كلبه ، او الراعي الى ماشيته ، ليشهدوا العالم الإنساني أجمعه على كرمهم وسخائهم ، وعطفهم ورحمتهم ، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الاوصال ، ولا أيوا النساء ، ولا يتموا الأطفال ، ولا انتهكوا الحرمات الا خدمة للإنسانية العامة وإجلالاً لسانها .

لا أحسب أن مسلماً دخل الإيمان قلبه ففلاه رحمة وإحساناً ، وعطفاً وحناناً ، يستطيع أن يتخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعاً ، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قراراً ، حزناً على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم في مشارق الارض ومغاريها يلتمسوت ناصراً يعينهم على أمرهم ، أو منجداً يدفع عنهم عادية البلاء فلا يجدون إلا أمماً إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ، فهي تعجز عن النظر لنفسها ، فأحرى ألا تنظر لغيرها ، فلم يبق بين أيديهم من الامل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوهم ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعاً من بعدهم .

أيها المسلمون :

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب الى الله ، وأدنى الى رحمته وإحسانه ، وأجلب لغفرته ورضوانه ، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين ، تطعمون جائعهم ، وتكسون عاريهم ، وتسلحون أعزهم ،

تعالجون جريحتهم ، وتخلفون قتييلهم في أهله وولده .

انكم ان تحسنوا اليهم تحسنوا الى أنفسكم ، وان تنقذوهم من كربتهم تنقذوا جامعتكم وملتكم ، فإن بينكم وبينهم لحمة أقوى من لحمة النسب ، وشيعة أوثق من وشيعة القربى ، وانكم جميعاً تصلون الى قبلة واحدة، وتهتفون في الغداة والعشى بذكر واحد ، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وبأسائكم الى اله واحد ، وتقفون في بيت الله بين حرمة والمقام موقفاً واحداً .

أيها المسلمون :

انكم ان اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غداً، وان هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده أبداً ، وانكم ان قدمتم بين ايديكم هذا العمل الصالح احسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم ، ووفى لكم بما وعدهم من نصره ومعونته ، و «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» .

★

خطبة الحرب

يا أبطال برقة ، وليوث طرابلس ، وحماة الثغور ، وذادة المعازل
والحصون ، صبراً قليلاً في مجال الموت ، فها هي نجمة النصر تلمع في آفاق
السماء ، فاستنبروا بنورها ، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم .

ان الله وعدمكم النصر ، ووعدتموه الصبر ، فأنجزوا وعدمكم ينجز لكم
وعده .

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار ، فوالله ان فررتم لا تفرون الا عن عرض
لا يجده له حامياً ، وشرف لا يجده له ذائداً ، ودين يشكوا الى الله قوماً
أضاعوه ، وأنصاراً خذلوه .

انكم لا تحاربون رجالاً أشداء بل أشباحاً تتراءى في ظلال
الأساطيل ، وخيالات تلوذ بأكتاف الأسوار والجدران ، فاحملوا عليها
حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابها ، فلا يجدون لبناذقهم كفاً ولا
لأسيافهم ساعداً .

انهم يطلبون الحياة ، وانتم تطلبون الموت ، ويطلبون القوت ،
وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمة يلاون بها فراغ بطونهم ، وتطلبون
جنة عرضها السموات والارض ، فلا تجزعوا من لقاءهم ، فالموت لا يكون
مر المذاق في افواه المؤمنين .

إنكم تعتمدون على الله ، وتثقون بعمده ورحمته ، فتقدموا الى الموت
غير شاكين ولا مرتابين ، فما كان الله ليخذلكم ، ويكلكم الى انفسكم ،
وانتم من القوم الصادقين .

ان هذه القطرات من الدماء التي تسيل من اجسامكم ستستحيل غداً
الى شهب نارية حمراء تهوى فوق رؤوس اعدائكم فتحرقهم وان هذه
الانات المتصاعدة من صدوركم ليست إلا أنفاس الدماء صاعدة الى اله السماء ان
ياخذ لكم بحقكم ويعدىكم على عدوكم ، والله سميع الدعاء .

ان اعداءكم قتلوا اطفالكم ، وبقروا بطون نساءكم ، وأخذوا بلحى
شيوخكم الاجلاء فساقوهم الى حفائر الموت سوفاً ، فماذا تنتظرون
بانفسكم ؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم وأصدقوا حملتكم عليهم ، وجمعوا
بهم واقتلوهم حيث ثقتموهم ، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل ارض
وتحت كل سماء ، وازعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم ، ويقظتهم
ومنامهم ، فما أعذب الموت في سبيل تنقيص الظالمين !

احفروا لانفسكم بسيوفكم قبوراً ، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا

يكون حفرة من حفر النار .

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين ، ولا الوساطة بين الطرفين ، ولا العيش الذي هو الموت اشبه منه بالحياة ، بل اطلبوا اما الحياة أبداً ، واما الموت أبداً .

غداً ينتهك أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم ؛ ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم ؛ ويطأون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم ، وينظمون في ثقب آناقكم مقاود يقودونكم بها الى مواقف النذل والهوان ؛ كما تقاد الإبل المحشومة الى معاطنها ؛ فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون موت الجبان في حياته وحياة الشجاع في موته ، فموتوا ليعيشوا ، فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم .

ان هذه الاساطيل الرابضة على شواطئكم ، والمدافع الفاعرة أفواها اليكم والبنادق المسددة الى صدوركم ونحوركم ، لا يمكن أن يتألف منها سور منيع يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار الى تلك الدار ؛ فسيروا في طريقكم الى آخرتكم ، فإن الأعداء ان ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت .

المستमित لا يموت ، والمستقتل لا يقتل ، ومن يهلك في الإدبار اكثر ممن يهلك في الإقدام ، فإن كنتم لا بد تطلبون الحياة فاترعوها من بين ماضى الموت .

ان صحف التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم ، ووضعوا

صحافتهم بين أيديهم ، وانتظروا ماذا تملون عليهم من حسنات أو سيئات ، فاملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تركته في نفوسكم تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظام .

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غداً أذلاء .

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم ، وتنشدوه فيعجزكم .

موتوا اليوم شهداء في ساحة الحرب تكفنكم ثيابكم ، وتفلسكم مصاؤم وتصلي عليكم ملائكة الرحمن قبل أن يسبق قضاء الله اليكم فيموت أحدم فلا يجد بجانبه مسلماً يصلي عليه صلاة الجنائز ثم يمشي وراء نعشه إلى قبره حتى يودعه حفرته ، ويخلى بينه وبين ربه .

إن الشيخين أبا بكر وعمر ، والفارسين خالداً وعلياً ، والأسدين حمزة والزبير ، والفاحين سعداً وأبا عبيدة ، والبطلين طارق بن زياد وعقبة بن نافع وجميع حماة الإسلام وذادته ، من السابقين الأولين والمجاهدين الصابرين ، يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء ، لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي تركوه في أيديكم ، فامضوا لسبيلكم ، واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم ، وقولوا لهم إنا بكم لاحقون ، وأنا على آثاركم لمهتدون .

إن هذا اليوم له ما بعده ، فلا تسلموا أعناقكم إلى أعدائكم ، فإنكم إن فعلتم لن يعبد الله بعد اليوم على ظهر الأرض أبداً .

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ الى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمة ، أو نزلت به نازلة ، وهي المطلع الذي يشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتتير ظلماءه ، وتكشف غمامه ، وهي الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها ، ويدب دبيب العداوة والبغضاء بين أحيائها ، وهي السلطان المطلق الذي يجلس على كرسي عظمته وجلاله ، فتخر له الجباه سجداً ، وتبتدر يديه الأفواه لثماً وتقبيلاً .

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الاساسية الثابتة التي رأت طينة آدم أولاً ، وسترى نقخة اسرافيل آخرأ والتي تسير مع الإنسان حيث سار في بره وبجره وسهله وحزنه وحياته وموته ، وتدور معه حيث دار في إيمانه وكفره وصلاحه وفساده ، واستقامته واعوجاجه ، لا يتغير لونها ولا يتحول ظلها ، ولا تستحيل مادتها ، ولا تبلى جدتها على كر الليلي ومر الأيام .

ما من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية الا وهي تعتمد على الجامعة الانسانية في سيرها وتستظل بظلها ، وتهتدي بهديها ، فالجاهد الوطني يقول : اني أدافع عن وطني ، وأحمي حوزته ، وأقوم على ثغوره وعوراته مقام الذائد المناضل ، لاني أعتقد اني ان أغفلت ذلك وأغفله في وطنه كل ممنو بمثل ما أنا ممنو به في وطني تساقطت الحواجز القائمة في وجه المطامع البشرية ؛ فجرى سيلها متدفعا لا يقوم له شيء حتى يأتي عليه ، والجاهد الديني يقول : اني أعتقد أن الانسانية لا تزال معذبة يأكل قويا ضعيفا ، ويغتال كبيرا صغيرها ، ويستضعف حاكمها محكومها ؟ حتى تدين بالدين الذي أدين به ، فانا ان حاربت البلاد ، وقاتلت العباد ، فإنما أريد بنحوض هذا البحر الاحمر من الدماء أن أصل الى سفينة الانسانية المشرفة على الغرق فاستخلصها من يد الموت الذي يحيط بها .

هكذا يقول دعاة الدين ودعاة الوطن ، ودعاة كل جامعة ، وهكذا يجب أن يقولوا ، فإن لم يفعلوا ، وأبوا الا أن يغفلوا ذكر الجامعة الانسانية في دعائهم الى جامعاتهم التي يدعون اليها ، فسد عليهم امرهم في كل ما يقولون وما يفعلون .

ليس لصاحب وطن من الاوطان ، او صاحب دين من الاديان ان يقول لغيره ممن يسكن وطناً غير وطنه ، او يدين بدين غير دينه : انا غيرك ، فيجب ان اكون عدوك ، لان الانسانية وحدة لا تكثر فيها ولاغيرية ، ولان هذه الفروق التي توجد بين الناس في آرائهم ومذاهبهم ، ومواطن اقامتهم

وأوان أجسادهم ، واطوالهم واعرضهم انما هي اعتبارات ومصطلحات ، او مصادفات واتفاقات ، تعرض لجوهر الانسانية بعد تكوينه واستتمام خلقه ، وتتوارد عليه توارد الاعراض على الاجسام، ففي كل بلد، وفي كل عصر يستعجم العربي ويستعرب الاعجمي، ويسلم المسيحي ويتمسح المسلم، ويلحد المؤمن. ويؤمن الجاحد، ويستشرق المغربي، ويستغرب المشرقي، ولو شئت ان اقول لقلت انه لا يوجد فوق رقعة الارض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ، ينتهي طرفها الآخر بوطن غير وطنه ، ودين غير دينه ، وأمة غير أخته .

إذا جاز لكل اقليم ان يتنكر لغيره من الاقليم ، جاز لكل بلدان يتنكر لغيره من البلاد ، بل جاز لكل بيت ان ينظر تلك النظرة الشذراء الى البيت الذي يجاوره ، بل جاز للآب ان يقول لولده ، وللولد ان يقول لآبيه : اليك عني ، لا تمد عينيك الى شيء مما في يدي ، ولا تطمع ان أوثرك على نفسي بشيء مما اختصاصتها به ، لانني غيرك ، فيجب ان اكون عدوك المحارب لك ، وهناك تنحل كل عقدة وتنفصم كل عروة ، ويحمل كل انسان لآخيه بين اضلاعه من لواعج البغض والمقت ما يرتق عيشه ، ويطيبل سده ، ويقلق مضجعه ويحجب اليه صورة الموت ، ويبغض اليه وجه الحياة ، وهناك يصبح الانسان اشبه شيء بذلك الانسان الاول في وحشته وانفراده ، يقلب وجهه في آفاق السماء ، وينبش يديه طبقات الارض فلا يجد له في الوحشة مؤنسا ، ولا على المهوم معيناً .

العامة الانسانية اقرب الجامعات الى قلب الانسان ، واعلقها
بنفؤاده ، وألصقها بنفسه ، لانه يبكي لمصاب من لا يعرف - وان كان
ذلك المصاب تاريخاً من التواريخ او اسطورة من الاساطير ، ولانه لا
يرى غريقاً يتخبط في الماء ، او حريقاً يتلظى في النار، حتى تحدثه نفسه
بالخطرة في سبيله ، فيقف وقفة الحزين المتلهف ان كان ضعيفاً، ويندفع
اندفاع الشجاع المستقتل ان كان قوياً ، ويسمع وهو بالمشرق حديث
النكبات بالمغرب فيخفق قلبه وتطير نفسه لانه يعلم ان اولئك المنكوبين
إخوانه في الإنسانية ، وان لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر سواها ، ولولا
ان ستاراً من الجهل والعصية يسلبه كل يوم غلاة الوطنية والدين او
تجارهما على قلوب الضعفاء السذج ، لما عاش منكوب في هذه الحياة بلا
راحم ولا ضعيف بلا معين .

لا بأس بالفكرة الوطنية، ولا بأس بالحمة الدينية، ولا بأس بالعصية
لها ، والدود عنها ، ولكن يجب ان يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت
ظلالها ، أي ان تكون دوائر الجامعات كلها داخلة في دائرة الإنسانية
العامة غير خارجة عنها ، والوطنية لا تزال عملاً من الأعمال الشريفة
المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية ، فاذا هي خيالات باطلة وأوهام
كاذبة ، والدين لا يزال غريزة من غرائز الخبر المؤثرة في صلاح النفوس
وهذا حتى يتمرد على الإنسانية وينابذها ، فاذا هو شعبة من شعب
الجنون .

فان كان لا بد للإنسان من ان يحارب أخاه او يقاتله ، فليحاربه

مدافعاً لا مهاجماً ، وليقاتله مؤدباً لا منتقماً ، وليكن موقفه أمامه في جميع ذلك موقف العادل النصف ، والشفيق الرحيم ، فيدفنه قتيلاً ، ويعالجه جريحاً ، ويكرمه أسيراً ، ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق على ولده من بعده ، وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها نذكرت القربى ففاضت دموعها

★

أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمة هائلة متبديّة على الفطرة النقية البيضاء، لا تعبث الحضارة بجبالها، ولا تعبث المدنية في صورتها، شمسها في آفاقها، فتتبسّط أشعتها على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها، من حيث لا يعترض سبيلها من الظل سحب، ولا من السقوف حجب، وينبت نباتها حيث يجري ماؤها، لا تعبث فيه الأيدي بترييع ولا تدوير، ولا تقويس ولا تعريج، ويجري ماؤها في سبيله حيث ينساب به تسلسله واطراده، لا تلوي به عن قصده الحفائر، ولا تنتصب في وجهه القناطر، ويهيم وحشها في جبالها.. وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس الأول عرين موصود.. ولا الآخر قفص محدود، والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر المطرية على طبيعتها وفطرتها.

ينطق العربي بما يعلم.. ويقول ما يفهم ويصوّر ما يرى ويحدث عما تمثل في نفسه حديثاً صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل.. لأنّ كلاماً هو محيط

به من هواء وماء وأرض وسماء.. وطعام وشراب ، ومرافق وأدوات .
على الفطرة السليمة الخاصة ، فاحرى ان يكون شعره كذلك .

ذلك كان شأن الشعر العربي والعرب على فطرتهم . وذلك معنى
قولهم : الشعر ديوان العرب ، لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية ؛
ومثال خواطرم الحقيقية والخيالية ؛ فان ظن ظان ان التائيل والنصب
والصور والتهاويل ، وبقايا الآثار ، وقطع الأحجار التي نراها في خرائب
اليونان والرومان ، والفينيقيين والفراعنة ؛ أدل على تواريخ اولئك
الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب قلنا له : ما من ديوان من
دواوين الأمم الماضية إلا وقد تحدث المؤرخون بعبث الأيدي به ولعبها
بسطوره وسجلاته ؛ أما الديوان العربي فصورة صحيحة وآية ثابتة ، لا
تغير فيها ولا تبديل .

ثم جرت بعد ذلك جوار بالسعد والنحس ؛ فانتقلت الأمة العربية
من بدواتها الى حضارتها . وهاجر معها شعرها بهجرتها . فطلع جيش
المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان : بشار ، وأبو نواس ، فطرقوا
معاني لم تكن مطروقة ، ونهجوا مناهج لم تكن معروفة ؛ فقلنا لا بأس ،
فالشعر العربي أوسع من ان يضيق بمحاجات أمته وضرورتها ، في جميع
شؤونها وحالاتها ، حتى جاء أبو تمام شيخ الصناعة اللفظية ، فسلك الى
كثير من معانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والاسلوب المتكلف ، فنشر
في الشعر العربي ثغرة ألح عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم
وأنيابهم حتى صيروها فوهة واسعة لا تمتنع ما وراءها ولا تدفع ما أمامها ،

فأصبح الشعر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدي والسراج والورّاق وابي الحسن الجزار والصفى الحلي وامثالهم ، اشبه شيء بتلك الأنية الصينية التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم وعلى أطراف مواعدهم ظهراً زاهياً ، وبطناً خاوياً ، لا تشفي غلة ، ولا تبض بقطرة ، ولا تسمن ولا تغني من جوع ، ثم جاء على اثر هؤلاء من تدلى الى منزلة أدون من هذه المنزلة ، فجاءوا بشيء هو اشبه الاشياء بتلك التفاعيل التي وضعها الخليل ميزاناً للشعر ، لا يروق لفظها ولا يفهم معناها .

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر الوبيل ، وقف الشعر العربي بضعة قرون وقفة لا يترحزح عنها ولا يتحلحل ، حتى انزل الله اليه من ملائكة البيان رسلاً في هذا العهد الاخير أخذوا بيده ، ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره فأصبحنا نرى في ابراد الكثير منهم ، اجسام امرىء القيس ، والنابعة ، ومسلم ، وابي نواس ، وابي عبادة ، والشريف ، ومهيار لا فرق بينهم وبينهم سوى ان هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار ، وأولئك مستدعون بقرعون الالك .

حوانيت الاعراض

أنا لا أستطيع ان أتصور الفرق بين رجل يد يده الى خزانة بيتي فيسرق مالي ، وبين آخر يد لسانه او قلمه الى شرفي فيستلبه ، كلاهما مجرم فاتك ، وكلاهما لص مغتال ، وان كان اولهما في نظر القسانون وفي عرف الناس أكبرهما إثماً ، وأسوأهما أثراً .

المال خادم من خدام الشرف ، وحاجب من حجابيه والوقوف على بابه ، ولولا مكان الشرف ، والكلف بصيانتته ، والضن به ان يعيب بجوهره عابث . ما كان لامرئ في هذا المعدن الصامت أرب أكثر من ان يقيم به صلبه . ويمسك به حوباءه ، فان كان سارق المال مجرماً من حيث كونه هاتكاً لذلك الحجاب المسبل دون الشرف ، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه ان يكون رأس الجانين واكبر المجرمين .

يكون للرجل - من الصحفيين مثلاً - عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوي السيرة الصالحة فيهم مآرب من المآرب التي لا يعرف

لنفسه فيها حقاً ولا يمت إليها بسبب من الاسباب الظاهرة او الباطنة ، فإ
هو إلا ان يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من سهامه النافذات ، يصيب
به مقتلاً من شرفه وكرامته ، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يكن من لحيته
يلف عشونها على يده ثم يقوده بها الى حيث شاء كما تقاد السائمة الى مصرعها .

يحب الرجل المجد حباً يملأ ما بين جوانحه ، ويكلف به حتى يصبح
آثر عنده من نفسه التي بين جنبيه ، ويقضي لكلفه به وحرصه عليه سواد
ليله يساهر الكوكب حتى يتحدر الى مغربه ، ويباض نهاره يسائر الشمس
حتى تغرب في حماتها ، ويقم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حرباً
عواناً يحمل في سبيلها ما لا يستطيع ان يحمله بشر ، حتى اذا أمكنه
المقدار منه وبدأ ينهل اول نهلة من مورده البارد العذب ، رآها ممزوجة
بذلك العلقم المر الذي صبه له في انائه ذلك المجرم الاثيم .

ان بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها « ادارات » قوماً
مفاليك قد دارت عليهم الايام دورتها ، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها
أمثالهم ، ممن ولد مولدهم ونشأ منشاهم . فضاقت بهم سبل العيش التي ما
كانت تضيق بهم لو ان الله ابقى لهم بعد ان سلبهم فضيلة الفهم والعلم
فضيلة العمل الصالح والسيرة المستقيمة ، فلم يجدوا بين ايديهم منفذاً
ينفذون منه الى القوت ، فتحوا حوانيت للتجار بأعراض الناس وكرامتهم
سموها صحفاً ، واكثر مشتملاتها اعراض الاشراف والعظماء وارباب الجد
والعمل ، الذين سبقوهم الى فردوس السعادة ، وخلفوهم وراءهم يتأكلون
غيظاً لحرمانهم مما أفاض الله عليهم . فهم ان فتشت عنهم ، وكشفت عن

دخائل نفوسهم ، علمت ألا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين الذين يدينون بقتل الملوك والأمراء ، وأستغفر الله ، فللفوضويين رأي في تلك الجرائم يرونه ، وفكرة خاصة يعتقدون صحتها ، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون وهم مقفرو الأيدي من الزاد .

ولقد يكون خطبهم سهلاً ومصائبهم محتملاً ، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم وأبدوا للناس صفحات وجوههم ، وطلبوا قوتهم من طريق الكدية الواضحة البنية ، ولكنهم مراعون مخادعون ، يشتمون باسم الموعدة ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية أو الادبية ، ووالله ما بهم من أدب ولا دين ، ولا عظة ولا نصيحة ، ولكنهم قوم محددون ، قد بلغت الفلاكة منهم مبلغاً ، وضاعت بهم الأرض الفضاء على رحبها ، فهم يروحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء ، وتنغيص لذة السعداء .. ويطلبون قوتهم فيما بين هذا وذاك من يد تلك الفئة الساذجة التي لا تستطيع أن تفرق بين الكاتب الذي يكتب ليقوم معوجاً ، أو يصلح مختلاً ، أو يرفع بدعة باطلة ، أو يكشف عن حقيقة خافية ، وبين الآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس ، لا يفارقه حتى تفارقها ، والذي لا يلذ له شرب الماء إلا مزوجاً بدم . ووالله ما أدري ما الذي أقامهم هذا المقام وعهد اليهم هذا العهد ، ومن الذي وكل اليهم النظر في شؤون الناس والفصل في قضاياهم ، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم وما هم بالبررة الاتقياء الذين يصلحون أن

يكونوا امثلة حسنة في منازلهم ، فيكونوا قدوة صالحة في أمتهم ، ولا
بالعلماء الفضلاء فنهتدي بهداهم، ونستن بسنتهم ، ولا بالصادقين المخلصين
فتتعبد بإجلالهم وإعظامهم، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع في مصنعه،
او التاجر في حانوته ، او العامل في معمله ، فيصلح ان يكون حكماً في
قضايا الأشراف والنبلاء ، وميزاناً لحسناتهم وسيئاتهم . وعندي أن لو
جمعت عيوب الناس جميعها في كفة ميزان ، ووضعت في الكفة
الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة والكذب والنميمة والتجسس ، وهتك
الأعراض ، واتهام الأبرياء ، واستهواء الضعفاء ، لتقلت كفتهم أمام كفة
الذين يزعمون انهم يقومون معوجهم ويثقفون منأدهم ، ويصلحون ما
فسد من شؤونهم .

★

الثناء

ما أنس لا أنسى رجلا كان خير من لقيت من الرجال ، وكان يعجبني منه أدبه وفضله ، وعفته وحيأؤه ، وشرف نفسه ، وطهارة قلبه ، وأنه كان صبورا محتملا تفرع الخطوب صفاة قلبه فترتد عنها ثانية ، كما ترتد الكرة عن الحائط اذا قرعتها .

كان فقيرا لا يملك من الدنيا اكثر مما يقيم صلبه ، ويمسك حوباه ويسترسواته ، فزوجه أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها في دمامتها ، وسوء خلقها ، وجفاء طبيعها ، ممن يطمع مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبيعها ، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه ، لأنه كان برأ به ، مطيعا له ، نازلا عند أمره ونهيها ، وعن مجافاة زوجها واطراحها والاتقباض عنها ، لأنه كان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، رقيقا بالضعفاء والعاجزين ، فزوجها وفي نفسه من الميض والألم ما يلهب الجوانح ، ويذيب لفائف القلوب .

وأذكر أني على طول عشرتي له ، ولصوق نفسي بنفسه ، ما سمعته يشكو إلي يوماً من الايام ما كان يعالجه من سوء عشرتها ، ويكابده من شروها التي لا تغبه ليلها ونهارها ثقة بالله ورحمته . وإيثاراً لفضيلة الصبر والجلد ، وسكوناً الى ما جرت به الاقلام في ألواح المقادير . فكنت أرحم صمته وسكونه ، وأرثي لجمود عينيه عن البكاء ، لاني أعلم أن نيران الاحزان لا يسكن اضطرامها ، ولا يهدأ اعتلاجها ، إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات . وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأطايها ، أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين الى أحد اصدقائه في الريف فيقضي عنده يومين او ثلاثة ثم يعود وفي ثغره ابتسامة تتلألأ تلالؤ نجمة الصبح قبل انحدارها الى مغربها ثم لا تلبث ان تتلاشى ، ولا يلبث أن يعود الى جموده الاول ، لا يحزن فيبكي ، ولا يفرح فيبتسم ، حتى يخيل للناظر اليه أنه يعيش في عالم غير هذا العالم ، ولا يظلمه ليل ولا يضيئه نهار .

قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من دخيلة نفسه ما يحسب أني أجهله فأكتمه ذلك العلم جهدي رفقاً به واشفاقاً عليه ، حتى زرتة في منزله ذات يوم فرأيتة جائئاً في مقعده الذي كان يقتعده من غرفته وقد اطرق اطراقاً طويلاً ذهل فيه عن نفسه فلم يشعر بدخولي حتى أخذت مكاني ، فرفع رأسه فادهشني من منظره اصفرار وجهه وذبول عينيه ، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه ، ثم نظر اليّ نظرة طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل وقال :

— أعتقد أن الله موجود؟ قلت : نعم — معالجا نفسي على كتان ما كان يذهب بليبي من تنكر حاله ، وتغير اطواره .

قال : وتعتقد أنه عادل ؟ قلت : نعم .

قال : وراحم ؟ قلت : نعم .

فبسط يده اليّ فعل للضارع المستصرخ وقال :

— هل لك ان تحدثني ايها الصديق عن نزول الصواعق ، وثوراة البراكين ، وطغيان البحار ، وغرق السفن ، وانتشار الأوباء ، وفتك الآداء ، ونكبات الفقر والجوع ، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء ، والاضلوع التي لا تزال ملتبهة بنيران الهموم والاحزان ؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدل من الله ورحمة ؟

قلت : نعم ، ان الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لانفسهم من سعادة الحياة وهنائها .

قال : ان الله اكرم من أن يجعل الشر طريقاً الى الخير ، وألا يحسن الى عباده الا بعد ان يسلبهم الامساءة .

قلت : ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عامل بعمله . ان خيراً فخير وان شراً فشر .

قال : انه كتب على نفسه الرحمة .

قلت : نعم ، انه اكرم الكرماء ، وارحم الرحماء .

قال : حدثني عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه شر ، ولم يتسرب الى قلبه كيد ، مللي اراه مفترشاً حجر امه وقد تولى الليل الا اقله يتقلب على مثل جمر الغضى مما يساوره من الآلام ؟ فينتفض تارة ويختلع أخرى ، ويصرخ صرخات تستمطر الدموع ، وتحول بين العين وبين الدموع؟ وما لي ارى امه باكية موهلة ، ذاهلة اللب موجعة القلب ، تفرع لفزعاته ، وتصرخ لصرخاته وقد اختبل عقلها والثالث امرها ، وعظم ياسها ، وفنيت حيلتها وقلّ مساعدتها وضعف ناصرها ، فأنشأت تقلب وجهها في السماء ضارعة الى الله تعالى ان يأخذ بيدها ويرحم نفسها برحمة ولدها ، وبينما هي تنتظر صوت الاجابة يرن في آفاق السماء ، اذا بها تسمع حشجة الموت في صدر ولدها ، واذا به ينزع نزعاً مؤلماً يطير باللب ، ويذهب ببقية الصبر ، حتى تفيض نفسه ، فياذا جنى هذا الولد الصغير حتى اصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة ؟

قلت : وما يدريك لعل الله اراد به خيراً فرحمه بالموت المعجل من حياة علم انه سيلقى فيها مثلما تلقى انت اليوم من الشقاء الممض والعذاب الاليم ؟

فناالت هذه الكلمة من نفسه ، وجمد أمامها جموداً طويلاً ، ثم قال : أحسنت ايها الصديق ، ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا ، وحقارة شأنها ، فيتمنون لو لم تلدهم امهاتهم ولم يكتب لهم سطر واحد في الوجود ، وبعد فهل لك في سفرة معي الى ذلك الصديق

الريفي تقضي عنده يوماً واحداً ثم نعود؟ على أن تكون معي كما كانت
موسى مع الخضر، لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً؟

فوافيت رغبته، وقبلت شرطه ثم قام وقت، ولو أنني ملكت في
هذه اللحظة الدنيا بجزايرها لو هبتها لمن يكشف لي سر صديقي ويدلني
على مكان نكبته التي زعزعت نفسه، وصهرت قلبه، وملكته عليه لبه،
وكادت تعبت بيقينه، وما هي إلا ساعات حتى بلغنا المنزل الذي أردناه،
وقد أظلم الليل بجناحيه، فقضينا واجب التحية والسلام، ثم خلا
الصديق بصديقه خوة طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهم، ثم خرجا إليّ
فجلسنا ساعة نتحدث. ثم قنا إلى فراشنا فتمت نوماً متقطعاً مملوءاً
بالوساوس والهواجس، فما انتصف الليل حتى شعرت أن صديقي
يتحرك في فراشه، ويطيل النظر إليّ ليعلم أنتم أنا أم مستيقظ؟
فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى اختلاساً حتى
وصل إلى المشجب فلبس أثوابه، ثم تسلل من الغرفة فخفق قلبي خفقة
الرعب والفرع وقلت: لا بد أن الرجل يريد بنفسه شراً وأنا أكون
الأم الناس إن أنا تركته يصنع بنفسه ما يشاء، فقممت على أثره اتبع
خطواته، وأسير وراءه من مدرجة إلى أخرى؛ حتى بلغ مقبرة البلد،
فوقف هنيهة يشرف على تلك النواويس العظام التي جثمت في أمكنتها
جثوم الأبال في معاطنها، ثم مشى يتصفح القبور قبراً قبرا، فخيل إليّ
أنه شبح من أشباح الموتى يهيم في أرجاء تلك المقبرة الموحشة، فملكني من
الخوف والرعب ما كاد يجل عقدة لساني لولا اجلالي لهذا الموقف الرهيب،

وشعوري أنني واقف على ابواب تلك الدور التي سلب خوفها العاقلين
عقولهم ، وأطار طائر الغمض عن أجفانهم ، ونغص عليهم ما يتمنون ان
يصفوا من طعامهم وشرابهم، والتي يفد اليها كل يوم وفود البشر محمولين على
أيدي اهليهم ، وذوي أرحامهم .. ليقدموهم بأنفسهم هدية الى الحشرات
والديدان لتأكل لحومهم وتمتص دماءهم وتتخذ من سواد عيونهم وبياض
ثغورهم ، مراتع ترتع فيها كما تشاء .. من حيث لا يملك مالك منهم عن
نفسه دفعا، ولا يعرف الى النجاة سيلا .

مرت بخاطري تلك الذكرى فملكك على نفسي حتى ذهلت عن
موقفى ، وأنستني الحيرة في أمر نفسي الحيرة من امر صديقي ، وفيما
يعالجه منذ الليلة من غرائب الشؤون وعجائبها، ثم استفتقت فرأيتيه جاثيا
امام قبر من تلك القبور جثى العابد بين يدي معبوده ، فدلقت اليه حتى
دنوت منه فسمعتة يقول :

اللهم انك تعلم اني ماكفرت نعمتك ، ولا خفرت ذمتك ، ولا هتكت
حرمة من حرمانك ، ولا نزلت عند سخطك وغضبك ، ولا تبرمت
بقضائك وقدرك ، وانك احسنت اليّ بتلك الطفلة احسانا عظيما لأنك
انقذت بها حياتي من همومها وآلامها ، ثم لم تلبث ان سلبتنيها وشيكا
أهنا ما كنت بها وأرجى ما كنت الى قضاء ساعات العمر بجانبها ، فاغفر
لي جزعي وحزني فكثير عليّ ان لا اجزع ولا احزن .

لقد تبدلت الارض غير الارض والسموات ، وكانما استحالت في

نظري حقائق الاشياء ، فأصبحت لا ارى في النجمة لالاها ، ولا في
الزهرة جمالها ، ولا في السماء صفاءها ، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود
حتى اذا ذهبت ذهب بنهايا كل شيء؟

لقد ذهبت بي الايام فيما مضى كل مذهب ، وجرعتني من كؤوس
الشقاء جرعا ما احتمل فيم قبل فمي مرارتها ، فاغتفرت لها كل ذنوبها
عندي حينما أسدت الي تلك اليد التي انستني جميع هموم الحياة وآلامها ..
وأما اليوم وقد صفرت منها يدي ، وأقفر بفراقها ربعي .. وحالت
تلك الصفائح بيني وبينها ، فلا عزاء ولا سلوى .

من لي بضربة من ضربات الدهر تذهب بذاكري جملة واحدة ، فلا
اعود اذكر ايام حياتها معي ومقعدا يجاني ، وصوتها الرقيق ، وحديثها
العذب ، وصفاء عينيها ، ورونق وجهها ، وصورة قومتها وجيبتها
وذووبها وضحكها وبكائها ويقظتها ومنامها ، وحزنها لفراقي وسرورها
بلقائي ، فاني كلما ذكرت ذلك شعرت كأن قلبي المجموع قد استحال الى
أفلاذ صغيرة تتطاير في اجواز الفضاء .

اللهم إني أعلم ان الدنيا ليست بدار قرار ، فلا أمل في البقاء فيها ،
والركون اليها ، والاستمتاع بلذة العيش فيها ، وانما الجسر الذي يمر به
الأحياء الى دارهم الأخرى ، وكل ما كنت أطمع فيه منها ان يكون لي كما
للناس جميعا رفيق يعينني على قطع تلك الشقة البعيدة ، ويهون علي
آلام وحشتها وكآبتها ، فحرمتمني ذلك الرفيق المعين . فكيف أسير ،
واين أعيش؟

اللهم إنك سلبتني كل شيء حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم
ويطفئ بها المحزونون لواعج قلوبهم ، فأصبح الحزن دنلي بين جوانحي
غليان الماء في القدر الحكمة الغطاء ، فامن عليّ بدمعة واحدة أطفئ بها
غليلي ، ولا أحسب أنك تمنعنيها ، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت
على نفسك ان تعالج بها نكبات المنكوبين ، وبؤس البائسين .

اللهم لا ريبة في عدلك ، ولا ظنة في كرمك ، ولا اعتراض على
قضائك وقدرك ، ولا سخط في ابتلائك ومحنك ، خرج أمر نفسي من
يدي ، وأصبحت لا أستطيع ان أبصر ما بين يدي ، فاغفر لي سقطي
وزلي .

اللهم إنك منعتني حظي من الحياة ، فلا تمنعني حظي من الموت ،
فاسترد اليك عاريتك التي أعرتنها فقد عجزت عن حملها ؛ وضقت ذرعاً
بامرها ؛ إنك بعبادك رؤوف رحيم .

وما أتم كلمته حتى صاح صيحة عظمت ، ثم سقط على صفائح القبر ؛
فعلمت ان الرجل قد انفجر ؛ وان الله قد استرد وديعته اليه ؛ واختار
للرجل ما عنده ؛ فذعرت وارتعدت والتفت حولي فاذا صديقه واقف
ورائي يشهد المنظر الذي أشهد ، ويذرف من الدموع أضعاف ما أذرف ،
فدنونا منه معاً وحركناه فاذا هو ميت ، فنقلناه الى المنزل ، وبتنا حول
سريره نقضي حق صحبته تارة بالدموع وأخرى بالإطراق والخشوع ،
وهناك قص عليّ ذلك الصديق قصته وكشف لي عن خبيثة أمره فقال :
إنه قضى زمناً طويلاً يشكو اليّ آلام نفسه التي يعالجهم من سوء عشرة

زوجه وخشونة طبعها ، وجفاء خلقها ، تم اقترح عليّ يوماً من الايام ان أزوجه من أختي ففعلت رحمة به واشفاقاً عليه ، من حيث لا يعلم أبوه. ولا أحد من أهله بذلك فكان يزورنا في كل شهر مرة او مرتين ، وظل على ذلك عدة سنين ، حتى وعكت تلك المسكينة وعكة ذهبت بها الى ربها ؛ وتركت له فتاة في الخامسة من عمرها فكانت هي عزاءه الوحيد عن كل ما فاته من نعيم الحياة وهنائها ، وكان يختلف اليها كما كان يختلف الى أمها ، وشغف بها شغفاً بلغ به حد الجنون ، وكان كثيراً ما يقول لي انني أشعر ان حياتينا أنا وهذه الطفلة حياة واحدة ، وأنا اما ان نعيش معاً ، او نموت معاً وكأنه ألهم بما سيكون ، فقضى الله ان تمرض الفتاة مرضة شديدة لم تمهلها اكثر من خمسة أيام ثم لحقت بأمها ولما تسلخ الثامنة من عمرها ، فنعيتها اليه بكتاب أرسلته اليه بالأمس ، فجاء وجئت معه ، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله ان يكون .

دفنت صديقي بيدي ، وألحدته بجانب ابنته التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظة واحدة شوقاً اليها ، ووجدت عليها ، ثم عدت الى بلدي صفر الكف من ذلك الإنسان الذي كنت مالئاً منه يدي ، والذي كنت أجهله وأعظمه حياً ولا أزال أبكيه وأذكره ميتاً ، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بمواقف الصبر والجلد ، والوفاء والكرم عبرة أعتبر بها حتى يجمع الله بيني وبينه .

كفى حزناً بموتك ثم إني نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظام وأنت اليوم أو عظ منك حيا

الشعر

كتب اليّ كاتب يقول : عرفناك قبل اليوم شاعراً ما تكاد تكتب سطرًا ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما تكاد تنظم بيتًا ، فلم لم تكتب في عهدك الأول ، ولم لم تنظم في عهدك الثاني ؟ كأننا ظن عافاه الله أنني اكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس ، او أهيم في واد غير ذلك الوادي ! وهل الشعر الا نثارة^(١) من الدر ينظمها الشاعر ان شاء شعراً ، وينثرها الكاتب ان شاء نثرًا ؟ او نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمام ، وأخرى من أوتار العيوان والمزاهر ، او عالم من عوالم الخيال ، يطير فيه الطائر بقادمتين^(٢) من عروض وقافية او خافيتين^(٣) من فقر وأسجاع .

الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر الا

(١) النثارة : ما تناثر من الشيء .

(٢) القامة : مفرد قوادم ، وهي عشر ريشات في جناح الطائر .

(٣) الخوافي : ريشات اذا ضم الطائر جناحيه اختفت .

ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شؤونه واطواره التي لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا ان غريزة في النفس ان يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحاً عن نفسه ، وتطريباً لعاطفته ، ما نظم ناظم شعراً ولا روى عروضي بجزاً .

ما كان الرجل العربي في مبدأ عهده ينظم الشعر .. ولا يعرف ما قوافيه واعاريضه ، وما علله وزحافاتہ ؟ ولكنه سمع اصوات النواعير وحفيف الاوراق وخرير المياه ، وبكاء الحائم ، فلذله صوت تلك الطبيعة المترنمة ولذله ان يبكي لبكائها وينشجج لنشيجها ، وان يكون صداها الحياكي لرناتها ونغماتها ؛ فاذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم من شؤونه سوى أنه تلك النغمة الموسيقية العذبة الخالبة ، ولا من ابجره وضروبه سوى انها صورة من صورہ ، ولون من الوانه .

ذلك منتهى نظر العربي الى الشعر ، وذلك ما دعاه الى ان يسمى النبي الذي بعثه الله اليه شاعراً ، وهو يعلم انه ما قصد في حياته قصيدة ولا رجز ارجوزة ، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلات ابلغ الكلام وافصحه واعلقه بالنفوس وآخذه بالألباب ، واملكه للعواطف والمشاعر ، واجمعه لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة ، والكنائيات المستطرفة ، وامثال تيك مما لا ينطق به الناطق في اكثر مناخيه ومنازعه الا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري فشبه له فسمى ما سمعه شعراً وسمى الناطق به شاعراً ، وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون .

ما كل موزون شعراً ، وكل ناظم شاعراً ، فالوزن ملكة تعلق
بالنفس من طول ترديد المنظوم والتغني به مقطوعاً تقطيعاً يوازئ
تفاعيله .. فهو نغمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغناء ، يتمثل في
قول الملك الضليل^(١) :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

كما يتمثل في قول الخليل :

* فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن *

ويترأى في اوتار الحلق الناطق كما يترأى في اوتار العود الصامت .
أما الشعر فأمر وراء الأنغام والأوزان ، وما النظم بالإضافة إليه
الا كالحلى في جيد الغانية الحسنة ، او الوشي في ثوب الديباج المعلم . فكما
ان الغانية لا يحزنها عطل جيدها ، والديباج لا يزرى به أنه غير معلم ،
كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وها انت ترى ألا صلة بينهما غير
تلك الصلة الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى ما اعتاده الناس من أنهم
ينظمون ما يشعرون به ، وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت على كثير
من الناس أمرهما ، وهي التي ادخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم
جميعاً رداءً واحداً لا يستطيع معه التمييز بينهما الا القليل من الناقدین ،
فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيت فلا نجد بيتاً ،

(١) هو لقب امرئ القيس .

وتتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة ، واصبحنا لانكاد نجد بيننا قارئاً غير شاعر لأنه لا يوجد بين الناس من يعجزه تصوّر تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأمين .

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وأمعنوا إمعاناً بعد به عن مكانه وضل به عن قصده ، وعندني ان أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير ، وميزان جودته ما يترك في النفس من أثر ، وسر ذلك ان الشاعر يتمكن ببراعة اسلوبه ، وقوة خياله ، ودقة مسلكه ، وسعة حيلته ، من رفع ذلك الستار المسبل بينه وبين السامع ، فيريه نفسه على حقيقتها حتى يكاد يلمسها ببنايه ، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه ، يبكي لبكائه ، ويضحك لضحكه ، ويغضب لغضبه ، ويطرب لطربه ، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال ، فيرى الطبيعة بارضها وسمائها ، وشموسها واقمارها ، ورياضها وازهارها ، وسهولها وجبالها ، وصادحها وباغمها^(١) وناطقها وصامتها ، من حيث لا ينقل الى ذلك قدماً ، او يلاقي في سبيله نصبا ، فان سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحننا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألد من الدامة للنديم
يصد الشمس أني واجهتنا فيحجبها ، ويأذن للنسيم

(١) يقال : بغم الفزال اذا صوت بأرغم صوته ، فهو باغم .

يروع حصاه حالية^(١) العذارى فتلمس جانب العقد التنظيم
خيل اليه أنه يخطر في ذلك الروض البليل بين أنواره وازهاره ،
خطر ان النسيم بين ظلاله واشجاره ، وأنه يرى بعينه اولئك العذارى
السانحات، وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء.
فتولهن وفزعن الى جوانب عقودهن يلمسها بأطراف بنانين ، يحسبن ان
قد وهت فانتثرت جواهرها على بساط ذلك الروض الأريض .

وان سمع قول الآخر :

ودار ندامي عطلوها وأدلجوا
بها أثر منهم جديد ودارس
حبست بها صحي وجمعت شملهم
وأنى على امثال تلك لحابس
أقنا بها يوما ويوما وثالثا
ويوما له يوم. الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية
حبثها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها
مها تدريها^(٢) بالقسى الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس

(٢) أدرى الصيد : ختله .

(١) الحالية : لابسة الحل .

تمثل له كأنه مر في ضاحية من ضواحي بغداد بدار موحشة فسمع فيها اصوات قوم يلهون ويقصفون^(١) ويقرعون الكؤوس بأمثالها ، فاقترب منها وأطل من خصاص^(٢) بابها ، فرأى اولئك القوم مجتمعين حول دن من الخمر قد تكاملت سنه ، وشيب الدهر فوديه^(٣) ففصدوه فسأل دمه الأحمر في كؤوس من الذهب منقوشة نقوشا فارسية قد صورت في قرارها صورة كسرى فارس ودارت في جوانبها صور فرسانه متنكبي قسيهم يطاردون بقر الوحش الهارب من بين ايديهم ، ورآهم يلاؤن الكؤوس خمرأ الى ما يوازي اعناق اولئك الفرسان ثم يمزجونها بالماء الى ما يغطي رؤوسهم ، فتسلل من مكانه معتبطا بمجتمعهم ، وبما هبى لهم من الهناء والنعمة فيه ، ثم مر بتلك الدار بعد ايام فرأها مقفرة من اهلها لا تسمع بها نغمة ولا نامة^(٤) فدخلها فلم ير فيها الا اعواد ريحان قد يبس اكثرها .. مبعثرة في جوانبها .. وخطوطا كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها في غدوها ورواحها بين اولئك الندماء فانصرف حزينا مكتئبا يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها فيردد قول القائل :

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

وإن سمع قول الآخر :

-
- (١) قصف : أقام في أكل وشرب ولهو .
(٢) الخصاص : كل خلل وخرق في باب او غيره .
(٣) الغرمان : ناحيتا الرأس .
(٤) النامة : النغمة والصوت .

ويوم كنتور الإمام سجرته^(١) وأوقدن فيه الجزل حتى تضرّما
رميت بنفسي في أجيج سموه وبالعيس حتى بض منخرها دما

شعر كان لهيب تلك الملهجرة يهب في وجهه فيشيخ عنه فراراً من
لفحاته ويكاد يبكي رحمة بذلك الشبح المصهور الذي ملكت عليه تلك
التنوفة الحمراء سبيله ، وحالت بينه وبين نفسه ، فلا هو بصابر ان رام
صبراً ، ولا بناج ان أراد نجاه .

وان سمع قول الآخر :

وارحمتا للغريب في البلد النا زح ، ماذا بنفسه صنعا ؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه حزناً على ذلك الغريب الحائر ، وتمنى ان لو التقى به
في بعض مذاهبه فعطف عليه وآنس وحشته . ثم أخذ بيده فأتزله من
بيته منزلاً كريماً وابدله أهلاً باهلاً ، وجيراناً بجيران .

وان سمع قول الآخر :

وان الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وان هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

(١) سجر الرجل التنور ، ملاء وقوداً .

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم
وان هم هووا غيبي هويت لهم رشدا
وان زجروا طيراً بنحس تثر بي
زجرت لهم طيراً ير بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جلّ مالي ان تتابع لي غني
وان قلّ مالي لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً
وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

اكبر تلك المكرمة واجلها ، ونظر اليها وهي في علياء سمائها ، نظر
الفلكي الى كوكبه الساري ، وشعر كان نورها قد لعل فامتد شعاعه الى
الى نفسه فاضاءها .

ولا غرو ان يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ ، فطالما كانت للشعر
السلطان الاكبر على النفوس العظيمة ، فقد نكب الرشيد البرامكة عندما
دس له اعداؤهم ذلك المغنى الذي غناه هذا الصوت :

ليت هنداً انجزتنا ما تعدد وشفقت أنفسنا بما تجدد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد
وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قريهم وأدناهم عندما دخل

عليه سيف مولاه وأغراه بهم في قوله :

لا تقيّلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة (١) وغراس
أزلوها بحيث أزلها الله بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودّد فيهم وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شافة الأرجاس
فلقد ساءني وساء سوائي قربهم من نمارق وكراسي

بل عطف عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الحطيئة واطلقه من

سجنه حين سمعه يقول :

ماذا تقول لأفراخ بنى مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه في

قتله أخاها النضر بن الحرث على ما بينه وبينه من صلة القرابة :

أحمد يا خير ضنء كريمة

في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت ، وربما

من الفتى ، وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من اصبت وسيلة

وأحقهم ، ان كان عتق ، يعتق

(١) الرقلة : النخلة التي تفرقت اليد .

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ،
الله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال - وهو من لاظنة^(١) في عدله ، ولا ريبة في حكمه - :
« لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته » .

لا مؤثر في نفس الإنسان مثل الشعر ، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته الا للشعر ، وللشعر الفضل الاول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ الباهر من التفوق والكمال .. ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقاً وصامتاً ، أما الناطق فقد عرفته ، وأما الصامت ، فالتأثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال : شعر ، وهذه النغمات الموسيقية التي تصور خواطر التلويح ووجداناتها فتبهج عاطفة الحب في نفس العاشق ، وعاطفة الحماسة في نفس الجندي : شعر ، وهدير الامواج : شعر ، لأنه يمثل عظمة الجبارين ، وظلام الليل : شعر ، لأنه يطلق دموع الباكين ، وحفيف الأوراق : شعر ، لأنه يمثل تناجي العشاق ، وبكاء الحائم : شعر ، لأنه يمثل فجعية البين ولوعة الفراق ، تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة ، وفم الطبيعة أخرى ، هي التي زخرت لنا هذه الحياة ، وألبستها ذلك الثوب الناعم الابيض حتى احببناها ، وولعنا بها ، وحرصنا عليها ، وأعدنا العدة للبقاء فيها .. والسكون اليها ، فكتبنا ودونا وألفنا واخترعنا ، وتعلمنا فعلنا ، وبني

(١) الظنة : التهمة .

فشيدنا ، وغرسنا فجنينا ، وعلنا فربحنا ، واجتهدنا فآثرنا ، وأملنا
فسعينا ، وسعينا فبلغنا ، فكأن الشعر سر هذه الحياة ، وعلة هذا
الوجود ، لا تطير إلنا الحقائق إلا على جناحه ، ولا يطيب لنا العيش إلا
في جواره ، فلنمجد الشعراء كل التمجيد ، ولنكبرهم كل الإكبار ، فهم
مشارق شمس الحكمة ، ومطالع كواكب الفضل ، وهم ينبيع الصافية
التي يترقرق ماؤها ، ثم يتسرب إلى الأفئدة فيملؤها سعادة وهناء .

★

الشهيدتان

لم تغتمض عيناى ليلة امس ، لأننى بت اسمع فى الدار الملاصقة لبيتى
انين امرأة متوجعة ، تعالج هما ثقيلآ ، وتشكو مرضآ أليماً ، ويخيل
الىّ أنى لا اسمع بجانبها معللاً يعللها ، ولا جليسا يتوجع لها ، فلما اصبح
الصباح ذهبت اليها ، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تشتمل على اكثر من
سرير بال يتراءى فوقه شبح مائل من اشباح الموتى ، فترفت فى مشيتى
حتى دنوت منها ، وكانت شعرت بمكاني فحركت شفيتها تطلب جرعة
ماء ، فأسعفتها بها .. فاستفاقت قليلا ، فوقفت بجانبها أسألها عن
خطبها ، فأنشأت تقص علىّ قصتها بصوت خافت متقطع كنت كآنى
انترعه من بين ماضئها انتراعاً وتقول :

زوجنى ابى منذ سنوات من رجل مزواج مطلق ، لا يكاد يصبر
على امرأة واحدة عامآ واحداً ، ولو كان للفتاة رأى فى نفسها من دون
رأى اوليائها لعرفت كيف احسن الاختيار لنفسى ، بل لو لم يكن فى

الأمر الا ان أتبتل كما تتبتل الراهبات ، او اتزوج زوجاً ينتهي بي الى هذا
المصير ، لكان لي في الرهبانية رأي غير ما يراه النساء جميعاً ، ولكنني
عجزت فاذعنت ، وحملت اليه فاستقبلني بأحسن ما يستقبل به الزوج
الكريم أحظى نسائه لديه ، واکرمهن عليه ، فكان يرييني من ذلك ما
يريب الفريسة من ابتسامة الاسد ، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر
المجرم يوم القصاص ، فافقت من سرعة النفاس حتى علمت أنه خطب
فتزوج فبنى وانني اصبحت في المنزل وحيدة منقطعة لا مؤنس لي الا
طفلي الصغيرة فجزعت عند الصدمة الأولى ، ثم نزلت على حكم القضاء
الذي لا املك رده ولا اعرف وجه الحيلة فيه ، واحتملت طفلي الى
بيت أبي فوجدته مريضاً مشرفاً ، فبكنى رحمة بي ، واستغفرني من ذنبه
الي فغفرته له ، وما هي الا ايام قلائل حتى مضى لسبيله مفجوعاً برزني
الذي نزل بي ، فعلمت ان الدهر قد سجل علي في جريدة الشقاء اياماً
طوالاً لا اعلم متى يكون انقضاؤها ، ولا أدري ما الله صانع فيها ، فظلمت
استكتب الناس الكتب الى ذلك الرجل اساله القوت ، لأستعين به على
تربية طفلي ، او التسريح ، عسى ان يبدلني الله خيراً منه زكاة واقرب
رحماً ، فضع بالأولى واستعظم الاخرى ، فلم أرى لي سبيلاً غير سبيل
العمل ، فلبثت بضع سنين ساهرة الليل ، قائمة النهار ، استقطر الرزق من
سم الخياط ، فلا ابلغ منه الكفاف .. حتى نال مني الجهد .. فذهبت
بعضلة من الأدوية خرجت لها عن كل ما املك من حيلة وذخيرة ..
وكسوة وآنية ، واصبحت لا املك درهماً ابتاع به قارورة الدواء ، ولا

اجد مزقة امسك بها قوائم هذا السرير المتداعي ، ولم يقنع الدهر مني
بذلك حتى رماني بالداهية الدهياء التي يصغر بجانبها كل عظيم من خطوبه
ونكباته ، فقد كتبت الى ذلك الرجل منذ شهر اصف له حالتي وافضي
اليه بذات نفسي واساله ان يمدني وابنتي بقليل من القوت نمسك به تلك
الصباية التي أبقتها خطوب الايام وارزاؤها من اعظمتنا وجلودنا ،
ولبثت اترقب رجوع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة ، فإني لجالسة
منذ ايام على هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه الي وسيئاته عندي ، فلا
افرغ من عقد الا الى عقد ، ولا انتهي الا الى حيث أبتدىء ، وقد اجلست
طفلتي بين يدي اتطلع الى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما
يتطلع الملاح في ظلمات بجره الى نجمة القطب .. إذ هجم عليّ ذلك الظالم
الجبار فاختطف ابنتي من بين يدي من حيث لا املك دفعا لما نابني ،
ولا اجدا ما أذود به عن نفسي ، الازفرات لا يسمعا سامع ، وعبرات
لا يرحمها راحم ، فشعرت كأن سهم الدهر الذي كان يروغ قبل اليوم هنا
وهنا .. قد اصاب في هذه المرة المقتل ، فبت ليلتي كما يجب ان تبيت
امرأة بائسة معدمة قد فجعها الدهر بكل ما تملك يدها وبكل ما تتعلق
به آمالها ، فأصبحت لا تجد أمامها يداً تنبسط اليها ، ولا عيناً تبكي
عليها ، وقد مر بي على ذلك نيف وعشرون ليلة لا يرقأ لي دمع ولا يهدأ
بي مضجع ، حتى اذا اختلست من يد الظلام نعسة تراءت لي تلك الفتاة
في نومها كأنها صارخة باكية تهتف باسمي ، وكان أباه يوسعها ضرباً
وتعدياً ، وكانني أحاول استنقاذها مما هي فيه فلا أجد اليها سبيلاً ،

وهانذا أشعر أن سحابة الموت تغشي على بصري . وأني مفارقة هذا العالم قبل أن ألقى على ابنتي نظرة اتزود بها منها قبل ان افارق هذه الدار .

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى جرست بريقها وتتابعتم أنفاسها وشطر بصرها ، فجنثوت عند سريرها أدعوا لها الله أن يعينها على أمرها ، ويمدها برحمته وإحسانه . فإني لكذلك ، وقد استغرقت في هذا المشهد الذي بين يدي استغراق العابد في هيكله . إذ رأيت من خلال الدموع التي كانت تزدحم في عيني شبحاً منتصباً عند باب الغرفة فتأملته فإذا رجل يمك بيده فتاة صغيرة . فتقدمت نحوه فرأيته خاشعاً مستكيناً ينظر الى فتاته نظرات الوجد والرحمة ، والفتاة كأنها خرقة بالية لا يتحرك بها عضو ، ولا ينبض بها عرق . فقلت : من أنت وماذا تريد ؟ قال : أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة ، قلت : لعلك جئت تستغفرها من ذنبك اليها . في التفريق بينها وبين ابنتها ؟ قال : يا سيدي ما زالت الفتاة مذ فارقت أمها تبكي عليها بكاءً مرّاً ، وتهتف باسمها في يقظتها ومنامها ، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طب ، ولا ينجع فيها دواء ، فلما رأيت أن الأمر قد وصل بها الى هذا الحد جئت بها الى امها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاء من دائها ، قلت : ذلك موكول الى القضاء ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، ثم تقدمت نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها ، فاحتملتها برفق حتى وضعتها بين ذراعي امها ، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بأمها ، والأم بفتاتها ، حتى فاضت نفساهما معاً ، كأننا

كأنتا من الردى على ميعاد 11

الآن وقد عدت من دفن تينك الشهدتين ، وجلست لكتابة هذه
السطور ، أشعر أن نفسي تسيل من بين جنبي حزناً على تلك المرأة
المسكينة ، لا بل حزناً على جميع البائسات من النساء اللواتي يقتلهن
الرجال كل يوم صبراً بسيف الطلاق الماضي ، من حيث لا يجدن راحاً
يرحمهن ، ولا ثائراً يثار لهن .

*

الدعاء

وهي خلاصة قصيدة لفكتور هيجو :

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد نزل ستار الليل ، ودب الشقق الأحمر
في حاشية الأفق ، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب ، وأجرى
البدر المنير ليقته الفضية البيضاء على صفحة النهر ، ومسحت أيدي
النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار ، غبار النهار .

قومي يا بنية الى الصلاة . فقد مات النهار ، وماتت بموته الآلام
والأحزان والاحقاد والاضغان ، والمظالم والمآثم ؛ ولم يبق من تلك
الاعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء في طريقه الى أبواب السماء .

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد أوى الناس الى منازلهم ، والطيور
الى وكناتها ، والوحوش الى أوجرتها ، وأخذت الطبيعة مكانها من
مرقدها ، ولم يبق من اصواتها الا انين الراحة المتمثل في جمجمة هذه
المركبة المقبلة ، وجوار هذه الساعة العائدة من حقولها ، ودمدمة تلك

الرياح الضاربة في ذوائب الاشجار ، وأعلى الابراج .

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد جاءت الساعة التي يجثو فيها الاطفال حول اسرتهم حفاة الاقدام عراة الرؤوس ، وشواخص الابصار ، يطلبون الراحة من الله تعالى لأبائهم وامهاتهم وللناس اجمعين ، فترن اصواتهم ، في علياء السماء ، رنين نغمات الموسيقى في أجواز الفضاء فيردددها الملائكة طائرين بها الى عرش الرحمن ، فإذا فرغوا من دعائهم وقضوا حق الله عندهم ، وحقهم عند أنفسهم ؛ ذهبوا الى مضاجعهم وناموا نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الاحلام الجميلة حول افواههم الباسمة ، كما تتطاير اسراب النحل حول احواض الازهار .

قومي يا بنية الى الصلاة .. واطلبي الرحمة لتلك التي التقت ذرتك الاولى من عالمها ، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريراً قبل سريرك ومن احشائها مهاداً قبل مهادك ، والتي قدم لها الدهر كاسي شقائه ونعيمه فشربت الاولى وآثرتك بالاخري .

اطلبي لها الرحمة فإنها كانت طيبة القلب ، طاهرة النفس ، تحب حتى من لا يحبها وترحم حتى من لا يرحمها ، وتبتسم ابتسامة عذبة صافية لا يمازجها ذلك الريب الذي يمازج ابتسامات النساء ، وتمديدها الى اجتناء كل ثمرة الاثمرة الشجرة المنهى عنها ، وكانت تقف امام مسرح الحياة الحافل بالخارف والتهاويل وقفة المتمهل الذي يتهم سمعه وبصره ، وتنظر اليه نظرة الحكيم العاقل الذي يعلم ان السعادة الكاذبة أمر مذاقاً في الافواه من الشقاء الصادق ، وأن الذين يضحكون سروراً بهذه الصور

الخالية إنما يكون من حيث لا يشعرون ، وأن الجالسين حول مائدة
الشهوات واللذائذ إنما يقامرون بأنفسهم ولا بد أنهم خاسرون ، فتحول
بصرها ، وتشيح بوجهها ، وتعود أدراجها ، بقلب غير مخدوع ، وفؤاد
غير مصدوع .

اذكري يا بنية ان تطلي الرحمة لاييك كما تطلينها لامك ، فهو
أحوج اليها منها ، ولأن الخطايا قد اثقلت ظهره فاصبح لا يستطيع أن
يرفع رأسه الى السماء ؛ وغلت يده ، فلا يستطيع أن يدها الى الله
بالدعاء .

إنني أشعر يا بنيتي حينما اسمع نشيد دعائك أنني أسمع صوت انقسام
القيود عن قدمي ، وأن تلك السحابة السوداء التي تغمى على عيني تنقشع
عنها قليلا قليلا وكان جناحي المهيض قد نبت له ريش ناعم جميل أحاول
أن أطير به في أعالي السماء .

اطلبي الرحمة الآباء العائدين الى منازلهم تحت جناح الظلام بدموع
منهلة ، وقلوب واجمة ، بعد أن سايروا الشمس من مشرقها الى مغربها
فلم يجدوا ما يمسخون به دموع أبنائهم الذين ينتظرونهم في منازلهم .

اطلبي الرحمة للأمهات الجالسات حول أسرة ابنائهن المرضي وقد
رجفت قلوبهن ، وحارت ابصارهن مخافة أن يذقن مرارة الشكل والشكل
كثير على قلوب الامهات .

اطلبي الرحمة للبخیل الذي یجیع بطنه ویشبع صندوقه ، والاحق
الذي یتسم للمعان الحریر فی صدره ، والذهب فی اصابعه ، والملک الذي
یشعل نار الجرب فی امته ، لیطفئ نار غضبه ، والزوج الذي لا یحاسب
نفسه علی لیلۃ سوء یقضیها خارج بیته ، ویحاسب زوجته علی ابتسامة
تسمها لرجل غیره ، وسائر البائسین الذين لا یشعرون ببؤسهم ، والاشقیاء
الذين یظنون أنهم سعداء .

اطلبي الرحمة لأولئك الذين عمروا الارض وبنوا دورها ، وشادوا
قصورها وزخرفوا سهولها وجبالها ، وأغوارها ، وأنجادها ، فجازتهم
سوءاً بما عملوا ، وابتلعتهم فی أعماق جوفها ، فأصبحوا فی تلك الحفرة
المظلمة الموحشة التي تختلط فیها الرؤوس بالاقدام ، والنعال بالتیجان ،
والتي ینطوي فیها کل قديم تحت کل حدیث ، انطواء اللجة تحت اللجة
فی البحر المحیط ، یتألمون وینطقون ، ولا یستصرخون فلا یجدون من یسمع
نداءهم ، او یلی دعاہم .

اطلبي الرحمة لهم ، فإن الدعاء الخالص یستحیل فی نظرهم الی روضة
غناء تزهر فوق اجداثهم ، وارکعی فوق التربة التي یثنون تحتها ،
واسقیها من دموعك قطرات باردة تبل غلتهم . وتطفئ جذوة الحزن
الملتہبة فی أحشائهم ، إنهم الی الرحمة محتاجون والی الله راغبون .

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار ، والعصاة والطائعين ، والملاحدين

والمؤمنين ، وكل دارجة في الأرض ، وكل ساجدة في السماء ، ولا تياسي أن
يستجيب الله دعائك ، فلكل بداية نهاية ، ولكل سائلة قرار .

كما ان النهر يصب في البحر ، والطائر يقع على الغصن ، والشمس
تجري لمستقرها ، والنفس تصعد الى عالمها ، كذلك أبواب السماء ، مفتحة
لخالص الدعاء .

★

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسداً أحداً على نعمة ، فإني أحسد صاحب الكوخ
على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره ، لو أن للاوهام
سلطاناً على النفوس لما تضاءلت الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا ورم أنف
الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أرباباً من دون الله .

أنا لا أغبط الغني الا في موطن واحد من مواطنه ، إن رأيتك يشبع
الجائع ويواسي الفقير ، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه
الدهر أباه ، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها ، ويمسح بيده دمعة
البائس والمحزون ثم أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى .

أرثي له إن رأيتك يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل
الشیطان من قلب الإنسان فيمتص الثألة الباقية له من ماله ليسد في وجهه
باب الأمل ، وأرثي له إن رأيتك تعتقد أن المال هو منتهى الكمال الانساني
فلا يطمع في فضيلة ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثي له وأبكى على

عقله إن مشى الخيلاء ، وطاول بعنقه السماء ، وسلم بإيماء الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يخزر بعينه خزراً ليرى هل سجد الناس لمشيته ، أو صعقوا من هيئته ؟ وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحاً جعداً مقترأ على نفسه وعياله ، بغيضاً الى قومه وأهله ، ينتمون عليه حياته ، ويستبطنون ساعة حتفه .

أما الفقير فهو أسعد الناس عيشاً ، وأروحهم بالاً ، إلا إذا كان جاهلاً مخدوعاً يظن أن الغني أسعد منه حظاً ، وأرغد عيشاً ، وأثلج صدرأ فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه ، ويجلس في كسر بيته جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة ، ويرسل العبرة فالعبرة ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن ربَّ صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه ، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه اسطع ذبالاً واكثر لآلاء من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق بين يديه ، وأن تلك الحشية من الشعر او الوبر انعم ملمساً وألين مضجعاً من وسائد الحرير ونضائد الديباج .

لقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس انهم يحفلون بالأغنياء لأنهم اغنياء ، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبيل غلة او يسيغ غصة، وليت شعري ان كان لا بد لهم من اجلال المال واعظامه حيث وجد، فلم يقبلون ايدي الصيارفة ، ولا ينهضون اجلالاً للكلاب المطوقة بالذهب ، وهم يعملون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟

لو عامل الفقراء بخلاء الاغنياء بما يجب ان يعاملوا به لوجدوا انفسهم
في وحشة من انفسهم ، ولشعروا ان بدرات الذهب التي يكتزونها انما هي
اساور ملتفة على اقدمهم ، واغلال آخذة باعناقهم ، ولعلموا ان الشرف
في كمال الأدب ، لا في رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال ، لا في اجمال
المال .

فليعظم الناس الكرماء ، وليحتقروا الأغنياء ، وليعلموا ان الشرف
شيء وراء الغنى والفقير ، وان السعادة امر وراء الكوخ والقصر .

★

على سرير الموت

مررت يوماً من الايام على باب منزل صغير في احد الازقة الضيقة ،
فرايت حوله مجعاً حافلاً تصطك فيه الاقدام بالاقدام ، وتمتج فيه
الانفاس بالانفاس ، وقد تخلله قوم من رجال الشرطة وسمعت قائلاً
يقول: « قبح الله الانتحار » وآخر يقول : « احسبه شاباً غريباً لاني لم
ار عيناً تدمع عليه » فعلمت ان هناك شاباً منتحراً ، وان هذا الحادث
سبب هذا الاجتماع .

لم اقنع بالاجمال ، فاحببت معرفة التفصيل ، فحاولت الدخول الى
المنزل فما استطعت الى ذلك سبيلاً ، فتريشت حتى لمحت رجلاً من رجال
الشرطة اعرفه فدخلت معه وهالك رايت على سرير الموت فتى في نحو
العشرين من عمره ، رقيق الجسم اصفر اللون ، لم تستطع يد الموت ان
تمحو كل آثار جماله ، بل بقيت منه بقية كتلك البقية من الطيب التي
يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة .

اهتم الضابط بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه ، واهتم الطبيب ببحثه
ليعرف علة موته ، اما انا فجلست بجانبه جلسة الكئيب المحزون افكر
في مصيبتيه ، واثب شبابه وجماله ، فلمحت حول سريره اوراقاً منشورة
فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب
بما افعل ، علي اجد فيها عبرة من العبر .

وما هي الا ساعة ، حتى قرر الطبيب انه منتحر بشرب مادة
الزرنينخ وقرر الضابط نقل جثته الى المستشفى ، فنقلت الجثة ، وانفض
الجمع المزدهم ، ثم لم اعد اعلم بعد ذلك من امره شيئاً .

خلوت بنفسي والاوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق ،
تناول كأس الحب بيده ، فارتشف منها الرشفة الاولى فوجدها حلوة
المذاق ، فالصق الكأس بفمه ، واستمر يشرب لا يرفعها ، ولا يشعر
بالمرارة المتجددة في جرعاتها حتى أتى على الجرعة الاخيرة ، فإذا هي
السم الناقع الذي قتله وذهب بحياته .

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسي منه ، ثم طويتها
وألقيت بها بين اوراقى ، وظلت على ذلك اعواماً طوالاً .

وبينا أنا أقلب اوراقى ليلة أمس إذ عثرت بها في سفت صغير ، قد
اصفر لونه لتقادم العهد عليه ، كما يصفر الكفن حول الجثة البالية ،
فشعرت برعدة تتمشى في أعضائي ، وتخيلت انها في هذا السفت شبوح
كاتبها في ذلك القبر .

تم عدت الى نفسي فنثرتها للمرة الثانية وأعدت قراءتها ، فرأيت
قلب العاشق مرسوماً فيها رسماً صحيحاً في حالي سعادته وشقائه ،
وهانذا انشرها في الناس لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا
السبيل ، سبيل الحب القاتل :

- ١ -

رأيتها فأحببتها ، وما كنت أعرف الحب من قبلها .

كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه ، فلما أشرق فيه الحب
أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة ؛ لها من الشمس نورها وجمالها ، وليس
لها منها حرارتها ولذعتها .

كنت اشعر قبل اليوم كأن قلبي في صحراء هذه الحياة وحيد
موحش لا يعرف القلوب ، او يعرفها ثم ينكرها ، فلما احببت رأيت
بجانبه قلباً يؤنس ويزيل وحشته ، فوجدت بين جوانحي من اللذة
والغبطة ما لو قسم على القلوب جميعاً ما خالطها حزن ولا مسها ألم .

كنت اسمع باسم السعادة ولا افهم معناها غير أني كنت أسمعهم اذا
ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة ، والفضة والذهب ، والسلطة
والجاه ، والشهرة والصيت ، فلما احببت اعتقدت ألا سعادة في الدنيا غير
سعادة الحب ، وأيقنت ان الناس جميعاً إنما يطلبون سعادة الاجسام لا
سعادة النفوس ، فمثلهم كمثل الدفين المكفن بالحريير والديباج ، وباطنه
مسرحة الدود ومرتع الهوام والحشرات .

احببتها قبل أن اعرف عنها شأناً من الشؤون سوى أنها تحبني ،
فكانني ما منحتها قلبي إلا لأنها منحني قلبها ، وهو ثمن قليل في جانب
هذه المنحة الغالية التي ما كنت احدث نفسي بها ، ولا كانت تستطيع أن
تمثلها في عيني خواطر الأماني ، ولا سوانح الاحلام .

عشت دهرأ بين أقوام لا يعنيه امرى ولا يهمهم شأني ، وذقت من
آلام الحياة وشقاء العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، فسمعت من
يسألني : كيف حالك ؟ ومن يقول لي : ما اشد جزعي لمصائبك ؟ ومن
يتباكى رحمة بي وإشفاقاً عليّ ، ولكنني لم ار بجانبى يوماً من الايام عيناً
تدمع ، ولا قلباً يخفق !

رأيت من يحب جمالي كما يحب مثلاً متقن الصنع ، ومن يحب مالي كما
يجبه في كيسه او خزانته ، ومن يعجب بخديثي اعجابه برواية بديعة ،
ولكنني لم ار في حياتي من يحبني !

اما اليوم فقد وجدت بجانبى القلب الذي يخفق لاجلي ، والعين التي
تبكي في سبيلي ، والنفس التي تحبني لا لشيء سواي ، فقليل لها مني أن
امنحها حياتي فكيف أبخل عليها بقلبي !

جلست اليها للمرة الاولى فحدثني نفسي أن أمد يدي الى يدها
فأضعها على صدري لاطفىء بها غلتي ، فما لمستها حتى نظرت اليّ نظرة

العائب ، وقالت : كن رجلا في حبك ، واترك الطفولة لغيرك .
ان كنت تحبني لنفسي فما أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها من دوني ..
وان كنت تحبني لهذه الصورة الجسدية فما أضعف همتك .. وما أصغر
نفسك ! .

اتذرف دمعك ، وتسهر ليلك ، وتذيب حبة قلبك ، من اجل عظمة
تلمسها او جلدة تلمسها ؟

أنت شريف في نفسك ، فكُن شريفاً في حبك ، واعلم أنني ما أحببت
غير نفسك فلا تحب غير نفسي .

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى رأيتني قد صغرت في
عين نفسي وتمنيت ان لو عجل الى اجلي قبل ان ير هذا الخاطر الفاسد
في ذهني . ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي ، وما عدت من بعدها الى
مثلها .

— ٤ —

الآن عرفت مبلغ عظمتها ، وفضل هدايتها ، ومقدار ما يبلغه الحب
الشريف من النفس ، فهأنذا أشعر كأن نفسي مرآة يغشاها الصدا ، وكان
الحب صيقل يصقلها فيجلو صفاتها شيئاً فشيئاً .

كنت احمل بين جوانحي لأعدائي ضغناً وحقداً ، فأصبحت لا أشعر
بما كنت اشعر به من قبل ، لأن الحب ملك على قلبي ، واستخلصه لنفسه
فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه .

كنت ضيق الصدر إن مسني ألم .. سريع الغضب إن فاتني مارب ..
فأصبحت فسيح رقعة الحلم ، لا يستفزني غضب ، ولا يجرجني محرّج لأنني
قنعت بسعادة الحب ، فلم احفل بعدها بشيء سواها .

كنت شديد القسوة ، متعجر القلب ، لا اعطف على بائس ، ولا
احنو على ضعيف ، فأصبحت اشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري ولا
تصيبني ، وأتالم لبؤس كل بائس وحزن كل محزون ، لأن الحب أشرق
في قلبي فلاه نوراً .. فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه وبين
القلوب .

وجملة القول انني كنت وحشاً ضارياً أعيا العالمين رياضته وتدليله ،
فصرت بين يدي الحب الشريف إنساناً شريفاً ، وملكاً كريماً .

— ٥ —

خرجت بها في الليل الى ضفة النهر ، وكان الماء رائقاً ، والسماء
صافية ، وفي كل منها نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته فاختلط علينا
الامر حتى ما نفرق بين الاصل والمرآة ولا ندري أين مكان الماء من مكان
السماء ، فشيننا طويلاً لا ينبس احدنا بكلمة ، وكان سكون الليل قد
سرى الى أفئدتنا وملا ما بين جوانحننا ، فأمسكنا عن الحديث هيبة
واجلالاً .

وكنت اشعر في تلك الساعة بخفة في جسمي ، وصفاء في نفسي حتى
كان يخيل اليّ أني لو شئت ان اطير لطرت بغير جناح ، وأن في استطاعتي

أن اخترق بنظري حجب السماء وأنفذ الى الملا الاعلى فأرى هنالك ما هو
محبوب عن نظر الناس أجمعين ، وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم
سبيله فلا يهتدي الى مغربه ، وأن يختبئ الليل في برده فلا يعثر به
فجره ، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم وما دام الظلام .

فالتفت اليها وسألتها : هل تشعر بالسعادة التي أشعر بها ؟

قالت : لا ، لاني أعرف من شؤون الايام وأحوالها غير ما تعرف
ولاني لا أنظر الى الدنيا بالعين التي تنظر بها اليها !
أنت سعيد بالأمل ، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة .

إنك سعيد لانك تظن أن سعادتك دائمة لا انقطاع لها ، وأنا شقية
لاني اتوقع في كل لحظة زوالها وفناءها .

إنك إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء ، وأن تحول بين
الارض ودورتها ، وأن تمنع الساكن أن يتحرك ، والمتحرك ان يسكن ،
فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها .

وهنا أمسكت عن الكلام وأطرقت برأسها طويلا ، فرأيت مدامعها
تنحدر على خديها بيضاء صافية كاللؤلؤ المكنون ، فبكيت لبكائها ،
وقلت لم تبكين ؟ قالت : خوف الفراق ، قلت : فراق الحياة ، أو فراق
الموت ؟ قالت : أما فراق الحياة فإنني لا اخافه ، لانه لا توجد قوة في
العالم تستطيع ان تحول بيني وبينك ، انما اخاف فراق الموت ، لانه
الفراق الذي لا حيلة لي فيه .. ولا منتدح عنه ، قلت : هل لك ان تتعاهد

على أن نعيش معاً ونموت معاً، قالت : ذلك ما يهون عليّ ألي، فتعاهدنا،
ثم رجعنا أدر اجنا ، والليل يشمر أذباله للفرار من النهار ، ثم افترقنا على
ميعاد ، وذهب كل منا لسبيله .

— ٦ —

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعة واحدة عن هذا الانسان؟
ألا يستطيع ان يستقيه كأساً واحدة لا يخالطها كدر ، ولا يمازجها
شقاء ؟

ألا يستطيع أن يجرمه السعادة بتاتاً فلا يذيقه من كأسها قطرة
واحدة ما دام يريد أن يمنحه اليوم ليسلبه غداً ؟
ان الانسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم ، ولكنه يعجز عن
احتمال السعادة المتقطعة .

يقولون : ان الامل حياة الانسان ، وما قتل الانسان ومزق شمل
حياته الا الامل .

ليتني ما سعدت ، لانني ما شقيت الا بسعادي ، وليتني ما أملت ،
لان اليأس القاتل ما جاءني الا من طريق الامل الباطل .

ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي ، وأشعة آمالي ، وينبوع سعادي
وهنا تي .

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالاً وبهاء ، فمات بموتها كل حي
في هذا الوجود .

أرى الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء ، وأرى الطيور صامتة
لا تغرد ، والغصون ساكنة لا تتحرك ، وأرى النجوم آفلة ، والازهار
ذابلة ، والطبيعة واجمة حزينة، لا يفتر ثغرها ولا يتلالا جمالها ، وأرى
الدنيا كأنما عادت الى عهدها الاول لا يسكنها انسان ولا يخطر بها حيوان،
وكأنني فيها آدمها الوحيد المسكين يندب جنته ويشكو وحدته .

أيها الدهر الغادر : ان غلبتني عليها فإنك لن تستطيع ان تغلبني
عن نفسي ، لك أن تخرج من الدنيا من تشاء ، ولكن ليس لك ان ترد
اليها من تخرج منها .

ويا ابتها النفس الهائمة في سماءها ، لا تجزعي ولا تعجلي ، فوالله لأفين
بعهدك ولأذهبن عما قليل وحشتك ليكونن عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في
ماضيها ، فما تعارفنا في العالم الاول الا بأرواحنا فلنكن كذلك في العالم
الثاني .

غدر المرأة

يقصون في بعض الاساطير القديمة أن حكيمًا من حكماء اليونان كان يحب زوجته حباً ملك عليه قلبه وعقله .. وأحاط به احاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمازج هناءته الحاضرة شقاء مستقبل يسوقه الى نفسه الخوف من أن تدور الايام دورتها ، فيموت ويفلت من يده ذلك القلب الذي كان مغتبطاً باعتلاقه الى صائد آخر يعتلقه من بعده ، وكان كلما أبت زوجته سرّه وشكا اليها ما يساور قلبه من ذلك الهم ، حنت عليه ، وعللته بمعسول الاماني وأقسمت له بكل عمرجة من الايمان انها لا تسترد هبة قلبها منه حياً وميتاً .. فكان يسكن الى ذلك الوعد سكون الجرح الذرب تحت الماء البارد .. ثم لا يلبث أن يعود الى هواجسه ووساوسه ، حتى مر في بعض روحاته الى منزله في احدى الليالي القمرية بمقبرة المدينة .. فبدا له ان يدخلها ليروح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى ، وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخر ، ويلذ للجبان وهو يرتعد فرقاً

الإصغاء الى حديث المردة والجان، فرأى في بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأة متسلبة جالسة امام قبر جديد لم يحف ترابه ويدها مروحة من الحرير الابيض مطرز بأسلاك من الذهب ، تحركها يئنة ويسرة لتجفف بها بلبل ذلك التراب فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمراه .. ثم أنست به حينما عرفته .. فسألها ما شأنها .. وما مقامها هنا ؟ ومن هذا الدفين ؟ وما هذا الذي تفعل ؟ فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها ، فجلس اليها وتناول المروحة منها ، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها ، وأنه مات منذ ثلاثة ايام ، وأنها جالسة من الصباح مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاء بيمين كانت قد أقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يحف تراب قبره ، وان هذه الليلة هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن اليها ان تحنث بيمين اقسمتها له .. او تخيس بما عاهدته عليه ، ثم قالت له : هل لك يا سيدي ان تقبل هذه المروحة هدية مني اليك .. وجزاء لك على حسن صنيعك معي ؟ فتقبلها منها شاكرآ بعد ان هناها بزواجها الجديد ا ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية ، ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان يحدث نفسه ويقول : انه احبها واحسن اليها ، فلما مات جلست فوق قبره لا لتبكيه .. ولا لتذكر عهده ، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي اقسمتها له ؛ فكانها وهي جالسة امام زوجها الاول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني وكأنها اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل امامها جبينها ، وتصفف طرتها وتلبس حليتها،

للزفاف الى غيره .

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر ، ورأى زوجه ماثلة امامه مرتاعة لمنظرة المؤلم المحزن فقال لها : ان امرأة خائنة غادرة اهدت الي هذه المروحة فقبلتها منها اليك .. لانها اداة من ادوات الغدر والخيانة ، وانت اولى بها مني . ثم انشأ يقص عليها ، قصة المرأة حتى اتى عليها ، فغضبت وانترعت المروحة من يده ومزقتها ارباً ارباً.. وانشأت تسب تلك المرأة وتشتمها ، وتعي عليها غدرها وخيانتها وسفالتها ودناءتها ، ثم قالت : ألا يزال هذا الوسواس عالقاً بصدرك ما دمت حياً ؟ وهل تحسب ان امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة ؟ فقال لها : انك اقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي ، فهل تفين بعهدك ؟ قالت : نعم ، ورماني الله بكل ما يرمي الغادر ان انا فعلت ؛ فاطمان لقسمها وعاد الى هدوئه وسكونه .

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً ، فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى اشرف على الموت ، فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذكرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمس ، فامرت ان يسجى بردائه ويترك وحده في قاعته حتى يختفل بدفنه في اليوم الثاني ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكيه وتندبه ما شاء الله ان تفعل ، وانها لكذلك اذ دخلت عليها الخادم واخبرتها ان فتى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلده ليعوده حينما سمع بخبر مرضه ، فلما سمع حديث موته دعر

ذعرًا شديدًا وخرّ في مكانه صعقًا وانه لا يزال صريعاً عند باب المنزل لا تدري ما تصنع في أمره ، فأمرتها ان تذهب به الى غرفة الأضياف وأن تتولى شأنه حتى يستفيق ، ثم عادت الى بكائها ونحيبها ، فلما مر الهزيع الثاني من الليل دخلت عليها الخادم مرة أخرى مذعورة مرتاعة وهي تقول : رحمتك وإحسانك يا سيدي فإن ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذاباً أليماً وقد حرت في أمره ، وما احسبه ان نحن أغفلنا أمره الا هالكا ، فأهمها الامر وقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت الى غرفة الضيف فرأته مسجى على سريره، والمصباح عند رأسه فاقتربت منه ونظرت في وجهه ، فرأت ابداع سطر خطته يد القدرة الإلهية في لوح الوجود ، فخيّل اليها ان المصباح الذي امامها قبس من ذلك النور المتلألئ في ذلك الوجه المنير، وان انينه المنبعث من صدره نغمة موسيقية محزنة ترن في جوف الليل البهيم ، فأنساها الحزن على المريض المشرف الحزن على الفقيد الهالك ، وعناها أمره ، فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج الا توسلت بها اليه حتى استفاق ونظر الى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء ، ثم انشأ يقص عليها تاريخ حياته ، فعرفت من أمره كل ما كان يهمها ان تعرفه ، فعرفت مسقط رأسه وسيرة حياته وصلته بزوجها وأنه فتى غريب في قومه لا أب له ، ولا أم ، ولا زوجة ولا ولد ، وهنا أطرقت برأسها ساعة طويلة عاجلت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عاجلت ، ثم رفعت رأسها وامسكت بيده؛ وقالت له: انك قد ثكلت استاذك وأنا ثكلت زوجي فأصبح همنا واحداً، فهل لك

ان تكون عوناً لي وأن اكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعداً ولا معيناً ، فإلم بجبيئة نفسها فابتسم الحزن والمضض ، وقال لها : من لي يا سيدتي ان اظفر بهذه الأمنية العظمى ، وهذا المرض الذي يساورني ولا يكاد يبدأ عني قد نغص عليّ عيشي ، وافسد عليّ شأن حياتي ، وقد انذرنني الطبيب باقتراب ساعة اجلي ان لم تدركني رحمة الله ، فاطلبي سعادتك عند غيري ، فانت من بنات الحياة ، وانا من ابناء الموت . فقالت له : انك ستعيش ، وسأعالجك ولو كان دواؤك بين سحري ، ونجري قال : لا تصدّقي ما لا يكون يا سيدتي فأنا عالم بدوائي ، وعالم بأنني لا اجد السبيل اليه ، قالت : وما دواؤك . قال : حدثني طبيبي ان شفائي في أكل دماغ ميت ليومه ، وما دام ذلك يعجزني فلا دواء لي ولا شفاء ، فارتعدت وشحبلونها وأطرقت إطراقة طويلة لا يعلم الا الله ماذا كانت تحدثها نفسها فيها .. ثم رفعت رأسها وقالت : كن مطمئناً فدواؤك لا يعجزني ، ثم أمرته ان يعود الى راحته وسكونه ، وخرجت من الغرفة متسللة حتى وصلت الى غرفة سلاح زوجها فأخذت منها فأساً قاطعة ، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاسا حتى وصلت الى غرفة الميت ، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريراً مزعجاً ، فجمدت في مكانها رعباً وخوفاً ، ثم دارت بعينيها حولها فلم تر شيئاً فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده ، ولم تكذب تهوي بها حتى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظر اليها ، فسقطت الفأس من يدها ، وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف

والخادم واقفين يتضحكان ، ففهمت كل شيء .

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يد تلك المرأة
اجل من هذه الفأس في يدك ؟ أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد
دفنه افضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ؟ فصارت تنظر اليه نظراً
غريباً ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها .

★

الضاد^(١)

كان العرب الأولون أحراراً في لغتهم ، يضعون لكل ما يخطر ببالهم من المعاني ما يريدون من الألفاظ ، لا يتقيدون بقاعدة ولا شرط ، ونحن عرب مثلهم تجري في عروقنا دماؤهم ، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل ، فسهمنا في الضاد سهمهم ، وحقنا فيها حقهم ، فلم يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ، ولا نضعها مثلهم لثل ما وضعوا وحاجاتنا أكثر من حاجاتهم ، ومرافقنا أوفر عدداً من مرافقهم ، وأوسع فصولاً وأنواعاً ؟

ابن باديتهم الخلاء المقفرة التي لا يعمرها الا القليل من الخيام المبعثرة بين معاطن الإبل ومرابض الشاء ، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات ، وأنواع الآلات ، وغرائب المصنوعات ، وأكثرها مستحدث متطرف لم تتداوله السنون والايام ، ولم تعصف به عواصف

(١) الضاد : عنوان اللغة العربية .

القرون والاعوام

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش، ان تضيق حاجاتهم عن لغتهم، فيتفكروا بوضع خمسمائة اسم للأسد، واربعمائة للداهية، وثلثمائة للسيف ومائتين للحية وخمسين للناقة؟ وتضيق عن حاجاتنا، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الادوات التي يضمها المعمل إسماً عربياً واحداً؟ اللهم الا القليل التافه من امثال: المسبر والمبرد، والمنشار والمسار؟

ايكون لسفينة البروهي لا تحمل الا الرجل، او الرجل ورديفه- مائتا اسم ومائتان من الاسماء لأعضائها واورصالها، ورحلها وكورها.. ولا يكون لسفينة البحر- وهي المدينة المتنقلة في الدأماء- القليل من ذلك الحظ الكثير؟

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمر لغوي يعقدونه في كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف، يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم، ويتناشدون ويتساجلون ويتحاورون، ويتطارحون، ويعرضون أنفسهم على قضاة منهم يوازنون بينهم، ويحكمون لمبرزهم على مقصرهم، حكماً لا يرد ولا يعارض، ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتشعب لغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة لصعوبة التواصل في تلك البقاع وبعد ما بين قاصيها ودانيها فكان مطعم انظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغتهم وجمع شتاتهم والرجوع بها الى لغة قريش التي هي افصح اللغات وأقربها ماخذاً وأسهلها مساغاً وأحسنها بياناً.

أيقدر هؤلاء المعجزة الضعفاء في جاهليتهم الأولى على ما نعجز عنه نحن ؟ ونحن الى مؤتمرهم أحوج منهم اليه ، لان تشعب اللغة في عصرهم لا يمكن ان يبلغ مبلغه في عصرنا بين لغة الادباء ولغة العلماء ولغة الدواوين ولغة المتصوفين ، ولغة المترجمين ، ولغات العامة التي لا حصر لها .

ان كان الجاهليون في حاجة الى مجتمع لتوحيد اللغات المتشعبة ، فنحن في حاجة الى مجتمعات كثيرة: مجتمع لجمع المفردات العربية الماثورة وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية في كتاب واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به ، ومجتمع دائم لوضع اسماء للمسميات الحديثة بطريق التعريب او النحت او الاشتقاق ، وآخر للإشراف على الاساليب العربية المستعملة ، وتهذيبها وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر ، والوقوف بها عند الحد الملائم للعقول والاذهان ، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرز منهم والمقصر ، ان خيراً محير وان شراً فشر .

سياحة في كتاب

اعجب ما اعجب له من أمر نفسي أني احب الجمال خيالا ، اكثر مما احبه حقيقة ، فيعجبني وصف الروض اكثر مما يعجبني مرآه ، ولا اطرب لمنظر القتيات الجميلات ، طربي لمنظر القصائد الغزليات ، واحب ان اقرأ وصف المدن الجميلة ، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها وسهولها وبطاحها وانهارها وجداولها .. وميادينها وتمائنها ، وانديتها ومجامعها ولا يهمني ان اراها ، كأنني اريد ان استديم لنفسي تلك اللذة الخياليه واخاف ان تحول الحقيقة بيني وبينها واحسب اني لو كنت عاشقا لاصبحت اضحوكة العاشقين .. واعجوبة الهازئين والساخرين ، ولكن مثلي مثلا، ذلك الرجل الذي احب امرأة فاسترارها فنعمته حيناً ثم زارته ، فلما رآها تركها وذهب لينام فعجبت لشأنه . وسالته : ما باله ؟ فقال لها : اريد ان انام علني أرى طيفك في المنام !

جاء يوم شم النسيم فخرج الناس اليه يستقبلونه استقبال الجيش

المدجج للملك المتوج ، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق ، بعد طول الفراق ، وييسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة ، وقد ذهبوا في شأنه المذاهب كلها : فن صاعد الى رؤوس الجبال ، وسارب في سهل الرمال ، وواقف موقف الإعجاب والإجلال .. بين جمال الأنوار ، وأنوار الجمال ، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات وحسن الفتيات .. لا يعلم تشبه القامات الغصون ، ام الغصون القامات

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب ، وما كان لي ان اذهب مذهبهم لاني لا اعجب بما يعجبون . ولا اهتف لما يهتفون ، فقبعت في كسر بيتي اقتش عن ضالة خيال اجد فيها من السعادة والهناء ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثرغر الصهباء ، فلمحت بجاني كتاب بلاغة العرب ، وهو الكتاب الذي ترجمه الاستاذ « كامل حجاج » ، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية وزبدة ما جادت به قرائح كتابها وشعرائها .. فقلت : حسبي من الرياض هذه الزهرات ، ومن النسائم تلك النفحات .

خطوت الخطوة الأولى من سياحتي في هذا الكتاب فرأيتني واقفا تحت نافذة قصر اللوفر في باريس ، ورأيت الناس وقوفاً في ذلك الميدان الفسيح وقد هاج بعضهم في بعض حتى ضاقت بهم رقعة الارض ، ورأيتهم يبدون اعناقهم الى تلك النافذة وينظرون اليها نظرة الفلكي الى كوكبه اللامع ، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب ، وانهم كذلك إذ اطل عليهم نابليون الاول من نافذة قصره كما يطل البدر من

وراء الأفق يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس ، وملك روما كما يسميه ابوه ، فضج الناس لمطلعه ضجيجاً ملامساً مسمع الخافقين ، وابتسموا لمراه ابتساماً اضاء ما بين المشرقين والمغربين ، وهنا سمعت الشاعر الكبير^(١) يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائلاً له :

رويداً ايها الرجل المغرور بالتاج والسرير ، والملك الكبير .. والجيش الخاضع ، والشعب الطائع ، انت تقدر لطفلك في مستقبل الايام ملكاً كملكك ، ومجداً كمجدك ، وعزاً وسلطاناً كعزك وسلطانك ، غير عالم بما تكتمه ضمائر الايام من الحوادث العظام ، والخطوب الجسام ، فهل اخذت على الايام عهداً لنفسك فتأخذه لولدك ؟ وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك ؟

ايها الملك المغرور : انك ستفارق عما قليل هذا القصر الكبير .. الى الكوخ الحقير ، وسيحيط بك الجند في منفاك احاطة الإخضاع والإذلال .. لا احاطة الإعظام والاجلال ، وسيموت ولدك محروماً هذا العرش الذي هيأته له بل محروماً بضعة اشبار من تربة فرنسا يضطجع فيها ضجعة الموت .

ايها الملك المغرور : لا تقل ان المستقبل لي وإنما المستقبل لله .

تركت هذا الموقف الفخم الجليل وقد امتلات نفسي عبرة بمصائر

(١) فيكتور هيجو .

الايام ، ومصارع الكرام ، وتقلبات الدهر ما بين رفع وخفض ، وابرام
وتقض ، ومشيت حتى وصلت الى برية جرداء ، ودوية قفراء ، لا يطرقها
انسان ، ولا يدب بها حيوان ، فلمحت على البعد رجل يمشي على بعض
الشواطىء فوق أرض رملية يخدع ظاهرها ، ويقتل باطنها ، ويدب
ماؤها في احشائها ، دبيب الصهباء في الأعضاء ، ويكمن في صدورها
كمون الاسرار في صدور الاقدار .

فما هي الابضع خطوات حتى وقع نظري على رجل مسكين
غاصت قدماء في الرمل فحاول تزعمها فغاص الى ركبتيه ، فتحلحل ،
فغاص الى صدره ، وما زال يساعد على نفسه بنفسه ويهبط شبراً كلما
حاول ان يرتفع فترا ، حتى لم يبق منه على ظهر الارض غير فم يصرخ
بالنداء ، وعين تذرف بالبيكاء ، ثم ما لبث أن غطاهما الرمل فرفع يديه
بالدعاء ، فلم يجد من رحمة في الارض ولا في السماء .

وقفت أمام هذا المشهد المؤثر المحزن وقفة أرسلت فيها بضع قطرات
من الدمع على هذا البائس المسكين ، وقلت في نفسي : إنني عجزت عن
اسعاده في نكبته ومعونته في شدته ، فلا أقل من أسعده بقليل من الأسف
على مصيره المحزن الأليم .

ثم فارقت ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر لامتريتين فرأيتته جالساً
في غرفته الصغيرة وليس معه من يؤنسه غير كلبه المقع على عتبة بابه ،
فسمعتة يخاطبه ويقول له :

أيها العكلب الأمين ، قد هجرني الناس وبقيت بجاني ؛ وخائني
الأصدقاء ووفيت لي ؛ فانت في نظري أوفى الأوفياء ؛ وأصدق الأصدقاء ؛
ولولا أنك كريم الاخلاق متواضع ، تابى إلا أن تعرف لسيدك منزلته
من السيادة عليك ، وتحفظ له فضل ما أسدى من النعمة اليك ، لا كبرت
جلستك هذه عند عتبة الباب ، ولأجلستك بجاني على فراشي ، لأنك
صديقي ومؤمني ، ولأنك أحق بالإكرام من كثير من أولئك الذين
يفترشون الطنافس ، ويتوسدون الوسائد ، وحسي منك هذه النظرات
التي تلقيها عليّ بهدوء وسكون ، كأنك تقرأ فيها صفحة وجهي ، ما
غاب عنك من دخيلة أمري ، وكأنتي أسمعك تقول : ما باله ، وما شأنه ؟
وما الذي يبكيه ؟ ليتني أعرف دخيلة أمره ، وليتني أستطيع أن اكون
فداهه ا فحسي منك ذلك ، وهل يطمع الانسان ان يجد من اوفى اصدقائه
اكثر مما اجده في لفتاتك ، والحه في نظراتك ؟

سمعت لامرتين يناجي كلبه بهذا النجاء الرقيق ، فتسللت وذهبت
لشائي وأنا أقول في نفسي : إذا كان لامرتين - وهو أشعر شاعر في فرنسا ،
وفرنسا مهبط وحي الشعر - لم يجد له صديقاً وفيماً غير كلبه المقع على
عتبة غرفته ، فأين يذهب سائر الشعراء ، ومتى يجدون الأصدقاء ؟

تركت منزل لامرتين وذهبت الى منزل «دى موسيه» فرأيتة معتزلاً
في غرفة من غرف منزله يبكي بكاء مرأ .. ويزفر زفيراً شديداً ، تكاد
تنقطع له احشاؤه . فقلت : ليت شعري ما أبكاه ؟ وما الذي دهاه ؟
فسمعتة يترنم بقصيدة من قصائده يشرح فيها تاريخ وجدته وهواه ،

شرحاً مؤثراً مؤلماً حتى كان يخيل اليّ ان كل بيت من ابياتها جذوة نار ملتبهية . وسمعتة يشكو من خيانة حبيبته « جورج صاند » ويعالج نفسه على أن يسلوها ، ويتناسى عهدا وزمامها فلا يجد الى ذلك سبيلا .. وما هو الا ان اتم قصيدته حتى تغير لونه وشخص بصره .. واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة .. بين ايدي الرياح العاصفة ، ثم أخذ يهذي هذيان المحوم ، ويخلط في كلامه خلطاً شديداً ، فعلمت ان الرجل قد جن ، وان العالم الشعري قد فجع الى الابد . فمضيت لسبيلي ، وأنا أسأل الله العافية . وأقول : ان جمال المرأة احقر من ان يقتل او فر عقل ، وأعجز ان يطفىء اكبر قريحة .

ولكنها الاقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سر محجب

تركت منزل دى موسيه ، ومشيت في شارع من شوارع باريس ، فرأيت شيخاً رث الثياب ، زري الهيئة ، يمشي مشية هادئة مطمئنة ، ويجر في رجليه نعالاً بالية ، قد اطلت اصابعه من خروقتها كما تطل الحيات من احجارها فاتبعته نظري ، فرأيتة لا يرفع طرفه سكوناً واطرافاً ، ولا يكاد يحرك عضواً من اعضائه رزانة ووقاراً ، فقلت في نفسي : ان لهذا الرجل شأناً ، فمشيت وراه حتى رأيتة قد وقف على باب حانوت اسكاف ، فلم يجد صاحب الحانوت في مكانه ، فجلس على الارض ينتظره حتى يعود فيخصف له نعله ، فسالت بعض المارة عنه فقال : هذا « كورنى » شاعر فرنسا ، فاخذتني الدهشة وملكني العجب ، حتى كاد يحول بيني وبين عقلي ، وقلت في نفسي : ويح لكم معشر الناس .

أتضنون بقطعة من الجلد الأسمر ، على رجل يقلد اعناقكم الدر والجوهر .
اعجزتم على أن تجمعوا امرم على ان تمسحوا هذه الغضون عن تلك الجبهة
التي تجود عليكم كل يوم بما يفرج كربتكم ، وينخف محنتكم ، ثم رجعت
ادراجي وأنا اقول : كان قضاء حتماً على الدهر ألا ينيل هؤلاء الأدباء
من دهرهم ما يريدون ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون .

ان في جلسة « لامارتين » منفرداً في منزله لا مؤنس له غير كلبه ،
وفي عزلة « دي موسيه » في غرفته بين دموعه وأحزانه ، وفي جلسة
« كورني » امام حانوت الاسكاف ينتظر ترقيع نعله ، لآية للمتفكرين ،
وعبرة للمعتبرين .

الآن عدت من سياحتي في ذلك الكتاب اشكر للكاتب ما كتب ،
وللمترجم ما ترجم ، وأقول : من لي في كل يوم بسياحة مثل هذه السياحة
في كتاب مثل هذا الكتاب ؟

دمعة على الأدب

مات بالأمس امام الشعر البارودي ، وامام النثر محمد عبده ، فجزعنا
ما جزعنا ، وسكبنا عليها من الدموع ما سكبنا ، ثم كفكفنا من تلك
الدموع وخفضنا من زفرات الضلوع ، حينما سمعنا قول القائل : ان في
الباقى عزاء عن الفانى ، وان الأبناء خلفاً من الآباء ، ولقد كر على عهدهما
الشهر بعد الشهر ، والدهر بعد الدهر ، والأدب جاثم في مكمنه هامد لم
يبعث من مرقده بعد ما قبرناه ولم ينشر من قبره بعد ما واريناه ،
فتساءلنا : أين الباقى الذين يزعمون ؟ والخلف الذى يذكرون ؟

أين فطاحل اللغة الغربية ، لا السياسية ، وأرباب الأقلام العربية ،
لا الأعجمية ؟

عذرنا المويلحي الكبير واليازجى ، لأنها ماتا ولحقا بصاحبيهما ،
فهل مات شوقى وحافظ والبكري والمويلحي الصغير ؟
ما مات منهم أحد ، وإنما كانت حياة ذينك الرجلين ، حياة

الصناعيين ، وكان لوجودهما سر من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها والأقلام فيجريها وكانت منزلتها من الأحياء منزلة الأم من مصايح الكهرباء ، تشتعل المصايح بتيارها ، وتضيء بأسرارها ، فإذا فرغت مادتها وانقضى أجلها ، عم الظلام واشتد الحلك ، والمصايح - كما هي - جسم بلا روح ، ولفظ بلا معنى .

أما شوقي فقد طار في جو غير هذا الجو ، وهام في واد غير ذلك الوادي وما زالت تعبت به الأنواء حتى اغرقته في شبر من الماء ، وأما حافظ فقد انقبضت حياته النثرية قل انقضاء البؤساء^(١) ، أما حياته الشعرية فلم يبق مها غير نظم المقالات السياسية من العام الى العام ، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان ؟ وأما البكري والمولحي فقد قضيا حق التأليف ، هذا بصهاريج^(٢) وذلك بفقراته^(٣) ثم لحقا بالسابقين ، ومضيا على أثر الماضيين :

أين سكانك لا أين لهم احجازاً اوطنوها أم شأما

أين الروضة الغناء التي كنا تتفياً ظلها ، ونهصر اغصانها ، ونقطف ما شئتنا من ورودها ورياحينها ؟ وأين البلابل التي كانت تنتقل بين

(١) هو كتاب لفيكتور ميغو الشاعر الفرنسي ترجمه حافظ ابراهيم ترجمة فصيحة ولم يتمه

(٢) هو كتاب « صهاريج التلوؤ » للسيد البكري .

(٣) هو كتاب « فترة من الزمن » المسمى « حديث عيسى بن هشام » لعهد المولحي .

اشجارها فطرب بالأغاريد ، وتستهوى بالاناشيد .

فالسائها واجعل بكاك جواباً تجمد الدمع سائلاً ومجيباً

انا لا اعجب لشيء عجبي لهؤلاء الادباء : يحزنون فلا يبكون ،
ويطربون فلا يضحكون ، ويالمون بلا أنين ، ويمشقون بغير حنين .

ايطرب البلبل فيغرد ، ويشجي الحمام فينوح ، ويطرب الشاعر ،
ويشجي الكاتب ، فلا ينطق لسانها ولا ويهتر قلمها ؟

لما سنَّ عمر بن ابي ربيعة ورأى ان شعر الغزل والتصابي غير لائق
بشبيبه ووقاره ، عزم على هجره فما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وغلب على
امره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه ، فاحتمل لذلك بان حلف الا
يقول بيتاً من الشعر الا اعتق رقبة ، فشكا اليه رجل حباً برَّح به ، فحن
واهتاج ، ونظم ابياتاً في شأن الرجل ووجدته ، ثم اعتق عن كل بيت
رقبة .

فهل نزر أدباؤنا ما نذر عمر بن ابي ربيعة ، وهم في شرح الشباب
وابان الفتوة ؟ ان كانوا فعلوا ذلك فاسأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيج
اشجانهم ، فتعنت ايمانهم ، والامة كفيلة لهم بوفاء النذور ، وكفارة
الايان :

وذو الشوق القديم وان تعزى مشوق حين يلقي العاشقينا

القسم الثالث

البيان

أعرف أديباً من أفضل الأدباء في هذا البلد المضطلمين باللغة وفنونها. المحافظين للكثير المتع من منظومها ومنثورها ، الا أنه لا يكتب كلمة في صحيفة ، ولا ينشر في الناس كتاباً ، الا أعجم كتابته وأهمها، وتعمل فيها عملاً يأخذ على القارىء عقله وفهمه ، فلا يدري أي سبيل يأخذ بين مسالكها وشعابها ، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه ، الآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة، فلا سبيل له الى التخلص منها ، والنزوع عنها ، حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله اليه في بعض الشؤون الخاصة وكتبه بتلك اللغة السهلة البسيطة التي يسمونها اللغة العامية ، فاعجبت بأسلوبه في كتابه هذا اعجاباً كثيراً ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل ، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته ، قادر على الابانة عن أغراضه ومراميه ، كأفضل ما يتقدر متقدر على ذلك ، الا أنه يتكلف الركة والتعقيد في كتابته تكلفاً ، ويأخذ نفسه أخذاً ، ولو أنه أرسل

نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها هذا لكان من أعظم الكتاب شائناً ، وأرفعهم صوتاً في عالم الكتابة والأدب ، ولكن هكذا قدر له أن يقضي بنفسه على نفسه .

وقرات منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها ، وما أحسبها أفلتت من يده ، ولا جاءت في هذه الصورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها ، والتدقيق في وضعها فأرسلها عفو الخاطر ارسال من يعلم أنه إنما يسأل عن الاجادة في الشعر ، لا عن البراعة في النثر ، وأن الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب ، أمام قوة الشاعر غير عالم أنه كاتب من افصح الكتاب وأبينهم ، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم ، وأنه ما احسن الاحيث ظن الاساءة ، ولا اساء الاحيث ظن الاحسان .

ووالله لا ادري ما الذي يستفيده هؤلاء الأدباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أساليبهم الكتابية والشعرية وتكلف الاغراب والتعقيد فيها ، وهم يعلمون انهم انما يكتبون للناس لا لأنفسهم ؛ وأن الناس ، خصوصاً في هذا العصر عصر المدنية والعمل ، والحركة والنشاط أضن بانفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه ، او سطر من النثر يعانون كسر صخور الفاظه عن معانيه ، ولم لا يؤثر أحدهم أن كان يكتب للمنفعة العامة ان يستكثر من سواد المتفيعين بعلمه وفضله ، او للشهرة والذكر ان ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها علمائها وجهلائها ،

وهل الشعر والكتابة الا احاديث سائرة يجادث بها الشعراء والكتاب
الناس ليفضوا اليهم بخواطر افكارهم ، وسوانح آرائهم ، وخلجات
نفوسهم ، وهل يعني المتحدث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه الناس
ما يقول ، وأن يجد بين يديه سامعاً مصغياً ، ومقبلاً محتفلاً ، وأي فرق
بين أن يجلس الرجل الى جمع من اصدقائه ليقص عليهم بعض القصص ،
او يفضي اليهم ببعض الآراء فيتلطف في تفهيمهم ، وإيصال معانيه الى
نفوسهم . ويفتن في اجتذاب ميولهم وعواطفهم . وبين أن يجلس الى
مكتبه ليبعث اليهم بهذه الاحاديث نفسها من طريق القلم ؛ ولم لا يعنيه في
الأخرى ما يعنيه في الأولى ؟

ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أهم أكثر مادة
في اللغة واوسع اطلاعاً على مفرداتها ، وتراكيبها ، وأقدر على استظهار
نواذرها وشواذها ومترادفها ومتواردها ، ولا متحفاً لصور الاساليب
 وأنواع التراكيب ، ولا مخزناً لأعمال المجازات والاستعارات ، وحقائب
الشواهد والأمثال ؛ فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره ،
إنما يعني بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم وواضعو
كتب المترادفات ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها ، اما البيان فهو تصوير
المعنى القائم في النفس تصويراً صادقاً يمثله في ذهن السامع مكانه يراه
ويلسه لا يزيد على ذلك شيئاً ، فإن عجز الشاعر او الكاتب - مها كبر
عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه - عن ان يصل بسامعه الى هذه الغاية فهو
إن شئت أعلم العلماء الفضلاء ، أو أذكى الأذكياء ؛ ولكنه ليس بالشاعر
ولا بالكاتب .

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني ، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر .

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون ، ويقتطعون من هضبته الشماء صخوراً صماء يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة حتى صبروه عبثاً ثقيلاً على كواهل الناس وعواتقهم فله الكثير منهم وبرموا به ، وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه ، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس ان يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم ، والأخذ بأسباب دنياهم .

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون في اللغة ويتحذلقون ويتشبهون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية ، ويغالون في محاكاتها واحتذائها ، ويأبون على الناس الا ان يجمدوا معهم حيث جمدوا وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا ، ويحاسبون الكتّاب والناطقين حساباً شديداً على الكلمة العربية والمعنى المتكرر ، ويقىمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب ، وكل خيال لم ير بأذهانهم ، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم فتمردوا عليهم وخلعو طاعتهم ، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلاقتهم فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم وشبه العامية في كتاباتهم ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها ، لولا ان تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق العامل المستتير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا

كنهه ، فاتخذوا لأنفسهم في منحيمهم الشعرية والكتابية أسلوباً وسطاً معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير الحياة ، ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فانت ، او غلبت عليها العامة فاستحالت .

★

قال لي أحد الأدباء المتكلمين في معرض اعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هذا المنهج الحشن الوعر الذي ينهجه في أسلوبه : انت تعلم ان الناس في هذا البلد قد ألفوا من طريق خطأ الحس ان ينظروا بعين الإجلال والاعظام الى كل أسلوب شعري او كتابي معقد غامض ، وان تفهت معانيه وهانت أغراضه ، وبعين الازدراء والاحتقار الى الأساليب السهلة البسيطة وان اشتملت على أشرف الاغراض وأبرع المعاني ، أي أنهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والفسولة ، ولا يرون الركاكة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو المعاني وشرفها ، وهي حالة طبيعية في جميع النفوس البشرية ان تزدي المبذول لها ، وتستسفي قيمة المنوع عنها ، وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر فحسب ، بل مع أدباء كل عصر وجيل ، فهم يسمون البحري وأبا نواس والشريف الرضي وامثالهم : شعراء الالفاظ ، ويسمون المتنبي والمعري وابن الرومي واشباههم : شعراء المعاني ، ليس بين الأولين والآخرين فرق في جودة المعاني وشرفها الا ان الأولين أمطروها على الناس وبعثوها تحت اقدامهم فهانت عليهم ، ورض بها الآخرون

ووعروا سنيلها فعظمت في أعينهم ، وحلت في صدورهم . قال : ولقد عرضت السلعتين في سوق الادب فكتبت أطفه المعاني وأدونها في اخشن الاساليب واوعرها فنفتت في تلك السوق نفاقاً عظيماً ، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها ، وكنب أشرف المعاني وابرعها في ألطف الاساليب واعذها فما أبه لها الا القليل من الناس ، وربما لم يابها لها احد ؛ فلم أر بدأ من ان انتهج لنفسي في الكتابة الخطة التي اعلم أنها اجدر بي وأجدى علي .

فعبجت لرأيه عجباً شديداً وقلت له : أما هذا الذي تذكره فاني لا اعرفه الا لفئة قليلة من القراء فاسدة الذوق لا يعبا بها عابىء ، وليس هذا رأي جمهور المتأدين ، بل ولا رأى العامة من ابناء هذه اللغة ، وهب ان الأمر كما تقول ، فالادب ليس سلعة من السلع التجارية لام لصاحبها سوى ان يحتال لنفاقها في سوقها ، إنما الادب فن شريف يجب ان يخلص له المتأدون - بأداء حقه والقيام على خدمته - إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم ، والادباء هم قادة الجماهير وزعمائهم فلا يحمل بهم ان ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالتهم وفساد تصوراتهم ، ولم أزل به حتى أذعن للرأي الذي رأيت له ، فحمدت الله على ذلك .

✱

ليس من الرأي ولا من المعقول ان ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل - في هذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف اكثر من العامية الا قليلا - باللغة التي كان ينظم

بها امرؤ القيس وطرفة والقطامي والخطفي ورؤية والمعجاج ، ويكتب
بها الحجاج وزياذ وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعري في عصور
العربية الأولى ، فليس عصرنا كعصرهم ، ولا جمهورنا كجمهورهم
واحسب لو أنهم نشروا اليوم من اجداثهم لما كان لهم بد من ان ينزلوا الى
عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم او يعودوا الى مراقدم من
حيث جاءوا .

ليست الاساليب اللغوية ديناً يجب ان تتمسك به ونحرص عليه
حرص النفس على الحياة ، إنما هي أداة للفهم وطريق اليه ، لا تزيد على
ذلك ولا تنقص شيئاً .

يجب ان نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها وميزاتها
الخاصة بها ، ثم نكون احراراً بعد ذلك في التصور والتخيل واختيار
الاسلوب الذي نريد .

يجب ان يشف اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب
حتى لا يرى الرائي بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر وحتى لا
يكون للمادة اللفظية شأن عنده اكثر مما يكون للمرأة من الشأن في تمثيل
الصور والمخائل .

ويجب ان يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل ان يتمثل اللفظ ، حتى
اذا حسن الاول أفاض على الثاني جماله ورونقه ؛ فاللفظ لا يجمل حتى
يجمل المعنى ، بل لا مفهوم للفظ الجميل الا المعنى الجميل .
لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع اليه من يريد معرفتها ، ومقياس

تقاس عليه ؛ لوجب ان يكون قانونها العقلي ان يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده فان عجز عن ذلك فلا أقل من ان يصور له المعنى القائم في نفسه ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مها صغر قدرها ، واتضع شأنها أعود بالنفع على الأمة وأجدي عليها من حرفة القلم .

لا يبيك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة ، ولا يقضي حياته ناعياً عليها وجهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية اليه ، فالأمة قد ارتقت واستتارت ، واصبحت طهاحة متطلعة لا يقنعها من قلم الشاعر ان يرن على صفحة القرطاس دون ان يطربها ويملك عواطفها ، ولا من قلم الكاتب ان يسود بياض الصحف دون ان ينير لها أذهانها ، ويفغذي عقولها ومداركها ؛ فان كان لا بد باكياً فليبيك على نفسه ولينع عجزه وقصوره وليعلم أنه لو استطاع ان يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الامة ان تفهم عنه ما يقول .

إنني لا ألوم على الركافة والتفاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت اقلامهم ، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل ؛ ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ، ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها ، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغة الاعجمية على أمرهم فاصبحوا اذا ترجموا ترجموا حرفية ليس فيها ميمز واحد من مميزات العربية ، ولا خاصة من خواصها ؛ واذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك فهؤلاء جميعاً لا حول

لنا فيهم ولا حيلة ؛ لأنهم لا يستطيعون ان يكونوا غير ذلك ؛ إنما ألوم
المتأدين القادرين الذين عرفوا اللغة ، واطلعوا على أربها ، وفهموا سر
فصاحتها ، وأنقم منهم عدوهم عن المحجة في البيان ان الجمجمة والغممة
فيه ؛ وأنعي عليهم تقص القادرين على التمام .

★

الناشيء الصغير^(١)

لي ولد وحيد في السابعة من عمره ، لا يستطيع على حبي إياه وافتتاني به ان اتركه من بعدي غنياً لاني فقير ، وما أنا بأسف على ذلك ولا مبتئس لاني أرجو بفضل الله وعونه ، ورحمته وإحسانه ، ان اترك له ثروة من العقل والادب ، هي عندي خير الف مرة من ثروة الفضة والذهب .

احب ان ينشأ معتمداً على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته ، لا على أي شيء آخر ، حتى على الثروة التي يتركها له أبوه . ومن نشأ هذا المنشأ والف أيا كل الامن الخبز الذي يصنعه بيده ، نشأ عزوفاً عيوفاً مترفعاً لا يتطلع الى ما في يد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة والاحسان .

(١) كتبت هذه الرسالة جواباً عن سؤال هذا نصه « أيتها أصلح للانسان : ان يولد فقيراً او غنياً ؟ » .

احب ان ينشأ رجلاً ، ولا سبيل الى الرجولة الا من ناحية العمل ،
وقلما يعمل العامل الا بسائق من الضرورة ، ودافع من الحاجة ، وفرق
بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرها وفضولا ، وبين
الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته .

احب ان يعيش فرداً من افراد هذا المجتمع الهائل المتترك في ميدان
الحياة ، يصارع العيش ويغالبه ، ويزاحم العاملين بمنكيهه ، ويفكر
ويتروى ، ويجرب ويختبر ، ويقارن الامور بأشبابها ونظائرها ويستنتج
نتائج الاشياء من مقدمتها ، ويعثر مرة وينهض أخرى ، ويخطيء حيناً
ويصيب احياناً ؛ فن لا يخطيء ، لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض ، حتى
تستقيم له شؤون حياته .

ذلك خير له من ان يجلس في شرفة من شرف قصره مطلا على
العاملين ، والمجاهدين ، يتمتع نظره برآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية في احد
ملاعب التمثيل .

احب ان ير جميع الطبقات ، ويخالط جميع الناس ، ويدوق
مرارة العيش ويشاهد بعينه بؤس البؤساء وشقاء الاشقياء ، ويسمع
بأذنيه آناات التاملين ، وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته ان كان
خيراً منهم ويشاركهم في همومهم وآلامهم ان كان حظه في الحياة مثل
حظهم ، لتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة فيعطف على الفقير عطف
الأخ على الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم .

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بالآلام الناس

ومصائبهم ، او يعطف على باسائهم وضرائهم ؛ فان حاول يوماً ان يمدّ
يده بالمعونة الى بائس او منكوب ، فعل ذلك متفضلاً ممتناً لا راحماً
ولا متألماً .

والألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان
في الارض ، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني ، والجامعة
الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه ، بل هو معنى الانسانية وروحها
وجوهرها ، فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس ، وكل مكرمة
من مكرماتها ، واصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالانسان الناطق .

أحب ان يجوع ليجد لذة الشبع ، ويظمأ ليستعذب طعم الري
ويتعب ليشعر ببرد الراحة ، ويسهر لينام ملء جفونه ، أي أني أحب
له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها .

وما السعادة في الدنيا الا المحات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات
الشقاء ، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها ؛ وأشقى الاشقياء اولئك
المترفون الناعمون الذين يوافقهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا
يزالون ينعون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفدوها ؛ فيستولي على
عقولهم مرض السامة والضجر ؛ فيتألمون من الراحة اكثر مما يتألم التعب
من التعب ؛ ويقاسون من عذاب الوجود اكثر مما يقاسي المحروم من
عذاب الحرمان ؛ وقد تدفعهم تلك الحالة الى الالمام بمشتهيات غريبة لا
تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها . تفرجياً بكربتهم
وتنفيساً عن انفسهم وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم

في ملاعب القمار ، ومجالس الشراب ومواقف الرهان الاجاعة الفارين
من سجون السامة والملل . يعالجون الداء بالداء ، ويفرون من الموت
الى الموت .

أحب ان يكون غنياً بالمعنى الحقيقي ، لا بالمعنى الاصطلاحي ، أي
ان يكون مستغنياً بنفسه عن غيره . لا كثير المال والثراء ، وما سمي المال
غنى الا باعتبار أنه وسيلة الى الغنى وطريق اليه ، وهو اعتبار خطأ ما
في ذلك ريب ، فان اكثر الناس فقراً الى المال وأشدهم ولعاً بإحرازه ،
واعظمتهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الاغنياء ،
اصحاب المال والثراء ، وان كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً فهو
في جانب الفقراء المقلين ، اكثر منه في جانب الاغنياء الكثيرين ، ولا
يزال المرء يعتبر المال وسيلة الى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر
في يده فاذا هو في نظره الحياة نفسها ، يجمعه ولا يدري ما يريد منه ،
ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ، ولا يخشى عقابه ، ويستكثر منه وهو على
ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله ، فضلاً عن كثيره ، واذا بلغ المرء في
حالته العقلية الى درجة ان تنقلب في نظره حقائق الكون ، وتغيير
نواميسه ، فيرى الرؤوس أذناً ، والاذناب رؤوساً ، والوسائل غايات ،
والغايات وسائل ، فقل على عقله السلام .

لا أكره ان ينشأ ولدي غنياً ، ولا أحب ان اعرضه لمخاطر الفقر
وآفاته ، ولكنني اخاف عليه الغنى اكثر مما اخاف عليه الفقر .
اخاف عليه ان يعتدّ بالمال اعتداداً كثيراً ، ويقدره فوق قدره ،

ويعتبره الكمال الانساني كله . فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه ؛
وأي يجد من حوله من عشرائه وخطائمه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه
لان عشراء الاغنياء متملقون ، مداهنون ، يطوون سيئاتهم ويزخرفون
حسناتهم .

أخاف عليه ان تستحيل نفسه الى نفس مادية جامدة ، لا تفهم من
شؤون الحياة غير المادة ، ولا تعني بشيء سواها ، فيصبح رجلاً قاسياً
صلباً ، ميت النفس والعواطف ، لا يرحم بائساً ، ولا يعطف على
منكوب ، ولا يري لأمة ، ولا ييكفي على وطن ، ولا يشترك في شأن من
الشؤون العامة خيرها وشرها ، ولا يعنيه ما دام راضياً عن نفسه مغتبطاً
بجظه ؛ أسقطت السماء على الارض ، أم بقيت في مكانها .

أخاف عليه ان يحتقر العلوم والآداب ، ويزدري المواهب والعقول ،
والفضائل والمزايا ؛ فيصبح عار أمته وشنارها ، ووصمتها الخالدة التي لا
تزل ، ومن أشرب قلبه حب المال ، ونزل من نفسه الى قراراتها ، لا
يحترم غيره ولا يقيم إلا لأربابه وزناً ، ويخيل اليه ان من عداهم من الناس
لا قيمة لهم في الحياة ، بل لا حق لهم في الوجود .

أخاف عليه ان تزوج ان يابى الزواج الا من غنية يرى أنها هي التي
تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغنى في زوجة قلما تنزع نفسه الى
اشراط شيء سواه ، فيسقط في زواجه سقطه يشقى بها طول حياته من
حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه .

أخاف عليه ان ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر

في تهذيب ولده وتريبته ، فيتركه صغيراً في أيدي الخدم ، وكبيراً في أيدي عشراء السوء ، فيصبح نكبته الكبرى في حياته ، وعاره الدائم بعد مماته .

أخاف عليه ان يقضي أيامه ولياليه مروعاً مذعوراً خافق القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة ان خسر ، ويصعقه فوت الريح ان فاته ، ويطير بنومه وهدوئه هبوط الاسعار ، وتزول الاسهم ، وتقلبات الاسواق ، وخسران القضايا ومنازعات الخصوم ، والآفات السهاوية والجوائح الارضية .

وما حزن الفقير الذي أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقاً الى سواه على نفسه وعلى مستقبله بأشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه ، او الذي كان يؤمل ان يتمم به مليونه فلم يتح له .

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعاً ، ولا يجد ما يسد به رمقهم ، باطول من ليلة الغني الذي يسقط اليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت ، او ان سهماً من اسهمه قد نزل .

وحدثني من رأى بعينه من جن وهو واقف ينظر الى قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على اثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم الى درجة الإملاق وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم الى منزلة في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى .

أخاف عليه ان يصبح واحداً من اولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم ، وهدم ما ترك لهم آباؤهم واجدادهم من مال وجاه ، فأنذب حظي في قبوري ، وأقرع السن على ان لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لي فيها ولا ولد .

ولا أزال اذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين ، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً بإحدى الحانات يرح في نعمائه ، وآخر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه ، أما الاول فقد كان جالساً بين مائدتي شراب وقمار ، تسلب الاولى عقله والاخرى ماله ، وقد أحاط به جماعة من الخلاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميدانها ، يضحكون لنكاتة ، ويؤمنون على اقواله ويصدقون أكاذيبه ، ويتحركون بحركته ، ويسكنون بسكونه ، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ، ويصيح صياح الثعالب ، وأما الثاني فقد كان عارياً الا قليلا ، يفتح إحدى عينيه من حين الى حين كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكرى وضوضاؤهم ، ويضم ركبتيه الى صدره كلما أحس صوت مركبة مارة بجانبه ، وقد يبسط كفه احياناً وهو مغتمض ان خيل اليه ان يداً تمتد اليه بالاحسان ، ولا يد هناك ولا إحسان .

رأيت هذين المنظرين الغريبيين المتناقضين ، فثارت في نفسي تلك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار للاول وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني ، وقلت في نفسي : لو كان لي ولد وكان لا بد

له من أن يكون أحد هذين الغلامين ، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب تثرأ ، او المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمعة فلا يجدها ، لفضلت ان أراه بين فئة المتشردين ، على ان أراه بين فئة الوارثين ، لأني أرجو له في الأولى ان يجد بين الراحين راحاً يحسن اليه ، ويستنقذه من شقائه ، ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة أما في الثانية فاني لا أرجو له شيئاً .

ان للرحمة طيشاً كطيش القسوة والشدة ، واطيش الراحين ذلك الذي يستنفد ايام حياته في جمع الثروة لأولاده دائماً ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم ضناً بهم ان يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأعبائها فاذا ذهب لسبيله وخلي بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه اكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الاثقال التي يحملونها من مكان الى آخر ، فهم ينقلونه من خزائنه شيئاً فشيئاً الى خزائن الخمارين والمرابين والعاشرين حتى ينفد ؛ فاذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين ، صفر الأكف ، فارغي الجيوب ، مطرقي الرؤوس ، لا حول لهم ولا حيلة ، فقد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم واجدادهم وهدموا في عام واحد او عامين قرناً كاملاً مجيداً من أعلاه الى أسفله ولا يعلم الا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك .

ولو ان أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقاً صحيحاً لرحمهم من هذا المصير الحزن ، ورض بهم على هذا التراث المشؤوم .

يقولون ان الفقر يدفع الى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات وأنا أقول : إننا اذا استطعنا ان نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وألا ننخدع بصور الالفاظ وألوانها علمنا ان للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء ، بل أشد منها خطراً واعظم هولاً ، فان كان بين الفقراء ، اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعوا الطرق ؛ فبين الاغنياء : المحتالون والمزورون ، والمغتصبون والخائنون ، والمداهنون والمهائون واصحاب المعامل والشركات الذين يغنون اجسامهم بدماء عمالهم ، والتجار الذين يسرقون من الأمة في يوم واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعياروه في شهر كامل ، والقوام والأوصياء الذين يورثون الثركات من دون وارثيها ، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والحفاظة عليها ، والسامسة الذين يغتالون الاسواق بأجمعها والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها والسياسيون الذين يسرقون المال بكبحها .

على ان جرائم اللصوصية والسرقه والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغني ، فلولا شح الاغنياء بأمواهم وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وجد في الارض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق . ولا يسرق السارق ، ولا يسلب السالب ، ولا يلص اللص الا جزءاً من حقه الذي كان يجب ان يكون له لو كان للمال زكاة ، وللرحمة سبيل الى الأفتدة والقلوب .

ليفتح الاغنياء المدارس وليبنوا الملاجىء ، ولينشئوا المصانع

والمعامل للعاطلين والمشردين ، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في
ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة ، فان وجدوا بعد ذلك لصوصاً
او قتلة او مجرمين فليتهموا الفقر وينعوا عليه جرائمه وآثامه .

لا أريد ان أقول ان الغنى علة فساد الأخلاق ، وان الفقر علة
صلاحها ولكن الذي أستطيع ان أقوله عن تجربة واستقراء : إنني رأيت
كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ، ولم أر الا قليلا من أبناء الاغنياء
عاملين .

ان العلوم والمعارف ، والمخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة
باجمعها حسنة من حسنات الفقر ؛ وثمره من ثمراته ، وما المداد الذي
كتبت به المصنفات ، ودونت به الآثار ، الادموع البؤس والفاقة ، وما
الآراء السامية والافكار الناضجة التي رفعت شأن المدنية الحديثة الى
مستواها الحاضر الا أنجرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم ، والاحزان وما
انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية الا من صدوع
القلوب الكسيرة ؛ والأفئدة الحزينة ، وما أشرفت شموس الذكاء والعقل
في مشارق الارض ومغارها الا من ظلمات الاكواخ الحقيرة ؛ والزوايا
المهجورة ، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء ، وحكماء وأدباء ، الا
في مهود الفقر ، وجحور الإملاق ، ولولا الفقر ما كان الغنى ؛ ولولا
الشقاء ما وجدت السعادة .

ان المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون
لا يرحم أحد أحداً ، ولا يلوي مقبل على مدبر ، يمدون ويسرعون

ويتصادمون ، ويختطبون ، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض كأنهم هاربون من معركة ، او مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم ، وتموج موج البحر الزاخر يغرق فيه من يغرق وينجو من ينجو .

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل الى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية ، ولم هذا الجنون الاجتماعي الشائر في خاصتهم وعامتهم ، علمائهم وجهلائهم ؟ ولم هذه الحروب القائمة ، والثورات الدائمة والقتال المستحرق بين البشر جماعات وأفراداً وقبائل وشعوباً وممالك ودولاً ؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد : هو ان الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ ان المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به ، فهم يسعون اليه لا من أجل الجمع والادخار ، كما يجب ان يكون ، بل ومن أجل القوت وكفاف العيش ، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي للملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع فهم يتناهبون به ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة ، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة ، او تنازع البقاء . وما هو بالتنازع ولا التناظر ، إنما هو التفاني والتناحر ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد .

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة ان يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة ؛ وان الإفراط في الطلب شقاء كالتقصير فيه ، وان سعادة العيش وهناء وراحة النفس وسكونها لا تأتي الا من طريق

واحد وهو الاعتدال .

★

الآن أستطيع غير خاش لوماً ولا اعتباراً ان أقضي للناشيء الفقير على
الناشء الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة ، ومن ذا الذي يجامل الفقراء
ويجايهم ! وان أقول للناشء الفقير : صبراً يا بني وعزاء ، فانك لم تخلق
الا للعمل ، فاعمل واجتهد ؛ ولا تعتمد في حياتك الا على نفسك ، ولا
تحصد غير الذي زرعه يديك ، فان لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك ،
والزمن خير مؤدب ومهذب ، وان ضاقت بك المدارس فادرس في
مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها ؛ وان كنت ممن لا يعدون
وظائف الحكومة ومناصبها غنماً عظيماً كما يعدها القعدة العاجزون ؛
فها هو ذا فضاء الارض امامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه
الطيور التي ليس لها مثل عقلك وقوتك ، فان الله لم يخلقك في هذا العالم
ولم يبرزك الى هذا الوجود لتموت فيه جوعاً او تهلك ظمأ ، ولا تصدق
ما يقولونه لك من ان الناشء الغني أسعد منك حالاً ، وأوفر حظاً ،
وان راقك منظره وأعجبك ظاهره ، فلكل نفس همومها وآلامها ،
وهوم الفقير على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها .

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير تقي ونفس هادئة وقلب شريف ،
وان تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وترعرع
فتغبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الارض التي فلحها
بيده ، وتمهدها بنفسه ، وسقاها من عرق جبينه .

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام ان رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلا او منتحرة حتى حضر الطبيب ، ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً .

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميته الشنعاء في مصر ، وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد .

لم تمت هذه المسكينة في مفازة منقطعة او بيداء مجهل ؛ فنفرع في أمرها الى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم ، وفي ملتقى غاديمهم برائحهم ، ولا بد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع بجيباً ، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد اليها يده بلقمة واحدة تسد بها جوعتها ، فما أقسى

قلب الإنسان ، وما أبعد الرحمة من فؤاده ، وما أقدره على الوقوف
موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء .

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة الى جبل المقطم في ساعتها الاخيرة ؟
لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الإنسان فذهبت اليه تبثه شكواها ،
او ان الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه ، وأحسب
لو ان الصخر فهم شكواها لأشكاها^(١) ولو ان الوحش ألم بسريرة نفسها
لرثى لها وحنا عليها ، لأني لا أعرف مخلوقاً على وجه الارض يستطيع ان
يملك نفسه ودموعه امام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان .

ألم يلتق بها احد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها
وذبول جسمها فيعلم انها جائعة فيرحمها .

ألم يعكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل ، ويرى غدوها
ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره !

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين افراد الأمة جميعها
من اصحاب قصورها الى سكان اكواخها رجل واحد يملك رغيفاً واحداً
زائداً عن حاجته فيتصدق به عليها ؟

اللهم لا هذا ولا ذاك ، فالملل والحمد لله كثير ، والخبز أكثر منه ،
ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الرءون ويسمع صداها

(١) شكا اليه فاشكاها أي أرضاه وقبل شكواه .

السامعون ، ولكن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلا في مواقف المفاخرة
والمكاثرة ، والتي لا تفهم من معنى الاحسان إلا أنه الغل الثقيل الذي
يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم ، لا يمكن ان ينشأ فيها
محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً .

لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات ، وفي
العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد
تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليوناً من النفوس ، فاما اليوم وقد أصبح كل
امرئ موكولاً الى نفسه ، ومسئولاً امام ربه وضميره ان يتفقد جيرته
وأصدقاءه وذوي رحمه ويلتمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدّها ،
فها هم الفقراء يموتون جوعاً بين كثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من
حيث لا راحم ولا معين .

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة ان تسرق رغيفاً تنبليغ به او
درهماً تبتاع به رغيفاً فلم تفعل ، وكان في استطاعتها ان تعرض عرضها
في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات اعراضهن فلم تفعل ،
لأنها امرأة شريفة تفضل ان تموت بحسرتها ، على ان تعيش بعارها ، فما
أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها وأعفائها .

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم على شر ، أو يحدث نفسه به ، أو يكون عوناً لفاعليه . فإن ساقته اليه شهوة من شهوات النفس . او تزوة من نزوات العقل ، وجد في نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهناءه ، ثم اصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم ، وحركات وسكنات ، وإشارات والتفتات ، لا دخل لها في جوهر النفس ، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها ، فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً ، وأشرفهم مذهباً ، من يكذب على ان يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يخلف الوعد على ان يحسن الاعتذار عن إخلافه ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على ان يحبهم جميعاً بلسانه ، ومن يقترب ما شاء من الجرائم والذنوب على ان يحسن التخلص من نتائجها وآثارها ، وافضل من هؤلاء جميعاً عندهم أولئك الذين برعوا في فن « الآداب العالية » اي فن الرياء والنفاق ، وتفوقوا في استظهار تلك الصورة الجامدة التي تواضع عليها « جماعة الظرفاء » في التحية والسلام .

واللقاء والفرق ؛ والزياره والاستزاره والمجالسه والمنامه ؛ وأمثال ذلك
ما يرجع العلم به غالباً الى صغر النفس وإسفافها ، أكثر مما يرجع الى أدبها
وكاملها ؛ فكان الناس لا يستنكرون من السيئه الالونها ؛ فاذا جاءتهم في
ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا اليها ؛ ولا يعجبهم من الحسنه الا
صورتها ؛ فاذا لم تأتهم في الصوره التي تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا
فيها ، أي أنهم يفضلون اليد الناعمة التي تحمل خنجرآ ، على اليد الخشنه
التي تحمل بدره ، ويؤثرون كأس البلور المملوءه سماً على كأس الخزف
المملوءه ماء زلالاً ، ولقد سمعت بأذني من أخذ يعدّ لرجل من اصدقائه
من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوث صحائفهم ثم ختم كلامه
بقوله : وإني على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل « ظريف » ! وأغرب من
ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبيه للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كانت
جميع هذه الاشياء فضائل لاشك فيها ، وكان الرذيلة وحدها هي الخروج
عن تلك القوانين التي وضعت لها ، وما عهدنا ببيعيد بذلك القاضي
المصري الذي أجمع الناس في مصر منذ ايام على احتقاره وازدرائه لا
لأنه لعب القمار بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب في احد أنديه القمار ،
وسموه لصاً دنيئاً ، والقمار لصوصية من اساسه الى ذروته .



أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ، ومركز واحد ؛
أحدهما خير الناس ، والآخر شر الناس ، وان كان الناس لا يرون
رأبي فيها .

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق، والآداب ومزاوتها ليله ونهاره فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة، والزهد والسباحة والنجدة، والمروءة والكرم، وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين على أنفسهم، وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرفوا، وفهموا من معناه مثل ما فهموا، واخذوا منه بمثل الذي أخذوا، فغضب في وجه الأشرار، وابتسم في وجهه الأخيار، والأولون أكثر عدداً وأعظم سلطة وجاهاً، فسمي عند الفريقين شرساً متوحشاً؛ وامتدح لإحسان المحسن، وذم لإساءة المسيء، والمحسنون في الدنيا قليلون، فسمي وقحاً بذيئاً حتى بين المحسنين، وبذلاً معروفاً للعاجز الخامل، ومنعه القادر النابه؛ فلم يشعر بمعروفه أحد فسمي بخيلاً؛ واعتبر الناس بقيمهم الأدبية؛ لا بمقاديرهم الدنيوية، فلقي الأغنياء والأشراف بمثل ما يلقي به العامة والدهماء؛ فسمي متكبراً؛ وقال لمن جاءه يسأله في ذمته: إني أحبك ولكني أحب الحق أكثر منك؛ فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه.

أما الثاني فآقل سيئاته أنه لا يفي بوعد يعده؛ ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه أحد مخلفاً؛ وما رآه الناس في يوم من أيامه عاطفاً على بائس أو منكوب؛ ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين، ويستبكي لهم فعد من الأجواد السمحاء؛ وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم؛ ولكنه لا يزال يمسح رؤوسهم؛

ويحتضنهم الى صدره في المجمع والمشاهد كأرحم الرحاء وأشفق المشفقين؛
فسمي الوصي الرحيم؛ ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس
ويستزل من أقدارهم، الا أنه يخلط جده بالهزل، ومرارته بالحلاوة فلم
يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماجن الظريف .

ذلك هو الأدب الذي اصبح في هذا العصر رأياً عاماً يشترك فيه
خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم؛ ويعلمه الوالد ولده والاستاذ
تلميذه؛ ويقتلون اقتتالاً شديداً على انتحاله والتجمل به؛ كما يقتتلون
على أعز الاشياء وأنفسها حتى تبدلت الصور، وانعكست الحقائق، وأصبح
الرجل المخلص أخرج الناس بصدقه وإخلاصه صدراً، وأضلهم بهما
سيلاً، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين؟ أم يصدق
فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم الى
عزلة منقطعة يقضي فيها بقية ايام حياته غريباً شريداً؟ أم يبرز للعيون
فيموت هما وكمدأ؟



يجب ان يكون أدب النفس اساس أدب الجوارح، وان يكون
ادب الجوارح تابعاً له واثراً من آثاره فان أبى الناس الا ان يجعلوا أدب
الحركات والسكنات اساس صلاتهم وعلاقتهم، وميزان قيمهم واقدارهم،
فليعترفوا ان العالم كله مسرح تمثيلي، وانهم لا يؤدون فيه غير وظيفة
الممثلين الكاذبين .

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي منذ أعلنت هذه الحرب ؛ قبحها الله ؛ وقبح كل ما تاتي به إلا اكتب كلمة في صحيفة سيارة في شأن من الشؤون العامة خيرا وشرها حتى ينقضي اجلها وان أترك هذا القلم هادئا مطمئنا في مرقد مدرجا في ذلك الكفن الابيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى ياتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه ان ينبعث كما يريد لا كما يراد منه ، ولكن نازلا نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام او عامين لم أحفل به في مبدئه ؛ ولم ألق له بالآ ؛ وعددته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومها ان تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسبات الروح الإلهي فتنقشع ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باق في مكانه ؛ لا يتحول ولا يتحاجل بل تزداد قدمه على الايام ثباتا ورسوخا واحسبه سيبقى في مستقبل ايامه اضعاف ما بقي في ماضيها ان لم تثر عليه معشر الكتاب حربا شعواء ، تهز جدرانها هزأ ، وتدكه دكأ ، وتلحق أعاليه بأسافله لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الآلية التي

كنت آليتها ، فلعل اصدقائي من افاضل الكتاب يساعدوني في هذا الشأن الذي ان عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً .

نزلت بالامة المصرية نازلة تلك المقادر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية وما هي في شيء من الهزل ولا الجسد ، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ولا باي فن من الفنون الأدبية ، فأقبل عليها الناس إقبالا عظيما ، وأغرموا بها غراماً شديداً ، فليقبلوا عليها ما شاؤا ، وليفتتنوا بها ما أرادوا ، ولكن فريقاً واحداً من الامة هو الذي نضن به على تلك المواطن الساقطة ان تطأها قدمه او تظلل سماؤها رأسه لانا نضن به على كل منقصة في العالم تزري به ، او تنال من كرامته .

ذلك الفريق المضمون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين لإخواننا وأبناءنا ، وعنوان مجدنا وشرفنا ، وصورة وجودنا وحياتنا ، ومناط أمانينا وآمالنا فائذنوا لكاتب من كتابكم ، وصدیق من اصدقائكم ، ان يجادثكم قليلا في هذا الشأن كما يجادث الأب ولده ، او الأخ أخاه لا قاسياً ولا متجبراً بل عاتباً متلطفاً ، وأمله عظيم ان ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يجب لكم ، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم .

الحق أقول ، ان الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم ، فلا أدري كيف أحدثكم ، ولا ماذا أقول لكم ؟

أعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم أو أدعوكم الى اجتناب سيئة لأحسب ان بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم ترزأ الامة بمثلها في حاضر تاريخها او ماضيه !

او اقول لكم ان هذه الاماكن التي تطؤوها اقدمكم إنما هي مقابر المجد والشرف ومدافن الفضائل والاخلاق ، ومصارع الاعراض والحرمات ! وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فاعلمكم منه ما لا تعلمون ؟ !

لا يجهل أحد منكم شيئاً مما اقول ، ولكنه الشباب يغري الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة ، فيمضي اليها قدماً ، لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها ، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم .

إنني لا أرى في هذه الجامع التي تفتتتون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة ، او جمالاً يفني بقبح ، او خيراً يعزى عن شر . فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظاً قليلاً من سلامة الذوق ان يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر اليه وملحها ثقيلة مستبشعة لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره في وجوه الجالسين حوله لرأى في ابتسامات السخرية المترقرقة في شفاهم ما يذيه حياء وخجلاً ، وأناشيدها سوقية مبتذلة في موضوعها وصورة أدائها لا يطرب لمثلها الا اصحاب الأذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة في الأسواق ، فاذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك ؟

بقي فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة في الأمة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا ، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا

والحامين والأطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها ، وغيرهم من طبقات
الأمة كالصناع والخدم والأكارين وامثالهم .

بل بقي ما هو شر من هذا جميعه ، وهو تمثيل الشهوات البدنية
والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا واطفألنا
وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخي على مثلها الستور ، وتقام
من حولها الدعائم والجدران .

فلو ان غريباً وفد الى هذا البلد وهو لا يعلم من شأنه شيئاً فذهب
الى مكان من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلة في مسارحها
الوطنية لقضي عليها للنظرة الأولى بأنها أحط الأمم وأدناها .

ذلك الى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشم وجل الفحش والهجو
التي لا يطرق أذنه مثلها في موقف من مواقف حياته او مشهد من
مشاهدها ، الا اذا قدر له ان يتغلغل بنفسه يوماً من الايام في تلك الأحياء
العامة الساقطة حتى يصل الى « عرب اليسار » او « عرش الترجان »
فيسمعها هناك في مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين .

ولقد قال لي أحد الاصدقاء الظرفاء مرة ان شتائم « أم شولح » قد
انتقلت الى بيتي ولا اعرف كيف انتقلت اليه ، فاني اسمع الكثير منها منذ
ايام يتردد في أفواه الاطفال هازلين ، وفي أفواه الخدم جادين .

أندرون أيها الاصدقاء من هم هؤلاء الذين يسمون انفسهم ممثلين ،
ويسمون ما يهذون به في مسارحهم روايات ، والذين يدعونكم معشر
المتعلمين الراقين الى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون ؟

لو ان جماعة من الزامرين وآخرين من الطباليين وآخرين من القرادين وجماعة غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين يرون بأبواب المنازل كل يوم ضاجين صارخين فلا نلقي لهم بالاً ولا نعيهم أذناً اتفقوا فيما بينهم على ان يكونوا جماعة واحدة يداً واحدة في مكان واحدة لكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربري وشر فنطح لافرق بينهم وبينهم سوى ان اولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة ، ويحترثون بالشربة ، وهؤلاء يابون الا ان تقف على ابوابهم وتتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم الا اذا دفعنا الأتاوة المضروبة عليها .

والطف كلمة سمعتها في هذا الشأن قول بعض المفكرين « كان الشر مفرقاً في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد » .

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الاصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة ، وعقولها المفكرة ، ان تنخدعوا بالاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم الى هذه المرتبة العالية التي لم يخلقوا لها ، ولا يمتون اليها بسبب من اسباب العلم او الذكاء او الشرف او الخلق ، وهام أولاء نوابغ الممثلين في أمتكم أشقياء بانسون لا يكادون يجدون بين ظهرائكم ما يقيمون به أود عيشهم ، او يعينهم على ما هو بسيله من خدمة الفن والقيام عليه .

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدي الشريف في مسارح ايض ورشدي وعكاشة وامثالهم ان كنتم أتم لا تذهبون اليها ، ومن هو أولى

بها من بعدكم ان قطعتم صلتكم بها ؟!

أيعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأمين والجاهلين ، فاذا فتش عنكم في مكات آخر غيرها رأيكم مزدحمين في مراقص كشكش والبربري وامثالها راضين عن مقامكم فيها ، مغتبطين بسفسافها وهذياناتها ؟!

ألتخشون ان يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان - مشهدكم في الاجواق الهزلية الساقطة ، ومشهد العامة والسوقة في الاجواق الجدية الشريفة - ان الأمة المصرية أمة غربية الشأن يفسدها العلم ، ويصلحها الجهل ، او ان يتطرف متطرف منهم في رأيهم فيقول : ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء ، موفورا لها حظها من الاخلاق والآداب. فذلك خير لها من علم يهوى بها في مهواة الشقاء والعار لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو اعظم كيدا ولا أسمى وجهاً من هؤلاء القوم .

لأنهم يحاولون دائماً ان يلبسوا مفاسدهم وشروهم ثوب الفضيلة والجد ، وهو ان كان ثوباً شفافاً ينم عما وراءه ، ألا أنه يكفيهم للندود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة ، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة التهتكه للدخول في سلك المخدرات المتحجبات .

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل ، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل الا ويلصقونها به وينشدون مختلف الأناشيد في السخرية

بشكله . والهزء بصفاته واعماله ، ثم لا يخجلون ان يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الاناشيد (ما دامت بلادنا زراعية ، حبوا الفلاح ان كنتم تحبوا وطنكم) .

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصري تبديد امواله في سبيل شهواته ، وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز اموالهم في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات وتلقي هذه الاقوال !

ويهدمون اللغة العربية هدماً بهذه اللهجة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم ، وينظمون بها أناشيدهم وينشرونها في كل مكان ، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين ثم يزعمون بعد ذلك أنهم انصار اللغة العربية وحماها ، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (ما لها لغتنا العربية ، آل همجية ، يادي المصيبة يا دي العار ، فشر ... دي لغة المدنية اتمسكوا بها صغار وكبار) .

ولا يستحيون ان يجمعوا في نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم « ابيع هدومي عشان بوسة ، من خدك القشطة يا ملبن ، يا حلوة زي البسوسة يا مهلبية تمام واحسن » وبين قولهم « مصر يحميك ربك ، ما تشوفي الا ايام سعدك » أي أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون ان يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات « الوطنية » و « حب وطنك » و « مت في سبيل الاوطان » وامثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في افواههم الا انهم يعتقدون ان المصريين قد بلغوا من

الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه اطفال المكاتب ولا سكان المارستانات .

لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين امام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا الا ان ينتدب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب الى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم ، فان امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر ، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعا ان الدخول الى تلك الاماكن عار ينجل مرتكبه من الظهور به بين اصدقائه ومعارفه .

نحن في حالة نحتاج فيها الى ان يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة اخلاق وآداب ، وان في نفوس افرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا الى مصاف الأمم العظيمة ، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل ان يكون بأي شيء غير ذلك ، فان فات آباءنا ان يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم، فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا .

إنكم لا تذهبون في الحقيقة الى هذه الاماكن وحدكم بل يذهب اليها معكم إخوانكم واخواتكم ، وبقية افراد أسركم ، لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم ، وترون لهم ما سمعتم فكان سكان البلد جميعاً رجالاً ونساء كباراً وصغاراً يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة ، فهل يستطيع متصور ان يتصور خطراً على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها اعظم من هذا الخطر ؟

إنني لا أدعوكم الى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من اجل انفسكم فقط ، بل من اجل إخوانكم واخواتكم اليوم ، ومن اجل

ابنائكم واحفادكم غداً ، ومن اجل مستقبل الامة المصرية كلها الذي
أعتقد أنه امانة في ايديكم ، ووديعة موكولة الى كرم نفوسكم ، وشرف
ضمايركم .

اهدموا هذه الاماكن هدماً بالإعراض عنها واحتقارها ، ثم قفوا
بعد ذلك على اطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر
قائلين : ها قد نجت الامة من خطر عظيم ، وها نحن قد قننا جميعاً
بالواجب علينا لوطننا .



الشيخ علي يوسف

هكذا تقوم القيامة ، وهكذا ينفخ في الصور ، وهكذا تطوي السماء
طوي السجل للكتاب .

أفيا بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذي كان ملء الافئدة
والصدر ، وملء الاسماع والابصار ، وملء الارحاء والاجواء ، جثة
ضاوية نحيلة مدرجة في كفن ، ملحدة في مهوى من باطن الارض سحيق؟
ما اعظم الفرق بين الحياة والموت ! تغرب الشمس فلا تلبث ان
تطلع من مشرقها ، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث ان تنفرج عنها حينما
تهب عليها الرياح الباردة ، وتعري الاشجار عن اوراقها ، ثم تعود الى
جهاها مخضرة نضرة ، حينما تهب عليها نسائم الربيع ، وينام الاحياء في
مضاجعهم ، حتى اذا طلع عليهم الكوكب النهاري ، وعبثت أشعته
بأهداب جفونهم قاموا من مراقدم ، وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها ،
ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ولا يؤمل أوبته أمل ، فكان ما صار

اليه : العدم الذي لم يسبقه وجود .

اللهم إنا نعلم ان الموت غاية كل حي ، وان مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهاماً طائشة ، ولا نياقاً عشواء ، وان ورود الحياة لا يمكن ان تنبت الا في التربة التي نبتت فيها اشواك الموت ، ولكننا لا نستطيع ان نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع ، اذا فارقتنا عزيز علينا ، لأن ساحة الصبر التي منحتنا ، أضيق من ان تسع نازلة البلاء التي ابتليتنا ، فاغفر اللهم لنا عجزنا وبكاءنا على المهلكى والذاهبين اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة لانجد فيها ظلًا نستظل به ، ولا أكمة ناوى اليها ، وان الصديق الذي نعتربه في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي تنتهي اليها في تلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسرى فنترامى في ظلها الوارفة هائثين مقتبطين ، فإذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها في جو السماء واصبحنا من بعدها ضاحين بارزين فإننا لانجد بدأ من البكاء والجزع ، لأن من الشقاء ما لا يستطيع احتماله ولا يطاق تجرع كاسه .

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب ، والنجم المتلاهي الذي كنا نتنوره من حين الى حين في هذه السماء المظلمة المدهمة المقفرة من الكواكب والنجوم ، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلها من لفحات هذه الحياة وزفرتها فنحن ان بكيناه فإنما نبكي الامل الذاهب ، والسعادة الراحلة ، والحياة الطيبة ، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من

سعادتنا وآمالنا !

ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين ، ميت الامس الشيخ محمد عبده ، وميت اليوم الشيخ علي يوسف ، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها ، يمسكها الاول ان تزل بها مزالِق المدينة الخالِبة فيذهب دينها ، ويمسكها الثاني ان تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لا نرجو لها من بعدها أحداً ، فويل للأمة في دينها وويل لها في جامعتها .

العلماء والخطباء والكتاب في هذه الأمة كثير ، ولكن الرجال قليل . إنما ينفع الأمة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه : الرجل الذي يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الاسرة من أسرته التي يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها ، فيقوم لها بكل ما تريد ، ويسعى لها سعي الكادح المجد ، ويرحم صغيرها ، ويحنو على كبيرها ، ويحتمل مغارمها ، ويغتفر عبث اطفالها ، وجهل شيوخها ، ويرى لها في كل شأن من شؤونها خيراً مما ترى لنفسها ، أرضاها ذلك أم أغضبها ، من حيث لا يمين عليها بذلك . ولا يطلب عندها جزاء ولا أجراً ، بل من من حيث لا تعلم ما يلاقي بينه وبين نفسه آلام الحياة وما يعالج من شدائدها في سبيلها .

وكذلك كان شأن الشيخ علي يوسف في أمته ، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال .

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه ، لأن الذين ينظرون

ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم ، ولأن الحقيقة الكامنة في
سويداء قلبه كانت أعمق مكاناً ، وأدق مسلكاً ، من ان تتناولها النظرة
الطائرة ، ولأنه كان مخلصاً متحنثاً يعمل في سره أكثر مما يعمل في
علانيته . ثم لا يدل بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه .

رأيته في حادثة الازهر - في تلك الايام التي كان يظن فيها كثير من
الناس أنه حرب على الازهر والازهرين - يقضي كثيراً من لياليه
متردداً على أبواب القائمين بالامر ضارعاً اليهم ان ينيالوا هؤلاء القوم
مطالبهم او بعض مطالبهم قائلًا عنهم ما كان يقوله النبي صلى الله عليه
وسلم عن فئة حنين « اللهم ان تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على
ظهر الارض أبداً » فلا يقف في سبيله الاحاقة اولئك الذين كان يظن
هؤلاء المساكين أنهم اصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم .

ورأيته يضم الى كنفه كثيراً من اصدقائه الذين نبأ بهم الدهر بعد
سقوط دولة « عبد الحميد » وتنكر لهم الناس جميعاً خصوصاً اولئك
الذين كانوا يزدلفون اليهم أيام إقبالهم ، ويمرغون وجوههم على أعتاب
قصورهم وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له
ما لا يستطيع احتماله ، فلم يبال بشيء من ذلك .

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا في بعض ايام حياتهم حرباً
عليه وشقاء له يعودون الى حظيرته واحداً بعد آخر يستغفرونه فيجلس
اليهم ويتحدث معهم حديث المودة والاخاء كأنما كانوا معه على ميعاد .
وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقدًا ولا واجداً ولا منتقمًا ولا

طالباً بشار ولا ذائداً عن نفسه الا في الساعة التي يعلم فيها ان قد جد الجد وان قد اصبح عرضه وشرفه على خطر ، ولم أر سائلا دخل اليه يشكو حاجة من الحاج صادقا كان فيها أم كاذبا ويساله المعونة عليها من ماله او جاهه الا اعانه عليها ما وجد الى ذلك سبيلا ، رحمة وإشفاقا ، لارياء ونفاقا ، وكان يرى الرأي ويرى الناس جميعا غيره فلا يثنيه عنه ثان حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فاذا هو مصيب والناس جميعا مخطئون .

ففي سبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك ، وفي ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذا الدنيا سرا كما بنا بين أحشاء ضلوعك لا يكتننها ولا يستشف باطنها الا قليل من الناس ، فما رآها الناس جميعا رأى العين الا وهي طائفة في جو السماء الى ربها ، وكذلك شأن هذه الامة البائسة المحدودة لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم ، الا وهم ذاهبون الى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم ، فثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي يجهل ان في ارضها كنزا محبوبا حتى اذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس الى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون .

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها ، بل كنت أفضل من الحقيقة ، لان الحقيقة يخدمها أعداؤها واصدقائها ، أما انت فكنت تخدم اصدقاءك وأعداءك ، أما الاولون فلأنك كنت تحسن اليهم بجاهك او بمالك او برأيك ، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك

وشرفك ، فويل للفريقين معاً من بعدك ، وكنت القطب الذي تدور حوله رحي الاقلام في هذا البلد ، فقد كاذت وظيفه الكتاب ان يشرحوا آراءك او يفسروا كلماتك او يكتبوها مقاصدك او يوافقوك او يخالفوك او يمدحوك او يذموك ، فإن كتبوا في شأن من الشؤون غير هذا فترا واستبردوا ، فواضيعة الاقلام وما أضيقت مذاهب الكتاب بعد رحيلك ، وكنت العصمة التي تعتم عليها الأمة في مواقف بؤسها وشقائها ، ومواطن خطوبها وكروبها ، وما احسب الا ان الدهر مدخر لها من ذلك في مستقبل ايامها اكثر مما ادخر لها في ماضيها ، فما اكثر شفاءها وبلاءها بعد اليوم .

ايها الراحل الكريم : لقد كنت ارجو ان اجد بين جنبي بقية من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذي اعالجه فيك حتى يبلى على مدى الايام كما يبلى الكفن لولا قدر أبعديني عن موطنك في آخر ايام حياتك فحرمني جلسة اجلسها بجانب سريرك اسمع فيها آخر كلمة من كلماتك ، وأرى آخر نظرة من نظراتك ، وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من الخطوات الواسعات ؛ ووقفة اقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك اول دمعة يذرفها الباكون عليك ، فلئن بكيت موتك يوماً فسأبكي حرماناً وداعك اياماً طوالاً حتى يجمع الله بيني وبينك .

العظمة

إن رأيت شاعراً من الشعراء ، او عالماً من العلماء ، او نبيلاً في قومه ، او داعياً في أمته قد انقسم الناس في النظر اليه وفي تقدير منزلته انقساماً عظيماً وانفرجت مسافة الخلف بينهم في شأنه ، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه الى رتبة الملك ، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به الى منزلة الشيطان ، فاعلم انه رجل عظيم .

العظمة أمر وراء العلم والشعر ، والامارة والوزراء والثروة والجاه ، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون ، والعظماء منهم قليلون ، وانما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بأنه رجل غريب في نفسه ومزاج عقله ونزعات افكاره واساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال ، ولا مقدود على مثالهم ، ولا داخل في كلية من كلياتهم العامة ، فاذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة اصبح لا ينظر الى شيء من الاشياء بعين غير عينه ، ولا يسمع بأذن غير اذنه ، ولا يمشي

في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه ولا يجعل لعقل من العقول
مها عظم شأنه وشأن صاحبه سلطاناً عليه في رأي أو فكر أو مشايعة
لمذهب أو مناصبة لطريقة ، بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة
الناس بنفوسهم ان حقاً على الناس جميعاً ان يستقيدوا له ، وينزلوا على
حكمه ويترسوموا مواقع اقدامه في مذاهبه ومراميه فترى جميع اعماله
وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس واعمالهم تبهر العيون وتدهش
الانظار ، وتملا القلوب هيبه وروعة ، فان كان شاعراً كان مبتكراً في
معانيه او طريقته ، او كاتباً اخذ على النفوس مشاعرهما وأهوائها ، او
فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً ، او ملكاً شغل من صفحات
التاريخ ما لم يشغله ملك سواه ، او وزيراً ساس امته بسياسة جديدة لا
عهد لهم بمثلها من قبل ، او قائداً ضرب الضربة البكر التي ترن في مسمع
الجوزاء .

تلك هي العظمة ، وهذا هو الرجل ، ومن كان هذا شأنه كان فتنة
الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم ، ومعتك انظارهم وأفهامهم ، وثمار
الخلف والشقاق بينهم في استكفاء امره ، وتقدير منزلته فيعجب به الذين
فطروا على الاعجاب بكل غريب والافتتان بكل جديد ، حتى ينتقل
بهم الاعجاب به الى الافتتان بأقواله وافعاله وحركاته وسكناته ،
والإغراق في حبه ، والمشايعه له ، والسير بمعجباته وغرائبه في كل صقع
وناد فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والتمردين على عبقريته
ونبوغه موقعاً غير جميل ، فلا يجدون لهم بدأ من مقابلة الإغراق في

جبهه بالإغراق في بغضه ، على قاعدة المشادة والمعاندة . وهناك تستخدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه ، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه ، ويناضل عنه اولئك يريدون استبقاءها في يده ، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هائناً مغتبطاً ، لا يحزن ولا يبتس ، لأنه يعلم ان جميع هذه الاصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هي أبواق شهرته وعظمته .

لا أريد ان اقول ان الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل ، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط ، فربما كان من هو اضعف منه قوة ، وأجل ذكراً ، أسد منه رأياً ، واصدق نظراً ، وإنما أريد ان اقول ان احداً من الناس لا يستطيع ان يشغل أقلام الكتاب ، وعقول المفكرين وألسنة الناطقين ، وقلوب المحبين والمبغضين ، الا الرجل العظيم .

أحب علياً قوم حتى كفروا بحبه ؛ وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه . وسمي بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي المسلمين ، وانكر بعضهم صحبتها ، وإخلاصها . وعاش محيي الدين بن العربي بين فئة تراه قطب الاولياء ، وأخرى تراه شيخ الملحدين . واغتبط فريق من المسلمين بآبن رشد فسموه فيلسوف الإسلام ، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقاً في المسجد الجامع . وسمي قوم صاحب كتاب الإحياء حجة الإسلام . ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح ، وعاش المعري بين رضا الراضين عنه وتقمة الناقلين عليه يلثم الأولون مواطئ نعاله .

ويسحبه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة . وشرب سقراط كأس السم بين أفواه باسمه شماتة به ، وعيون دامعة حزناً عليه . وجرت الأقلام بمدح المتنبي تارة فاذا هو سيد الشعراء ، وبذمه أخرى فاذا هو أكبر المتكلمين ، ورفع قوم شكسبير الى مرتبة الكمال الإنساني فقالوا نابغة الدهر ، وهبط به آخرون الى أدنى منازل الحسة والدناءة فقالوا المنتحل الكذاب . وافتتن المفتتون بنابليون الأول فعلموا به الى رتبة الأنبياء ، وتكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه في سلك الحمقى والمرورين ، وذاق كل من لوثر وكالفين وغليلو وفولتير ونييتشه وتولستوي كأس الحب والبغض في حياته وبعد مماته الى القطرة الأخيرة منها ، وما انقسم الناس في هذا البلد في هذا العصر في شأن رجل من الرجال انقسامهم في شأن جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعلي يوسف وقاسم أمين .

وما كان واحد من هؤلاء في المنزلة التي يرفعه اليها المفرقون في حبه ، او ينزل به اليها الغالون في بغضه ، ولكنهم كانوا قوماً عظاماً فانقسم الناس في شأنهم ، وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية ، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم ، الا في شأن الرجل العظيم .

ليس معنى الوجود في الحياة ان يتخذ المرء لنفسه فيها نفقاً يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لحدته ثم يتزلق فيه انزلاقاً من حيث لا تراه عين ولا تسمع ديبية أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الارض ، وإنما الوجود قرع الاسماع ،

واجتذاب الانظار ، وتحريك أوتار القلوب ، واستشارة الألسنة الصامته ،
وتحريك الاقلام الراقدة ، وتأريث نار الحب في نفوس الاخيار ، وجمرة
البغض في قلوب الاشرار ، فعظماء الرجال اطول الناس أعماراً وان
قصرت حياتهم ، واعظمتهم حظاً في الوجود وان قلت على ظهر الارض
أيامهم .

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها واصداؤها ، ويحمل احجار
هيكليها على رؤوسهم هادموها وبناتها ، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك
سواد الاصدقاء ، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيد واحد ، فأعلم
ان العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعاً .

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس
وبغضائهم فلا يزال ذلك القصر ثابتاً في مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل
ما بقيتا في مكانها ، فاذا سقطت إحداها عجزت الأخرى عن الاستقلال
به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطها .

لا يعجبك ان يتفق الناس جميعاً على حبك لأنهم لا يتفقون الا
على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه
ومشاعره ، ثم يقعى على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل ،
يضرّبونه فيصطبر لهم ، ويعبثون به فيصبص بذنبه طلباً لرضاهم ،
ويهتفون به فيقترب ، ويزجرونه فيزدجر .

ولا يعجبك ان يتفقوا على بغضك ، لأنهم لا يتفقون الا على بغض
الخبثاء الاشرار الذين لا يحبون أحداً من الناس فلا يحبهم من الناس أحد .

وليعجبك ان يختلفوا في شأنك ، وينقمسوا في أمرك ، ويذهبوا في
النظر اليك وتقدير منزلتك كل مذهب ، فتلك آية العظمة ، وذلك شان
الرجل العظيم ...

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعاد عليه ،
ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليستقي به دوحه العظمة التي ينعم في
ظلالها القائد العظيم .

كن الناطق الذي تحمل الريح صوته الى مشارق الارض ومغاريها ،
ولا تكن الريح التي تختلف الى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث
لا يابهون لها ، ولا يعرفون لها يدها .

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرات الارض في سبيل نضرتها ونمائها ،
ولا تكن الذرة التي تطؤها الاقدام وتدوسها الحوافر والاخفاف .

كن زعيم الناس ان استطعت ، فان عجزت فكن زعيم نفسك ، ولا
تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء ، والتلصق بهم ، او مناصبتهم
العداء والوقوف في وجههم ، فان فعلت كنت التابع الذليل وكانوا الزعماء
والأعزاء .

★

الانتقاد

سألني بعض الاصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده ؛ وآدابه وواجباته ؛ ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود ؛ ولا آداب ولا واجبات ، وأن لكل كاتب او قائل الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام ، مصيباً كان أم مخطئاً محقاً أم مبطلاً ، صادقاً أم كاذباً ، مخلصاً أم غير مخلص ؛ لأن الانتقاد نوع من انواع الاستحسان والاستهجان . وهما حالتان طبيعيتان للانسان لا تفارقانه من صرخة الوضع ، الى انة النزاع ، وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبه فيه ولا مرأه فان أصاب الناقد في نقده فقد أحسن الى نفسه والى الناس ، وان أخطأ فسيجد من الناس من يبدله على موضع الخطأ فيه ؛ ويرشده الى مكان الصواب منه ، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ ، حتى يستقيم له الصواب كله .

فان أيينا عليه ان ينتقد إلا إذا كان كفواً في علمه ومخلصاً في عمله كما يشترط عليه ذلك اكثر الناس ، فقد أيينا عليه ان يخط سطرأ واحداً في

الانتقاد ؛ وقضينا على ذهنه بالجمود والموت، لأننا لانعرف لهاتين الصفتين
حدوداً معينة واضحة ، فكل منتقد يزعمها لنفسه، وكل منتقد عليه مجرد
منتقده منها ، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في
عمله ، فيسمح به لجماعة المنتقدين !

على ان المنتقد الناقم لا تمنعه نغمته من ان يكون مصيباً في بعض ما
يقول لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً ان يختلق جميع المآخذ التي يأخذها ؛
والا يكتب إلا الباطل والمحال ، وانما هو رجل عياب بالحق وبالباطل ،
فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ الى السيئات
المختلقة .

ولقد كتب اول انتقاد في التاريخ بمداد الضغينة والحقد ؛ فقد كانت
توجد في عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد ،
ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية في الاسواق والجمعيات ،
وبين ايدي الأمراء والعظماء ، فيكرمهم الناس ويجلونهم اجلالاً عظيماً ،
ويجزلون لهم العطايا والهبات ، فنفس عليهم مكاتبتهم هذه جماعة من
معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم ، ولا يحظون عند الملوك العظماء
حظوتهم ، فاخذوا يعيبونهم ؛ ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم
واصواتهم ، ومعاني اشعارهم ، وأساليبهم ، وكان هذا أول عهد العالم
بالانتقاد ، والفضل في ذلك للضغينة والحقد ، فلذيلة الحقد الفضل الاول
في وجود الانتقاد وبزوغ شمس المنيرة .

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من ان يكون رأيه في استحسان الكلام

واستهجانه رأياً صائباً . لا ، بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه - متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم - أصح من رأي الأديب المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملاً ، ويتعمق تعمقاً كثيراً في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما ، ورب ابتسامه أو تقطبية ييران بوجه السامع العامي عفواً أنفع للأديب حين يراها ، وأعون له على معرفة مكان الحسنه والسيئة من كلامه ؛ من مجلد ضخم يكتبه عالم متضلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره .

وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للامة جميعها ، أو خاصتها أو عامتها ، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلاً ، ان يدلي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه ، واستهجان من يستهجن منه .

وهل رفع العظماء من رجال الادب الى مواقف عظمتهم وسجل لهم اسماءهم في صحائف المجد ، الامزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الاعظم من الأمة ، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها ؟

وبعد ، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً الا الغبي الابله الذي لا يبالي ان يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين انفسهم ، ويزعجه كل الانزعاج ان يتحدثوا بها في مجامعهم ، ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها ، او الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم ، ويفرق من رؤية الاشباح ، ولو رجع الى أناته ورويته لعلم ان النقد ان كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها ، او خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته

منه ، لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم ، يأمر ونهم بالباطل فيذعنون ، ويدعونهم الى الحال فيتبعون ، ولئن استطاع احد ان يخدع أحداً في كل شأن من الشؤون فانه لا يستطيع ان يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام او قبحه ، ولو ان الاصمعي وأبا عبيدة وأبا زيد والمبرد والجاحظ والقالي وقدامة وابن قتيبة والآمدي و ابا هلال والجرجاني بعثوا في هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا ان يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي مثلاً كما كرهوها ، او يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من اثر « فلان » لما أحبوها ، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل اليها ، فهي تختفي حيناً ، او تنتكر ، او تترأى في ثوب غير ثوبها ، ولكنها لا تتمحي ولا تزول .

فلتنطق السنة الناقدين بما شاءت ، ولتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت فلقد حررنا الحرية في كل شأن من شؤون حياتنا ، فلا أقل من ان تتمتع بحرية النظر والتفكير .

✱

يوم العيد

افضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان ان امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الاعياد بجانوت تماثيل في باريس يطوقه الناس في تلك الليلة لابتساع اللعب لأطفالهم الصغار ، فوق نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجهه ، فابتهجت برآه ابتهاجاً عظيماً ، لأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الاطفال الصغار ، بل لأنها كانت تنظر اليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها اليه بلعبة العيد ، كما وعدته ، فأخذت تساوم صاحب الجانوت فيه ساعة والرجل يغالي به مغالة شديدة حتى علمت ان يدها لا تستطيع الوصول الى ثمنه ، وأنها لا تستطيع العودة بدونه ، فسأقتها الضرورة التي لا يقدرها الا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم ، وفؤاداً مستطراً كفؤادها ، الى ان تمد يدها خفية الى التمثال فتسرقه من حيث تظن ان الرجل لا يراها ، ولا يشعر بمكانها ، ثم رجعت ادراجها وقلبها

يخفق في آن واحد خفتين مختلفتين ، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها ،
وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة الى ولدها .

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته
معرفة ما يدور حول حانوته ، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم
مواقع اقدامها حتى عرف منزلها ثم تركها وشأنها وذهب الى مخفر الشرطة
فجاء منه بجنديين للقبض عليها ، وصعدوا جميعاً الى الغرفة التي تسكنها
ففاجاوها وهي جالسة بين يدي ولدها تنتظر الى فرحه وابتهاجه بتمثاله
نظرات الغبطة والسرور فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها ، وهجم
الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده ، فصرخ الولد صرخة عظمية ،
لا على التمثال الذي انتزع منه ، بل على أمه المرتعدة بين يديه ، وكانت
كلمة نطق بها وهو جاث بين يدي الرجل : رحماك بأمي يا مولاي ،
وظل يبكي بكاء شديداً .

جد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر ، وأطرق إطرأاً طويلاً ، وإنه
لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيا فانتفض
انتفاضة شديدة ، وصعب عليه ان يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة
حزينة منكوبة في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعاً ، فالتفت الى
الجنديين وقال لهما : أظن أني أخطأت في اتهام هذه المرأة ، فاني لا أبيع
هذا النوع من التائيل ، فانصرفا لشأنهما . والتفت هو الى الولد فاستغفره
ذنبه اليه والى أمه ، ثم مشى الى الأم فاعتذر اليها عن خشونته وشدته ،
فشكرت له فضله ومروءته ، وجبينها يرفض عرقاً حياء من فعلتها ،

ولم يفارقهما حتى أسدى اليهما من النعم ما جعل عيدها أسعد وأهنا مما
كانا يظنان .

★

لا تأتي ليلة العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان ، نجم سعود
ونجم نحوس أما الاول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية
والحلل ، ولاولادهم اللعب والتأثيل ، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ،
ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الاحلام الجميلة حول
أسرتهم تطاير الحمام البيضاء حول المروج الخضراء ، وأما الثاني فللأشقياء
الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يثنون في فراشهم أنيناً يتصدع
له القلب ، وينوب له الصخر ، حزناً على اولادهم الواقفين بين ايديهم
يسألونهم بالسنتهم وبأعينهم : ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب
يفاخرون بها أندادهم ، ولعب جميلة يزینون بها مناظدهم ؟ فيعللونهم
بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها .

فهل لأولئك السعداء ان يمدوا الى هؤلاء الاشقياء يد البر والمعروف ،
ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا
لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التأثيل .

ان رجلاً لا يؤمن بالله ورسله ، وآياته وكتبه ، ويحمل بين جنبيه
قلباً يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع ان يملك عينه من البكاء ، ولا
قلبه من الحفقان عندما يرى في العيد ، في طريقه الى معبده ، او منصرفه
من زيارته ، طفلة مسكينة بالية الشوب كاسفة البال دامعة العين تحاول

ان تتوارى وراء الاسوار والجدران خجلا من أثوابها وصواحبها ان
تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ، وراثثة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل
ما تمتلئ به أيديهن ، فلا يجد بداً من ان يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو
عليها ، وعلى بؤسها ومتربتها ، لأنه يعلم ان جميع ما اجتمع له من
صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها
في أعماق قلبه عندما يمسخ بيده تلك الدمعة المترقرة في عينيها .

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع ايام
حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من ان يتمتعوا برؤية
أشعة السعادة في كل عام مرة او مرتين .

✱

من الشيوخ الى الشبان

لا نستطيع ان ننكر عليكم معشر الأبناء ان شبابكم اعظم قوة ونشاطاً ، وأبعد همة ، وأقوى عزيمة ، من شيخوختنا ، وان أيدينا الشاحبة المعروفة لا تستطيع ان تصل الى ما تصل اليه ايديكم الفتية المقتدرة ، وان آراءكم وافكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم اكثر حدة وحرارة ، وأبعد غوراً وعمقاً ، من آرائنا وتصوراتنا ، ولكن الذي تنكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا، واحتقاركم لنا ، ورميكم إيانا بالجمود مرة ، والخرف أخرى ، كلما اختلفنا معكم في شأن من الشؤون ، كما أننا ننعي عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بانفسكم هذا الاعتداد العظيم الذي يخيل اليكم معه ان هذه الألوان الجميلة التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم ، ووقف عليكم ، لم تمر بعصر غير عصركم ، ولم يزه بها شباب غير شبابكم ، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الاول في ابتكارها واقتراع

هذرتها ، ولو أنكم استطعتم ان تحملوا أنفسكم على الروية والأناة ، وان
تتنقلوا بانظاركم من الحاضر الى الماضي - وان لم يكن ذلك من طبيعة
الشباب ولا من خصائصه - لعلمتم ان هذا العهد الذي يمر بكم اليوم ،
والذي تفاخروننا به وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه ؛ وتصوراتهِ
وخيالاتهِ مر بنا مثله في زماننا ، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم تتصور
فيه كما تتصورون ونفكر كما تفكرون ، ونردد في أنفسنا وأحاديثنا وعلى
أسلات أقلامنا جميع هذه الآراء والافكار التي ترددونها اليوم ، حتى
انطوى ذلك العهد ، وزالت معالمه ، وهدأت على أثره تلك الثورة
النفسية الهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا ودخلنا غمار الحياة الحقيقية
حياة الجد والعمل والنظر والتأمل ، والخبرة والتجربة فاستطعنا ان
نرجع الى نفوسنا ، ونثوب الى رشدنا ، وان نهبط بهدوء وسكون الى
أعماق قلوبنا ونستعرض تلك الآراء والافكار ، والاحلام والآمال ،
بإمعان وتدقيق ، فاستطعنا ان نميز صالحها من فاسدها ، وصادقها من
كاذبها ومعقولها من موهومها ، وان تقلب الأشياء على جميع وجوهها
ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح ، ونوازن بين هذه وتلك ،
فأخذنا بما أربت حسناته على سيئاته ، واطرحنا ما زادت سيئاته على
حسناته فلا فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون ان لكم الفضل
فيه وحدكم من دون الناس جميعاً، وإنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته
وحديثه ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء
من ذلك ، وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة ، وأخص صفاته

قصر النظر ، وسرعة الحكم ، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله ، فهو لا يستطيع ان يتصور تصوراً ثابتاً متيناً ان الماضي أساس الحاضر ومنبع وجوده ، لا يشرق الا من مطلعته ، ولا ينبت الا في تربته ، وان المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة ، وليس أقرب اليه من ان يتصور ان في استطاعته ان يحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسماؤه ، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدتها ويتصورها ، وان في إمكانه ان يحيل الترب أمواها ، والأمواه ترباً ، وان يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع الا بإرادته ، وان يرغمها متى أراد ان تمزق حجاب الليل وتبرز في سماءه ، ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات والاحلام التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع في رأسه اول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته ، وتفتر حدته ، ثم لا يلبث ان يسقط جاثياً بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفاً : ان للكون إلهاً لا أستطيع محادثته ، وللطبيعة سنة لا أستطيع تبديلها .

كنا نفكر كثيراً في شأن المرأة كما تفكرون اليوم ، ولا نجد حديثاً الذ ولا أطرب من الحديث عنها ، وكنا لشدة إعجابنا بها ، واهتمامنا العظيم بترفيها وتدليلها ، والوقوع من نفسها موقعاً جميلاً ندافع عنها ضد أنفسنا ، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا اكثر مما تطلبه لنفسها ، وتتمنى يجدهم الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية الى أقصى

حدودها ، فتتبرج كما تشاء وتسفر كما تريد وتجلس الى الرجل جنباً لجنب في المجتمعات العامة والخاصة ، دون ان يعارضها معارض ، او يكدر عليها صفوها مكدر ، بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها الى اكثر من ذلك فكنا نفتخر لها سيئاتها الأدبية ، ونسميها سقطات ، أي هفوات فردية لا أهمية لها ، ونفريها بحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيائته لها ومقابلة فعلاته بمثلاً لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه ، ونقول لها : ليس من العدل ان يغضب الزوج من خيانة زوجته اذا كان هو يخونها ، وكنا نظن ان هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا ، صادرة من اعماق قلوبنا ، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها ، وأنها آراء الشباب وخواطره وأحلامه وتصوراته ، ولا يثقل على الشباب في ريعانه شيء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة ، وذلك الجدار القائم بينها وبينه .

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون ، وننفر من كل قديم كما تنفرون ونعد الاول آية الآيات مهما سخف واستبرد ، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره ، لأننا وازنا بينها ، وفاضلنا بين مزاياها فحكمننا عليها ، بل لأننا كنا قريبي عهد بزمن الطفولة ، والطفل سريع الملل كثير السامة ، لا يصبر على لعبته اكثر من يوم ثم يلها فيكسرهما ويستبدل منها .

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به ، لانكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها اعمالنا في الحياة ، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف

انواعها والوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط «الفلم» صورته ، كان فضاء
حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها .

وكان العارف منا بلغة أجنبية لا يلبث ان يفتتن بها وبأصحابها
افتتاناً شديداً ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها ، فيترفع عن ذكر
رجالها وعظماؤها في احاديثه واستشهاداته ، ويسخر منهم كلما جرى
ذكرهم على لسان احد غيره لا لأنه يفهمهم او يفهم غيرهم ، بل لأنه كان
بسيطاً غير آرا يحتقر كل ما في يده ، ويستعظم كل ما في يد غيره .

ولم نعرف الا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه
التصورات والافكار ، وأنها لم تكن عقائد راسخة في نفوسنا بل اشباحاً
وصوراً تترأى في حياتنا ، فنعجب بها ، ونستطير فرحاً وسروراً بجمال
منظرها وبهجة ألوانها فأصبحنا معتدلين في آرائنا متئين في احكامنا ،
نحب حرية المرأة ولكننا نكره فسقها وفجورها ، وناخذ مواد المدنية
والحضارة من الامم المتمدينة ولكننا لا نقلدها ، ونحن نحب أدب الغربيين
ونعجب بأدبائهم وعلمائهم ، ولكننا لا نحتقر من اجل ذلك رجالنا
وتاريخنا .

نحن لا نطلب منكم معشر الابناء وانتم في ثورة الشباب ونشوته ان
تكونوا معتدلين متئين في احكامكم وتصوراتكم ، او هادئين في
مطامعكم وآمالكم ، فليس من الرأي ان نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه
عن انفسنا ، ولكن أمراً واحداً كنا نحرص عليه في عهدنا اشد الحرص
هو الذي اليكم ان تحرصوا عليه مثلنا ، وتضمنوا به ضمنا .

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آباؤنا وأجدادنا ، وأوسع منهم علماً وأقوى إدراكاً ، وربما اعتقدنا في الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون ، أو متأخرون أو جامدون ، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقاب التي تلقبونها بها ؛ ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم ، وكان شأننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم شأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق إذ كان مسيحياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان أبوه لا يزال على دينه فطلب إليه أن يبني له بيعة في قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية فبناها له كما أراد ولم ينع عليه شأناً من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه .

ذلك ما نضرع اليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لأبائنا وأجدادنا واذكروا أن سيأتي عليكم ذلك اليوم الذي أتى علينا ، وأنكم ستكثرون فيه أن يعاملكم ابنائكم وأحفادكم بمثل ما تعاملونا به اليوم ، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا فنحن آباؤكم الذين ولدناكم - وأسأذتكم آباؤكم - أنت ترموهم في وجوههم بالجهل والجمود ، وما هم بجاهلين ولا جامدين ولكنهم شيوخ عاجزون .

الزهر ة الذابله

ورد الي من صاحب التوقيع الكتاب الآتي :

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح ، غير أنني عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفي الغيب في سره حتى فوجئت بمرض « الحمى » العضال الذي ضعفتني وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابني « الصمم » الكامل فضاعت بذلك آمالي واظلمت الارض في وجهي فرأيت ان أستغيث بك لعلك تسدي الي جميلا بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام .

٦ يناير سنة ١٩١٤ .

لا أستطيع ان أعزيك عن مصابك يا بني ، فهو فوق ما يحتمل المتحمل ، ويطيق الجلد الصبور ولو حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك ، ولكن شاني معك شأن اولئك الخادعين من المعزين الذين

يتخلفون ليلهم ونهارهم الى منازل المنكوبين والمرزوقين ليقولوا للثاقل
« لقد قدمت بين يديك شفيحاً يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك »
وللباكي أباه « ما مات من خلف مثلك » وللباكي أخاه « ان في الباقي عزاء
عن الماضي » وللباكية زوجها « الشباب غض والرجال كثير » وللفاقد
بصره « حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور
بصيرتك » وللمحتضر المشرف « ان في لقاء ربك عوضاً من لقاء الدنيا »
ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك « لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع اقوال
الكذب وكلمات السوء » وكأنما هم يحسبون ان الفواجع والرزايا صفقات
تجارية اذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه ، هان
عليه هذا لذاك واغتفر ما فات لما هو آت ، ولا يعلمون ان الحزن على
الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب او نفثة من نفثات الود ،
ولا دخل للحساب والمعارضة في شيء من ذلك ، وان أقسى الآباء قلباً ،
واصلبهم فؤاداً ، لو ساومه مساوم في فلذة كعبده ووضع تحت قدميه
خزائن الارض والسما لكان رأيه في ذلك رأي ابن الرومي في قوله :

وما سرني ان بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وان الام تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرة من اولادها، والصديق
يبكي فراق صديقه وان كثر اصدقاؤه في كل محلة يحل بها ، والزوجة
تبكي زوجها وان كانت تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقبها ،
وان البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكاً
ويؤساً يرضن بحياته الضن كله اذا أحس بوشك فراقها وان علم أنه سينتقل

منها الى جنة عرضها السموات والارض ، فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم ، ويؤلون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحزانهم وازدرائهم ، وتصغير شأنها في أعينهم ، ويلقون في نفوسهم اليأس من ان يجدوا بجانب قلوبهم قلوباً تحس بإحساسها وتشعر بشعورها ، من حيث يظنون أنهم يخفون عنهم آلامهم وياخذونهم بنسيانها .

وأعوذ بالله ان اكون يا بني من الكاذبين في تعزيتك ، او الغاشين لك فيها ، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت ، وكيف يستطيع ان يعزيك عن مصابك من لا يستطيع ان يعزي نفسه عن مصابه فيك ، فقد ترك كتابك هذا بين جنبي لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك ، حتى صرت كاني أنا الذي ابتليت بما ابتليت به وكان الذي اصابك من البلاء قد اصابني من دونك ، فلقد انقطع عنك بفقدك سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعاً من سبب وصلة ، فأصبحت واتت في دار الأنس والاجتماع ، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها ، كأنك تعيش من وحشتك وكأبتك مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم ، لا تأنس فيها باحد ولا يأنس بك فيها احد ، ولا ترى بين يديك الا نصباً ماثلة ، وقائيل جامدة .

تحسب العين أنهم جدا أحياء لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفه عن نفسك في ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء ، ولا رنة حذاء ، ولا خرير نهر ، ولا تغريد طير ، ولا حفيف

شجر ، ولا زيف ربح ، ولا ثغاء شاة ، ولا تقيق ضفدع ، ولا صرير جنذب ، سواء لديك ليلك ونهارك : وصبحك ومساؤك ، ويقظتك ومنامك ، فان فررت من وحشتك هذه الى مجتمع من المجتمعات العامة فجلست الى الناس ساعة تتفرج^(١) فيها مما بك ، لا تسمع شيئاً مما يقولون ، ولا يعينهم ان يسموا شيئاً مما تقول ، فان قلبت نظرك في وجوههم لتسقط حرفاً من حروفهم ، او تتفهم حركة من حركات شفاههم ، او إشارة من إشارات أيديهم ، أنكروا عليك نظراتك ، وسخروا منك فيما بينهم وبين أنفسهم ، لا بل ربما صارحوك بكلماتهم التي يضمرونها في أنفسهم ورموا بها في وجهك من حيث لا تعلم ، فان رأوا منك أنك تقتضب الاحاديث اقتضاباً ، وتذهب منها في أودية غير أوديتهم ، وانك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس اسماعهم ، فتعلو به عليها ، او تنزل به دونها وأنت تبتسم في موضع التقطيب . وتقطب في موضع الابتسام اصبحوا ينظرون اليك بتلك العين التي ينظرون بها الى الاطفال الصغار والبله الاغرار فان ألمت بسر نظرتهم هذه اليك ألم بك من الحزن والهلم ما لا طاقة لك باحتاله ، واصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه اليك ، وكل ابتسامة تتراءى لك ، واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس اليك من اصدقائك وعشرائك ، بل من أبويك وأهلك فلا يكاد يسلم لك صديق ، او يصفو لك حميم .

(١) طلب الراحة والفرجة .

فاذا فررت من الناس نجاة بنفسك من لؤمهم وقسوتهم فررت الى
خلوة موحشة قائمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت
بين حاضرك وماضيك ، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك في ايامك
الأولى ، وما انتهى اليه أمرك في ايامك الأخرى فلا تنفك خلوة ولا
يؤنسك اجتماع .

واخوف ما أخاف عليك ان أستمرك هذا الشأن - ولا أسأل الله
لك دوامه - وظلمت تنطق ولا تسمع ، وتقول ولا تفهم ما يقال ان
تصبح في يوم من ايامك لا سامعاً ولا ناطقاً ، فالسماح مادة النطق التي
يستمد منها قوته وحياته ، ومن لا يسمع لا يحسن النطق ، ومن لا ينطق
لا يحسن التفكير .

وكثير عليك يا بني وانت زهرة يانعة في روض الشباب وابتسامة
لامعة في ثغر الآمال . وفجر مشرق في سماء الحياة ان تصعد على هذه
الربوة الزاهرة الخضلة من ربي الحياة ، فلا تلبث الا قليلا حتى يمر بك
فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك الا قليلا حتى يلقيك
على هذه الصخور الصماء .

فوارحمته لك يا بني مما بك اليوم ، ومما يستقبلك به الدهر غداً ،
فأسأل الله تعالى لك ان يرفع عنك محنتك ، او يمنحك عيناً ثرة من الدمع
لا ينضب معينها ، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سجلا على فؤادك

المتاع فتبرد غلته ، وتفتت لوعته ، فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ
اليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب
الارض ولا في سبيل من سبل السماء ناصراً ولا معيناً ، والسلام عليك -
من الرائي لك ، الباكي عليك - ورحمة الله .



الوجهاء

جرى بيني وبين احد الوجهاء المصريين الحديث الآتي :

الكاتب - ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يجب
صفحة السماء ، من السحب السوداء ؟

الوجيه - إن بين جنبي هما يعتلج ، وكمدأ يذهب باللب ويطير
بشظايا القلب، ونارا من الحزن متأججة متطربة دخانها هذا الذي تراه.

الكاتب - أحق ما تقول وانت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه،
قصر غمدان ، وخورنق النعمان ، وهور وولدان ، وظل ظليل ، ونسيم
عليل ، وخزائن تموج بالذهب ، موج التنور باللهب ، ذلك الى ما أسبغ
الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس ! وأمدك به من الجاه العريض
والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة ، فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك ؟

الوجيه - أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر ، والشقاء المقبل في
السعد المدبر ، واني لأرى في السماء غمامة دكناء يوشك ان تنفجر بالصاعقة

الكبرى والكثرة العظمى .

الكاتب - ما كنت أحسب ان الشقاء ير لك ببال بعدما أعطاك
الدهر عهداً مكتوباً بتلك الاحرف الذهبية ، ألا يسدد سهمه اليك ، ولا
يدور بدورته عليك .

الوجيه - متى كان الدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه ، فالتناس
في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي ، يديرها فتري الاسود في مكان
الاييض ، والاييض في موضع الأسود وكذلك بقية الألوان تعلق أسافلها
وتسفل أعاليها ، ودورة السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من ملح
الطرف ولقطة الجيد .

الكاتب - هل لك ان تحدثني من اي منفذ نفذ الدهر اليك وما
عهدتك شارباً ولا عاهراً ، ولا مقامراً ولا مستهتراً ؟ وما للدهر مدخل
يتسرب منه الى خزائن الاغنياء غير هذا المدخل .

الوجيه - أين يذهب بك أيها الصديق ، وهل يؤقي الاغنياء في هذا
البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة ؛ وهل يكب العظماء
على وجوههم ويلصق بالرغام معاطسهم ، إلا الشغف بنظرة الامير ، ولقطة
الوزير ، وزورة المدير ، وأنت تعلم ان رجلاً مثلي لا يمكن ان يكون له
مطمع في المجد الصحيح ، فلست بصاحب علم فأنخر به ، ولا صاحب
قلم فامت بما يمت به أصحاب الأقلام من خدمة المجتمع الإنساني وتهذيبه ،
فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب ، وهو مجد القربى من الحكام والعمال
ولا سبيل اليه إلا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قاروت وكنوز

روكفلر ، وقد انفتحت فوق الطاقة ووراء الفاقة ، في بناء القصور تزلأ للحكام ، وغرس البساتين منازحه لهم ؛ وإعداد الفرش والآنية لمآربهم وولائمهم ؛ فلما نضب معين الذهب ، وعيت الأرض ان تثمر فوق ما تثمر لجأت الى مصرف من المصارف المالية فأتقطني بالديون ، وارهنني بالطلب ففزعت منه الى آخر ، ثم الى آخر فكننت كناقس الشوكة بالشوكة ، أو غاسل الدم بالدم ولو كشف لك من أمري ما كشف لي منه لعلمت ان جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار ، ودور وقصور لم يبق لي منه إلا تلك الأرقام السوداء المسطورة في جرائد الصيارف ، وهانذا اليوم طريد المصارف والغرماء ، وغريم القضاءين : قضاء الأرض وقضاء الساء .

ذلك كل ما يستفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تأتي به ، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب ، وزخرفة الباطل ولا تنفس عليه بؤسه الكامن ، وشقاهم الخفي ، فهو أتعس خلق الله ، واكثرهم همأ وأثقلهم مئونة ، واخسرهم حاضراً ومستقبلاً ، يكون عنده من الضياع او العمائر جملة لا تثمر له من المال اكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيهاً ، والوجهة كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير ، كأنما هي عندهم من جوامع الكلم ، فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يمد لكل غريب نزل بلده مائدة ، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بجيه ، ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وان كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ويتباع تذاكر حفلات

الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها وأشكالها وان كان لا ينتفع بواحدة منها ، ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان ، وجمعيات الرفق بالإنسان ، ويبتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير او المأمور . بابتياعها وان كانت في علم الأرتناطريقي او علم المنطق وكان هو عمدة او شيخ بلد ، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الاوفر الا اذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وامثال ذلك مما تضربه الحكومة علينا ضرب الجزية على اهل الذمة في سالف الازمان ، والتي لا فرق بينها وبين خراج الاطيان وعشور النخيل وعوائد الاملاك .

الكاتب - انها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام ، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاحاً ، ولا تعد لكم سجنأ ، وكل ما في الأمر ان رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم الى هذه الاعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة .

الوجيه - لا أزال اكرر القول : ان رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون ، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد ، مجبور باطناً مختار ظاهراً ، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على إحسانه ، وأما الباطن فهو ان الوجيه منا - كما علمت - مفلس من جميع انواع المجد الا مجد الزلفى عند الحكام والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم الا على مقدار

ما يفتح من ابواب خزائنه لهم، فنا من يزوره المدير او المفتش لانه وهاب الالاف ، او المأمور لأنه من اصحاب المئات ، ومن لا يزوره احد منهم ولا ينهض له اذا أقبل ، ولا يشيعه اذا انصرف لأنه لا يلي دعوة ولا يحضر جمعاً ، ولا يكتب رقماً في قائمة اكتباب ، فلا يلبث ان يسلس قياده ، ويصحب عناده ، هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير ان تشهر عليهم سلاحاً ، او تعد لهم سجناً ، ولكنها تبلغ به في شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و «الويركور» و «البطانطا» والعوائد الشخصية في عدة اعوام ، ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام - عام الأزمة والجدب - فوجدت أني دفعت خراج الأطيان مرتين ولا أعلم كم أدفعه في السنة الآتية .

الكاتب - هب ان الأمر صحيح كما تقول ، فالحكومة لا تودع هذا المال خزائنها ، ولا تقضي به غرضاً من اغراضها الخاصة وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها ، وتقدمها وارثانها .

الوجيه - ذلك ما يجب ان تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تملأ من اموال الأمة لهذه الاغراض التي تذكرها ، ولكنها تضن بمال هي في حاجة اليه لإصلاح السودان وبناء العماثر وتشبيد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصاً الاجانب منهم وإقرار عيون السياح الاوروبيين بالمناظر البهيجة والمشاهد الجميلة ، فلا ترى لها بدأ من حمل تلك الحملات على اعناقها بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر الى ما تتكبده في هذا السبيل مما

يذيب الشحم ، ويعرق العظم ، وليتها كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيه فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدالها وإرهاقها ، فقد حكى عن احد رؤسائها أنه علم ان أحد المديرين سلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة أنهم ضاقوا به ذرعاً فاحضره في مجلسه وأمر ان تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل ، ثم أمر ان تنزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتالم ، فقال له هكذا يجب ان يكون أخذ الاموال من الرعية ، متفرقاً تحتمله ، لا مجتمعاً تتالم له .

الكاتب - حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال في سبيله ، وللآخرة خير وأبقى .

الوجه - من اين ياتي الثواب والاجر ، وهل يثاب المرء الاعلى قدر نيته وإخلاصه في عمله ؟ وإني أعترف لك عنى وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من احوالهم . ومارست من طباعهم ، أننا لا نريد من بذل ما نبذل الارضا الحاكم ، والتودد اليه ، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة ، وقضاء المآرب والحاجات أخرى ، ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخططهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء في الإحسان والنفاق في المعاملة خطة قست معها قلوبنا ، واستحجرت أفئدتنا ، حتى ان أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد الى جاره البائس الفقير الا أمام قاض فطن وشهود عدول وحتى زهد فينا الفقراء ، ولوت المساكين وجوها عن أبواننا وجفاننا ذوو الرحم

والاقرباء ، واصبحت قصورنا في نظرم قبوراً يستندون لها الرحات ،
لا مناهل يرجون منها الصدقات . وأقبرت « مضايفنا » الامن عريضة
المطربشين وورطانة المبرنطين فمن ابن لثواب الله ان يعرف طريقنا
عافاك الله ؟ !

الكاتب - أتغضبك كلمة الحق ان قلتها لك أيها الصديق ؟

الوجيه - قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جواخي فاستحجر قلبي
حتى ما يغضبني حق ولا باطل .

الكاتب - أعجب ما رأيت من أنك في حديثك معي أنك تعرف
الحق وتتنكر له كأنك لا تعرفه ، وتمديدك الى الصواب حتى تكاد تلمسه
ثم تعجز عنه ، فقد زعمت ان مجد القربى من أولياء الأمر باطل ، ولقد
أصبت فيما تقول فما شأنك به ، وما نهوضك اليه ، ومالك واللسوق بأمر
انت تعلم قلة جدواه ، وسوء مغبته ، ولقد كان طريق مختصر الى المجد
الصحيح والشرف الصميم ، لو كنت اكبر منك همة ، وأصح رأياً ،
وأقوى عزيمية ، فجهد الكرم ليس بأقل شأناً من مجد السيف والقلم ولا
أرى أنك كنت تنفق في سبيله الا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب
وما كان يصيبك في الاول من الشقاء ما أصابك في الثاني ، فالكرم معان
على أمره ، ومبارك له في عيشه ، متى صح له معنى الكرم ، وكانت الرحمة
غريزة من غرائزه تسوقه الى تفقد الضعفاء ومواساة الفقراء ، من حيث
لا يبتغي على ذلك أجراً سوى ما وعد الله به الحسنين من حسن المثوبة
والأجر ، ورفع الذكرى في الآخرة والأولى ، ولكنكم بخلتم بأموال الأمة

عليها واحتجنتموها من دونها ، وأبت لكم همتكم الضعيفة ان يكون لكم
كما كانت لامثالكم في الأمم الأخرى آثار في بناء المدارس والملاجيء
والمستشفيات تسمى باسمائكم ، وتسجل في صحيفة أعمالكم فتتالون بها ما
تريدون من مجد الدنيا والآخرة ، فعاقبكم الله على ذلك بان سلط عليكم
من يعبت بعقولكم ، ويلعب بأموالكم ، ويرغمكم على الإحسان إرغاماً ،
من حيث يكون له الغنم ، وعليكم الغرم ، فلا ذكراً حصلتكم ، ولا مالا
حفظتم ! وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون .

*

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسان بعد موته ، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها ، ولا ما هي الصلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها ، فان كان صحيحاً ما يقولون من ان ساكن القبور يستطيع ان يجد بين صخورها ورجامها منفذاً يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل ، وثناء عاطر ، وسيرة صالحة ومجد باق ، فان نصيب جرجي زيدان اليوم من المناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار ، وصالح الاعمال أوفر الأنصبة وأجزلها .

ما أنعم الله على عبده نعمة أثنى قيمة ، ولا أغلى جوهرأ ، ولا أحسن أثراً من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب ، فهو يعتقد انه مجزى على عمله ، مكافأ به ، مؤمناً كان أم ملحدأ ، معترفاً بنعيم الآخرة أم منكرأ له ، فان كان الاول ساقه الى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد

وحورها وولدانها ، ولؤلؤها ومرجانها ، وروحها وريحانها ، وان كان الثاني ساقه اليه شغفه بالذكر الجميل ، والسيرة الصالحة ، والحياة الباقية في السنة الاجيال وبطون التواريخ ولولا هاتان الجنتان ، جنة المؤمنين وجنة الملحين ، ما جد في هذه الحياة جاد ، ولا عمل فيها عامل .

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايته العمل الصالح والجزاء عليه معاً ؛ وكيف يسعها والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذبالة حياته ؛ وتحترق فحمة شبابه ؛ حيث تموت في قلبه لذة العظمة ، وتنضب في فؤاده شهوة المجد ، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها الى نفسه ، ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء ، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة ، إما حياة الأجر ؛ أو حياة الذكر .

مات جورجى زيدان فنحن نبكيه جميعاً ؛ أما هو فيبتسم لبكائنا ويرى في تفرجنا عليه والتباينا لفراقه منظرأ من أجمل المناظر وأبهأها ، لأنه يعلم أن هذه الدموع التي نرسلها وراء نعشه أو نمطرها فوق ضريحه إنما هي السنة ناطقة بحبه وإعظامه ، والإعتراف بفضله ، والثناء على عمله ، وأنها المداد الإلهي النوراني الذي تكتب به في صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد ، وعظمته الباقية ، وذلك ما كان يريد أن يكون .

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده وإخاه ،
وبكاه جاره لأنه كان يجحد في جواره لذة الأفس وجمال العشرة ، وبكاه
معتفيه لأنه كان ينتفع بماله ، وبكاه صنيعته لأنه كان ينتفع بجاهه ، وبكاه
قارىء كتبه لأنه كان يجحد فيها من غزارة المادة ، وجمال الاسلوب ،
وسهولة التناول ما لا يجحد في غيرها ، وبكاه قارىء رواياته لأنه كان يجحد
في خيالها وبراعة تصوراتها ، عونأله على هموم الحياة وآلامها ، أما أنا
فبكيته لأمر فوق ذلك كله .

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ناطقها
وصامتها ساكنها ومتحركها ، جامدها وسائلها ، فتستمد جميع ذراتها
منها مادة حياتها التي تقومها ، او صورتها التي تتشكل بها وتأخذ منها
الاغراس نماءها ، والازهار ألوانها ، والنار حرارتها ، والاجسام الحية
قوتها ، والاجسام الجامدة صورتها ، والاجواء طهارتها وتقائها ، والآفاق
جمالها وبهائتها وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذا البلد .

كان بطلا من أبطال الجد والسمل ، والهمة والنشاط ، يكتب احسن
المجلات ويؤلف أفضل الكتب ، وينشئ اجمل الروايات ويناقش
ويناضل ، ويبحث وينقب ، ويستنتج ويستنبط ، ويحيب السائل ويفيد
الطالب في آن واحد ، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره . ولا
يشكو مللا ولا ضجراً ، ولا يستشعر خوراً ولا فتوراً ، فكان القدوة
الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين يتعلمون منه ان قليلا من العلم

يتعمده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس
أنفع له ولأمته من العلم الكثير ، والعمل القليل .

ولو شئت ان اقول لقلت : ان جرجي زيدان كان رئيس البعثة
العلمية السورية التي وفدت الى مصر في اواخر القرن الماضي فغيرت
وجه العالم المصري تغييراً كلياً ، وغرست في صحرائه القاحلة المجدبة
أغراس الجد والعمل ، والشجاعة والإقدام ، والمهمة والاستقلال ، وعلمت
أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون ، وينشؤون الجرائد والمجلات ، وكيف
يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقومون بها حياتهم المادية ،
وحياة أمتهم الادبية ، ويتقنون بها مثلة الوقوف على ابواب الدواوين
صباح مساء يتكفون رؤساءها ، ويسألونهم ان يتخذوهم عبيداً لهم
يخدمونهم على موائد عزم وسعادتهم التي يجلسون عليها فأما عطفوا
عليهم فآلقوا اليهم بالتر الحسيس من فتات تلك الموائد ، وإما طردوهم
منها كما يطردون الكلاب العاوية .

وكان شريف النفس بعيد المهمة ، متجملاً بصفات المؤرخ الحقيقي
الذي لا يتشيع ولا يتحيز . ولا يداهن ولا يجامل ، ولا يترك لعقيدته
الدينية مجالاً للعبث بجوهر التاريخ وحقايقه ، فكتب وهو المسيحي
الأرثوذكسي تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا
يكتم الحسنه اذا رآها ولا يشمت بالسيئة اذا عثر بها ، فاجتمع بين يديه
في مجالس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خاصتها وعامتها ، عربها وعجمها ،

جمع لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر ، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجته أمام اولئك المتعصبين من الاوروبيين الذين لا يثقون في خبر من اخباره ، ولا في بحث من أبحاثه ، بحديث شيعته وأبنائه ، وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ ، بلسان التاريخ لا بلسان الدين ، والمثل الاعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع ان يتجرد من عواطفه ، وميول نفسه ، وخواطر قلبه أمام الامانة والعلم ، والوفاء بحقه .

وكان مستقيماً في عمله ، أميناً في علاقته ، لا يكذب ، ولا يتلون ولا يخيس بعهدده ، ولا ينكث وعده ، ولا يكسو بضاعته لونا غير لونها ليزخرفها على الناس ويحملها في عيونهم ، فتعلم منه العاملون ان الكذب في المعاملة ليس شرطاً من شروط الربح ، ولا سبباً من اسباب النجاح .

وكان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون ، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين ، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه ، وكنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصموه ، وقالوا إنه شوه وجه التاريخ الإسلامي ، وعبث بحقائقه ، ولم يسأله من اين نقل ، ولا كيف استند ؟ بل سأله لم لم يكتبه كما كتبوا ؟ ويستنتج منه مثل ما استنتجوا ؟ كأنما لم يكفهم منه ان يروه بينهم مسيحياً متسامحاً حتى

أرادوا منه ان يكون مسلماً متعصباً ، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون : وينهج فيه كما ينهجون ، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله ، وخبث النية في مذهبه ، ولم يستطيعوا ان يروضوا أنفسهم الجامعة على ان يقولوا : ان الرجل باحث مستنتج ، يخطئ مرة ويصيب أخرى ، او يقولوا ان له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك ، وما أحسب ان أحداً منهم كان يعتقد شيئاً مما يقول ، ولكنهم كانوا يرون ان الدين سلعة تباع وتشترى ، وان سلعته ملك لهم ، ووقف عليهم ، لا يجب ان تعرض في حانوت غير حانوتهم ؟ وكانوا يظنون ان الرجل تاجر مثلهم يريد ان يفتح في سوقهم الحانوت التي يخافونها ، فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه ، واستقلوا ظله ، وقالوا مرة : إنه مسيحي لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه ، كأننا ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى ، وقالوا أخرى : إنه سوري دخيل وفد على هذا البلد مسترزقاً او متجرأ ، فاهو بخلص ولا بأمين ، وفاتهم - عفا الله عنهم - أنه ان كان ضيفاً فليس من أدب الضيافة ، ولا من خلال المروءة والكرم : ان ين المضيف على ضيفه بيده عنده ، وان يعد عليه لقيانه التي يطعمها على مائدته ، وان كان تاجراً فقد باعهم بهذا النذر الحسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله ، وينبوع ذكائه ومادة حياته ، فما كانوا من الخاسرين ، ولا كان من الراجحين .

ووالله ما أدري كيف تتمتع صدورهم للخهار الرومي واللص الايطالي

وللفاجر الارمني ان يفتح كل منهم في كل موطن قدم من مدنهم وقرارهم
حاناً يسلب فيه عقولهم ، او مقمراً يسرق فيه أموالهم ، او ماخوراً يهتك
فيه أعراضهم ، فلا يطاردون ولا يحاربونه ، ولا يسمونه دخيلاً ولا
واغلاً؟ ثم يضيقون ذرعاً بالعالم السوري او العراقي او المغربي ينزل
أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة فيعلمهم العلم ، ويهذب
نفوس أبنائهم ، ويثقف عقول ناشئتهم ويبعث في نفوس ضعاف العزائم
منهم روح الهمة والنشاط ، والشجاعة والاقدام .

ذلك هو شقاء الامم ، وهذا هو جواب السائلين عن اسباب سقوطها
وانحطاطها .

لم يضق الرجل ذرعاً بهذا كله ، بل كان شأنه معهم ان كان يعتب
عليهم ولا يشتمهم ، وينبهم الى أدب المناظرة وواجباتها ، ولا يؤنبهم ،
ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ، ولا يمكر بهم ، حتى
انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم ، وان كان مخطئاً ، وانقلبوا عنه
يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل ، وسوء الخلق ، وضيق
العطن ، وان كانوا مصيبين .

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر في
بناء الاخلاق الفاضلة في هذه الامة ، فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد
وعلمائه كيف يستطيعون ان يتناظروا ولا يتشامتوا ، وان يتعاونوا على
الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون ان يريقوا في معاركهم
قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف ، فان تم لهذه الامة في مستقبل

حياتها حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد في جميع شؤونها وأغراضها فلنتذكر دائماً ان جرجي زيدان كان احد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة ، دولة الآداب والاخلاق .

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات ، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون ، وإنما الذي يعوزنا روح عالية تحفق في سماء هذه الامة خفوق النجم الزاهر في سمائه ، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها فتبعث العزيمة في قلب العاجز ، والشجاعة في فؤاد الجبان ، وتقوم من الاخلاق معوجها وتصلح من الآداب فاسدها ، وتثبت من العقول مضطربها ، وتعلم كل صغير وكبير وقوي وضعيف : ان قيمة المرء في حياته أداء واجبه الإنسانية أولاً ولامته ثانياً ، ولنفسه أخيراً ، وان الحب سعادة لإنسان ، والبغض شقاؤه وبلاؤه وان الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب ان الاول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفيه ومحاربيه ، وان الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه ، وان الله تعالى أوسع رحمة ، وأعلى حكمة ، من ان يسد في وجوه عباده كل طريق للوصول اليه الا طريق السيف والنار ، وان هذه الاحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهاياً لا تؤججها في صدورهم الاديان نفسها ، بل رؤساء الاديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل ، وان الذين يقصدون الاحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين ، ومقوماً من مقوماته ، إنما يقولون من حيث لا يشعرون : ان الإلحاد في العالم ، والفوضى الدينية فيه ،

وعبادة الشمس والقمر ، والتراب والحجر ، أنفع للمجتمع واحسن عليه
عائدة من عبادة الله المعبود .

ولقد كان جرجي زيدان روحاً من تلك الارواح العالية تمنيناها برهة
من الزمان حتى وجدناها فلم ننعلم بها إلا قليلاً ثم فقدناها أحوج ما كنا
اليها ، فذلك ما يبكيها عليه ويحزننا على فراقه .

★

الكاتب كالمصور ، كلاهما ناقل ، وكلاهما حاك ، الا ان الاول ينقل
مشاعر النفس الى النفس ، والثاني ينقل مشاهد الحس الى الحس .
وكما ان ميزان الفضل في التصوير ان تكون الصورة والأصل كالشيء
الواحد كذلك ميزان الفضل في الكتابة ان يكون المكتوب في الطرس ،
خيال المكنون في النفس .

بهذه العين التي لا ازال انظر بها دائماً الى الكتابة والكتاب ، وأوازن
بها بين أقدارهم ومنازلهم ؛ كنت أقرأ ذلك الاسلوب العذب البديع الذي
كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته ، فاتخيله مرآة نقية
صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جليلة واضحة لا غموض فيها ولا
لمهام .

وقليلاً ما كنت أجد في نفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتب
سواه لأن الكاتب ان استطاع ان ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه ،
أو براعة معناه ، أو سعة خياله ، أو قوة حجته ، فإنه لا يستطيع أن
ينال الثقة من نفوسهم إلا اذا كان من الصادقين المخلصين .

كنت أرى عنوبة نفسه في عنوبة لفظه ، وطهارة قلبه في طهارة
لسانه ، وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه ، وجمال ذوقه في جمال
ملاحظاته واستنتاجاته ، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجازاة
المتكبرين من الكتاب في كبرياتهم . وتزوله في كثير من مواقفه الى منازل
العامة ليحدثهم بما يفهمون لأنه كان من كتاب المعاني لا من كتاب الألفاظ
ولأنه كان يؤثر ان يتعلم عنه الجاهلون على ان يرضى عنه المتحذلقون .

وان كان الرجل هو الاسلوب كما يقولون ، فلا أعلم ان أحداً في هذا
البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان ، فوارحمته
له ، ووا أسفاً عليه .

★

احترام المرأة

نعم ان الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز،
ولكن المرأة عماد الرجل ، وملاك أمره ، وسر حياته ؛ من صرخة
الوضع الى أنة النزاع .

لا يستطيع الاب ان يحمل بين جانحيه لطفه الصغير عواطف الام ،
فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها ، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها ،
وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيل الى قلب واحد ، يخفق خفوقاً واحداً
ويشعر بشعور واحد ، وهي التي تسهر عليه ليلاً ، وتكلؤه نهارها ،
وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله ، غير شاكية ولا متبرمة ،
بل تزداد شغفاً به ، وإيثاراً له ، وضناً بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود
في سبيل تربيته ، ولو شئت ان أقول لقلت ان سر الحياة الإنسانية ،
وينبوع وجودها وكوكبها الاعلى الذي تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر
في كلمة واحدة هي « قلب الام » .

لا يستطيع الرجل ان يكون رجلاً حتى يجد الى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة ، وتغرس في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها وحسب المرء ان يعلم انه سيد وأن رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه، وتستظل بظل حمايته ورعايته ، وتعتمد في شؤون حياتها عليه ، حتى يشعر بحاجته الى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه ، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً حتى يتم له ما يريد ، وما نصح الرجل بالجد في عمله والاستقامة في شئون حياته ، وسلوك الجادة في سيره ، ولا هداه الى التدبير ومزاياه ، والاقتصاد وفوائده ، والسعي وثمراته ، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة ؛ والدأب والمثابرة ، مثل دموع الزوجة المنهلة ، ويدها الضارعة المبسوطة .

ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يمجد في أخريات أيامه في قلب ولده الفتي من الحنان والعطف ، والحب والإيثار ، ما يجد في قلب ابنته الفتاة ، فهي التي تمنحه يدها عكازاً لشيخوخته ، وقلبها مستودعاً لأسراره ، وهو اجس نفسه ، وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه ، وتصفي الى أناته ، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه ، ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه فإذا نزل به قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعاً الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظمية لا يهونها عليها ، ولا يخفف من لوعتها في نفسها ، أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيماً ، وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يحف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون ، ويشتجرون في الساعة التي

يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات باكيات .

وجملة القول ان الحياة مسرات وأحزان ، أما مسراتها فنحن مدينون
بها للمرأة ، لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه ، وأما أحزانها
فالمرأة هي التي تتولى تحويلها الى مسرات أو ترويحها عن نفوس اصحابها
على الأقل ، فكاننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها .

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول أن الأطفال الذين
استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنياً بهم وبتربيتهم وتخريجهم
على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي
آبائهم بعد فقد أمهاتهم ، وللرحمة الأموية الفضل العظيم في ذلك .

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها الينا
وجازيناها بها خيراً ؟

لا .. لا ، لأننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا وخوارج نفوسنا
فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود ، ونضن عليها كل الضن
بعاطفة الاحترام والاجلال ، وهي الى نهلة واحدة من نهلات الاجلال
والاعظام أحوج منها الى شؤبوب متدفق من الحب والغرام .

قد نمنحو عليها ونرحمها ، ولكنها رحمة السيد بالعبد ، لأرحمة الصديق
بالصديق وقد نصفها بالمفة والطهارة ، ومعنى ذلك عندنا انها عفة الخدر
والخباء ، لا عفة النفس والضمير ، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن
لا باعتبار انها إنسان كامل لها الحق في الوصول الى ذروة الانسان التي
تريدها ، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها ؛ بل لنعهد اليها بوظيفة

المریة او الخادم او المرضة ؛ او لتتخذ منها ملهاة لأنفسنا ، وندیاً
لسمرنا ومونساً لوحشتنا ؛ أي أننا ننظر اليها بالعين التي ننظر بها الى
حيواناتنا المنزلية المستانسة لانسدي اليها من النعم ، ولا نخلع عليها من
الحلل ، إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً .
إنها لا تريد شيئاً من ذلك ، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا
حظيته ، ولا أداة لهوه ولعبه ، بل صديقته وشريكة حياته .

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل ، فيجب أن يكون حظها
منها مثل حظه . .

إنها لم تخلق من أجل الرجل ، بل من أجل نفسها ، فيجب أن يحترمها
الرجل لذاتها لا لنفسه .

يجب ان ينفس عنها قليلا من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كياناً
مستقلاً ، وحياة ذاتية ، وأنها مسؤولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها
وضميرها ، لا أمام الرجل .

يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح ، وتستروح رائحته الأريجة ،
ليستيقظ ضميرها الذي أخذه السجن والاعتقال من رقدته ويتولى بنفسه
محاسبتها على جميع أعمالها ، ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم
سلطاناً ، وأقوى يداً من جميع الوازعين المسيطرين .

يجب أن نحترمها لتعود احترام نفسها ، ومن احترم نفسه كان أبعد
الناس عن الزلات والسقطات .

لا يمكن ان تكون العبودية مصدراً للفضيلة ، ولا مدرسة لتربية

النفوس على الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكريمة ، الا اذا صح أن يكون
الظلام مصدراً للنور ، والموت علة للحياة ، والعدم سلباً الى الوجود .

كما لا أريد ان تتخلع المرأة وتستهتر ، وتهيم على وجهها في مجتمعات
الرجال وأنديتهم ، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها ، كذلك
لا أحب أن تكون جارية مستعبدة للرجل ، يملك عليها كل مادة من مواد
حياتها ، وياخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير .

وبعد ؛ فإما ان تكون المرأة مساوية للرجل في عقله وإدراكه او
اقل منه . فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق ، والنظير
للظير ، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع
ولده ، اي انه يعلمها ويدربها ، وياخذ بيدها حتى يرفعها الى مستواه
الذي هو فيه ، ليستطيع ان يجد منها الصديق الوفي والعشير الكريم .
والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستنله ، والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه .

* * *

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه ، ثم سكت ، فجعل لونه يحمر مرة ، ويصفر أخرى ، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه : ما له لا يتكلم ، فوالله إنه للخطيب اللبيب ! ؟ فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه ، وهو غير ملوم إن جزع .

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة ، فاختنق صوته بالبكاء وارتج عليه ، وهو الرجل الجلد الصبور الذي ما جزع في حياته قط ، والخطيب المفوه الذي ما ارتج عليه مرة في أصعب المواقف وأخرجها ، وأذهبها بالمقول والألباب فما اشبه هذا البطل الباكي ، بذلك البطل الجازع .

وكذلك عظماء الرجال يضحون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه

أنفة وإباء ، حتى اذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها الا لله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضمنون به من قبل .

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وانطقهم، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين ، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كانت السامعون يتهامون فيما بينهم بالاعجاب بفصاحة الفصيح ، أو نباهة المؤرخ ، أو بلاغة الشاعر ، أو إبداع المبدع في معانيه ، أو إحسان المحسن في إلقائه ، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعاً لبكائه كباراً وصغاراً ؛ شيوخاً وشباناً ، وكان مشهداً مؤثراً لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم ، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال .

ليس الذي يبكي صديقاً كان يأنس بحديثه، او عالماً كان ينتفع بعلمه، او كريماً كان يستظل بظلال مروءته وكرمه ، كمثل الذي يبكي شظية قد طارت من شظايا قلبه .

اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأى أولئك الذين يفرقون في احكامهم بين اللفظ والمعنى ، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر . فيقولون : ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة ! أو ما أبدع هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب ! كأنما يخيل اليهم أن اللفظ وعاء ، وأن المعنى سائل من السوائل يملا ذلك الوعاء ، فتارة يكون خمراً ، وتارة يكون خلا ، ويكون حيناً صافياً وأخرى كدرأ ، والوعاء باق على صورته لا يتغير ، وما علموا أنها متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها؛ فكما لا يجوز أن نقول : ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها ، ولا ما أعذب الخمر وأمر نشوتها كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك ، فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيان مستقل ، ولا حيز خاص ، فجعله جمال معناه ، وقبحه قبحه ، وأن القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها

وأغراضها ، وأن الذين يزعمون من الشعراء او الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون .

لا يضطرب اللفظ الا لأن معناه مضطرب في نفس صاحبه ، ولا يغمض الا لأن معناه غامض في نفسه ، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام؛ ولا المتأثر عن التأثير ، ولا المقتنع عن الإقناع ، وما البيان الا المرآة التي ترسم فيها صورة النفس ، فحيث تكون جميلة فهو جميل ، أو قبيحة فهو قبيح ، أو مضيئة فهو مضيء ، أو مظلمة فهو مظلم ، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها ، استطعنا أن نتصور بياناً يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه .

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو مسح
وشدت على حذب المهارى رحالنا ولم يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنها جميلة الأسلوب ، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير ، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها ، بل هو رأس المعاني وسيدها ، والغاية الأخيرة منها ، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج في حلهم ومرتحلهم يسمعا السامع بأذنيه وكأنه يراها بعينيه ، فقد أتى بأجمل المعاني في

أجمل الأساليب .

وإن وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول
الشريف :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب
خير الف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة ، والخواطر
المبتكرة لا تمثل الحقيقة ، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها ، كقصيدة المتنبي
التي مطلعها :

* أيطمع في الخيمة العذل *

ويقولون أيضاً عن هذا البيت :

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى ، وهم واهمون فيا يقولون ،
فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت بل المعنى
خطر على اذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه ، فالصقوه به إلصاقاً ،
وتوهموه له توهما ، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقاً ، وهذا شأن
جميع المعاني التي يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق ، أو كلمة
غامضة فهي بأن تكون معاني السامعين ، أولى من ان تكون معاني القائلين .
إذا سمعت بيتاً من الشعر فاطربك ، أو احزنك ، أو أقنعك ، أو
ارضاك ، أو هاجك وانت نائر ، أو ترك أي أثر من الآثار في نفسك ،
كما تترك النغمة الموسيقية اثرها في نفس سامعها ، فاعلم أنه من بيوت

المعاني ، وان هذا الذي تركه في نفسك من الاثر إنما هو روحه ومعناه ،
وان مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه ، وثقل عليك ظله ، وشعرت
بجمود نفسك أمامه ، وخيل اليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها ،
فاعلم أنه لا معنى له ، ولا حياة فيه ، فان وجدت صاحبه واقفاً بجانبه
يحاول ان يوسوس لك ان وراءه هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً
متوهجاً يكمن في طياتها ، فكذبه ، وفر بنفسك وأدبك وذوقك منه
فراراً لا عودة لك من بعده .

هذا هو الميزان الذي يجب ان تزن به الكلام ، ونصيحتي اليك ألا
تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها
واضعوها من الادباء لأشعارهم خاصة ، ويزعمون أنها للشعر عامة ،
وأجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع ، فكما أنك لا
تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال ، ولا تلجأ الى قانون من قوانينه
عند وقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن ، وكذلك
لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام ، واستهجان ما تستهجن
منه ، الا على شعور نفسك وإلهام حسك .

★

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء . ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف
وحسن التصوير ، وتمثيل الحقيقة ، واكتناه اسرار الكون ، وتحليل مشاعر
النفس وامثال ذلك من الاغراض والمقاصد ، على ان تكون تلك النغمة
الموسيقية اساسها والروح السارية فيها ، ليتحقق الفرق بين الشعر

والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها، وحججها وبراهينها،
والشعر غذاء النفس برنانه وتغياته، واهازيجه ونبراته .

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الاولى الى اليوم فمات جميع ما
نظموا ولم يبق منه الا البيت الموسيقي الرنان الذي لو لم يغنه مغنيه لغنى
وحده، وسيموت شعر جميع الشعراء في هذا العصر ولا يبقى منه في
المستقبل الا كما بقي من الماضي في الحاضر .

*

الاداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد
ظهروا في هذه الايام واتخذوا لانفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير
الطريق اللاتقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه ، فاصبحوا
متبذلين في شهواتهم مستهترين في ميولهم وأهوائهم ، ينتهكون حرمان
الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم ، ويعبثون بها في كل مكان عبث
الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبة ولا يخشى عاراً واهول ما يتحدثون
به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن
يختلفن الى مدارسهن، او اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب الى منازلهن،
وينصبون لهن صنوف الحباثل وانواع الاشرار لأصطيادهن وإسقاطهن
في هوة الإثم والعار ، وهذا ما اريد ان اتكلم عنه قليلاً ؟

أصحیح ما يقولون عنكم ايها الفتیان التعسبون انكم تتخذون صلة
العلم التي هي اشرف الصلات واکرمها صلة فساد بينكم وبين اولئک

الفتيات الضعيفات وان الجمالة التي تنصبونها لمن لاصطيادهن إنما هي ،
جمالة القلم الذي هو افضل اداة للخير ، واعظم وسيلة للفضيلة ، وخير
واسطة للأدب والكمال ؟

اصحيح ما يقولون عنكم انكم تكتبون اليهن ليكتبن اليكم ، وتهدون
اليهن صوركم ليهدين اليكم ، مثلها ، فاذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن
ورسائلهن اخذتم تنشرونها في كل مكان ، وتعرضونها في كل معرض ،
واخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها او بجماله ورواقه ، كما يفخر
المرء بأفضل المزايا واشرف الخصال ؟

اصحيح انكم تقفون لمن بكل طريق ، وتأخذون عليهن كل سبيل ،
وتضايقونهن في مفدهن ومراحهن ، وحيث ذهبن الى عمل ، او خرجن
لزيارة ، او برزن في مجتمع ، فاذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن
الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن ، وربما توسلتم اليهن بأخواتكم
وبنات اعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويداخلنهن مداخلة الاصدقاء حتى
يحتدبنهن الى منازلكم ؟

اصحيح انكم تقضون اكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام
راكثرايامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدما الذين اصطنعتموهم
ليحملوا رسائلكم الى ساكنيها ، وربما جلستم على ابوابها بجانب البوابين
والخوذين ترقبون نوافذها وكواها عليها تنفرج لكم عما تحبون ؟

اصحيح انكم اصبحتم لا تقنعون في أمر اولئك الفتيات البائسات اللواتي
يقعن في مخالبتكم بإفساد اخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلا

موقفاً عليه بتوقعاتهن ، مستشهداً عليهن بصورهن وخطوطهن ،
لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك ، وتحولوا بينهن وبين التفلت من
أيديكم ، والحياة بعيداً عنكم في جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم ،
عذارى او متزوجات ؟

اصحح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن ، حتى تفسدوا
عليهن عقولهن وصحتهن ، فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول
المخدرات سائلها وجامدها ، فلا تلبث ان تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة
النساء الساقطات اللواتي يلفظن انفسهن الاخيرة في أقبية الحانات او بين
جدران المواخير ؟

أصحح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة
والشهادة فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء ، وتردلفون اليهن بمثل
صفاتهن وشمائلهن ، واصبح الرجل منكم لاهم له في حياته الا ان يتجمل
في ملبسه ، ويتكسر في مشيته ، ويرقق من صوته ، ويلون ابتساماته
ونظراته بالوان التضعع والفتور ، ويقضي الساعات الطوال أمام
مرآته متعهداً شعره بالترجيل ، وبشرته بالتنضير ، وثناياه بالصقل
والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم ، وحتى
سرى التأنث من اجسامكم الى نفوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرجولة
واخلاقها غير الاسماء والالقاب ؟

ان كان حقاً ما يقولون كله او بعضه فرحة الله عليكم أيها الفتيان
المساكين ، وسلام على الفضيلة والشرف ، سلام من لا يرجو عودة ولا

ينتظر إياباً .

ان هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتردونها ، وتمبشون ما شتمت بنفسها وضميرها إنما هي في الغد أم اولادكم ، وعماد منازلكم ، ومستودع اعراضكم ومروءاتكم ، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غداً ، وكيف يكون مستقبل اولادكم وانفسكم على يدها .

ان تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم ان انتم افسدتم الفتيات اليوم ! وفي أي جو يعيش اولادكم ويستنشقون نسات الحياة الطاهرة ان انتم لو تم الاجواء جميعها وملاتموا سموماً واكداراً .

لا تتكون اخلاق الفتاة في عهد طفولتها او في عهد شيخوختها ، بل في عهد شبابها ، فاذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك ، فدعوها تجتاز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة ، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج ، وخير أم للولد ، وخير سيدة للمنزل .

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة في منازلكم ، بدلاً من أن تجدوها فتاة ساقطة مزدرة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات .

لا ترعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم اعراضكم ، ويمرسن سعادتكم وسعادة منازلكم فتلك جناية انفسكم عليكم ، وثمره ما غرست أيديكم ، ولو انكم حفظتم لمن ماضيهن لحفظن لكم حاضرهم ومستقبلهم ، ولكنكم

أفسدتموهن ، وقتلتم نفوسهن ، ففقدتموهن عند حاجتكم اليهن .
إنني لا أفزع في أمركم الى القانون ، فالقانون في هذا البلد مدني لا
أدبي ، ولا الى الحكومة ، فالحكومة مشغولة بشان نفسها عن شان غيرها:
ولا الى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم ، ولا الى
آبائكم وأولياء أموركم ، فقد عجزوا عنكم ، وأصبحوا ييكون مع
الباكين عليكم ، بل أفزع في أمركم الى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا
بعد فقد جميع آمالنا فيكم ، فاصغوا الى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا
الرجاء الذي نرفعه اليكم ، وصوت الضمير اقوى من كل صوت في العالم.

أصغوا اليه تسمعه يقول لكم : إن هؤلاء الفتيات اللواتي لا
تستحيون أن تمدوا اليهن اعينكم وأيديكم إنما هن اخواتكم المحميات
يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل ، وأم واحدة وهي البلد ، وشرف
الأخوة وهو الملجأ الأمين لأعراض الاخوات وشرفهن .

يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها .
لستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصها ذكرى الماضي ، ولا
تختلط في مخيلتها الصور والألوان ، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت
حياتها بفراق قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف .

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت اليه حبيبته
رسمها موقعا عليه بتوقيعها ؛ فلما تزوجت - وكان لا يجب ذلك منها -
أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك
الطريقة الفنية المعروفة ، ثم ارسلها مع كتاب وشاية الى زوجها ليلة

عرسها ، فما لبثت ان خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها .

وحدثني من اثق به ان كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن الا بعد ان يأخذن على انفسهن عهداً امام اخلائهن ان يكن لهم بعد الزواج ، اي بعد ان يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها ، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل الا ورددت عليه ليلة البناء بها او في صبيحتها كتب الوشاية بها من الاشخاص الذين اتصلت بهم ، وأخلصت اليهن ، فانتهى امرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار .

نحن في حاجة الى ان نعلم بناتنا ، لآتنا لا نريد ان يعشن جاهلات متاخرات ، فتنحوا عن طريقهن ايها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن الى مدارسهن آمانات مطمئنات على نفوسهن واعراضهن ؛ ولا ترعجوهن بفضولكم وإسفافكم فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهم ، بل ليضفن الى فضيلة الادب والكمال فضيلة العلم والمعرفة .

افسحوا الطريق لهن ، وافسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها ، والأرمل المسترزقة لبنيتها ، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها الا بنفسها ، والذاهبة لصلة رحمها ، والسائرة لزيارة قبر فقيدها ، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الارض سعياً وراء رزقها ، وقضاء مصالحها ، فإن ايتم عليها ذلك فاعترفوا انكم اعداؤها القساة المتوحشون لأنكم تأبون عليها الا احدى الحطتين القاتلتين : إما الجهل الدائم ، او السقوط العظيم .

الفضيلة الفضيلة ايها القوم ا فهي العزاء الوحيد لهذه الامة المسكينة
عن جميع آلامها ومصائبها ، والامل الباقي لها ان ضاعت - لا قدر الله -
جميع آمالها وأمانيتها ، والشرف الشرف فربما جاء يوم ندير فيه اعيننا من
حولنا فلا نجد مما تملك ايدينا شيئاً سواه .



المؤتمر الإسلامي

سرى منظر ذلك الرجل^(١) العظيم، والداعي الكريم، وهو قادم الى مصر
يحتاز التخوم، ويتخطى البلدان، ويطوي الغبراء طي الكواكب
الخضراء يقوده الأمل، ويسوقه الرجاء، وبين جنبه همة عالية، ونفس
كبيرة وقلب مشيع، وفؤاد في الأفتدة، كالنسر في الطيور، يخلق في
جو الإسلام تخليق من يحاول ان يظله بجناحيه.

سرى منظره، وان لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول ان
يرأب صدعهم، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويدعو
الى الله تعالى دعوة النبوة الأولى، الا ان تلك عربية تدعو الاعجمية،
وهذه أعجمية تدعو العربية الفصحى.

هنا ذكرت الإسلام ومجده، والإسلام وجنده، والإسلام ودولته،

(١) كتب لمناسبة حضور المصلح الإسلامي الشهير اسماعيل بك غصبرنسكي الروسي الى
مصر سنة ١٩٠٨ للدعوة الى مؤتمر إسلامي عام.

والإسلام وصولته ، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول :
والله لو منعوني عقاب بعير لقاتلتهم عليه ، وذكرت عمر وهو واقف في
مرابض المدينة في حمارة القيظ يستقبل شبحاً اسود يرفعه الآل ويخفضه ،
ويطويه الأديم وينشره ، حتى اقترب منه فتبينه فاذا هو اعرابي قادم
من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل والاعرابي راكب لا يعرفه
ويسأل ما فعل الله بسعد وجنده ، فيحدثه القادم عن فتح القادسية
والمدائن ، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره ،
وتراث مرزبته ودهاقينه ، وعمر لاه عن نفسه سروراً بما سمع ، وفرحاً
بما تم . وذكرت صلاح الدين ، وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم ،
الى حيث يستنقذ الثغور ، ويستخلص الامصار ويخوض جمرة الحرب
المتأججة ليفتدي بنفسه أجساماً ان لم تلتهمها النيران فكأنه قد من صخر ،
وذكرت محمداً الفاتح وهو يلعب بكرة الارض لعب الصبي بكرته ويخترق
بسفائن البحر رمال القفر ، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء ،
وسجد في معبد أيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه ،
وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق الى الغرب فأنشأ وحده دولة
خضعت لها أفريقيا وبعض أوروبا ، وذكرت مع ابطال الحرب ابطال
السلم فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله ، والمأمون وفضله ، والغزالي
وحكمته ، وابن رشد وفلسفته ، ومعاوية وسياسته ، وعبد الملك
وكياسته ، وذكرت مدارس بغداد وبخاري والاسكندرية والقاهرة
وغرناطة وإشبيلية وقرطبة ، وذكرت مترجمي كتب اقليدس

وبطليموس وارسطو، وواضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء وذكرت
مخترعي البندول والبوصلة « بيت الإبرة » والساعة الدقاقة التي أهداها
الرشيد الى شارلماث ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فزعاً شديداً ،
وسموها شيطاناً رجيماً او آلة سحرية او مكيدة عربية الى كثير من
امثال هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية .

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته ، ورماه بنكباته ، فأصبح
أثراً من الآثار ، وخبراً من الاخبار ، وعليلاً حار فيه أطباؤه ، ومله
عواده وظل مترجماً بين داهيتين ، ومضطرباً بين غايتين إما ان يموت
موتة أبدية - وبالله العياز - او يحيا حياة مادية ، لا حياة أديية ،
وينهض جامعة تجارية ، لا جامعة دينية ؛ ما دامت قاعدة الحكومات ،
وما دامت الحكومات عدوة الاديان ، وما دامت الاديان لا تستطيع
التحليق الا في فضاء من الحرية لا ينتهي البصر فيه الى مدى ، لذلك
أحزنتني عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب
اذا عثر بين اوراقه على رسائل الحب ، و أناشيد الغرام ، وأمضني ما
يمض العاشق المفارق ، اذا مر بالآثار واطلال الديار ، فرأى النوى
والاحجار ، وموقد النار ، ومجال الخيول ، ومجر الزيول ، فذكر ما كان
ناسياً ، وهاج من وجده ما كان كامناً ، فبكى واستعبر .

وود يجدع الأنفلو عاد عهدا وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهلية الأولى بأحوج الى الاصلاح الديني من الجاهلية
الأخرى ، بل ربما كانت هذه احوج من تلك اليه .

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها الى الله زلفى ، وجاهليتنا
تعبد الاحجار والاشجار ، والاحياء والاموات ، والابواب ، والكوي ،
والقواعد والاساطين : تبركا ، او تقربا ، لفظان مترادفان ، مختلفان
لفظاً متفقان معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه .

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوباً ، وجاهليتنا متفرقة
منازل وبيوتاً ، بل أحاداً وافراداً ، فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف
ولا تعاطف ، حتى بين الأخ و اخيه ، والآب وبنيه .

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الاوتار ، وجاهليتنا تسفكها
في سبيل السرقات وقضاء الشهوات ، وكان افطع ما في جرائمهم وأد
البنات ، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار ، وكان بعضهم يبيعي على
بعض بسرقة ماله ، او استياق ماشيته ، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما
فعلوا ، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الاوراق وتحريف الصكوك ، وتقليد
الاختام ، والبراعة في النصب والاحتيال ، يكاذ يستوى في ذلك العالم
والجاهل ، والشريف الهاشمي ، والفلاح القروي .

وليتنا إذاخذنا جاهليتهم اخذناها كماهي رذائل وفضائل فيهون
على المصاحين أمرها ، ولكننا أسانا الاختيار ، فلنا خرافاتهم الدينية
وأدواؤهم الاجتماعية ، وليس لنا كرمهم ووفائهم ، وغيرتهم وحميتهم
وعزتهم ومنعتهم ، فكيف لا يكون الأمر خطيراً ، وكيف لا تكون
الجاهلية الأخرى احوج الى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الاولى ؟
نبئني عن الإسلام اين مقره ومكانه ؟ واين مسلكه ومضطربه ؟ وفي

أي موطن من المواطن حل ، ومعهد من المعاهد نزل ؟

أفي الحانات والمواخير التي يخصص بها الفضاء ، وتثن منها الارض
والسواء ، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمان دينهم بلا خجل ولا حياء ؟
كأننا هم يشربون الماء الزلال ، ويغشون البضع الحلال ، ولقد هان عليهم
أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية في عمله ، او الاحتشام
في أمره ، سموه جباناً جامداً ، او متكلفاً بارداً ، كل ذلك على مرأى
ومسمع من الحكومة الإسلامية ، والمعاهد الدينية ، والقضائين الشرعي
والنظامي ؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح ، والغبن الفاحش ،
مزخرفاً بالاقوال الكاذبة ، والأيمان الباطلة ؟

أم في مجالس الاحكام حيث للدينار الاحمر السلطان الاكبر على
سلطان العدو وسلطان النمة وسلطان الشرائع ، اللهم الا ما كان من تلك
الالواح المكتوب فيها (العدل اساس الملك) او (واذا حكمتم بين الناس
ان تحكموا بالعدل) ؟

أم في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة
مائة عام ، وكانت تلك الاعوام مملوءة بالآثام والجرائم ، والمفاسد والمظالم
لكفت تلك الحركات التي يسمونها صلوات ومحسبونها حسنات ، لغفران
تلك السيئات ؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسماً بلا روح ، وعلماً
لا عمل ، كأننا يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الدائرة ، او أحد الاديان

الغابرة ، وحيث يتلقون كشكولاً عجيباً وخلقاً غريباً من الأكاذيب ،
والترهات ، فلا تكاد تسمع من أفواههم الا حديثاً موضوعاً ، او قولاً
مصنوعاً . او خرافة تاريخية ، او بدعة دينية ، وحيث يقضون حياتهم
في المناظرات والمجادلات ، والتحاسد والتباغض والتقاطع والتدابير ،
وهي بعينها الاخلاق والذائل التي ما جاءت الاديان الا لمحاربتها ،
والقضاء عليها ، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون ، ويسئون
ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الالعب الجبازية، والحركات البهلوانية،
والسرقات باسم العادات ، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات ؟

ان أراد المصلحون لأنفسهم نجاحاً ، وللإسلام صلاحاً ، فليبدأوا
عملهم بتهديب العقائد الدينية ، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية ،
لا تربية مادية ، أي أنهم يدخلون الى الإصلاح من باب الدين لا من باب
الفلسفة ، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم ، ودينهم
وآخرتهم ، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب ، والمعلم والمهذب ،
والإسلام وان كان دين العقل والفطرة ، والإصلاح ، الا ان الخطر كل
الخطر على المسلمين ان يكون في نظرهم تابعاً للعقل ، وان يكون العقل
الحكم بينهم وبينه ، والخير كل الخير في ان يكون الدين حاكماً والعقل
مفسراً ومبيناً ، فاذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة ، والحكمة
والسياسة ، فقد تم لهم كل شيء ، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين :
الدينية والسياسية ، كما تم لهم ذلك في العهد الاول من هذا الباب نفسه ،

وفي هذه الجادة المستقيمة ، فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الحاضرة ان يكونوا كدعاته في الجاهلية الأولى ، وهل يستطيعون ان يخلصوا الله في عملهم جادين مثابرين ، لا تاخذم فيه هوادة ولا عنه سنة ، وان لا يرى احدم لنفسه على أخيه فضلا الا بالإيمان والتقوى ، وان يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر ، ويحتمل الكريهة ، ولا يجعل لليأس الى قلبه سبيلا ، ولا للهوان على نفسه سلطانا ؟

هل يستطيع المصلحون ان يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما اصلح المصلحون في الاولين ؟ « لست أدري ولا المنجم يدري » ؟
لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

★

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي ؟

هو شعور المرء أنه مسؤول أمام ضميره عما يجب ان يفعل .

لذلك لا أسمى الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة
العلائية ، ولا العفيف عفيفاً حتى يعف في حالة الامن كما يعف في حالة
الخوف ، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في افعاله صدقه في أقواله ، ولا
الرحيم رحيماً حتى يبكي قلبه قبل ان تبكي عيناه ، ولا المتواضع
متواضعاً حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه .

التخلق غير الخلق ، واكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقين بخلق
الفضيلة ، لا فاضلون ، لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس ، او
خوفاً منهم ، او طمعاً فيهم ، فان ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعاً في
الجنة التي أعدها الله للمحسنين ، او خوفاً من النار التي أعدها الله
للمسيئين .

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة ، او يتقي السيئة لأنها سيئة فذلك من لا نعرف له وجوداً ، او لا نعرف له مكاناً .

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار ، لأنه لا يعدم ان يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة وهو يحسب انه يمشي في طريق الفضيلة ، أو خوفه من القانون، لان القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب ، أو خوفه من الناس ، لان الناس لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يضرهم ، رذائل كان أم فضائل ، وانما يتفعه ان يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به ومنازه الذي يستنير بنوره في طريق حياته .

وما زالت الاخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتحلى عنها ، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات ، والقواعد والانظمة ، ففسد أمرها ، واضطرب حبلها ، واستعالت الى صور ورسوم وأكاذيب والأعيب ، فرأينا الحاكم الذي يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسم رجل مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صباغة من المال يريد ان يسلبه إياها ، والامير الذي يتقرب الى الله ببناء مسجد قد هدم في سبيله الف بيت من بيوت المسلمين ، والفقير الذي يتورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته الى خاتمته ، والغني الذي يسمع انين جاره في جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به ، فاذا أصبح الصباح ذهب الى ضريح

من أضرحة الأولياء ، ووضع في صندوق النذور بدرة من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة به اليها والموس التي تتصدق بنفسها ليلة في كل عام على روح بعض الأولياء وعندها أنها قد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام .

الى كثير من امثال هذه النقائص التي يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الاخلاق الفاضلة والسيرة المستقيمة .

الخلق هو الدمة التي تترقرق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس ، او مشهد من مشاهد الشقاء .

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاعتراض كلما ذكر أنه رد سائلا محتاجاً ، او أساء الى ضعيف مسكين .

هو الحمرة التي تلبس وجه الحبي خجلا من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده ، ولا يستطيع مد يد المعونة اليه .

هو اللجلجة التي تعترى لسان الشريف حينما تحدثه نفسه باكذوبة ربما دفعته اليها ضرورة من ضرورات الحياة .

هو الشرر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد من الأيدي الى العبت بعرضه أو بكرامته .

هو الصرخة التي يصرخها الأبي في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه ، أو بمالة عدوه .

الخلق هو أداء الواجب لذاته ، بقطع النظر عما يترتب عليه من
النتائج فمن أراد ان يعلم الناس مكارم الاخلاق فليحيى ضمائرهم ، وليبث
في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة ، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء ،
ومن أي طريق أراد ، فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تحشى بها
الاذهان ، بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب ،
والأريج عن الزهر .



مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها ، وبلوغها في المدنية مبلغاً يؤهلها لمجارات الامم الغربية في عظمتها وسلطانها ، فأصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أناها .

أصبحت أعتقد ان مفسد الاخلاق والمدنية الغربية شيان متلازمان وتوآمان متلاصقان ، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه الا اذا افترت نشوة الخمر عن مرارتها. فكيف أتمناها لامة هي أعز عليّ من نفسي التي بين جنبي؟

قرأت حوادث الانتحار في الغرب ، فقلت قوم قد ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف في طريقتها وقفة الشجاع المستقل ، ففروا من وجهها الى حيث يجدون الراحة الدائمة في اعماق القبور ، وما اكثر الجبناء في مواقف الحرب وميادين الجهاد !

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تصل من بين جنوبيهم ما كانوا يعتقدون في عهد الهمجية الأولى من

أن العرض إناء ألم به القذى لا يغسله الا الدم المسفوح ، وكثيراً ما
أوردت العقائد النفوس موارد الختوف .

قرأت حوادث عشاق الموقى الذين يتسللون تحت جناح الظلام الى
المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات ، شوقاً الى لثمة من خد
يرشح صديده، أو رشفة من ثغر يتناثر دوده حتى إنه ليروقهم من منظر
الساكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من منظر المقصورات في الخيام .
فلما طاردتهم الحكومة عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم،
ومواقف عشقهم وهيامهم ، رأوا أن يحتالوا على الإمام بأولئك الموتى
خيالاً لما فاتهم الإمام بهم حقيقة ، فأنشأوا لأنفسهم في باطن الارض قاعة
كبرى كسوا جدرانها بالآستار السوداء ، ووضعوا في وسطها صندوقاً
من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تتصنع الموت باصفرار لونها ،
وإسبال جفونها ، وسكون أنفاسها ، فإذا لج بأحدهم الشوق الى الإمام
بفتاة ميتة نزل الى تلك القاعة السوداء وعالج مخيلته على أن يتصورها
قبراً مظلماً موحشاً ، يضم بين اقطاره فتاة ميتة لا حراك بها ، فيلم بها
وهو يسمع نغمات الاحزان من قيثاره اعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك
الخيال .

قرأت هذا وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه الى الغرام
ببعض أنواع الحيوان ، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمون
فيها بالدجاج والبط والأوز لإمام غيرهم بالنساء البغايا ، فقلت لا عجب في
ذلك . وهل هو إلا فن من فنون الجنون التي لا يجد المرء الى حصرها

سيلا ٤١

إن كنت أعتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فإني لا أعتفر لها ذنوبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون في ذلك بأساً ولا يجدون فيه متلوماً .

وقد وضعوا لها البرنامج الآتي :

يوم الأحد : دروس استعدادية .

» الاثنين : الغزل .

» الثلاثاء : المطارحة .

» الأربعاء : صناعة التقبيل والتخميش .

» الخميس : فلسفة الدلال والتصبي .

» الجمعة : اختيار مواعيد اللقاء .

» السبت : الامتحان .

هذه هي المدرسة الغرامية ، وهذا نظامها ، فهل سمعت في حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التي يسمونها الأمم البهيمية إشارة الى ما بينها وبين البهائم من حب الشهوات والاستهتار فيها قد بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التي يقولون عنها انها زهرة المدنية الحديثة ، وتاجها المرصع .

لماذا نسمي الزنوج قبائل متوحشة ، ولجن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل الى مخالطة النساء ، فيأخذونهم جميعاً الى مكان خاص بهم بخارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها تراباً معبداً ، حتى اذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نم أثره عليه ، كما نعلم انهم يخيطون فروج العذارى حيطه وحنراً ليحفظوا أعراضهن لأزواجهن سالمات بريئات ، ولماذا تسمى الأمة الأمريكية أمة متمدينة ، وها هي ذي تفتح المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها ، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها !!

إذا كان توحش الاولين لإغراقهم في صون الاعراض ، والحيطه لها فالآخرون أكثر منهم توحشاً لإغراقهم في هتكها وابتذالها ، والإغراق في الخير ، خير من الاغراق في الشر .

فيأياها الزنجي المسكين ، لقد ظلمك من سماك متوحشاً ، ويأياها الامريكى المتوحش لقد كذبتك من سماك متمديناً .

أيها الزنجي الأسود : إن كنت أسود اللون ، فالفضيلة اعلى قدراً من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنباً تنفر منه ، وجريمة لا تغتفرها ! وإن كنت جاهلاً فهل استفاد صاحبك من علمه الا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها ، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفنناً لا أحسبك تحن اليه ، أو تتقطع نفسك حشرات عليه ؟ وإن كنت عارياً فربما لبست من

الفضيلة ثوباً يحسدك عليه - لو يعقل - ذلك الذي يفخر عليك بخزه
وديباجه ودمقسه وحريره :

ولو بتما عند قدريكما لبت وأعلا كما الأسفل^(١)

(١) أي لو تنزل كل منكما المنزلة التي يستحقها لأخذ الأعلى مكان الأسفل ، والأسفل مكان الأعلى .

أمس واليوم

مثلنا ومثل آباؤنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمددين الحديث ومن بعده كمثل رجل ضل به طريقه في ليلة ليلاء غدافية الإهاب ، حالكة الجلباب قد تجسد ظلامها حتى كاد يلمس بالراح ، فانقلب جرهرأ بعد إذ هو عرض ، فاصبح كأنما هو فحل سائل ، او مداد جامد ، فأنشأ هذا الضال المسكين يخطب في ذلك الديجور ترفعه النجاد ، وتخفضه الوهاد لا يرى علماً فيبهتدي به ، ولا يتنور نجماً فيعتمد في سراه عليه .

ولإنه كذلك وقد استوت في نظره الجهات الست ، فسائه ارض ، وأرضه سماء ، ووراءه امام ، وامامه وراء ، واذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة الأفق ، وافرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبية من ذائب أشعته المتلاثلة فعشى بعد ان كان بصيراً فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئاً ، وما زال في ضلاله القديم ، الا ان ذاك ضلال الظلام ، وهذا ضلال الضياء وهو شر الضلالين ، واقتل الداعين ، فان ضلال الظلام يتخلله

بريق الامل في الضياء ، فأما وقد أصبح الدواء داء فلا أمل في الشفاء .

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ذلك مثلنا ومثل آباتنا من قبلنا بين يدي هذه المدينة الجديدة التي همي سياتها على هذا العالم الإنساني فرأى الغرب تربة طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ورأى الشرق تربة طيبة صامته متحجرة قد نجم فيها كثير من الاعشاب الضعيفة ، والجذور الفاسدة ، فأما ما تحجر منها ، فلم تغن عنه السقيا شيئاً ، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسداً كأصله وكان خيراً له لو ذهبت ذلك الفيضان به ويجذوره .

أي أن المدينة الحديثة تمشت في صدر الغرب بقدم متناقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب ، ثم وضعت يدها في أيدي الغربيين فصعدت بهم الى سمائها خطوة خطوة كما يعود الطفل الصغير على المشي وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا ، فبلغوا ما أرادوا ، وهوينا الى أعمق مما كنا ، كالحجر الثقيل يرمى به في الجو ، فإذا ارتد ارتد الى حفرة يدفن نفسه فيها .

أي أنت الغربيين أحسوا ، فنهضوا ، فجدوا ، فأثروا ، فتمتمعوا بشمرات اعمالهم ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات . ووثبنا الى الغاية وثبنا فسقطنا .

فهما كان نصيب آباتنا من الجهل ، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدينة الحاضرة ، فقد كانوا على علاقتهم أسعد منا حالاً وأروح بالاً وأهناً

عيشاً ، وأسدّ خطوات في سبل الحياة ؛ وكانت المعيشة فيهم اجتماعية ؛ أكثر منها فردية ؛ فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالملكة الدستورية المنتظمة يديرها عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأي والدين والمذهب والأخلاق والعادات ؛ تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادي المسامرة ، وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساعة المنزه ، يحبون الله ، لا يختلفون الا في الطريق الى رضاه ؛ ويحبون الوطن ولا يختلفون الا في الطريق الى خدمته ، ويحترموا عاداتهم وأخلاقهم ولقنهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية ، ويفرون من العادات والمشارب الغريبة عنهم فرارهم من الاسد ؛ مخالفة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتتحل جامعتهم ، فتهدأ حميتهم ، فتجمد نفوسهم ، فإذا هم ميتون ثم لا يبطنون .

وكان بين الصغار في الاسرة والكبار فيها معاهدة رحمة واحترام يحترم الصغير الكبير فيكبر عمله وإرادته ومذهبه ، فإذا أتزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآة له تنطبع فيها تلك الأعمال والإرادات والمشارب ، حتى اذا أصبح الصغير كبيراً وجد من صغيره ما وجد منه كبيره ، فلا تزال سلسلة التوارث في الاسرة متصلة اتصالاً تعيا به الحوادث ، وتكبوا دونه عادات الليالي .

ويرحم الصغير الكبير فلا يالوه نصحاً في حاضره ومستقبله ، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ فإذا هو هو ، حتى اذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الاسرة بفقده شيئاً .

فن لنا اليوم بتلك السعادة التي أكلتنا اياها المدنية الغربية يوم
أظلمنا بعلومها ومعارفها، ومخترعاتها الخالية، وزخارفها الالامعة الباطلة،
فانقلبت المعيشة البيئية اجماعية فردية محضة فالأخوان متناكران ،
والزوجان متنافران ، والولد شقى باييه ، والأب شقى بولده ، وكان
ساحة المنزل ساحة الحرب ، لا ترى فيها غير وجوه مقطبة ، ونفوس
منقبضة ، وأشلاء فوق أشلاء، ودماء أثر دماء ، وشقاء ليس يعمله شقاء .
ومن كان في شك من هذه الحقائق فإني أكله الى جداول القضايا في
الحاكم فإن لم ير أن أكثر المخاصمات فيها - خصوصاً المدنية منها - واقعة
بين الأقارب وذوي الرحم ، فله حكمه ما شاء .

إن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكل وجوها فاسمع قصة رجل
مصري كان ذا ثروة متوسطة عاشت آباءه أجيال متعددة ؛ فما كانت
تضيق بهم، وما كانوا يضيقون بها، وكان له ثلاثة اولاد و « امرأة جديدة »
متعلمة تعرف كل شيء الا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها ،
وليتها جهلت كل شيء الا هذا فتكون قد علمت كل شيء ، وتحب مطالعة
الروايات الغرامية الفاسدة حباً ملك عليها مشاعرها وخوالجها فربما
عرض لها المهم من الامر فلا تحف له قبل فراغها من الفصل الذي تطالعه ،
وتحب التمثيل فتقضي ليلها في مشاهدته ، ونهارها في سرد وقائعه ومشاهده على
صواحبها وأترابها ، وربما كانت تهمس في آذانهم أن ليتها ترى (روميو)
فتكون له (جوليت)^(١) وتبغض الحجاب بغض الحرائر للسفور ، فيومها

(١) روميو وجوليت : امم رواية لشكسبير .

نصفان : نصف للخروج ، ونصف للتهيؤ له ، فهي خارج المنزل من مطلع الشمس الى مغربها ، بنى بها زوجها بعد وفاة زوجته الاولى فلم يفتبط بها غير عام واحد ، ثم ضرب الدهر ضرباته فاذا بينها عيشة لا أظن أن الجحيم اشد نكالا منها .

اما اولاده فأدخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات مختلفة . الإنكليزية والفرنسية والالمانية ، ثم تخرجوا ، هذا انكليزي بفظاظته وخشونته ، وهذا فرنسي بخلاعه واستهتاره ، وذاك ألماني بخيالاته وكبريائه ، وجميعهم متفرنجون مشرباً ومذهباً ومطعماً وملبساً ومسكناً ، وما فيهم من تفرنج همة وعملا .

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن ، اما الدين فلأن اكثر مدارسنا حتى الاهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشأن من شؤونها والدين خلق شأنه كبقية الاخلاق ، لا يرسخ في النفس الا بتكرار العصور الدينية وتداولها عليه ، فان بعد عهدها به أغفلته وأنكرته ، وكذلك كان شأن هؤلاء الاولاد المساكين فقست قلوبهم ؛ وجدت نفوسهم ، وفقدوا بفقده دينهم اطييب عزاء يستروحه الانسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب ، الحافلة بالكوارث والهموم .

والانسان مهبط حولها ، وكثر طولها ، واتسعت مذاهب قوتها ، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد ، لولا زهرة الامل التي يتعدها الدين بالسقيا في قلب المؤمن ، فيستروح منها ما يروح عن قلبه ، ويسري عن نفسه ، ولولا يقينه أن هناك حولا اكبر من حوله ، وطولا أعظم من

طوله ، وإلهماً قادراً يقرب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه ، وعيت عنه قوته .

وأما الوطن ، فلان المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيد أجنبية تربي التلاميذ لها لا لاطنانهم

فكنت ترى منزل الرجل كأنما هو مجمع من مجامع السفراء تركي متمسك بتركيتة ، وإنكليزي يهتف ليله ونهاره بأن الدولة الإنكليزية سيدة البحار ، وأن الشمس لا تغيب عن أملاكها ، وفرنسي يعبد فرنسا ويسبح بحمدها ، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة ، وأن أسعد المستعمرات مستعمراتها ، وألماني يستظهر خطب الامبراطور ، ويتكهن أن المستقبل لألمانيا يوم يحى اسم انكلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا ، وكثيراً ما يقع بين المتفرنس والمتألن النزاع الطويل في شأن الأنازس واللورين ، وبين المتألن والمتكلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلوا ، وأي القائدين كان له الفضل فيها بلوخن أو والنجتون ؟ ولا يتفقون الا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم ، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل ويلبسونها ورجالها قديماً وحديثاً أثواب المراقع المضحكة ، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس ، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من ناحية والدم الجالس ناحية يندبهم ، ويندب نفسه معهم ، فبئس الاختلاف حين يختلفون ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون .

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل ، وتفرق أفراد تلك الأسرة أيما تفرق وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام ، فلا يصطحبون في منزله ولا

يجتمعون لصلاة ، ولا يتصافون في سمر ، ولا يتفقون في شأن من شؤونهم البيتية ، حتى أصبح لكل منهم من الماكل والمشرب والملبس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه الميادين لخلق أخيه أو أميه .

فأني لهم التعاضد الذي كان لأبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة ، وأني لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته ، وتشقى بشقائه ؟

وأني شأن لهذه المعلومات الكثيرة التي حشوا بها أذهانهم ، وهل أفادوا^(١) بها إلا هنراً في المنطق ، وثرثرة في اللسان ، وشغلا للأذهان ، لا يعني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلًا ؟

ولو عقولوا ان ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا ونسميه جهلاً وهمجية ، هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به ، ونعني عليهم تاريخهم من أجله ، لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيروننا .

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض ، وإن مصر في شمال إفريقيا وسوريا في غرب آسيا ، ولكنهم كانوا يعلمون ان وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم ، وإن أبناء وطنهم اخوة لهم يسعدون معاً ويشقون معاً وإن سعادتهم في استقلالهم ، وشقاءهم في امتداد اليد الأجنبية اليهم ، وكانوا يعتقدون كثيراً من الخرافات والاهام ، وإن هناك أرواحاً خيرية وشرية تنفع وتضر وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد ،

(١) أفادوا كاستفادوا

ويطاطئون رؤوسهم بين يدي رؤساء الأديان تحتنا وتعبداً ، وعندى أن ديناً خرافياً خير من لا دين ، لأن هذه المعبودات الوهمية في نفوس العابدين لها سلطاناً قاهراً يقاوم أهواء الشرف فيها ، ويطهرها من كثير من الرذائل التي تعيبها القوانين الشرعية والوضعية ، كالخيانة والكذب ، والحقد والحسد ، وسفك الدماء ، واغتصاب الاموال ، وغير ذلك من الشرور الانسانية التي لا تزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجراً ، والتي فشت اليوم بين طبقات المتعلمين الذين أخذوا العلم مجرداً عن روح التربية وصبغة الاخلاق .

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في اكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض ورهن على صدق ألسنتهم ، ووفاء قلوبهم ، فكان الرجل يأمن ان يفرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ، ولا شهادة شاهد ، فأصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدائق والسحتوت ، والويل كل الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه ، أو أنكر شهوده وكثيراً ما يفعلون .

وجملة الحال انهم كانوا يجهلون اكثر ما نعلم ، ولكن لم يجن عليهم جهلهم اكثر مما جنى علينا علمنا ، وكانوا محرومين اكثر مما نتعم به اليوم من مساكن فاخرة ، ومراكب فارهة ، وملابس زاهية ، وفرش وثيرة ، وأنيبه صقيلة ، وأدوات للمأكل والمشرب عينة ، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئاً من هذا كله لانهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة ، فنحن وهم سواء في الرضا

بجائنا ، إلا ان معيشتنا يكدرها الفقر والافلاس الآجل أو العاجل ،
ومعشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء ، وها هي دفاتر المصارف وبيوت
الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في غنى عنها لولا المدينة
الحاضرة التي قلبت الكماليات في نظرهم الى حاجيات ، فبنوا القصور ،
وشادوا الدور ، وما شادوا لا يعلمون إلا قبوراً دفنوا فيها راحتهم وهناءهم
ومستقبل ذريتهم من بعدهم ، فإن هؤلاء الاولاد المساكين بعد ان خرجوا
من المدارس بلا دين ولا وطن أرادوا ان لا يبقوا في قوس الحرية منزعاً
فاطلقوا لأنفسهم العنان في سبيل الشهوات واللذائذ ، فكانوا يسهرون
الليل بين رنين الكؤوس وضرب الدفوف ؛ ثم ينامون النهار بين التمطي
والثوباء ، حتى نبت بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا عليه من علومهم
ومعارفهم ، فأبعدتهم عنها ، فأصبحوا كلاً على أبيهم وعلى الناس ، لم
ينفعهم علمهم ، ولم تغن عنهم شهادتهم ، بعد ان نفخت الكبرياء في صدورهم
فأبوا ان يزلوا للاحتراف بما يقوم حياتهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا
ركائب شبابهم في طريق تقليدهم ، وباعوا في سوق التشبه بهم كل ما تملك
إيمانهم وقلوبهم ، وبعد ان ملكت الشهوات قيادهم فما وجدوا في أنفسهم
متسعاً لسواها ، فأغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة وبالباطل
تارات ، وكانوا قد قلعوا ظلالتها أولاً بنفقات دراستهم ، وثانياً باتباع
ما حسن لفظه ووجب معناه من السلع الأوربية ، التي تفني خزائن روكفلر
وروتشلد قبل الوصول الى إشباع بطون تجارها ، فنضب معينها ولم يبق

منها حتى الذمء^(١) فتبدل ذلك النعيم شقاء ، وتلك السعادة والرفاهية فقراً وهدماً ، أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف ، والمخترعات والمستحدثات ، وأما الاولاد فاغتالت ادهم يد الزهري وكانت لأمثاله من المغتالين واحتوى الآخر فراش السل حيث لا زائر ولا طبيب ، وافترش الثالث تراب السجن على أثر جنابة دفعه اليها العوز والحاجة ، وفرت « المرأة الجديدة » الى معرض الأعراض حيث يبتاعها الشقاء بثمان بخس وهو فيها من الزاهدين :

كان لم يكن بين المجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
هذه قصة منزل من منازلنا ، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا ما
رحم الله ، فلوان باكياً بكى على ما آلت اليه حالة هذه الأسرة الشقية
فهو إنما يبكي أسراً متعددة ، وأمة كاملة :

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافق
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك^(١)

وجملة القول إن للحاضر سيئات فوق سيئات الماضي ، فلا خير في
العصرين ، ولكن ويلا أخف من ويلين ، والأمم لا تسعد بمعرفة الخير
والشر فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل ، وإنما سعادتها في معرفة
خير الخيرين وشر الشرين ، ولئن دام هذا الحال ، واطرد المقياس ، فالغد
شر من اليوم ، كما كان اليوم شراً من الأمس .

(١) الذمء بقية النفس .

(١) الأبيات لمتهم بن نويرة يرثي أخاه مالكا .

المرقص

حدث أحد الأصدقاء قال : ذهبت ذات ليلة الى مرقص من مراقص الأذربكية ولم أكن زرت ولا زرت غيره من قبل ، فرأيت على بابه جندياً يتمشى في عرصته مشية هادئة مطمئنة ، فذعرت لمراه ، وتراجعت قليلاً قليلاً ، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق الى المرقص ، وأنني بين يدي دار من دور الحكومة يجرسها حاجبها، لولا أنني لم أر في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب ، والنذل والانكسار ، الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمنظلمين .

وقفت ساعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لأمس فالتفت ورائي فإذا صديق من أصدقائي يسألني : ما وقوفك ههنا ؟ فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره : أراق تشاركني في الفعل وتفردني بالمعجب ، قال : أنا أفتش عن ابن عمي ، قلت : وأنا أفتش عنك ، فابتسم وقال : هيا بنا ندخل قبل أن تمتد

سلسلة التفتيش الى حيث ما لا نهاية له ، وامسك بيدي حتى جار بي باب المرقص ، فسألته ما هذا الجندي الواقف أمام الباب ؟ قال : كيف ذهب عنك أن حكومتنا قد اصبحت اليوم حكومة مدنية لا ادبية ، فتساوت في نظرها « المصالح » والمراقص ، واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء ، ومعاهد البغاء ، فأصبح الجندي يحمي ابواب العاهرات كما يحمي ابواب الوزارات ، ويقف امام البارات موقفه امام الإدارات .

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سخاً وتذرافاً كلما ابصرت هذا الجندي الظريف واقفاً هذا الموقف الذليل ، يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف ، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء ، ويحمي الفسق والفجور ، لا القلاع والثغور ، وما أعجب لشيء عجبي لهذه الحكومة التي تضن بجنديها ان يشتمه شاتم ، او يلمسه لامس ؛ فتغضب له غضبة مضرية فتراءى فيها الشامة والحمية ، والعزة والنخوة ثم لا تضن به ان توجره نائحة في الجنائز ، او قواداً في المراقص ، وهو هو بعينه الذي يمثلها في وقفاتة ، وينوب عنها في غدواته وروحاته .

هذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق وهو سائر بي الى قاعة المرقص حتى وصلت اليها ، فاذا رأيت ؟

إن كنت لم تسمع في حياتك ان فدانا واحداً من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فأعلم انه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات ، فكأنه العين التي تسع الفضاء بارضه وسمائه ؛ أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون .

رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس ، والمقول جامدة في الرؤوس ،
والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب ، والسهام مسددة لاصطياد القلوب ،
ورأيت من كنت احسبه اوفر الناس عقلا ، واذكاهم قلباً ، ومن كنت
اراه فاغضى بين يديه إجلالاً واكباراً ، واقعاً في حباله بعني تقيمه وتقعده ،
وتطويه وتنشره ، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها ؛ وهو في غير هذا
المكان قيصر الرومان عزة وفخاراً ، وكسرى فارس أنفة واستكباراً .
رأيت من يزعم ان الله قد وهبه عقلاً يخترق اشعة حجب الغيب ،
وعلماً تتساوى امامه المادة وما وراءها ، ومن لا يزال يتمثل صباحه ومساءه
بقول الشاعر :

وعلمت حتى ما اسائل واحداً عن حرف واحدة لكي ازدادها
يجهل قضية من القضايا الاولية التي يشترك في فهمها الاذكياء والاغبياء
والعلماء والجهلاء .

رأيته يجلس في الرقص فتمر به البغي فما هي الالحة طرف ، او
غمزة كف . حتى تحدثه نفسه انه قد وقع من نفسها ، وملاً فراغ قلبها ،
فيدعوها اليه فتجلس بجانبه ، فما هي الا ابتسامة خالية ، او كلمة كاذبة ،
حتى يقسم بكل محرجة من الايمان ، ان نفسه صادقة فيما حدثته ، وان
الفتاة قد علقته به علوقاً لا نجاة لها من بعده الى يوم يبعثون .

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرقه وماله ، ويرى ان ذلك قليل
في جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه ، وابتسامات تجود
بها عليه .

لقد كذبتك نفسك ايها الرجل فها هي المرأة بجانبك فهل ترى فيها
منظراً رائعاً ، او جالاً ساطعاً ، ياسر أقسى النساء قلباً ، واعصاهن
عناناً .

ان الفتاة التي اسمعتك كلمة الحب قد اسمعتها قبلك وستسمعها بعدك
كل صاحب جيب مثل جيبك ، وعقل مثل عقلك .

وان كنت في شك مما اقول فامسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة
ثم انظر بعد ذلك اين مكانك من نفسها ، وموقعك من قلبها ، فان لم
تطر عليك سحائب اللعنات ، وتجعلك غرضاً لسهام التهكمات ، فانت
اصدق الصادقين ، وانا اكذب الكاذبين .

رأيت هناك كل حاسة من الحواس قد لبست منظاراً يكبر
المنظورات ، ويضعف السموعات ، تغني المغنية بصوت مضطرب
النفثات ، بارد الترجيعات ، ثقيل الحركات والسكنات ، فتمتلئ ارجاء
القاعة بالآهات ، وتدوي فيها الصيحات المزعجات ، وتطل العجوز
الدرديس على الناس بوجه مغضن وجفن مقرح ، وسن بارز ، وخذ
غائر ، فتطير حولها القلوب ، وتتحلب لها الافواه ، وتترامى تحت اقدامها
الوجوه ، فقلت في نفسي . اهذا هو المرقص الذي تخرب فيه البيوت
العامرة ، وتذبل فيه الرياض الزاهرة ؟

اهذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار ، تدفق الانهار في البحار ،
وتقبر فيه نفوس الكرام ، قبل ان تقبر تحت الرجام ، والله لا يبلغ العدو
منا بخيله ورجله واساطيله وقنابله ، ولا الارض بزلازلها وبراكينها ، ما

يبلغ منا المرقص ببغاياها .

قال المحدث . والحق اقول إني دخلت المرقص وأنا احسب اني انفس
عن نفسي ككربة ، فرأيت ما زاد نفسي هما ، وملاً قلبي غيظاً ، فقلت
لصاحبي . هل لك في القيام؟ فقام وقتت وأنا اقول . والله ما ادري ما ترك
هذا المكان ، للمارستان ؟

★

الماضي والحاضر

عندي ان الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح امران اعتباريان يختلفان باختلاف الامكنة والازمنة ، فكما ان الجمال في امة قد يكون قبحاً في امة اخرى كذلك الفضيلة في عصر ، قد تكون رذيلة في عصر آخر .

ليست الفضائل والرذائل اسما توفيقية كاسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ، وليست الفضيلة فضيلة إلا لانها طريق السعادة في الحياة، ولا الرذيلة رذيلة إلا لانها طريق الشقاء فيها، فيحث تكون السعادة في صفة فهي الرذيلة ، وإن كانت صفة الكرم .

اعتاد علماء الاخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم الى اليوم ان ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه او رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحححان ، يكتبون على رأس احدهما عنوان « الفضائل » وتحت كلمات الشجاعة والكرم والامانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة ، وعلى رأس ثانيها عنوان « الرذائل » وتحت كلمات الجبن

والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة ، وارى انه قد
آن لهم ان يعلموا ان الناس اليوم غيرهم بالامس ، وان اساليب الحياة
الحاضرة غير اساليب الحياة الماضية ، وان كثيراً من الصفات التي كانت
في عهد البداوة والسناجعة ذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها، ويستقلون
منها قد اصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع
والمصالح حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري ، واساساً ثابتة تبنى
عليها جميع اعماله وشؤونه ، فلا بد للناس منها ، ولا غنى لهم عنها ، ولا
مندوحة لهم ان ارادوا ان يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من ان
يتعلموها تعلماً نظامياً ، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي
يتوقف عليها نظام عيشتهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم .

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه، ويعرفون
له يده التي اسداها اليهم ، فاذا هوى به كرمه في هوة من هوى الفقر لا
يعدم ان يجدمن بين الذين احسن اليهم او عظم في نفوسهم شأن إحسانه -
من يمد اليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه ، او يرفه عليه ، اما اليوم وقد
انكر الناس الجميل، واستنقلوا حمله على عواتقهم ، بل اصبحوا يشمتون
بصاحبه يوم تزل به قدمه ، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب
الترادفات من اسماء الجنون والقابيه ، فليس الكرم فضيلة ، وليس من
الرأي الدعاء له ، والحض عليه .

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في احاديثهم عن انفسهم
فلا يعترف بالبوؤس الا البائس ، ولا يلبس القديم الا من عجز عن لبس

الجديد ، اما اليوم وقد ذلت النفوس ، وسفلت المروءات ، فلبس ثوب
الفقر غير الفقير ، وانتحل البؤس غير البؤس ، واصبح نصف الناس
كسالى متبطلين لا عمل لهم الا اللجوء الى ظلال القلوب الرحيمة
يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الخشف البالي ، فالرحمة
هي الفقر العاجل ، والخسران المبين .

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه
ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها ، فلا يتخلون عنه ولا
يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد ، اما اليوم وقد فترت همم الناس ،
وهت عزائمهم ، وماتت في نفوسهم الحفاظ والغير ، ووكل كل امره
الى صاحبه ، فان رآوه قائما بدعوة وطنية او اجتماعية اغروه بالمضي
فيها ، وقفوا عن كسب ينظرون ماذا يفعل فان ظفر هتفوا له ، وانحدروا
اليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها ، وان فشل خذلوه ، وتنكروا له ،
فالشجاعة لا يمد صاحبها من ورائها الا التهلكة والشقاء .

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان يزن به الناس
أقدار الناس وقيمهم ، ويوم كان الفقر مفخرة للشريف اذا عقدت يده ،
وعزفت نفسه . والغنى معرفة للدنىء اذا سفلت مساعيه واغراضه ، أما
اليوم وقد مات كل مجد في العالم الا المجد المالي ، واصبح الناس يتعارفون
بأزيائهم ومظاهرهم ، قبل ان يتعارفوا بصفاتهم واعمالهم ، فالقناعة ذل
الحياة وعارها ، وبؤسها الدائم ، وشقاؤها الطويل .

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها

قدرها ويطاطئون رؤوسهم إجلالاً لصاحبها ، أما وقد أصبح الناس
أشراراً يحملون شرورهم على كواهلهم ، ويدورون بها في كل مكان
يطلبون لها رأساً يصبونها عليه ، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف
المنهالك الذي لا يحسن الزياد عن نفسه ، فلا خير في الحلم ، والخير كل
الخير في الغضب .

الحياة معترك أبطاله الأشرار ، وأسلحتهم الرذائل ، فمن لم يحاربهم
بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى .

يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم ، أو أدنياء
ليتقي بعضهم بأس بعض ، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة ، والتزر
القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوهاها فليس لذلك إلا معنى
واحد: هو أن يهلك أشراف الناس وفضلاؤهم ، في سبيل أدنيائهم وأذاهم .
إن الدعاء إلى البر والإحسان ، والرحمة والشفقة ، والعدل والإنصاف ،
والصدق والإخلاص ، في هذا العصر ، إنما هو حباله ينصبها الأقوياء
الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون
عليها ، فيستأثروا بها من دونهم ، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينقل ما
في جيوب الناس إلى جيبه ، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون
أن يناله من الشر شيء ، ولا إلى القناعة إلا ليقلل من سواد المزاحمين له على
أعراض الحياة ومطامعها ، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات
الكذب ومزاياه .

كلنا يكذب ، فلم يعيب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق ؟ وكلنا يبتسم

لمدوه وصديقه ابتسامة واحدة ، فلم نستنكر الرياء والمصانعة ؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها فلم نستفزع الطمع والجشع ، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده فلم نشكو من الظلم والإرهاق ؟

اننا لانفعل ذلك الا لانا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا وما ربنا كما كان يستخدم رجال الدين في العصر الماضي .

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب ، وأن قصص الفضائل التي يقرؤها ونوادير المروءات والكرام والإيثار، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها إنما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضت عهدا، حتى لا يصبح ناقما على العالم يوم ينكشف له وجهه ؛ ويرى سوءاته وعوراته وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات .

وليت الذين يعرفون من شئون الرذائل ودخلها فوق ما أعلم يضعون للناس كتباً مدرسياً على نمط كتب التاريخ يوضحون له فيه كيف يكذب التاجر ، ويفش الصانع ؛ ويلفق المحامي ، ويدجل الطبيب ؛ ويختلس المرابي ، ويراثى الفقيه ، ويصانع السياسي ، ويتقلب الصحافي ، ثم يقولون له : هذه هي الحياة ، وهذا هو ما يجري فيها ، فان أردتها على علاتها فذاك ، او لا ، فدونك مغارة موحشة في قمة من قم الجبال فعش فيها وحيداً بعيداً عن العالم وما فيه ، وكل مما تأكل حشرات الارض ، واشرب مما تشرب منه ، حتى يوافيك اجلك .

الشر لا يقاوم الا بالشر ، والظلم لا يدفع الا بالظلم . وحامل السيف لا يغمده في غمده الا امام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه الا اذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم الا اذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتال لا يحتال الا اذا وجد أمامه غيبياً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض، الا اذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد .

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبه فيه فليسلكه كما يشاء ، ومن أرادها على ان تكون وسيلة من وسائل العيش ، في عصر مثل هذا العصر ، وناس مثل هذا الناس ، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق ، وأضل السبيل .

ما أجل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجل العيش في ظلها ، لولا ان شرور الاشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها ، فرحمة الله عليها ، ووا أسفا على ايامها وعهودها .

★

الشيخة المتبردة

حدث منذ عهد قريب ان أحد الوجهاء الريفين كان يختلف الى أسرة كريمة ليخطب اليها فتاة من فتياتها لابنه ، ثم اتفق ان وقع نظره على تلك الفتاة عرضاً فشغف بها حباً وخطبها لنفسه ، فلم ير أهلها مانعاً من ان يزوجها منه على تقدم سنه ، وإدبار أمره لأنه اكثر من ابنه مالا ، واوسع جاهاً وسلطاناً ، فكانت نتيجة ذلك ان هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها ، لأنه كان يحب الفتاة حباً جماً ، واصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازماً لها حتى اليوم ، واصبح الشيخ حزيناً بانساً لأنه اصبح بلا زوجة ولا ولد .

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً . ثم قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليك لتوازن بين الحادثتين كما وازنت ، وتستنتج منها ما استنتجت :

فجمت سيدة اسمها «مارجريت بونفيل» بوفاة زوجها وهي في

الخامسة والثلاثين من عمرها . وكانت امرأة بارعة الجمال ، رائعة الحسن ، لا يرها الرائي حتى يخيل اليه انها الكوكب المشوب روتقاً وبهاء ، وانها لا تزال في مستهل العقد الثالث من عمرها ، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشاً شديداً وبدأت تختلف الى بعض الاندية العامة عليها تروح عن نفسها وحشتها وكآبتها فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان اعجبها منه جمال صورته وعذوبة اخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه . فاجبته وافتننت به واضمرت في نفسها ان تتدفع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه ، وان كان اصغر منها سنا بنحو عشر سنين . فلم تزال تتودد اليه ، وتستدني قلبه حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها ، وكانت اذا جلست اليه للحديث معه يردد على لسانها كثيراً ذكر ابنتها التي خلفتها من زوجها المتوفي ، فكان يخيل اليه ان تلك الابنة طفلة في الخامسة او السادسة من عمرها ، حتى زارها في منزلها يوماً من الايام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التي يحبها الاطفال ويطلبون لها ، فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت : ما هذا الذي تحمل ؟ قال : إنها هدية لماري اريد ان اقدمها اليها واين هي ؟ فارادت العبث به وقالت له : إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول ، فاذهب اليها وقدم لها هديتك بنفسك .

فذهب حيث اشارت ، فراه أنه لم يجد امامه طفلة في السادسة من عمرها كما كان يظن ، بل فتاة كاعبا رائعة الجمال في السادسة عشرة فوقف امامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول ، حتى

رنت من ورائه ضحكة مرجريت ، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر
فأرفض جبينه عرقاً ، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها : أقدم
لك يا ماري صديقي جورج الذي حضر اليوم ليهديك حصاناً خشبياً
جميلاً ، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية ؟ فابتسمت ماري وفهمت
القصة ، فأثر في نفسها خجل جورج وارتباك فشت اليه ووضعت يدها
في يده وقالت له : أشكر لك هديتك يا سيدي ، وأقبلها منك باغتباط
وسرور ، وأعدك أني سأحفظها لك عندي تذكراً دائماً لا أنساه ، فسرى
عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعاً يتحدثون ويسمرون ، ومر لهم
أطيب يوم مر لأحد حتى أظلمهم الليل فاستأذن جورج وعاد الى منزله .

وأصبح بعد ذلك يختلف الى منزل مرجريت لا من اجل الأم
وحدها ، بل من اجل الأم والبنات ، حتى حضر صباح أحد الايام ،
وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها ، فوجد ماري وحدها ، فشعرت في
نفسه بشيء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل ، وكأنه كان يتمنى
ان يجدها خالية فوجدها ، وكانت جالسة على شاطئ الجدول في المكان
الذي رآها فيه اول ما رآها ، فجلسا معاً يتحدثان حديثاً طويلاً ذهباً فيه
مذاهب مختلفة ، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من الحب ، فورداه ،
فاذا كل منهما يضر لصاحبه من الوجد فوق ما تضر الأفئدة والقلوب ،
وإنهما لمضطجعان وجهاً لوجه على ذلك البساط الاخضر الجميل ضجعة
يتمنى المصور ان يراها في رسمها في رسم صورة السعادة الكاملة التي يفتش
عنها الناس جميعاً فلا يجدونها ، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران

فراها منظرهما ، وخيل اليها أنها يتحدثان في شان غير الشان الذي
ياخذان فيه عادة امامها ، فاصغت اليها ، قالت بطرف من حديثها ،
فدارت بها الارض الفضاء دورة كادت تصعق فيها ، وتمثل لها ان صرح
حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعة واحدة فثارت من حولها
عبرة قائمة حجبت عن عينها كل شيء فاملست من مكانها إملاساً ومشت
تتحامل على نفسها حتى وصلت الى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت
ما شاء الله ان تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فسحت عبرتها بيدها فاذا
المرأة امامها ، واذا شعرات بيض سانحات في رأسها تهتف بها ان قد
انقضى عصر شبابك او كاد ، وقد خطوت الخطوات الأولى الى
شيخوختك ، فأخلي مكانك لابنتك ، فهي أولى به منك ، وحسبك
من السعادة ان تفرحي لفرحها ، وتهنئي لهنائها ، واعلمي ان للطبيعة
حكماً قاسياً لا يختلف عليه مختلف ، ولا يتمرد عليه متمرد الاهلك ،
ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك
فيها اعتراكا وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة ، فتثور ثائرتها ، وتأبى
الا ان تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها امثالها ، ونحو ابنتها أخرى ،
فتلين عريكتها ، ويسلس قيادها ، وتقول في نفسها : إنها أولى به مني ،
لأنه خلق لها وخلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر ،
فخرجت من غرفتها باسمه متطلقة حتى وصلت الى مكانها ، فرأتها
مستفرقين في شأنها الذي كانا فيه لا يشعران بشيء مما حولها ، فصاحت
بها : أنتما هنا يا ولدي ؟ فاضطربا إذ رأياها ، فابتسمت لهما ووضعت

يدها في أيديها وعادت بها الى غرفتها ، وجلست تتحدث اليهما حديثاً طويلاً انتهى بعقد الخطبة بينهما ، وما هي الا اشهر قلائل حتى زفت اليه ، وولدت لها بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشي الذي أهدها أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها .

وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم في أعماق قلب مرغريت لم تزل تتضائل شيئاً فشيئاً حتى رن في أذنها يوماً من الايام صوت حفيدتها ندعوها « جدتي » فكان هذا آخر عهداها .

وكذلك استطاعت مرجريت ان تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة في ظل سعادة ابنتها وهنائها .

ذلك ما فعل الرجل في السبعين من عمره ، وهو يخطو الى القبر خطوات خشيئة ، وهذا ما فعلت المرأة وهي نصف لا الى الشيخوخة ولا الى الشباب فجوزي هو على تمرده على الطبيعة ، وخروجه عن سنتها شر الجزاء ، وجوزيت هي على تعقلها ورزانتها ، وتاديبها بأدب الحياة ، احسن الجزاء .

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة في هذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره يوماً من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر ، الى سماء الثروة والغنى ، بني بينه وبين ماضيه سداً محكماً لا تنال منه المعاول ، ولا تعصف به العواصف ، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي ، زيه وهياته ، ولغته ولهجته ، ومناخه ومسكنه ، وعاداته وأخلاقه ، وأصحابه وعشراءه ؛ وجميع صلاته وعلاقته ، ولو استطاع أن يلقي بالأثرين الوحيدين الباقيين له : صورته واسمه لفعل .

يريد أنه قد أصبح إنساناً غير ذلك الإنسان الأول ، لا صلة له به ، ولا شأن له معه ، وأنه قد خلق خلقاً جديداً .

إنها لحظة رديئة جداً ما رأيت في الخلال أقبح منها .

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب «وعار» ، والفقر ليس بعيب ولا عار ، فإن كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على

أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه ، بل على السواد الأعظم من أمته بل على نفسه أيضاً ، لأنه قضى عصر شبابه ، والشباب هو الحياة من مبدئها الى منتهاها ، في الفقر والخصاصة ، والعدم والإقلال .

ولا أدري ماذا يكون شأنه غداً إذا استرد الدهر هبته منه ، وكثيراً ما يسترد الدهر هباته وعطاياه ، بل لا يكاد يهب هبة ، أو يمنح منحة حتى يستردها .

عذرتة في ثوبه الذي خلعه ، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها ، وفي داره التي هجرها ، وقلت لا بد أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق ، وفي لهجته التي غيرها ؛ لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم ، وفي خده الذي صعّر ، و صدره الذي أبرزه ، وأنفه الذي شمخ به ، لأن الثروة طغياناً كطغيان الشراب ، لا سبيل الى دفعه والخلاص منه ، ولكنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أعذره في زوجه التي طلقها واستبدل بها سواها .

إنها رفيقة حياته ، وعشيرة صباه ، وشريكته في سرّائه وضرّائه ، ويسره وعسره وشبعه وجوعه وريه وظمئه ، واحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلّاه وجه السماء بسطت يديها بالدعاء الى الله تعالى أن يبديل عسره يسرا ، وضيقة سعة ، وشدته رخاء ، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداته .

إنها شاركتة في شدته ، فيجب ان تشاركه في رخائه ، واحتملته

والدهر مدبر عنه فيجب أن يحتملها والدهر مقبل عليه ، وأقرضته الصبر على عشرته ، فيجب أن يوفيه الصبر على عشرتها ، ان كان يرى أنها عبء ثقيل عليه .

أريد أن يتمنى النساء جميعاً لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل الى ذلك ؟

لأنهن يتمنين ذلك فعلاً ، بل يسعين له سعيهن ؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر ، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى ، فياللفظاعة والهول ، ويا للمعيشة النكدية المريرة ! وباللشقاء الذي يهدد الحياة الزوجية وينذرهما بالحو والفناء !

حدثني من أثق به أنه دعى الى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة فلما قضاوا ليلتهم وانصرفوا الفت نظروهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث الى بعض الناس وتقول لهم : انها سيدة هذا البيت بالأمس ، وان زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي انعم الله فيه عليه بنعمة الغنى ، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله ، فكفاها مؤونة العيش وحاها عادية الشقاء ، بل تركها في قربتها وحيدة منقطعة ، لا يعود عليها بقليل من المال ولا بكثير ، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى أنه أصبح ذا زوجة جديدة ، وولد جديد ؛ وقالت انها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم .

انه لموقف مؤلم جداً ان تقف امرأة على باب البيت الذي كانت سيدته

بالأمس موقف السائل المتكفف فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكفين .

لا يجد المرء لذة الطعام الا اذا ذكر الجوع ، ولا لذة الماء الا اذا ذكر الظما ، ولا لذة السعادة الا اذا تمثل امام عينيه عهد الشقاء ، فما أحوجه اذا انتقل من عذاب الفقر الى نعيم الغنى - الى اصدقاء عهده الاول وعشرائه ، ليجلس اليهم من حين الى حين ، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره ، فيشعر بلذة الانتقال من حال الى حال، وما أحوجه الى زوجته التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه في عهد سعادته ، ليرى في مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيماً .

وتعجبني كثيراً قصة خالد بن برمك جد البرامكة وكان رجلاً اعجبياً من قرية من قرى فارس اسمها « بوشنج » وفد الى بغداد وحظى عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب في الموكب الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد اليهم بذلك المنصب العظيم ، وقف الناس له صفوفاً على جانبي الطريق ، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور ، وهو مطرق واجم ، فقال له أحد اصدقائه وكان يسير بجانبه : الا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن ؟ قال : نعم اراهن ولكنني كنت افضل ان ارى بدلاً منهن عجائز « بوشنج » .

اي انه كان يتمنى ان العيون التي رآته بالأمس وهو وضع ، تراه اليوم وهو رفيع .

الأجواء

ما زالت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر ،
وسالت لها دموع الفضيلة حزناً وأسى ، وتحدث المتحدثون عن اولئك
الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها
بيوتاً عيش البؤس والفاقة ، أعجب لمن ولأمرهن ، واقول في نفسي :
ليت شعري لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدية التي لا يجدن
فيها علالة من العيش يتعلمن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن ، ولم
يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذي يستبد بهن ، ويستأثر بجميع
شؤونهن ومصالحهن ، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته ، ولم لا
يهربن من وجهه ويذهبن في مذهب الارض حيث شئن ، يطلبن لأنفسهن
الحياة في جو حر مطلق ، والاجواء الحرة المطلقة كثيرة ، واسباب
العيش فيها متنوعة ، وما على وجه الارض جو أسوأ من جوهرن الذي
يعشن فيه فيخفن ان يصرن اليه ، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في

تاويل ذلك من ان ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقاً من بأسه وقوته فلا سبيل لهن الى اختراقه ، ففي البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها او إنه وضع في أعناقهن أغلالاً من الديون وليس في وسعهن ان يرحن مكنهن حتى يؤدينها فان من لا يبالي بحق الله ولا حق عرضه لا يبالي بحقوق الناس ، ولم أزل في حيرتي هذه حتى قرأت بالامس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب في النساء فانا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت .



توفيت زوج إحدى الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزناً شديداً لأنها كانت أحب اليه من نفسه التي بين جنبيه ، فكان يروح عن نفسه بالاختلاف الى الأندية الخاصة والعامة حتى ملها وسئها ، فر بخاطره يوماً من الايام ان يزور حي « مونمارتر » وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها ، فظل سائراً بمركبته يستطرق من زقاق الى زقاق ومن معبر الى معبر حتى وقف بباب خان في زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانه ، فانحدر اليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتطلبين والمشردين وأشباه اللصوص والمجرمين ، ما بين قائم وقاعد وصائح وهاتف وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين ، ولا يبط بالارض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه ، وراقص يوقع حركات قدميه

على نعمة شبابة ينفخ فيها آخر ، وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة في سماء الحان سحبا متكاثفة يزي الرائي من خلالها بعد لاي ما مائدة مستديرة في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب الا قليلا ، وتثر على الناس نثرات من الورق الرقيق الملون ، والناس من حولها طائرون بها فرحا ، يداورونها ، ويعابثونها ، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحد أحدا ، وربما مد بعضهم اليها يده فجذبها من ثوبها جذبا شديدا حتى يكاد يزلقها من مكانها ، او دفعها في صدرها بعصاه فألمها ، وهي تبتسم مرة ، وتقطب أخرى ، فلم يدر الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين ، أم في حظيرة من حظائر الوحوش الضارية ، ولكنه رأى على كل حال منظرا غريبا لم ير مثله قط فأعجبه وسكن اليه ، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل ، ولو كان منظر الجحيم فانتبذ في الحال مكانا قصيا ، وجلس الى مائدة منفردة ، وألقى نظرة على تلك الفتاة الراقصة فاذا هي رائحة الجمال ، الا أنه جمال مبهر مذال ، كما يعثر العائر باللؤلؤة الثمينة بين القيامات المجتمعة فلا يزال ناظرا اليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها ، وتزلت تدور بعينيها عليها تجرد من يدعوها الى لقمة تسد جوعتها او كأس تبسل بها غلتها ، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه فاستطيرت فرحا وسرورا لأنها لم تر قبل اليوم زائرا مثله في فخامة هيئته ، وجلال منظره ، وأخذ يتحدث اليها ويسائلها عن نفسها ، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد أمرؤ قط في حياته من بؤس وشقاء ، وقد سمع في صوتها نعمة تختلف بعض الاختلاف عن تلك

النغمة الفاجرة الرقحة التي يسمعا السامعون من أفواه النساء الفاجرات
فوقع في نفسه أنه ان أتقد تلك الفتاة المسكينة المتأللة من بؤسها وشقائها
فقد احسن اليها والى الإنسانية إحساناً عظيماً ، فسألها : ألها بأحد من
الناس صلة من زواج او مخالة ؟ فأطرقت برأسها واجابت : ان لا ،
فعرض عايبها رأيه الذي رآه لها ، فاستطارت به فرحاً وسروراً ، وما
هي الا ساعة او بعض ساعات حتى كانت بجانبه في مركبته فسار به
الى منزله .

وهناك تغير من شأنها كل شيء ، فأصبحت تلك الفتاة البائسة
المسكينة الضاوية الصفراء ذات الاسمال البالية ، والقبعة القذرة والحذاء
المرقع سيده فخمة يتلألاً وجهها بنور العزة والكرامة ، وتسيل على
أعطافها مخائل النعمة والرفاهية حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات
الشان في الحياة ، وان الدوق يوشك ان يتزوج منها .

وكان الدوق يعيش وحده في قصره لا يعاشر الا خدمه ، ولا يختلف
اليه الا القليل من اصدقائه القدماء من حين الى حين لأنه كان منقطعاً لا
زوج له ولا ولد ، ولا قريب ولا نسيب فكانت «مارسيل» ملهاته التي
يتلهم بها في وحدته ، وأنسه الذي يأنس به في وحشته وكانت هي سيده
المنزل والأمره الناهية فيه لا ينازعها في ذلك منازع ، وظل الأمر بينهما
على ذلك شهوراً عدة وكانا يخرجان أصيل كل يوم في مركبتهما الى
ضاحية المدينة يرتاضان في غاباتها وبساتينها ساعة او ساعتين ثم يعودان ،
فإنهما لعائدين ليلة من الليالي من منتزهها اذا مرت بهما المركبة على مقربة

من حي « مونتارتر » فاقترحت عليه « مارسيل » ان يرا بذلك الحى ليلهوا بمنظره الغريبة ، ومشاهده العجيبة فأذعن لرغبتها ، وظلا يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذي وجدها فيه فطلبت اليه ان يأذن لها بدخوله لترى ما حل بأصحابه وزائريه من بعدها ، فلم ير في ذلك بأساً ، ودخل معها ، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها ، واتجها الى بعض الموائد المنفردة فجلسا اليها ، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجاً عظيماً ، وهتفوا لها هتافاً شديداً ، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتقونها وهي تبسم لهم ، وتعطف عليهم ، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة ، ثم لم يلبثوا ان جذبوها من مكانها ، وأصعدوها الى المائدة لترقص لهم ، فكانما ثارت في نفسها نائفة الطرب القديم ، فرقصت وافنتت في رقصها ما شاءت . حتى أتمت دورها ، ثم تزلت وودعتهم وداعاً لطيفاً وانصرفت هي والدوق .

وهنا بدأت تشعر بملل شديد من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق ، حتى أصبح يخيل اليها ان هذا القصر الذي تعيش فيه إنما هو سجن ، وان هذا الرجل الذي يحبها ويكرمها وينزل على حكمها في جميع ما تحب وتشتهي إنما هو سجانها ، وان هذا السكون الذي يحيط بها إنما هو سكون الموت الذي يخيم في فضاء القبور ، فكانت اذا خلت بنفسها تراءى لها في فضاء خيالها منظر الحان ومنظر زائريه ، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الاشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها ، ويشدون يدها ، ويصبون عليها فضلات كوؤسهم ، فتطرب لتلك الحياة

الهائجة الثائرة ، وتحن اليها حنين العاشق المفارق ، ولم تزل هذه الفكرة تنمو في نفسها شيئاً فشيئاً حتى أخذت مكانها من قلبها ، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة الى عيشتها الأولى ، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادئ قد هجع كل من فيه فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد ، وارتدت بدلاً منها أثوابها الأولى التي جاءت بها ، وكانت لا تزال ملقاة في بعض الغرف ، وتسلفت من باب القصر حيث لا يشعر أحد بمكانها ، واخذت سبيلها الى حي مونارتر .

وهكذا قضى عليها ان تشقى ، بل هي التي قضت بنفسها على نفسها .

ولقد كان أسف الرجل عظيماً جداً حينما تفقدها في صباح اليوم الثاني فلم يجدها خصوصاً عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هي التي آثرت الفرار واختارته لنفسها ، فبأساً كثيراً وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل .

ومر على ذلك عام او بعض عام وبيننا هو مقبل على قصره في ليلة من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تئن وتتوجع ، وتحاول ان تمد يدها الى حلقة الباب لتطرقه فلا تستطيع ، فدنا منها ليتبينها فاذا هي مارسيل ، او هي شبح متهافت باق منها ، فلما أحست به حدث ذراعها اليه وقالت له بصوت خافت ضعيف : اغفر لي ذنبي يا مولاي ، فدهش لنظرها دهشة شديدة ، ورق خالتها فأمر الخدم بحملها الى القصر فحملوها الى غرفتها التي كانت تنام فيها ، وهي في حالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد ، وتستدرف الدموع ، ثم جلس اليها يسألها عن

بأنها . فقالت انها مريضة مدنفه منذ شهور عدة ، وانها قد عجزت عن ان تجد سيلا الى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها ، فما زال المرض يأخذ منها ماخذه حتى مزق صدرها تمزيقا ، فلم تجد بدا من ان تأتي اليه لتستغفره من ذنبيها ، وتساله ان يعينها على أمرها ، لأنها لا تعرف في الدنيا لها راحا سواه ، فسألها لم فرت من قصره ؟ وما الذي كانت تنقمه منه ؟ فقالت لا أعلم ، وانما هو قدر قدره الله ولا حيلة لأمرى فيما قدره وقضاه ، فسألها اين كانت تعيش بعد فرارها ؟ قالت في المكاتب الذي أقتذتني منه فاييت لشقوتي وبلائي الا ان أعود اليه لتنفيذ في ارادة الله ، فرئى لحالها ، وأمر باستدعاء الطبيب لينظر في أمرها ، فلم يستطع الطبيب ان يصنع شيئا ، لأنه جاء بعد الاوان ، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها الى خالقها ، وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته ، فلم ينتفع بحياته طويلا بعد ذلك .

*

لكل جو من الاجواء رائحة خاصة به يالفها أصعابه ويستقيمون اليها ، فحولوا أيها الرجال بين نسائكم وبين تلك الاجواء الحبيثة ، ولا تقولوا انهن سيجزن عن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها ، فالرائحة الحبيثة لا يتالم منها الا البعيد عنها .

الرسائل

كتاب في التقاضي :

أنا ان سألتك حاجتي ، أعزك الله ، وبسطت اليك يد رجائي ، فقد
طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المرحم ، ورجوت واحد
الدهر همة وحزماً ، ونادرة الوجود كرماً وفضلاً ، فإن أنجزتها فليست
أولى الهمم ، ولا واحدة النعم ، فلكم سبقت الى منكم أياد تخرس دونها
السنة الشكر ، وتضيق بها جرائد الحصر ولقد مثلت ، أيديك الله ، بين
ان استشفع اليك بذوي الجاه عندك ، والزلفى لديك وبين ان
أكل ذلك الى كرمك وفضلك ، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من
خلال الخير ، وسجايا البر ، فرأيت ان الثانية بك أخرى ، وبفضلك
أجدر ، والسلام .

كتاب مقاطعة :

أتلقى كتابك وقد أبللت من مرض حبك ، وصحوت من رقدة

طال على الغيب فيها حتى خفت ان تتصل برقدة الموت ، فلم ترعني
 روائعك^(١) ولا أجدى عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي
 مأخذه من قبل ، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي كان يملاً عيني
 روعة^(٢) وقلبي هيبة ، فالحمد لله الذي أدالني منك وأعتقني من رلك
 وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري ، فجفت
 الدموع التي طالما أذلتها^(٣) بين يديك وقرت العين التي كنت أساهر بها
 الكواكب شوقاً إليك ، ولم يسبق في خاطري من ذكرك الا كما بقي في
 قلوب الناس من الوفاء ، والحب شجرة يفرسها الأمل في القلب ، ثم
 يفتونها بمائه وهوائه ، فلا تزال تشتجر أغصانها ، وترف^(٤) ظلها
 وترن اطييارها ، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ولقد عاجلت
 هذا القلب الشמוש^(٥) في الرجوع الى سالف عهدك ، وسابق ودك ،
 فجمع جموح المهر الأرن^(٦) وركب رأسه الى حيث لا مطمع في أوبته
 وله العتبي فيما فعل ، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فأسأت عشرته
 وخفرت ذمته ، وأرغمت معطسه ، وركبت به في سبلك أخشن مركب ،
 وأنهلت من جفائك وكبرياتك شر منهل فاهو الا ان أمكنته العزة
 فانطلق انطلاق السجين من سجنه ، والطائر من قفصه ، فلا أوبة حتى
 يؤوب القارطان ويبيلي الجديدان .

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تد كد اليه بوجه آخر الدهر تقبل

(١) أي لم تعجبني محاسنك . (٢) الروعة : المسعة من الجمال . (٣) أذلتها : هنتها

(٤) رف النبات : اهتز واضطرب . (٥) شمس : امتنع وأبى .

(٦) المهر الأرن : النشيط .

كتاب تكلم :

علمت أن ساسانيا^(١) طرق بابك بالأمس ، وما زال يؤكد لك ويماحلك ، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك ، حتى خدعك عن نفسك ، واقتطف زهرة من روضه ، وراح يفتر عن ثغر باسم ، ورحت تفرع سن نادم ، فما هذا الخلق الغريب الذي تخلقه ، وما هذا المذهب الجديد الذي اعتنقته ، ومتى أقامك آدم وصياً على أولاده من بعده ، تكسو عاريهم ، وتشبع جائعهم ، على أن الفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الارض والسماء فكيف تسعهم خزائنك ، وهل بين الدرهم الذي أعطيت ، والدرهم الذي أبقيت ، الا حرف واحد^(٢) ؟ فليت شعري من اين ذهبت ، ومن اي باب نفذ هذا الشيطان الى قلبك ، وان أخوف ما أخاف عليك ان تكون اتيت من باب الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة ، فإن كانت هي فالخطب عظيم ، والبلاء جسيم ، فإنك حينما ذهبت وأنى حللت ، لا تقع عينك الا على يد شلاء ، ورجل بترء ، وعين عمياء وصورة شوهاء ، وثوب مخرق ، وشلو ممزق ، وطريح على التراب سقيم ، وجسم أعرى من أديم ، فإن لم تفارق الرحمة قلبك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين وتسولات مع المتسولين ، ثم لا تجد لك راحماً ولا معيناً . فارحم نفسك قبل ان ترحم سواك ، ولا تنس ان

(١) النسبة الى ساسان : وهو رجل كان معروفاً بالفقر والبطر والاحتيال على الصدقات .
(٢) يشير الى أن الفرق بين مفرد الدرهم وجمعه حرف واحد هو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تمظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به لأن الدرهم وإن كثرت فهي ليست الا درهماً على درهم .

تردد في صباحك ومساءلك ، وفي مستأنف خطواتك ، وفي اعقاب
صلواتك ، كلمة ابن الزيات « الرحمة خور في الطبيعة » .

وعلمت انك دعيت الى وليمة فلان فتحلب لك فوك ، ورقصت لها
اشداقك ، فطرت اليها ، ثم وقعت على خبزها وشوائها ، وفاكبتها
وحلوائها ؛ مثلج الصدر ثابت القدم ، ساكن القلب ، طيب النفس كأنك
لا تعلم انها لذة الساعة ، ومرارة العمر ، وشبع اليوم ، وجوع الأبد ،
وأنتك انما طعمت ما في الحباله من الحب ، تاكله اليوم ليا كلك غداً . فمن
لك بالنجاة من مضيفك اذا جاءك يوماً يتقاضاك دينه ، وقد حفت به
كوكبة من خلانه وصحبه ، فطار لمراك لبك ، وتمشي له قلبك في
صدرك ، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ، فالفقر ان منححت ، والعار ان
منعت واعجب من ذلك انك ما برحت الوليمة حتى اخذ المغني مجلسه ،
فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ، ومن شرب وهب ، ومن وهب
جرب ، ولقد كانت لك في ازوائك واعتزالك ، واكتفائك بقرصك
وزيتك ، وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك ، حيث لا تزور ولا تزار ،
منادح عن هذه اللقمة التي اسهرت ليلك ، وأقضت مضجعمك ، واقعدتك
مثل روق الظبي خيفة وحذاراً ؛ فإياك والعود الى مثلها يطل غمك ،
ويسود عيشك ؛ والسلام .

كعاب ياس :

كتابي الى سيدي ومولاي، والنفس بين جنة من الأمل تغن اشجارها،
وترن اطيافها ، وتشتجر اغصانها، وتعتنق غدرايتها؛ وهاجرة من الياس

تتلظى نارها ، ويعتلج أوارها ، وتحول بين الجفون واغتماضها ، والجنوب
ومضاجعها ، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشية الطائر
الحذر ، ثم يدركه الامن فيقرر في مستقره ، قرار الماء في نهاية منحدره ،
وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم ، وسرور وحزن ،
وقبض وبسط ، ومد وجزر ، أذكر الله ورحمته وإحسانه ، وأقنته
وحنانه ، فيشرق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ، وثغرها
البارق ، وجالها الساطع ، وبشرها الضاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ،
والعيش وحتوفه ، والايام وما أعدت في طياتها لبنيتها عن عثرات في
الخطوات ، ونكبات في الغدوات والروحيات ، وما أخذته من العهد
على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها ، والقلوب وأمانيا ، فألمس
صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي ، ثم أنتني على كبدي من
خشية ان تصدعا ، فليت الله يصنع لي فيمطر علي قطرة واحدة من
غيوث رحمته وإحسانه أبل بها غلتي ، وأطفي بها لوعتي ، او ليت القدر
ينشب أظافره بين سحري^(١) ونجري نشوباً لا يستقي بعده عرقاً نابضاً ،
ولا نفساً مبرداً ، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمرضى المشرف ، لا
هو حي فيرجى ، ولا ميت فيبكي .

يقولون « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل » وأقول ما عذب الله
عباده بنازلة القضاء ، وصاعقة العذاب ، وطاغية الطوفان ، والزلال
الاكبر ، والموت الاحمر ، والخوف من الجوع ، والنقص في الاموال

(١) السحر : الرثة .

والأنفس والثمرات ، بمثل ما عندهم بالأمل الباطل ، وما ليلة نابغية ،
ضيرير نجمها ، حالك ظلامها ، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي
خيفة وحذاراً ، فوق أرض تعزف جنايتها^(١) وتحوم عقبانها ، وتزأر
سباعها ، وتعوي ذئابها ، وتحث سماء تنهاوى نجومها ، وتتوالى رجومها ،
وتتراكم غيومها ، بأسوأ في نفسه أثراً من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه ،
تردد الغصة بين لحبيه لاهي نازلة فيطعمها ، ولا صاعدة فيقذفها .

قد اصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها في بطون الأودية ،
وقنن الجبال ، ان أراها سارية في مسارها ، سارحة في مسارحها ، تتناول
رزقها رغداً من بوارق المصادفات ، ومفاجآت المقادير ، لا يعينها الأسف
على فائت من العيش ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق ، قد قنت من
الماء بالكدر ، ومن العيش بالجشيب^(٢) فتساوي لسيها شحمها ولحمها ،
وشيحها وقيصومها ، وسعدها ونحسها ونعيمها وبؤسها ، فما تحفل
بنوازل القضاء ، ولا رجوم السماء ، ولا تبالي أسقطت على الموت أم
سقط الموت عليها ؟

فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي منه كمثل رجل زلت به قدمه
فسقط في جوف بئر بعيد غورها ، ناء مكانها ، فما زال يتخبطن
ويضطرب ، ويهب ويشب حتى عثر بمرقاة علقته رجله بها . ثم تلمس
أخرى غيرها فما وجدها ، حتى بلغ منه الجهد او كاد ، فلم يصبر على
الثانية صبره على الأولى ، فسقط ، فخاف الغرق فعاد الى نفسه ، فعاد

(٢) الجشيب : الخشن من الطعام .

(١) جمع : جان

الى سقوطه ، فلا هو بالغ رأس البئر فينجو من الموت ، ولا هو بالغ
قرارة الماء فينجو من الشقاء .

ارم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر الا صريعا صرعه
أمله ؟ او قتيلاً قتله رجاؤه ؟ او صديقا يشكو غدر صديق كان يعدّه
لنوائب الدهر فاصبح عون النوائب عليه ، او باكيا يبكي وليداً كان
يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الايام فيه ، او ساعياً دائباً وراء غاية
يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها ، ولا يمسك بها حتى
تفلت من يده ، او ساهراً متمللاً لولا أمله ان تنيله الايام ما يشتهي من
هواه ما بات ليله شاكياً باكياً ، داعياً مناجياً لا تراه الا عين السماء ، ولا
تسمعه الا أذن الجوزاء .

هذه حالتي ، وذلك همي ، وهذا ما وسوس لي ان أعتزل الناس
جميعاً ، وافارق عشيرتي وصحبتني ، ويراعي ومحبرتي ، علني أجد في
البعد عن مثرات الأمانى ، ومباعد الآمال ، راحة اليأس ، فالياس خير
دواء لأمراض الرجاء .

فها أنا ذا قابع في كسر بيتي ولا مؤنس لي الا وحشتي ، ولا أنيس
الا وحدتي أتخيل البيت قبرا ، والثوب كفنأ ، والوحشة وحشة المقبورين
في مقابرهم لأعالج نفسي على نسيان الحياة ، وأمانيتها الباطلة ، ومطامعها
الكاذبة ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك ،
والسلام .

الكلمات

الجراند :

لا أرى الصحف في مصر إلا نادياً من أندية القمار ، ولا هؤلاء الكتاب إلا جماعة من اللاعبين ، قد وضعوا رؤوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة « البليار » ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها ، فيكسبها في الصباح « زيد » ويخسرها في المساء « عمرو » وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحاس دورته عليهم جميعاً ، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي .

عبد الحميد :

حضرت منذ اشهر قلائل تمثيل رواية في مسرح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والإحسان ، ويدعوه بسلامة عرشه وطوله بقائه ، فباسمع الناس باسمه حتى هتفوا له هتافاً يصم المسامع ، وصفقوا له تصفيقاً كاد

يضم اضلاع المسرح بعضها الى بعض ، وحضرت ليلة امس منظرًا من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلا ظالما سفاحاً ، ضعيف الهمة ، ساقط النفس ، زَمِن المروءة ، جباناً مستطاراً ، ورأيتهم عمدوا الى صورته فجعلوها مواطىء اقدمهم ، ومضارب سيوفهم ، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في اعينهم ، وابتهجوا لمرآه ابتاجاً ملا فضاء صدورهم ، فتمشى في اعصاب ادمقتهم حتى وصل الى اعصاب ايديهم ، فصفقوا له تصفيقاً شديداً بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل .

أنا لا أعلم ان كان عبد الحميد ظالماً او عادلاً ، كريماً او ليثماً ، شريفاً او وضعياً ، وإنما أعلم أنني ساموت قبل ان اقف على حقيقة تاريخية في أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم ، مكتابهم وشعراؤهم ، علماءهم وجهاؤهم ، هم الناس الذين يقول فيهم القائل :

والناس من يلقى خيراً قائلون له ما يشتهي ، ولأم الخطيء الهبل

الشهرة :

لا يمكن ان تكون الشهرة مجال من الاحوال ميزاناً للفضل في مصر ، خصوصاً في عالم الادب ، ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد الا اذا سلم السابق من كيد العايب ، وخدعة الاريب وأنى لنا ذلك وفي شعراء مصر من يعتصب الشهرة اغتصاباً ، ويلصقها بنفسه إصصاقاً . وينزع اليها بوسائل لو عرفها الناس لانتزوه منزلته ، وألبسوه حلته بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذنه نفسه ، وإمتاع وجدانه فلا يترنم بقصائده في

المنتديات والمجامع ولا يبتاع من الصحف الاسماء والالفاظ ، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره ، ولا يتم ما يحده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره فترى للاول في هذا البلد الساذج دويماً كدوي الرعد، وترى الآخر مطرحاً مجفوفاً لا يؤبه له ، والدر في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدراً من جميع ما على وجه الارض من الواح البلور . وان كان ملء العيون حسناً وبهاء ، وروتقاً وماء .

فكاهة :

حدثني بعض الاصدقاء أنه دخل في ايام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة اكثر من افراد طائفته ليحلق له رأسه وكان عنده جماعة من زائريه فأجلسه على كرسي امام المراة وامسك بالموسى وانشا يحلق له رأسه حلقاً غريباً لا عهد له بمثله من قبل ، فكان يحلق بقعة ويترك الى جانبها أخرى مستطيلة او مستديرة وأخرى مثلثة او مربعة حتى ريع الرجل وظن ان الحلاق قد اصابه مس من الجنون ، فارتعد بين يديه وخاف ان يمتد به جنونه الى ما لا تحمد عقباه ، واعتقل لسانه فما يستطيع ان يساله عن سر عمله .

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية، ورسومه الجغرافية حتى التفت الى جلسائه وقال لهم كأنه يتم حديثاً سابقاً بينه وبينهم : لأجل فض النزاع بيننا هاقد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس « الزبون » هنا طوكيو ، وهنا بور آرثر ، وهنا انكسرت كروباتكين، وهنا انتصر أوياما وفي هذا الخط مر الاسطول الروسي ، وفي هذه البقعة

تلاقى الاسطولان ، وهنا أخذ يتكلم بجدّة وحماسة عن شجاعة اليابان
وبسالتهم ، ثم اردف كلامه بقوله « وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون
الروس الضربة القاضية ، وضرب يجمع يده أم رأس الزبون فقام صارخاً
يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسين والروس
واليابانيين ، والناس أجمعين .

لا أعلم إن كان الحدث هازلاً ، أو مجداً ، وإنما اعلم انه قد اجاد التمثيل
الأقسام :

لا اعرف فرقاً بين حنث الحانث في يمينه ، وكذب الكاذب في حديثه
كلاهما ضعيف المنّة ، وكلاهما ساقط الهمة ، وكلا لا يستطيع الكاذب ان
يكون صادقاً ، كذلك لا يستطيع الحانث ان يكون باراً . وناقض العهد
ان يكون وفيّاً فخداع من المتكلم ان يزعم ان لاحاديثه من الشان في
مواقف الاقسام ما ليس لها في غير تلك المواقف ، وأنه يتحرّج في الحنث ،
ما لا يتحرّج في الكذب ، فان من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من
بعده جرماً .

الدين :

أيها الناشء : ان من الناس قوماً قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل
الدين ، وسلطان أمره ونهيه فخرجوا عليه ، ونبذوا طاعته ، ثم علموا
ان الناس سياخنون عليهم ضعفهم وعجزهم ، فلم يجحدوا معذرة يعتذرون
بها اليهم غير دعوى انكار الدين وجحوده استثقالا وتبرماً ، لا تقلداً

وتذهباً ، وما هم بمنكريه . فاعلم ان الله سيبتليك بهم ، وأنهم سيزينون لك انكار ما يزعمون أنهم ينكرونه ، وسيخيلون اليك أنك لن تستطيع ان تبلغ ما تريد من هذه المدينة الحاضرة ، وان تنال الخطوة الباسقة في نفوس اصحابها ، الا اذا تنكرت لدينك . وتسلبت منه ، وخفرت ذمته ، فاحرص الحرص كله على ان لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة ، واعلم أنك الى نفسك احوج منك الى الناس وان الناس لا يغنون عنك من الله شيئاً ان انت آثرت مرضاتهم على مرضاته ، وان هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء ، وانواع الآلام ، والتي لا يفيق المرء فيها من غمرة الا الى غمرة ، ولا يثل من عثرة الا الى عثرة ، لا يعين عليها الا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته ، وتداركت عثراته . ويستروح من اعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتال جحيم العذاب .

الحقيقة :

قال لي بعض الناس : إن قوماً يفرقون في مدحك فهلا زجرتهم فقلت له : إن آخرين قد أغرقوا في ذمي فلم أصنع شيئاً ، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضاً فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهره الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطنها .

الانتقاد :

بين نقد المؤلفات هنا وتقدها هناك فرقان : أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق باثر النقد في الأذهان ، أما الأول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته ، فلو لم يكن للكتاب صاحب معروف لا

ينتقده ، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه ، أي أنه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب في كتابه ، وأما الثاني وهو أثر طبيعي للأول فهو أن للانتقاد هناك أثرًا طاهرًا في الكتاب من رواجه وكساده وشهرته وخموله، فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله ، وهنا ير الانتقاد بالأذهان مرًا فلا يبقى من آثاره فيها الا اثر واحد ، وهو ان الكتاب جليل القدر ، سني القيمة ، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل ، لذلك رأيت كثيراً من عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم الا اذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم ، بل رأيت من يتوسل الى بعض الناقدين ان ينتقد مؤلفه ، بل رأيت من يبلغ به الامر ان ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول ، اولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا واثر انتقاداتهم في نفوسنا، اما الذين يغضبهم الانتقاد ويحرج صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئاً .

المزم :

إن الدرهم الذي تمنحه من لا يستحقه ، قد خرج من يدك فلا سبيل بك الى وجدانه في اليوم الذي ترى فيه امامك من يستحقه ، وإن الدينار الذي تعطيه الشارب ليشتري به كأساً يقتل بها نفسه قد استحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشتري به رغيماً يسد به جوعة اولاده .

الام :

إن في كثير من الآلام التي نعالجها لذائد ومسرات يدرکها من عرف ان الانسان غافل بطبيعته عما يهدده من مصائب هذه الحياة وأرزائها ، وأن الآلام الضعيفة التي تناله من العشرات الصغيرة هي نذر تأتيه من عالم

الغيب لتحذره من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة .

الفترات :

ليس الحقد واحتمال الضعينة غريزة من الغرائز اللازمة للانسان ،
فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم لا يملكون الخيار لانفسهم ،
ويذكر لاصحاب السيئات من الموقى حسناتهم لان الزمن الذي ذهب بهم
ذهب بخيرهم وشرهم ، فلم لا نغتفر ذنوب اولئك الذين ما اذنبوا الا بعد
معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ثم سقطوا على اثرها صرعى
لا يملكون لانفسهم ضراً ولا نفعاً ؟

الدعوى :

إن أردت ان تكون في الامة الجاهلة كل شيء فادع لنفسك كل شيء ،
تنل بقولك في الزمن القصير ، ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل
فان الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس ، ثم لا يزال يكذب حتى
يصدق نفسه .

الدين والوطن :

من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه ، لانه ان كان بنقضه عهد
الوطنية غادراً فاجراً ، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر ، وإن
الفضيلة للإنسان افضل الاوطان ، فمن لم يحرص عليها فاحرى به ألا
يحرص على وطن السقوف والجدران .

الحلم :

إذا تورد متورد بكلمة سوء فلا تبتس بها فإنك في موقفك هذا بين

اثنيتين اما ان يكون الرجل صادقاً فيما يقول او كاذباً ، فإن كانت الاولى فاحمد الله تعالى على ان قيض لك من ارشدك الى عيبك ، وكشف لك عن خبيثة نفسك ، وان كانت الاخرى فاربأ بنفسك ان تكون من الجاهلين الذين يتوهمون ان في استطاعة الاكاذيب ان تبقى زمناً طويلاً على ظهر الارض .

الأدب :

لا تكافء السفية على سفهه بمثله، فإنك ان فعلت قضيت له على نفسك، وأصبحت شريكه في الخلة التي تزعم انك تتقمها منه ، فإن كنت لا بد منتقماً فليكن مثلك مثل الاحنف بن قيس إذ جاءه رجل قد جعل له بعضُ الناس جعلاً على ان يغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ويلح في ذلك إلحاحاً محرّجاً والاحنف ساكت لا يقول شيئاً حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب الى قومه باكياً نادياً يا كل اصبعه أكلا ويقول : والله ما سكت عني الا هو اني عليه :

الأخلاق :

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تعرض الرائح ، وتصد سبيل الغادي ، فلا الناس بظلمها يستظلون ، ولا هم من شرها ناجون .

الاعتدال :

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام ، وبين البخل

والإسراف منزلة هي الكرم ، وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة ،
وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة ، فليكن من افضل ما تاخذ به
نفسك التريث والتثبت عند النظر في الفرق بين مشتبه الفضائل
والرذائل ، واعلم انك لا تزال كريماً حتى تنفق مالك في غير موضعه
فإذا انت مسرف ، وانك لا تزال حليماً حتى تغضب للباطل فإذا انت
جهول ، وانك لا تزال جباناً حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فإذا انت
شجاع ، وان كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها ،
أما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها فتلك مرتبة العقلاء الاذكياء .

البر :

ربما كان لك من أبويك او من ذوي رحمك ممن تولوا شأنك في مفتتح
عمرك من لم تساعده شؤون دهره او عصور نشأته على ان ينال حظاً من
العلم والمعرفة مثل ما نلت ، فإياك ان يدعوك ذلك الى تسفيهه او تجبيبه
او السخرية به او الإدلال بنفسك عليه فإنك انت فعلت خسرت من
الأدب اضعاف ما كسبت من العلم ، على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذي
عقته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك من العلم بتجارب الحياة
ومقاتلتها ، وموارد الأمور ومصادرها ، ما يبهر علمك الذي تعتد به ،
وتدل بمكانك منه عليه ، وهناك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك
ما كان خليقاً بك ان تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التي ليست علوم
الدراسة بالاضافة اليها الا كالنقطة من البحر والذرة من الفقر .

الشقاء :

السبب في شقاء الإنسان أنه دائماً يزهد في سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع اليه من سعادة غده ، فإذا جاء غده اعتقد ان أمسه كان خيراً من يومه ، فهو لا ينفك شقيماً في حاضره وماضيه .



الفتاة والبيت

« الكلمة التي قرّظ بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت »

حضرة صديقي الكاتب الفاضل انطون أفندي الجميل .

أهديتَ الي كتابك : الفتاة والبيت فأهديته الي ابنتي ، لأنه مكتوب لها ولآتراها من الفتيات الناشئات ، وربما كانت وكن أقدر مني ومن الرجال جميعاً على فهم مزيتة ، وتقدير منزلته ، فلما قرأته عادت الي تقول لآنتي لم أهد اليها في حياتها خيراً من هذا الكتاب .

سأحها الله ، فقد كان فيما أهديت اليها كتاب « النظرات » فقد فضلته على كتاب أبيها ، ولكن ما لها وللنظرات ، وامثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة ، فهي فتاة على باب المستقبل يهملها ان تعرف اسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر ان تعيش بدونها والتي عجز أبواها عن ان يرشداها اليها ، لأنها بقية من بقايا العصر الماضي عصر المصادفات والاتفاقات ، ولا يزال عصرهما لاصقاً بهما حتى

اليوم ، ويعنيها ان تعلم كيف تنسج من اخلاقها وآدابها ثوباً يغنيها جماله عن الجمال ، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال ، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به ، ان قدر لها ان تعيش عيش المقلين ، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقى عليه ان قدر لها حظ الكثيرين ، وكيف تكون شمساً مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه ، من زوجها الى خادمتها ، فتسعد بهم ويسعدون بها ، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها ، حتى لا يخدمها الخدم عن مالها ، ان كانت ذات خدم ، او تستغني عن معوتهم ، ان عاجزت عن اتخاذهم ، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة ، في اليوم الذي تفقد فيه عائلتها ومعينها ، قطرات من الرزق تقيم بها أودها ، وتصون بها ماء وجهها ؟

وكتابك - يا سيدي - هو الجواب عن جميع ما تطلبه ، وتساءل نفسها عنه ، فلا غرو ان أعجبها وأطربها ، ولا عجب ان فضلتها على كل كتاب حتى كتاب ابيها .

أشكر لك ، يا انطون ، تلك اليد البيضاء التي أسديتها الي والى أمتك ، وانصح لجميع الآباء والأمهات ان يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها الى فتياتهم ، وان يأخذوهن بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها ، فما احرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب « الفتاة والبيت » .

البعث

« هي قصة خيالية ، الفرص منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة ، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية » .

اليوم الأول

نبا بي مضجعي ليلة لهمّ نزل بي ، والهـم رسول من رسل الشر ينزل
باهـداب العيون فلا يزال يسعي سعيه حتى يوقظ الفتنة بين اشياعها
فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً ،
فلما تقضي الليل الا أقله ولم يبق الا ان تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح
سمعت طارقاً يدق الباب دقاً ضعيفاً ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل
وسكونه ، فقلت من الطارق؟ قال : غريب حائر ضل به سبيله في هذه
الرقعة السوداء واعوزه الماوى يطلب كريماً يعتمد عليه ، ومضجماً
ياوى اليه ، وقد أعد لمن يسدي اليه تلك النعمة ، ذخيرة صالحة من شكر
لا يبلي ودعاء لا يخيب ، فاعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح

القول وصحيحه ما يعيب على جهد المتكلمين ، وتزويق المزورين ^(١) ،
وقلت في نفسي : ما لهذا الرجل بد من شان وفتحت الباب فاذا شيخ
كنتي ^(٢) من حملة أعباء الدهر ، قصير القامة ، ناحل الجسم ، زري الهيئة ،
قد نيف على الثمانين من عمره ، فخيّل إليّ ان ظهره المحدوب قوس ، وان
عضاه التي يعتمد عليها وترّ قد شدّ إلى تلك القوس ، وأنه قد أعدّ من هذه
وتلك سلاحاً ينود به عن نفسه عادية المنون ^(٣) فلما شعر بمكاني رفع رأسه
إلي ورماني بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الاسرار من قلبي واحاطت
بما بين قمة رأسي واخص قدمي فرأيت وجهاً اسمر اللون قد انتثرت في
اكنافه حفائر الجدرى ^(٤) واسارير تنطوي تارة على عبر القرون ،
وحوادث الدهور ، وتنفرج أخرى عن انوار الصلاح والتقوى ، ولحية
بيضاء الا أنها شعشام ، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منها نور
ساطع خفاق لا يراه الرائي حتى يطرق له لإجلالاً واعظاماً ، وسحنة
غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها ، واحسب ان لو كان بين
يدي مثال من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها ^(٥) فشيت إليه

(١) زور الشيء : حسنه وقومه ،

(٢) الرجل الكنتي الكبير العمر ، نسبة الى قوله : كنت في شباني كيت كيت .

(٣) وصف ابو العلاء نفسه في شيخوخته في احدى رسائله بقوله « واني لأعجز اذا
اضطجعت عن القعود فرجاً استمنت بانسان فاذا هم باعانتى وبسط يديه لنهضتي ضربت
عظامي. لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن » وقوله في لزومياته :

يا نفس جسمك سربال له خطر وما يبدل في حال سربال
قد اخلفته الليالي فاتركه لقي فما يزيدك لبس المهلك البالي

(٤) اعتل أبو العلاء في الرابعة من عمره بملة الجدرى فذهبت ببصره وبقيت آثارها في وجهه
بعد ذلك . (٥) نسبتها : أي ذكرت نسبتها الى نوع من أنواع تلك الصور .

مشية الهائب الرجل وقلت : على الرحب والسعة يا سيدي ، لقد حلت
بمنزل انت صاحبه وولي الأمر فيه « ثم قدمت اليه يدي فشى معي يتوكأ
ويتعامل ويهمس بهذه الكلمة :

ما اوسع الموت يستريح به الجسم المعنى ويخفت اللجب

حتى وصلنا الى غرفة الاضياف فاعاد النظر اليّ وقال : اذهب
لشأنك فانا في حاجة الى الانفراد بنفسي ، فتركته وذهبت الى غرفة
منامي وقد اخذ منظر الرجل مكاناً من قلبي وشغلني من أمره ما كاد
ينسيني هموم نفسي فلم أزل اقلب النظر في حالة واذهب المذاهب في
استبطان سره حتى اخذ عيني نوم ثقيل لم استيقظ منه الا في صفة
الأصيل .

سالت الخادم عن الضيف فعلمت أنه اخذ حظه من المطعم والشرب
والمضجع والمستحم وأنه لا يزال في مصلاه فهبطت اليه في خلوته أهيب
ما اكون له فرأيته جالسا الى قبلته يقلب وجهه في السماء ، ويكرر هذا
الدعاء :

اللهم لا راد لقضائك ، ولا سخط على بلائك ، أمرت فاطعنا ،
وابتليت فرضينا ، فامطرنا غيث إحسانك ، وأذقنا برد رحمتك ، وألهمنا
جميل صبرك ، وثبت قلوبنا على طاعتك ، فلا عون الا بك ، ولا ملجأ الا
اليك ، انك أرحم الراحمين ، واعدل الحاكمين ^(١) .

(١) حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء في خلوته فسمعه يقول وهو لا يعلم ←

ثم أطرق بعد ذلك إطراقاً طويلاً خلعت انه وصل فيه الى مقام التجريد وان الذي اراه بين يدي جسد هامد قد اسرى بروحه الى الملائكة الأعلى فجمعت اختلس الخطا اليه حتى صاقتته ، فرفع رأسه الى ذاهلاً ، وقال : انت هنا ؟ قلت : نعم ، قال : في اي سنة نحن من تاريخ الهجرة ؟ فعجبت لسؤاله وقلت : في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلاثمائة والالف ، قال : ما اسم هذا المصر التي تعمرونه ؟ قلت : القاهرة المعزية : قال : أفى هذه الأمة كثير مثلك ؟ قلت : لم افهم ماتريد ياسيدي ، قال : لقد استفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم اجد من ورائها إلا ضعيفاً لا يلبث ان يراني حتى يرعد مني فرقا فيو صد بابيه في وجهي او ضنياً يرى بؤسي وشكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني ، او اعجمياً لا يفهم ما اقول ، ولا افهم ما ما يقول : قلت : ما في هذه الحالة اعجمي ، قال : انهم خاطبوني بلحن لا اعرفه وان شئت اعدته عليك كما سمعته ، ثم اخذ يسرد علي الكلمات العامية التي سمعها من الناس في طريقه الي سرداً متواصلاً كما تسرد البيغاء كلماتها ، فقلت : انك قد اعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد ابي العلاء المعري ، فانهم يتحدثون عنه انه كان اذا سمع اعجمياً يتكلم حفظ كلامه بدون ان يفهم

→ بمكانه :

كم بودرت غادة كموب وعمرت أسها المجوز
يجوز أن تبطى المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى (ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة - الآية) ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح نفسه على الأرض وهو يقول : سبحان من هذا كلامه . قال : فعلت صفة دينه ويقينه .

معناه ^(١) فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه ^(٢) ورأى
 بقلتيه ^(٣) وزحف الي حتى اصطكك ركبتيانا، فعجبت لامره وما رأيت
 من استحالة حاله . ثم قال لي : من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه ،
 قلت : رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع
 والخامس من الهجرة نقرأ سيرته في كتب التاريخ والادب وتعجب بفهمه
 وعلمه وذكائه كل الإعجاب، قال: وما ظنكم به ؟ قلت: ان الناس في امره
 مختلفون ، ومن يرفضه اكثر ممن يتشيع له ، قال : ومن ايهم انت ؟ قلت:
 ممن يتشيع له ، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في
 مذهبه ودينه ، قال : أكننت تؤثر ان تكون في عصره او ان يكون في
 عصرك حتى تراه ؟ قلت : ما اعدل بهذه الامنية غيرها ، قال : قد بلغك
 الله طلبتلك ، قلت لم افهم يا سيدي شيئاً مما تقول ، قال : أكاتم انت على
 سرّي قلت: نعم، قال : أتقسم؟ قلت: ان للوفاء عندي حرمة مثل حرمة
 القسم ولو كنت متهماً نفسي لأقسمت ، قال : الآن عرفتك ، انا احمد بن
 عبد الله بن سليمان التنوخي المعري ، فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتي
 اسقط في يدي وعلمت اني قد هلكت ، وكان اول ما كان مني ان التفت
 ناحية لأرى هل اجد السبيل الي الهرب ان عرض لي من هذا الجنون
 عارض سوء ، وكأنه لم بما في نفسي فقال : لا الوملك على ما ظننت فقد
 قدرت قبل ان القي اليك كلمتي هذه انها بالغة منك ما بلغت فهل تؤمن

(١) ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصاً متمدة تتضمن أنه كان يحفظ ما يسمعه من الأعاجم

بقلتيه فيبقى في ذهنه زمناً طويلاً حتى يلقيه كما سمعه .

(٢) انكفأ لونه : تغير . (٣) رأى بقلتيه : حركها وأدراها

بالله؟ قلت : نعم ، قال : وتؤمن بالبعث، قلت : نعم ، قال : وما يريك من رجل اماته الله ثم بعثه بعد موته؟ قلت : ذلك يوم يبعثون ، قال : هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه (فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً) وبعد فوالله يا بني ما كفرت منذ آمنت ، ولا كذبت منذ عرفت ان الصدق منجاة من النار ، ولا استرد الله مني نعمة العقل بعد ما منحني إياها ولو كذبت الناس جميعاً ما كذبتك فقد اسلفت الي من ايديك ما لا احتاج بعده الي كذبة اتفق بها عليك ، او ازدلف بها اليك ، واني قاص عليك قصتي فأصغ لها ولك بعد ذلك حكمك ، فسرى عني قليلا ما كان ألم بنفسي من التلق فاقبلت عليه بوجهي فأنشأ يقول :

لا أزال يابني حتى الساعة اشعر بمرارة الحساب في فمي ، فقد حوسبت حساباً غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطرة والمحة وكل ما وجدته حاضراً بين يدي في صحائفني ، فكادت حسناتي تكافيء في الميزان سيئاتي ولولا تلك الكلمات التي كنت ارددها في حياتي الأولى في تزهد الناس في النسل والزواج^(١) فقد دخلت بها في زمرة

(١) لأبي العلاء اقوال كثيرة في النهي عن الزواج والتزهد في النسل جاء بها على صور مختلفة نارة كان يفرح بموت الطفل في مهده كقوله :

كهلل أول ليلة من شهره
لو عاش كابد شدة في دهره

قدم الفتى ومضي بغير تهيئة
لقد استراح من الحياة معجل

ونارة كان يفضل بقاءه في عالم الغيب كقوله :

فالحزم أجمع تركهم في الأظهر ←

واذا أردتم للبنين كرامة

المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري
وطال حسابي عليها وحجاجي فيها وكان لا بد من العقاب ففزعت الى
الروح الشريفة المحمدية مستشفعاً بها لا اريد القضاء ولكن اريد اللطف
فيه ، فتعلق محمد صلى الله عليه وسلم بقوائم العرش الإلهي وقال :

اللهم إنك تعلم ان عبدك هذا عاش في تلك الدار كارها لها متبرماً بها

→ رواية كان يظهر سروره بأنه لم يتزوج ولم ينسل كقوله :

قواصل حبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامي ياه
تشاءب عمرو اذ تشاءب خالد يعدوى فما أعدتني الثوبه

وقوله :

بنت عن الدنيا ولا بنت لي فيها ولا عرس ولا أخت

وقوله :

لقد صرت في الدنيا غيبناً موزماً لقد صرت في الدنيا غيبناً موزماً
فان تحكمي بالجوهر في وفي أبي فلن تحكميه في بناتي وفي لأبني

رواية كان يعد ولادة الوالد لولد جنابة منه عليه كقوله :

ليذمم والدأ ولد ويعتب عليه فبئس عمري ما سعى له

وقوله :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وظاهر أن الذي أثار هذه الحواطر في نفسه ما كان يتصوره من ان الشقاء في هذا العالم لازم
ضروري من لوازم النوع الانساني ولا خلاص له منه الا من طريق العدم المحض ، وان استاده
الجنابة الى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل اراد به الامعان في تصوير هذا الشقاء وتبين
ضرورة اتصاله بالانسان وانه لو لم يولد لما كان شقياً ، وقد أوضح غرضه هذا توضيحاً بيناً في
قوله :

الاتفكرت قبل النسل في زمن به حلت فتدري ابن تلقيه
ترجوله من نعيم الدهر متمنا وما علت بأن العيش يشقيه
شكا الأذى فسهوت الليل وابتكرت به الفتاة الى شطاه ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية عند النذور لعل الله يبقيه
وانت ارشد منها حين تحمله الى الطيب يداويه ويسقيه
ولورقى الطفل عيسى أو أعيد له بقراط ما كان من موت يوقيه

متسخطاً عليها حابساً نفسه في كسر بيته فراراً من أهلها يترقب فراقها في جميع آثاته وفيناته حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها ولو رآها غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها ، وقد قضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه ان تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل فاسألك بقلمك التوراني الذي تمحو به في لوحك ما تشاء وتثبت ، ان تقى جسمه الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها والصبر على آلامها واهوالها من عذاب النار^(١) وان تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه فعاقبه بإرجاعه الى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقر عذابه ، وحسبه من العقاب ان يلقي فيها آخر ما لقي فيها اولاً ، إنك بعبادك لطيف خير .

فقبل الله شفاعته نبيه وقضى ان أعود الى الدار الأولى لأقضي فيها من الايام بعد ما قضيت فيها من السنين وقد علم سبحانه وتعالى اني كنت في العهد الاول أحمدته على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فرد اليّ بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي فله الحمد على سرائه وضرائه .

هذه قصتي قصصتها عليك وهذا اول يوم من الايام التي سأقضيها في

(١) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقد جميع المرشحين ان مآلته في هذه الحياة من عناء وشقاء

وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وانعمها مدخر له أجره

في دار الجزاء كما يظهر من مثل قوله :

أخشى عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام الملدب

وقوله:

أصبح في الدنيا كما هو عالم وادخل نارا مثل قيصر او كسرى

داركم هذه ، فاكم على أمري حتى ينقضي أجلي وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها ، فقد اغتبطت بك منذ رأيتك وعلمت ان الله ما قيضك لي الا وهو يريد ان يخفف عني العذاب مرة أخرى .

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثماً وتقبيلاً وعلمت أني احزرت في بيتي كنزاً لا أعدل به كنوز الارض ظاهرها وباطنها ، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره علي الا خوف اتقضائه .

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتان سره ثم ودعته وتركته في خلوته على ان نلتقي غداً .

اليوم الثاني

ما كنت اجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يجب منه وما يعكره ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأي غير رأيه فقدمت اليه في طعام العشاء دجاجات ربلات^(١) كنت أعددتهم للضيفان من قبل فلما اخذ بصره المائدة صار ينظر اليها مرة والي أخرى ثم قال : ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه الي ؟ قلت : انهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندي شأن غير رعايتهن والقيام عليهم والحذب بهن ، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به من طعام وشراب وتزلهن من نفسها

(١) الربل الكثير اللحم .

منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتزن^(١) واستدرن للذبح ، وقد كنت أبقى عليهن كلما طرقي طارق لإبقاء على الفتاة ان ينفجر صدرها حزناً على أترابها الصغيرات ، أما اليوم فلم أر من ذلك بدأ فذبحتهن إكراماً لك ، فسأل من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائها .

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقاً طويلاً سمعته يهيم^(٢) فيه بهذه الكلمات ، وارحمته ، ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق ، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الإنسان الصامت حتى حسه ووجدانه ، ويأبى إلا ان ينظمه في سلك الجمادات الصم لأنه صامت لا ينطق ، وأخرس لا يبين^(٣) وبما كان زقاء الديك ، وقوقاة الدجاجة ، وصرصرة البازي ، وهديل الحمام ، وزقزقة العصفور ، وثغاء الشاة ، ومواء الهرة ، وخوار الثور ، وحنين النيب^(٤) بكاء بغير دموع ، وشكري بغير لسان ، وربما كان يكم ذلك الذبيح في نفسه من الوجد والرجاء والبرحاء ما لو استطاع ان يبين عنه لأبكي العيون دماء وفجر الصخور عيوناً .

ثم رفع الي وقال : أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئاً عندما أردت ذبحهن قلت : لا يا مولاي ومتى قلن للناس شيئاً فيقلن لي ؟ فنظر الي نظرة شزراء لا انسى سهمها الواقع في قايي ما حييت ثم قال : أما لو ان

(١) اكتنز اللحم : اجتمع وصلب .

(٢) الهينة : الصوت الحفي

(٣) من كلام ابي العلاء في احساس الحيوان بالألم قوله في احدي رسائله « وقد علم ان الحيوان كله حساس يقع به الألم » وقوله « ولم يزل من ينتسب الى الدين يرغب في هجران اللحوم لا يتوصل اليها الا بإبلام حيوان يفر منه في كل اوان » .

(٤) النيب : جمع ذب ، وهي الناقة المسنة

الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها
تقول له : مهلا رويداً أيها القاتل السفاك لا تدن مني ولا تمد يدك الي فلا
شان لك معي ولا ترة^(١) لك عندي .

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد ان اموت ولا رغبة لي
في فراق الحياة لأن وراثي افراخاً صغاراً هن الي حياتي احوج منك الي
بماتي ، وليس من الرأي ان أكل أمرهن اليك من بعدي لأنك شره طماع
لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك .

انت لا تملك ان تعطيني الحياة فلا تملك ان تسلبني إياها .

كل ما تستطيع ان تمن به علي أنك تطعمني وتسقيني فهل تعلم أنك
ما كنت تطعمني الافات مائدتك ولا تسقيني الاغسالة يديك ، وأنتك ما
صككت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحساناً الي بل لتهيبء لنفسك ما يسد
شهوتك وبطفء لوعتها وهل تعلم أنك انت الذي سجننتني في اقصاك ،
وحلت بيني وبين رزق الله أطمعة أنى ذهبت واين حللت من حيث لا
يساومني فيه مساوم ولا يحاسبني عليه محاسب ١٢ .

أمن أجل الحشارة^(٢) القذرة والجريمة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع
بي افراخي ولا ذنب لي ولا لمن عندك الا أنا كنا زينة بيتك ولعبة
اطفالك وحماة آلك من بنات الارض^(٣) وهوامها ورسل الفجر المنير
اليك .

(١) الترة : الثأر .

(٢) الحشارة : فضالة المائدة .

(٣) المراد بينات الأرض : الحشرات التي تخرج من بطنها .

لا تظلم السبع اليوم ولا تنقم منه وحشيتة واقتراسه فكلا كما وحش
وكلا كما مفترس لا فرق بينك وبينه الا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما
تحسن ، فهو ييقر البطون بأظافره وانت تفري الاوداج بمداك ، لا بل
ان جريمتك اكبر من جريمته وعذرك اضعف من عذره لأنه يفترس
ليشبع بطنه وانت على ذلك من القادرين ^(١) .

استضعفتني فبرزت الي فهلا برزت لشبل الاسد ، او ديسم اللب ،
او فرعل الضب ، او حرش الحية ، او هيثم النسر ، او ناهض العقاب ^(٢) ؟
ما أخبتك أيها الإنسان عاجزاً ، وما اظلمك قادراً ، وما أشقاك
بنفسك وأشقى العالمين بشقائك !

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو ان الله وهبه أذناً كالآذان
وبصيرة كالبصائر ، ولكن الناس لا يعلمون .

هيه يا صاحب الدجاجات ! حدثني عنك ألم يكن لك في جميع ما
تنبت الارض من بقلها ، وقتائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها منادح
لإكرامي والقيام بحقي ، وانت تعلم أنني رجل سلخت في دنياكم هذه من
حياتي الأولى نيفاً وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا

(١) فضل ابو العلاء الحيوان على الانسان في كثير من كلامه كقوله :
سببت بالكلب فأنكرته والكلب خير منك اذ ينبع

وقوله :

أقل منهم شراً ومرزبة ماركبوا في السرى وما ذبحوا

وقوله :

خير من الظالم الجبار شيمته ظلم وحيف ظليم يرتعى الذبجا
(٢) هذه فروق تتاج تلك الأنواع من الحيوان

نتاجه ، فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات
الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعاماً والبلس حلوى^(١) لأنني كنت اعلم ان
طعامي الذي لا يلاءمني غيره ولا يشبعني سواه ، وان لحم الحيوان انما
خلق للشفاء الغليظة ، والأنياب العريضة والأظافر الحادة والجلود
المزأبرة^(٢) والاعضاء المتوثبة ، والهلمات الضخمة ، وكنت أرى ان
أكلة اللحوم إنما يخادعون انفسهم فيها ويحترونها الى طباعهم اجتراراً
لا ياكلونها الا اذا عاجوها بالطبخ والصف^(٣) والتقديد والشبي والقلي ،
ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والاقزاح^(٤) مزجاً يكاد يخرج بها
عن جوهرها الى جوهر النبات ، حتى اذا نزل بهم عارض مرض نزعوا
عنها وبرئوا الى الله منها وفزعوا الى النبات في طعامهم وشرابهم
وعقاقيرهم ، كأننا يطلبون شفاءهم في الرجوع الى غذائهم الطبيعي الذي
خلقوا له .

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم انهم كانوا ينكرون على رأبي
في ترك ذلك الطعام ويعنون في مسألتي عنه وحجاجي فيه وحلي عليه

(١) البلسن : العدس . والبلس : التين ، ومن كلام أبي العلاء :

يقنمني بلسن يمارس لي فانت اتني حلالة فبلس

(٢) الثوب المزأبر : الذي له زئبر وهو ما يظهر من درزه .

(٣) الصف : تشريح اللحم عراضاً .

(٤) التوابل وما يليها : ما يطيب المطبوخ من الاشياء اليابسة .

ويلحون في ذلك إلحاحاً شديداً حتى ظننت انهم قاتلي من دونه ^(١) كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه انهم إنما يأكلون لحم الحيوانات باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم ^(٢) او ان الله تعالى انزل عليهم قرآناً ألا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً الا اذا قدموا عليه بيطون بجر ^(٣) مكتظة بلحوم الحيوانات تتقدم بين ايديهم في منصرفهم من الحساب لتفتح لهم ابواب الجنان ، وكانهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم ان يؤديه وترك ما أمرهم ان يتركوه فلم يبق بين ايديهم من ابواب العبادة الا باب التورع عن أكل اللحم مخافة ان ينقلب المباح بإعراضهم عنه حراماً ، كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بعد أدائها مخافة ان تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة ^(٤) .

واحسب ان لو كنت فيهم من أكلة السحت او الميتة والدم ولحم الخنزير او أموال الناس بالباطل ، لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته تقمة على الشريعة او تبرماً بها او تمرداً

(١) كتب ابن أبي عمران الى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيته مؤلماً ويمرض عليه ان يحمل بعض الامراء على ان يرسل اليه ما يكفيه مؤونة ذلك احراجاً له واعنائاً ، وأبو العلاء يومئذ في اواخر حياته ومنتهى شيخوخته فقد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره وهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل « ولو مثل بحضورته السامية لعلم انه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا ان يجيب وقد عجز عن القيام في الصلاة فانما يصلي قاعداً والله المستعان » .

(٢) القرم والجعم : شهوة اللحم .
 (٣) بجر ، جرح أيجر : وهو المعتل .
 (٤) من كلام ابي العلاء في الذين يفعلون بصفات الذنوب ويفعلون كبارها :
 يعيب أناس ان قوماً تجردوا لحمامهم نصب العيون الشوازر
 لقد سعدوا ان كان لم يميز عندهم من الوزر الا تركهم للمآزر

عليها ، ولكنني كنت امرءاً جزوعاً يزعجني منظر الشرائح الحيوانية على مائدتي لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياحها وولها بين حبل الذابح وسكينه ، وكنت فقيراً لا املك في كل عام من الرزق الا نيفاً وعشرين ديناراً لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين ^(١) وما كنت أجد السبيل الى غيرها الا من طريق الكدية والتكفف أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين ، وقد علم الله من شأني أنني رجل لو علمت أنني ان أدلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير او قدم وزير امطرت السماء علي ذهباً ، واستحالت الحصباء تحت قدمي درأ ما فعلت ضناً بنفسي على هذا الموقف المستوبل وإيثاراً للرضا بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ^(٢) .

(١) من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله « وما حثني على ترك اللحم أن الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً فاذا اخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي ما لا يعجب . فانتصرت على فول وبلسن ، وبعض ما لا يعذب في الاحسن » ومن كلامه الدال على أنه كان فقيراً معوزاً قوله :

واتهامي بالمال أوجب أن يطـلب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الفواة خولك الله كذبتم لغيري التخويل

(٢) كان أبو العلاء غاية في قناعته وألفة نفسه وقد ظهر ذلك في حالة معيشته واعتقاله بيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الامراء فيه والحاح الكبراء عليه في البروز اليهم والسكون معهم فضلاً عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله :

الحمد لله قد أصبحت في دعة ارضى القليل ولا أهتم بالقوت

وقوله :

من مذهبي أن لا أشد بفضة
لكن أفضي مدتي بتقنع
هذا ولست أورد أبي قائم
بالملك في ثوبي أغر متوج

ولما اضطر ان يخرج الى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المرة ليطلب منه اطلاق جماعة من —

فلم أر خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل .

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : ان رسول الله لم يمتلئ قط شبعاً وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي واقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول : يا عائشة اخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم ما بهم واجزل ثوابهم ، وكان يقول : شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة^(١) وعلا عمر رضي الله عنه ولده عبد الله بن عمر بالدرة^(٢) إذ

→ الاسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم. ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعاً ظهر في قوله :

تغيبت في منزلي برهة	ستير الميوت فقيد لحسد
فلما مضى العمر الا الأقل	رحم لروحي قراق الجسد
بعثت شفيماً الى صالح	وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام	واسمع منه زئير الاسد
فلا يعيبي هذا النفا	ق فكم نفقت عنة ما كسد

(١) مخ الحنطة : خالصها .

(٢) الدرّة : السوط يضرب به ، كان في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه درة تكاد لا تفارقه يده .

دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء. وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويحففه في الشمس ثم يأكله قائلاً : كسرة وملح حتى يتها في الآخرة الشواء ، ومنهم من لم يأتهم قط في حياته لا بالجوزاب^(١) والكباب ولا بالخل والزيت .

فهل كان واحد من هؤلاء بطراً بنعمة الله او محرماً ما حلال الله ؟ لا ، فما كل من أبغض حلالاً حرمه ، ولا كل من أحب حراماً حله ، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بجل النيذ فلما أريد عليه قال : لو قطعت إرباً إرباً ما حرمته ولو قطعت إرباً ما شربته وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بجل الطلاق ثم قال : أبغض الحلال الى الله الطلاق ، بل لو تبينت لعلمت ان قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية صادرة النفوس في ميولها وشهواتها ، والنفوس لا تنفر الا بما حل لها ولا تشتبه الا ما حرم عليها .
فويل لي من هؤلاء الناس ، شركتهم في دنياهم فقالوا شره طماع ، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون^(٢)

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد ، فتفصد جبينه عرفاً واستسر حديثه يبين ، فرثيت له بما به وأمرت برفع

(١) الجوزاب : طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم .

(٢) من كلام ابي العلاء في عدم رضاء الناس عنه حتى في زهده عما في ايديهم : حوربت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهدا

المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحه من الطعام ، فلبثنا ناكل صامتين حتى فرغنا فأردت ان أرفسه عليه ما ألم به من الهم فقلت له : يا مولاي ان للحيوان اليوم شأنًا غير ذلك الشأن الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسان اليه ، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحين المحسنين يأخذون انفسهم بمنظرة المدارج والسبل والاسواق العامة فاذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحمل او يسوطها سوطاً عنيفاً^(١) رفعوا الى الحاكم أمره ، او رأوا حيواناً هزيراً او مهيباً^(٢) حملوه الى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان فعالجوه ان وجدوا الى الرجاء فيه سبيلاً والاقتلوه رحمة به وإشفاقاً عليه .

قال : لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى ومن لهم بعلم ما استر وراء حجب الغيب من كوامن الاقدار في تحديد الآجال ، وها نحن نرى في كل يوم مريضاً يبيل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله ، وصحيحاً يخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غضنها الناضر فهلا وكلوه الى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر اليه^(٣) .

ما احسب هؤلاء الراحين الذين تحدثني عنهم الامرائين مصانعين ، ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم الاحباله من الحبالل نصبوها

(١) ساط دابته - سوطاً : اي ضربها بالسوط .

(٢) المبيض : الكسير .

(٣) من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن ادراك الغيب :

وجدت الغيب تجهله البرايا فما شق هديت وما سطيع

لاصطياد العقول واختتال النفوس ، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا الا ان يقول الناس عنهم أنهم رحمو الحيوان فأحرى ان يرحموا الإنسان ، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرعاً الى البدرة حراماً .

يا بني آدم ، دعوا النوق في مراحها ، والشاء في دروبها ، والوحش في كناسه ، والضب في جحره ، والذئب في وجاره ، والقطا في أفاحيصه ، ولا ترعجوا العصافير في اعشاشها ، ولا الحمام عن محاضنها ، ولا اليعاسيب عن خلاياها ، ولا الاسماك عن مسارحها^(١) ، وجنبوها فخاخكم وشباكم ، وقتركم وزباك^(٢) ، ومداكم وشفاركم ، فان لها نفوساً كنفوسكم ، ووجداناً كوجدانكم ، ورجاء في الحياة كرجائكم ، واعلموا ان الله تعالى ما أغوى بعضكم بعض ، ولا ساط قويمكم على ضعيفكم ، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين احياءكم الا بعد ان ضريت^(٣) بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها ، وقطعتم الى المتعة بها ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والاوداج والأباهر^(٤) ، فارحموها ترحموا انفسكم ، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ، إنكم الى الرحمة محتاجون ، والى الله راغبون^(٥) .

(١) هذه فروق اماكن تلك الحيوانات .

(٢) القتر : جمع قتره بضم القاف ، وهو النماموس الذي بينيه الصائد ليستتر عن الصيد .

والزبي : جمع زبية بضم الزاي وهي حفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الاسد .

(٣) ضري الوحش باللحم اعتاده وألفه .

(٤) الغلاصم : جمع غلصمة وهي اللحم بين الرأس والعنق ، والأباهر جمع ابهر وهو عرق

يخرج من القلب الى سائر الشرايين اذا انقطع مات صاحبه .

(٥) للمعري كلام كثير في الفرق بالحيوان والنهي عن ايذائه ومطاردته وذبحه واكل لحمه

والانتفاع بألبانه ونثاره كقوله في النهي عن ضرب الدواب ؛



ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهود المتعب ، وكان الظلام قد أظلمنا
بجناحيه ، فشعرت ان سنة من النوم قد رتقت^(١) في عينيه ، فانسلت من
بين يديه ، وتركته في مضجعه على أن ألقاه غداً .

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث فإذا الشيخ قد فارق خلوته الى حديقة
المزمل فافتش ترابها ، وتوسد أعشابها وأنشأ يردد النظر بين أزهارها

→ لقد ساءني منعد الفقير يجبهه
على العير ضرباً ساء ما يتفقد
يحمه ما لا يطيق فان ونى
أحال على ذي قتره يتجدد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله :

لك النصح مني لا اعاديك خانلاً
بكر واحكني اغاديك مكرماً
اذا ما حذرت الصقر يوماً فحاذري
اخا الإلس إياما وان كان محرماً
يصوغ لك الفادي قلادة هالك
من الدم تنجي وجدك المتضمرماً

وقوله في النهي عن صيد الوحش :

لا تطرد الوحش فما يلبث
المطرود في الدنيا ولا الطارد
روح ذبيحك لا تعجله ميتته
وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقتة الحياة :

وقوله في الاعتراض على صيد الاسماك :

جاروا على حيوان البرثم غدوا
على البحار فقالوا الصيد ما فيها
لم يقنع الحي منها ما تقنصه
حتى اجاز اناس اكل طافئها
وقوله يبكي على الطائر المقتول :

وأبك على طائر رماء فتى
لاه فأرمي بفهره الكتفا
ار صادقته حباله نصبت
فظل فيها كأنها كتفا
بكر يبني المعاش مجتهداً
فقص عقد الشروق او متفا

كانه في الحياة ما فرع النصـ من لفنى عليه او متفا

(١) يقال رنق النوم في عينيه اذا خالطها كأنه مأخوذ من رنيق الطائر اي تخليقه ورفرفته
بجناحيه .

وأنوارها وييسم للعصاير تنتقل بين أنجمها^(١) وأشجارها ويصغي الى سرار الحديث بين حصبائها ومائها فعرفت المدخل الى قلبه والوسيلة الى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز الى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألم بها من الحزن والألم فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا الى واد أفيح يهتز بصنوف الأشجار ، وأفانين الأزهار ويتراءى في ألوان من النبات ، مشتبهات وغير مشتبهات ، من هائج وعميم ، وبارض وجيم^(٢) ، وكروم وأعنان ، وسنابل وأعشاب وتفيض أرجاؤها بالجداول والغدران ، والقني والخلجان ، مطردات ومنعطقات ، ومجتمعات ومفترقات ، يفضي أولاهها الى آخرها ، ويتصل أقصاها بأدناها ، ويعطف كبيرها على صغيرها ، وقويها على ضعيفها ؛ فكانها صلال رقصاء قد فرت من حر الظهيرة الى هذا الروض الأريض تبترد بين روايه وأكاته ، ومصاعده منحدراته ، فهي تنقبض وتنبسطن وتنساب وتتجمع^(٣) وتقبل وتدبر ، وتقوم وتقعده ، وتتوائب وتترجع وتتواصل ثم تتقاطع ؛ وكان حفيف أوراقه ، وخرير مائه ، وتفريده أطياره ، وضجيج نواعيره ، وعجيج سائمه أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع فيخيل اليه أنه هابط من أبواب السماء او أن سكان الألب^(٤) فوق عروشهم يغنون ، وسكان الأرض بين أيديهم

(١) الأنجم : جمع نجم بفتح النون ، وهو ما نجم من النبات على غير ساق .

(٢) الهائج من النبات الذي اصفر ويمس والمميم منه ما عم الارض والبارض اول ما يبدو

من النبات فاذا تحرك قليلا فهو الجيم .

(٣) تجمعت الحية : تلوت في سيرها وتثنت .

(٤) الالب : خرافات اليونان ، جمع ألهمهم ويقولون ان لتلك الالهة ساعات يشربون فيها في

مجتمعهم هذا ويطربون .

يستمعون .

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه ،
وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه مكانه
نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لمجوده وسكونه حتى فنيت
كما فني في مشهده الذي بين يديه فلم أرجع الى نفسي حتى سمعته يقول :

للمليك المذكرات عبيد وكذلك المؤنثات إماء
فالللال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثرة والارض والضحي والسماء
هذه كلها لربك ماعا بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت الي وقال : كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها
لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ ، والمؤرخون يصانعون ويدهنون ،
او من أفواه الفقهاء ، والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، او من
خطرات عقولهم ، وقد أفسدها ، عليهم القائلون والكتابون ^(١) والحقيقة

(١) كثيراً ما نغم أبو العلاء على الرواة والقصاص اخبارهم التي يضمنونها من عند انفسهم
ويدونونها في كتبهم . صانعة للعامة واستهواء للفرهم وطلباً للربح منهم كقوله .
ويقال للكرام قولاً وما في اله صر الا الشخصوس والأسماء
وأحاديث حبرتها غواة وافترتها للكسب القدماء
غلب المين منذ كان على الخلق وماتت بفيظها الحكماء
وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من اخبار المعمرين في التاريخ القديم :
رادعوا للمعمرين أموراً لست أدري ما هن والشهور
أترام فيما تفضي من الايام عدوا سنينهم بالشهور
وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون ان أول من شاب من الرجال هو سيدنا ابراهيم
عليه السلام :

موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق إليها ، قلت واين نجدها ، قال في هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة الزرقاء ، بين الظل والماء .

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة ، فاذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع ، ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث ان تأخذ مكانها مغرسها حتى تصير نخلة سحوقاً تملأ الارض خيراً يجذوعها وسعفها وجريدها وقنواتها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها ، ويراه في الكواكب المائلة في السماء والاسماك السابحة في الماء ، والاجواء المملوءة بالهواء والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ، فيمتلئ قلبه يقيناً صافياً رائقاً لا تعبت به المناظرات ، ولا تشوه جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده الى متكلم يعلمه النظر ، ولا فقيه يلقنه الجدل ، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي اليه سواه ^(١) .

→ ما أقبح المين قلت لم يشب أحد
كذبتم ونجوم الليل شاهدة
حتى أتى الشيب ابراهيم عن أمم
ان المشيب قد يباحل في اللحم

وقوله :

لعمري لقد فضح الأولين
ما كتبوا وما سطوروا
(١) كان ابو العلاء من اشد الناس بغضاً للمناظرات الدينية لاعتقاده انها تورث الأحقاد والاضغان فضلاً عما تلقيه أحياناً من الشكوك في نفوس الضعفاء وكان يكره من المتناظرين ان المنافسة وحب الغلب كثيراً ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البدييات كما يظهر ذلك من مثل قوله :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت
قد بالفوا في كلام بأن زخرفه
وما يزالون في شأم وفي بين
كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
يوهي العميون ولم تثبت له عمد
يستنبطون قياساً ما له أمد ←

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب ، والعشب يأكل التراب ،
 والتراب يأكل السائمة ، فيستحيل الجماد نباتاً ، والنبات حيواناً ،
 والحيوان جماداً . فيعلم ان المواليد الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها
 وتشكل جواهرها ، ويعلم ان هذا الإنسان الفاخر بنفسه ، والمدل
 بعظمته واقتداره ، وربما كان بالامس صفيحة ^(١) ملقاة على جانب قبر ،
 وربما يكون في الغد جلدة بالية في ذؤابة ^(٢) نعل ^(٣) .

هنا يرى الانسان الارض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور ،
 فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والرياح أن تعصف بذورها فيعلم أن
 الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار الى ان تبلغ شغافها
 وأن الناس ما اختلفوا الا لأنهم جاحدون ، ولا اقتتلوا الا لأنهم
 ملحدون .

هنا يرى الانسان الشمس طالعة من مشرقها ، مصفرة اللون متقاربة

فذرهم ودينام فقد شغلوا	بها ويكفيك منها الواحد الصمد
وقوله : ملل غدت فوقاً وكل شريمة	تهدى لمضمر غيرها اكفارها
وقوله : علم الفتى انظار ان بصائرأ	عميت فكم يخفي اليقين وكيم
لو قال سيد غضاً بمثت بملة	من هند ربي قال بمضمو نعم
وقوله : هذا الفتى أرقح من صخرة	يبهت من فأظره حيث كان
ويدعى الإخلاص في دينه	وهو عن الإلحاد في القول كان
يزعم ان العشر ما نصله	خس وان الجسم لا في مكان

(١) الصفيحة : الحجز المريض .

(٢) الذؤابة من النعل ما أصاب الارض من المرسل منها على القدم .

(٣) يردد ابو العلاء هذا للعين الحاص بتغير المادة وتشكلها كثيراً في كلامه فمن ذلك قوله :

مضى الأنام فلولا علم حاتم	لقلت قول زهيرية سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا	منه فكيف اعتقادي أنهم ملكوا

الخطوات مخافة ان تطير اليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه
ثم لا تلبث ان تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر الى مغربها هاربة
فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما
ألم به من تلك الأدران والأوحال ، ويرى الليل مقبلاً يقطب وجهه
ويزوى ما بين حاجبيه ويربد شيئاً فشيئاً ، حتى يسود غضباً على هذا
المجتمع البشري فيما يقترفه تحت ستاره من المفسد والشرور ، ولا يزال
ماداً يديه بالدعاء الى الله تعالى أن يعجل أوبته الى مستقره حتى
يستجيب له ويداوله بينه وبين النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء
ستر الظلام ، ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمة لتنفس عن
رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد فلا تلبث أجفانها أن
تطرف انغلاقاً وانفتاحاً مخافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الأشرار ،
التي تتطاير يئنة وبسرة وصموداً وهبوطاً فلا يقوم لها شيء الا أت عليه.

هنا يرى الانسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم ويسمع صوتها

وقوله :

وقد يدري خليلك وهو دار
طلأ للسقيفة والجدار

وما يدريك والإنسان غمر
لعمل مقاصل البناء تضعى

وقوله :

الى عنصر الفخار للتعق يضرب
فيأكل فيه من أراد ويشرب
فواهاً له بعد البلى يتنرب

فلا يمس فخاراً من الفخر هائد
لعمل إزاء منه يصنع مرة
ويحمل من ارض وما درى

وقوله في داليتة المعروفة :

ضاحك من تزامم الاضداد
في طويل الازمان والآباد

رب لحد صار لحداً مراراً
ودفين على بقايا دفين

واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلمين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصد سمعه قرع النواقيس ، ولا صياح المؤذنين .

فقلت حسبك يا مولاي ، فقد نال منك أجيح هذه الرمضاء وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلا احسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا اليه عله يبسر لنا ظلة نفى اليها وجرعة باردة نفثا بها هذه الصارة^(١) ، فشيننا اليه حتى بلغناه فرأيناه مكباً على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها ، وقد شرس يده وشنت قدماه وزأبر صدره^(٢) ، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقاً ، حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم ، فحينئذ بتحية حيانا بأحسن منها ، وأفضينا اليه بطلبتنا ، فأشار بيده الى كوخه ، وكان منه على بعد كئيب ، فإذا عريش من عيدان القصب مسجج^(٣) ، قد ارتفع فوقه سقف من جذوع الأشجار ، واعتمد على أسطوانة^(٤) من اللبن الأسود ، وامتدت أمامه صفة مستطيلة ، واستدار به نؤى يمنعه عنه مسيل الماء ؛ فدخلناه فلم نر فيه الا رثة^(٥) من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق الخبز اليبيس ، وخلقان من القمص والأبراد ، وقدر وأثنية ، وجرة مملوءة ماء ، وحشية^(٦) مفككة تضطرب في جوفها حشوة من

(١) يقال فثأ القدر إذا سكن غليانها ، الصارة : المعطش .

(٢) شرس اليد إذا غلظ ظهرها من برد فتشقق . وشنت القدم إذا خشنت وغلظت ،

وزأبر الثوب إذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درزه .

(٣) يقال مسجج الحائط إذا طلاها بطبقة رقيقة من الطين .

(٤) أسطوانة : تصغير أسطوانة .

(٥) رثة المتاع بكسر الراء : ساقطة .

(٦) الحشية : الفراش المحشور .

الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل ، فشربنا حتى ارتوينا ، واخذنا من تلك الحشية مضجعا ، ومازلنا على حالنا تلك سكوتاً لا تتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل^(١) في مشيته ، ويحمل فأسه على عاتقه ، ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة ، فجلس وجلس ولداه بين يديه ، وأنشأ يلقي الينا معاذيره ، ويتوجع لعجزه عن اكرامنا وإسعافنا بما نحب ، فعذرناه . ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي - وكنت أترجم بينها لأنها لا يكادان يتفاهمان : -
الشيخ - من يملك هذه الارض ؟

الفلاح - هي لسيدي ومولاي - أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته - صاحب هذا القصر الذي تراه - وأشار الى قصر فخم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء رفرقة الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء .

الشيخ - أراك تدعوه ، وتتمنى له الخير والسعادة ، فلعلك سعيد بجواره ، معتبط بمكانك منه ولعله يمدك بيره وإحسانه ، ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه .

الفلاح - حسبي من سيدي ان أرى وجهه مرة في كل يوم او يومين ، ممتطياً فرسه الدهاء ، في ركب من أصحابه وحاشيته ، ماراً بهذه الاجمالات الملتفة ، يتنزه ويتروح ، ويطارد الثعالب والذئاب ، مطاردة الشجاع المستقتل ، ثم يعود الى قصره مسروراً مغتبطاً بمصباحه ومسائه .

(١) قزل - به قزل : وهو أقبح العرج .

الشيخ - إنما اسألك عن أياديه عندك وصنائه لديك ، لا عن منازحه
وطرائده وملذاته وشهواته .

الفلاح - وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها ، نعمة اجل
قدراً وأسمى قيمة من ان اكون عبداً مملوكاً لسيد كهذا السيد ، رفيع
الجاه ، جليل القدر ، واسع النعمة ، تطاطب بين يديه رؤوس العظماء ،
ويختلف بين حضرته كبار الأمراء ؟

الشيخ - أيها الرجل : ما عن هذا اسألك ، إنما اسألك هل يسلم عليك
سيدك هذا اذا مر ببابك او يخلو بك احياناً ليتعرف همك وما تهتف به
نفسك من رغباتك وحاجاتك ؟

الفلاح - الحق أقول يا سيدي إني ما سمعت في حياتي بأعجب من
سؤالك هذا ، ومتى كان السيد يخاطب عبده الا بالأمر والنهي او يرفع
اليه طرفه الا بالنظر الشزر ، او يلامس بيده جسمه الا للتأديب
والتهذيب ، ولقد تمر بي وبعيالي الليلي ذوات العدد ولا نكاد نجد من
الخبز الخشوشب ما يملا بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد
من نسيان سيدي إياي بضعة ايام او إغفاله أمري ونهبي وزجري
وتأديبي ، وقد أعد لي - حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته -
عصياً غلاظاً يتعهدني بها من حين الى حين كلما نسيت أمراً من أوامره او
قصرت في رعاية غرض من اغراضه فأغتبط بذلك الاغتباط كله لأنني

أعلم أني منه على ذكر^(١) وأنني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه
إغفاله واطراحه وإلقاء حبله على غاربه .

الشيخ - وابن أم هذين الولدين ؟

الفلاح - ماتت رحمها الله في سبيل خدمة سيدها ، فقد كنا يوماً
نمتج^(٢) على حافة بئر فزلقت أقدامنا وانبت بنا الحبل فسقطنا ، أما هي
فاستأثر الله بها وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة فما أسفت
على ان لم أكن قد لحقت بها فاكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما
هلكت ليترحم علي كما ترحم عليها ويامر بدفني في مقبرة أجداده كما
أمر بدفنها .

الشيخ - ربما كنت قانعاً من إحسان سيدك اليك وعطفه عليك بما
تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الارض وثمراتها ؟

الفلاح - لا والله يا سيدي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعاده
في قفيزبر ، او حفنة تمر ، الا ان تسقط بين يدي ثمرة أعلم أنه لا يابه لها
فتكون قسمة بيني وبين ولدي او أحتطب من اطراف الوادي بضعة
أعواد من الحطب اشعلها تحت قدري وأستغفر الله مما سهوت عنه او
أخطأت فيه .

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول ان يكاظمي دمة تترجح في مقتلته

(١) الذكر : التذكر .

(٢) متج الماء متعاً : نزع .

فاشرت اليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا
 المنزل ، وقد ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي ان اكون قد بلغت ما
 أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة ، قال : ما نعص علي
 يومي الا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر سنه وسقوط همته
 وذلة جانبه . وما احسب الا ان الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها وسلبها
 حسها ووجدانها فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة
 ذلك الإنسان الذي يسميه سيده ^(١) فهو لا يفرح الا لفرحه ولا يفتبط الا
 باغتباطه ، ويرضيه منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على اخلاصه
 اليه وتعبد له ، بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه ، وكذلك يفعل
 الظلم في نفوس المستضعفين .

ثم تركني وانحدر الى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات :

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
 أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

(١) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلاً الا بالفضائل النفيسة ، وقد ردد هذا المعنى كثيراً
 في كلامه كقوله :

أمر ان كنت عموداً على خلق ولا أسر بأني الملك محمود
 وقوله : وإقصائي عن الرؤساء كوني وكونهم خالقنا عبيداً
 وقوله : وإن أفضل من تعظيمهم رجلا صفرا من الحكم التظيم للحجر

(١) الاربعون

الآن وصلت الى قمة هرم الحياة ، والآف بدأت أنحدر في جانبه
الآخر ، ولا أعلم هل أستطيع ان أهبط بهدوء وسكون حتى اصل الى
السفح بسلام ، او أعثر في طريقي عبرة تهوي بي الى المصراع الاخير هويًا .

سلام عليك أيها الماضي الجميل ، لقد كنت ميدانا فسيحا للأمال
والاحلام وكنا نظير في اجوائك البديعة الطليقة غادين راغمين طيران
الحمام البيضاء في آفاق السماء ، لا نشكو ولا نتالم ، ولا نضجر ولا نسام ،
بل نعتقد ان في العالم هموما وآلاما ، وكان كل شيء في نظرنا جميلا حتى
الحاجة والفاقة ، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها ، كانت كل منظر من
مناظرك قد لبس ثوبا قشيبا من نسيج الزهر الابيض ، فأصبح فتنة
الانظار ، وشرك الالباب !

(١) كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من حياته وكاننا كان يتنبأ بدنو
أجله رحمه الله ويرد نراه .

وكان يخيل اليانا ان هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في مجيرتك
الصافية الراقية سيستمر في طريقه مطرداً مندفعاً لا يعترضه معترض ،
ولا يلوى به عن طريقه لا والى ما لا نهاية لا طرده وتدفقه .

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم ، ان يكون لنا ماربان من
مارب الحياة ، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر او غرضان من اغراضها ،
فنصل الى القريب ، ونبيت دون البعيد .

وكان كل ما يستدرف الدمع من أعيننا هجر حبيب او طلعة رقيب
او أرق ليلة او ضجر ساعة ، او نظرة شزر يلقيها بغيض ، او نفثة شر
يرمينا بها حقود ، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجنا ان تطرد تلك الآلام
امامها كما يطرد النهر المتدفق الاقدار والاكدار بين يده وتسلم لنا الحياة
سائغة لا كدر فيها ولا تنغيص .

سلام عليك أيها الشباب الزاهب ، سلام على دوحتك الفينانة الغناء ،
التي كنا نمرح في ظلها ، مرح الظباء العفر في رملتها الوعشاء ننظر الى
السما فيخييل اليانا أنها مغدى ومراح لنا ، والى الآفاق البعيدة فيخييل
اليانا أنها مجرى سوابقنا ومجرر رماحنا ، فكان العالم كله مملكتنا الواسعة
العظيمة التي نسيطر عليها وتتصرف في أي أقطارها شئنا .

أبكيك يا عهد الشباب ، لا لأنني تمتعت فيك براح او غزل ، ولا
لأنني ركبت مطيتك الى هو او لعب ، ولا لأنني ذقتُ فيك العيش بارد
الهواء كما ينوقه الناعمون المترفون بل لأنك كنت الشباب وكفى .

أبكيك لأنني كنت أرى في سمانك نجم الأمل لامعاً متلألئاً يؤنسني
منظره ويطربني للأوه وينفذ إلى أعماق قاي شعاعه المتوهج الملتهب فلما
ذهبت ذهب بذهابك فأصبح منظر تلك السماء منظر فلاة موحشة مظلمة
لا يضيئها كوكب ، ولا يلمع فيها شعاع .

أجل ، لم أمتع فيك بمتعة من المتع ، ولا بلذة من الملاذ ، ولا نلتُ في
عهدك مارباً من مآرب المجد أو الجاه ، ولكني كنت أومل وأرجو .
وبذلك الأمل كنت أعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أنا وأنعم .

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر فقد
احتجبت عني كل شيء ولم يبق بين يدي مما أفكر فيه إلا أن أعدّ عدتي
لتلك الساعة الرهيبة التي أنحدر فيها إلى قبوري .

مضى عهد الشباب وبدأت أختلف إلى الأطباء الثلاثة طبيب العيون ،
وطبيب المعدة ، وطبيب الأسنان ، وتقاربت خطواتي فأصبح فرسخي
ميلاً ، وباعي ذراعاً ، ونعى الناعون إلى كثيراً من اصحابي وأترابي أي
أنهم نعوا إلى نفسي ورأيت اصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي
فأنكرت استحالة حالهم واغبرارَ وجوههم ، واحمرار خدودهم ،
وابيضاض شعورهم ، فعلت أني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم
ودعالي الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء ، وحسن الختام ، أي أن
قوتي في هبوط ، ونشاطي في اضمحلال وسلامتي في خطر وحياتي على
وشك الانحدار إلى مغربها ، ومررت بجماع الشباب الحافلة بالقوة

والنشاط والمرح والسرور فخيّل الي أنني غريب عنهم لا صلة لي بهم ولا شأن لي معهم ، وأنني أعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه وانتقلت من النظر في شأن نفسي، وشأن مستقبلي الي النظر في شأن اولادي وشأن مستقبلهم ، لأن مستقبلي أصبح ماضياً ، وغداً أصبح أمس لا رجعة له الي الأبد ، وسمعت كلمة « الجدّ » يهتف بها احفادي الصغار ، فلم انكرها ولم أبتئس كأنني معترف أنها الكلمة التي يجب ان اسمعها ، ونصحني الناصحون بالاقتصاد والتدبير ابقاءً على مصلحة اولادي الفقراء ، كأنهم يقولون لي إنك موشك ان ترحل فاعد لمن وراءك من اهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك ، وهدأت نفسي بعد ثورتها وجاحها ، فأصبحت سمحاً كريماً ، عفواً غفوراً ، لا ابغض أحداً ، ولا أحقد على أحد ، ولا أقابل ذنباً بعقوبة ، ولا إساءة بمثلاً ، كأنني أقول في نفسي : مالي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكاً ، ان لم يكن اليوم فغداً ، وأخذت أتحدث عن الماضي اكثر مما أتحدث عن الحاضر ، لا لأن الاول أجمل من الثاني بل لأن الشبيبة أجمل من الشيخوخة ، وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها ايام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء فبكيته ورثيتها ولم تنسني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلاً ومجداً وشرفاً ، لأن الأولى كانت في سماء الاحلام الحلوة اللذيذة ، أما الثانية ففي ارض الحقيقة المرة المؤلمة ، وكنت أنعم في صباي بكثير من الملاذ الوهمية الكاذبة ، فكنت ، اجد في نفسي غبطة عظيمة حينما اجلس لمطالعة قصة الف ليلة وليلة ، او سيرة سيف بن ذى يزن ، او حروب عنتره ، او

وقائع أبي زيد أو اساطير الجن والشياطين ، وحين آوي الى مضجعي
فأرى في منامي رؤي بديعة يجتمع لي فيها جميع ما احب واشتهي من
مطامع الحياة ومآربها وملاذ العيش ومباهجه ، وحين اختلف الى مقابر
الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة امام حلقات ابوابهم
فاشعر بسكينة في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء ، والآت وقد
حرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها ان اساطير الاولين أكاذيب
وأباطيل وان الرؤي والاحلام هوس وجنون ، وان الأولياء والصالحين
أحياء كانوا أو أمواتاً في شاغل بانفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا
ضرراً ؟ أي أنتي شقيت حين علمت ، وكنت سعيداً قبل ان اعلم ، وكان
كل ما افكر فيه ان أشيد لي بيتاً جميلاً اعيش فيه عيش السعداء الامنين في
مدينة الأحياء ، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن ان أنبئ لي قبراً بسيطاً
يضم رفاقي في مدينة الاموات ، وكنت ادهش لبلاغة البليغ ، وذلاقة
الخطيب ، وبراعة الشاعر وقدره الكاتب الصائغ ونبوغ المبتكر ،
واطرب لكل عظيم وجميل مما أرى ومما اسمع ، فأصبحت لا ادهش لشيء ولا
اعجب من شيء لأن مرآة نفسي قد صدئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب
الفخم العظيم ، وابن ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب
السماء ونجومها .

ما انا بأسف على الموت يوم يأتيني ، فالموت غاية كل حي ، ولكنني
أرى امامي عالماً ، مجهولاً لا اعلم ما يكون حظي منه واترك وراثتي
اطفالاً صغاراً لا اعلم كيف يعيشون من بعدي ولولا ما امامي ومن

ورائي ما باليت اسقطت على الموت أم سقط الموت علي ١٢

لكن ما أراده الله ، أما ما امامي فالله يعلم أني ما الممت في حياتي
بعضية الا وترددت فيها قبل الإللام بها ، ثم ندمت عليها بعد وقوعها ،
ولا شككت يوماً من الايام في آيات الله وكتبه ، ولا في ملائكته ورسله ،
ولا في قضائه وقدره ، ولا اذعنت لسلطان غير سلطانه ، ولا لعظمة غير
عظمته ، وما احسب انه يحاسبني حساباً عسيراً على ما فرطت في جنبه
بعد ذلك ، واما من ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها ، والقطاة
في افحوصها ، والعصفور في عشه ، والفرخ في وكره ، سيتولى هؤلاء
الاطفال المساكين وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه .

وداعاً يا عهد الشباب ، فقد ودعت بوداعك الحياة ، وما الحياة الا
تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر ، فاذا هدأت فقد هدأ كل
شيء ، وانقضى كل شيء !

أيا عهد الشباب وكنت تندي على أفياء سرحتك السلام

القسم الرابع

الغبر اللغز

وهي مجموعة روايات قصيرة.

إهداء

الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن
يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين
أيديهم هذه العبرات ، عليهم يجدون في بكائي عليهم تعزية
وسلوى ،

مصطفى لطفي المنفلوطي

البيتم

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب
ففي في التاسعة عشر أو العشرين من عمره ، وأحسب أنه طالب
من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر ، فقد كنت أراه من
نافذة غرفة مكتبي ، وكانت على كذب من بعض نوافذ غرفته
فأرى أمامي فتى شاحباً نحيلاً منقبضاً جالساً إلى مصباح منير في
إحدى زوايا الغرفة ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر
قطعة أو يعيد درساً فلم أكن أحفل بشيء من أمره ، حتى عدت
إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرّة من ليالي الشتاء فدخلت
غرفة مكتبي لبعض الشؤون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته
تلك أمام مصباحه ، وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه
على مكتبه فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد
غبت بجهته سنة من النوم فأعجلته من الذهاب إلى فراشه وسقطت
به مكانه ؛ فما رمت مكاني (١) حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان
من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التي كان مكباً عليها قد جرى دمعه
فوقها فمحا من كلماتها ما يحا ، ومشى ببعض مدادها إلى بعض ،
ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع إلى شأنه الذي كان
فيه .

(١) رام مكانه : زال منه وفارقه .

فأحزني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا القبي البائس
المسكين منفرداً بنفسه في غرفة عارية باردة لا يتقي فيها عادية
البرد بدثار ولا نار ، يشكو همأ من هموم الحياة أو رزء من
أرزائها قبل أن يبلغ سن الموم والأحزان من حيث لا يجد يجانبه
مواسياً ولا معيناً ، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارء (١)
الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوباً فيتهافت
لها جسمه تهافت الحياء المقروض ، فلم أزل واقفاً مكاني لا أبرحه
حتى رأيتة قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه فانصرفت
إلى مخدعي ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده في
صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح
فيأتي عليها .

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكياً ، أو
مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره ، أو منطوياً على نفسه في فراشه
يئن أنين الوالهة الشكلي ، أو هائماً في غرفته ينزع أرضها ، ويمسح
جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً ،
فأتوجع له وأبكي لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخلة
الصديق لصديقه وأستبته (٢) ذات نفسه وأشركه في همه لولا ،
أنني كرهت أن أفجأه بما لا يجب ، وأن أهجم منه على سر ربما
كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره ، وأن يكاتمه الناس جميعاً
حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة
ساكنة فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في
جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعا وخيل إلي ،

(١) الضارء : الضمير للنحيل .

(٢) استبته السر : طلب إليه أن يبت إياه .

وهي صادرة من أعماق نفسه ، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي ،
وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد
بلغ الأمر مبلغ الجلد فلا بد لي من المصير إليه ، فتقدمت إلى خادمي (١)
أن يتقدمني بمصباح حتى بلغت منزله وصعدت إلى باب غرفته
فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر
يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع الأخير ، ثم دخلت ففتح
عينيه عندما أحس بي وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقاً ، فأدهشه
أن يرى بين يديه مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً
إلى هنيهة لا يتنطق ولا يطرّف (٢) فاقتربت من فراشه وجلست
بجانبه ، وقلت أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة
تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة
فعتاني أمرك فجتك علي أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ،
فهل أنت مريض ؟ فرفع يده يبطء ووضعها على جبهته فوضعت
يدي حيث وضعها فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ،
ثم أمرت نظري على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه زائيه ،
وإذا قميص فضفاض (٣) من الجلد يموج فيه بدنه موجاً ، فأمرت
الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعته
منه بضع قطرات فاستفاق قليلاً ونظر إلي نظرة عذبة صافية وقال
شكراً لك ، فقلت ما شكائك أيها الأخ ؟ قال : لا أشكو شيئاً ،
فقلت : فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ قال : لا أعلم ،
قلت : أنت في حاجة إلى الطبيب فهل تأذن لي أن أدعوه إليك
لينظر في أمرك ؟ فتنهد طويلاً ونظر إلي نظرة دامعة وقال إنما

(١) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به .

(٢) طرف فلان بصره : أطرق أحد جفنيه على الآخر .

(٣) الفضفاض : الواسع .

يبغى الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ، ثم أغمض عينيه وعاد
 إلى ذهوله واستغراقه ، فلم أجد بدأ من دعاء الطبيب رضي أم
 أبي ، فدعوته فجاء متأففاً متذمراً يشكو - من حيث يعلم أبي
 أسمع شكواه - إزعاجه من مرقده وتجشيمه خوض الأزقة المظلمة
 في الليالي الباردة ؛ فلم أحفل بتعريضه لأنني أعلم طريق الاعتذار
 إليه ؛ فجلس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً : إن عايلك
 يا سيدي مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً
 إلا إذا كان في علم الله ما لا تعلم ، وجلس ناحية يكتب ذلك
 الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من
 عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما اعتذرت
 إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه ، فأحضرت الدواء
 وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين
 الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور
 الفجر ؛ فاستفاق ودار بعينه حول فراشه حتى رأيته فقال :
 أنت هنا ؟ قلت : نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالا من ذي
 قبل ، قال : أرجو أن أكون كذلك ، قلت : هل تأذن لي يا سيدي
 أن أسألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت
 غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داء ظاهراً
 أوهماً باطنياً ؟ قال : أشكوهما معا ، قلت : فهل لك ان تحادثني بشأنك
 وتفضي إلي بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت
 معنياً بأمرك عنايتك بنفسك ؟ قال : هل تعلمني بكتمان أمري إن
 قسم الله لي الحياة ، وبامضاء وصيبي إن كانت الأخرى ؟ قلت
 نعم ، قال : قد وثقت بوعدك ، فان من يحمل في صدره قلباً
 شريفاً مثل قلبك ، لا يكون كاذباً ولا غادراً .

أنا فلان بن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في السادسة

من عمري فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئا ، فكفني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم برا وإحسانا وأكثرهم عظما وحنانا فقد أنزلي من نفسه مترلة لم يتزلها أحدا من قبلي غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلا ، وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أخا بعد ما تمنى على الله ذلك زمنا طويلا فلم يدرك أمنيته فعنى بي عنيته بها وأدخلنا المدرسة في يوم واحد فأنست بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حبا شديدا ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبي من حين إلى حين ، فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها ، أو لاعبين في فناء المنزل أو مرتاضين في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حججها فلزمت خدرها واستمرت في دراستي .

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقدا لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعادة إلا في فجر ابتساماتها ، ولا أوثر على ساعة أفضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرات الحياة ، وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء إلا وجدتها فيها .

وإني أستطيع ، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من المومم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا معا أيام طفولتنا فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها ، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرحة آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء

مائها ، ولمعان حصبائها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها ،
وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار فنجتمع
على حديث نتجاذبه أو طاقة تولف بين أزهارها أو كتاب نقلب
صفحاته ، أو رسم نتبارى في إتقانه ، وتلك الخمائل الخضراء التي
كنا نلجأ إلى ظلها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة
فتشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها ، وتلك
الحفائر الصغيرة التي نحتفرها ببعض الأعواد على شاطئ الجدال
والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي
ألقيناها فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأننا قد ظفرنا
بغصن عظيم ، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها
عصافيرنا وطيورنا ، ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب
بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ، وهي تحسو الماء مرة وتلتقط
الحب أخرى ونناديها بأسمائها التي سميناها بها ، فإذا سمعنا
صفيها وتغريدها ظننا أنها تلبى نداءنا ، ولا أعلم هل كان
ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمي وداً وإخاء ، أو حباً وغراماً ،
ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يوماً
إني أحبها لاني كنت أضن بها - وهي ابنة عمي ورفيقة صباي -
أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها ، ولا قدرت في
نفسي يوماً من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها ؛
لأنني كنت أعلم أن أبايها لا يسخون بمثلها على فتى بائس فقير
مثلي ، ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط (١) منها
ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون ، لأنني كنت أجلها عن أن
أنزل بها إلى مثل ذلك ، ولا فكرت يوماً أن أستشف من وراء
نظراتها خبيثة نفسها لأعلم أي المترابين أنزلها من قلبها ، أمترلة

(١) تسقط فلان الخير : أخذه شيئاً بحد شيء .

الأخ فأقنع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ، فاستعين بارادتها على إرادة أبيها ؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء المائلة بين يديه في صومعته يعبدها ولا يتطلع إليها .

ولم يزل هذا شأني وشأنها حتى نزلت بعمي نازلة من المرض لم تنشب (١) أن ذهبت به إلى جوار ربه ، وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظناً : « لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام فكوني له أما كما كنت له أبا ووصيك أن لا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي » فما مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه ونظرات غير النظرات ؛ وحالا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل فتداخلتني الهم واليأس ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريباً ، وفي هذا العالم طريداً .

فاني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت علي الخادم ، وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمت نحوي خجلة متعثرة ، وقالت : قد أمرني سيدتي أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب ، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التي بلغتكما ربما يريبها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم تفارقها .

فكأنما عمدت إلى سهم راثس فأصممت به كبدي ، إلا أنني

(١) لم تنشب : لم تلهث .

تماسكت قليلا ريثما قلت لها : سأفعل إن شاء الله ولا أحب إلي من ذلك . فأنصرفت لشأنها فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراني ما شاء الله أن أطلقها حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتي فأودعتها ثيابي وكتبي ، وقلت في نفسي :

« قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحبيته وأحبيت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا آسف على شيء بعده » .

ثم انسلت من المنزل انسلالا من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كلتها^(١) وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها .

لمعرك ما فارقت بغداد عن قلبي

لو انا وجدنا من فراق لها بدا

كفى حزنا أن رحت لم أستطع لها

وداعا ولم أحدث بساكنها عهدا

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته وخرجت منه شريدا طريدا حائرا ملتاغا قد اصطلمحت على الهموم والأحزان ، فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا ساد لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيا ، ولا معينا .

وكانت معي صباية^(٢) من مال قد بقيت في يدي من آثار

(١) الكلة : السر الرقيق .

(٢) الصباية : البقية من القوم .

تلك النعمة الزاهية فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكناً فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها ، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط بلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى ، ولا تطلع علي الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره . حتى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يفيض ، ولا يغيض .

فقتعت بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم منفرداً كمجتمع وغائباً كحاضر وبعيداً كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه . وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناب موطنه ومظاهره فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي فأجد برد الراحة في صدري .

لبيت على ذلك برهة من الزمان حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فاذا هي ناضبة أو موشكة ، وكنت مأخوذاً بأن أهيب نفسي عيشاً مستقلاً ، وأن أؤدي للمدرسة قسطاً من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة ، والعلم في هذه الأمة مرتزق يرتزق منه المرتزقون لا منحة يمنحها المحسنون فأهمني نفسي ، وعلمت أنني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة ، فعددت إلى كتبي فاستيقيت منها ما لا غنى لي عنه وحملت

سائرهما^(١) إلى سوق الوراقين فعرضته هناك يوماً كاملاً فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى .

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فناءه امرأة تسأل أهل البيت عني فتبستها فاذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي ، فقلت : فلانة ؟ قالت : نعم ، قلت : ماذا تريدان ؟ قالت : لي إليك كلمة فائذن لي ، فصعدت معها إلى غرفتي ، فلما خلونا قلت : هات ، قالت : مزت بي ثلاثة أيام وأنا أفش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكياً بصوت عال ، فراعني بكائها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس ، فقلت : ما بكائك ؟ قالت : أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟ قلت : لا ، فما أخباره ؟ فمدت يدها إلى رداها وأخرجت من أضعافه^(٢) كتاباً مغلقاً فتناولته منها ففضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمي فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة « إنك فارقني ولم تودعني فاغفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أغفرك لك ألا تأتي إلي لتودعني الوداع الأخير » .

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعاً فتعلقت الخادم بثوبي وقالت : أين تريد يا سيدي ؟ قلت : إنها مريضة ولا بد لي من المصير إليها . فصمت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : لا تفعل يا سيدي فقد سبقك القضاء إليها .

هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم

(١) سائر الشيء ، بالهمزة .

(٢) أضعاف القوب : أثنائه .

له مكاناً ؛ ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم أفق إلا بعد حين ؛ ففتحت عيني فإذا الليل قد أظلمني وإذا الخادم لا تزال يجانبي تبكي وتتنحب فدنوت منها وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ قالت : نعم . قلت : قصي علي كل شيء فأنشأت تقول :

إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها إليك من زوجة عمك فلم تزد علي أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ! إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئاً » ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير و « بشر كأنما كانت تعالج في نفسها ألماً ممضاً ، وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبيل (١) يوماً حتى تتكس أياماً فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلا فزعت إليه أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً . فبينما أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليالٍ إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها فدنوت منها فأشارت إلي أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسة وقالت : في أي ساعة نحن من الليل ؟ قلت : في الهزيع الأخير منه ، قالت : أنت وحدك هنا ؟ قلت : نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً ، قالت : ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ فعجبت

(١) أهل من مرضه : برء منه .

لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت : بلى يا سيدتي أعلم مكانه ،
وما كنت أعلم شيئاً ، ولكني أشققت على هذا الخيط الرقيق الباقي
في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط
أجلها ، فقالت : ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالة مني من حيث
لا يعلم أحد بشأني ؟ قلت : لا أحب إلي من ذلك يا سيدتي ..
فأشارت أن آتيها بمحبرتها فحشمتها بها فكتبت إليك هذا الكتاب
الذي تراه فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل
مكان وأنصفح وجوه الغادين والرائحين علي أراك وأرى من
يهديني إليك فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها
فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت
الناعية فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ، وأن تلك الوردة الناضرة
التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من
ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الناكث على وحيدها ، وما رثي
مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكية .

وكان أكبر ما أهمني من أمرها أن كل ما كانت ترجوه
في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت
دون أمينتها ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أطلب
السبيل إليك حتى وجدتك .

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت .. فما
انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني
شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظري كل شيء ، ثم لا أعلم ماذا
تم بعد ذلك حتى رأيتك .

* * *

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر زفرة خلت أن
كبدته قد ارفضت^(١) وأن هذه أفلاذها . فدنوت منه وقلت :
ما بك يا سيدي ؟ قال بي أي أطلب دمة واحدة أتفرج بها بما أنا
فيه فلا أجدها .

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات
فأصغيت إليه فاذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أي غريب في هذه الدنيا لا سند لي فيها
ولا عضد ، وأي فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي
وأني عاجز مستضعف لا اعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق
بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً
فلم يبق فيه حتى اللذماء^(٢) وإني أستحيك أن أمد يدي إلى هذه
النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنزعها من مكانها وألقي بها
في وجهك ساخطاً ناقماً ، فتول أنت أمرها بيدك واسترد وديعتك
إليك وانقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار
جوارك » .

ثم أمسك رأسه بيده كأنما يحاول أن يجسه عن الفرار وقال
بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب
ذوباً ، لا أحسبني باقياً على هذا ، فهل تعدني أن تدفني معها
في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ قلت : نعم ،
وأسال الله لك السلامة ، قال : الآن أموت طيب النفس عن كل
شيء .

(١) ارفض للشيء : تفرق وترشش .

(٢) اللذماء : بقية النفس .

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها .

* * *

لقد هون وجددي على هذا البائس المسكين أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعته فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حياً فلباها ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذاك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

الحجاب

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئاً ، فلبث فيها بضع سنين . ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجهه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجهه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة ؛ وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعبو ويستريح إلى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخبط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء وخالقها ؛ وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهابية نزاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ؛ وذهب برأس مملوءة حكماً ورأياً ، وعاد برأس كراس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد ؛ وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغاً لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدينة الغريبة من نفوسهم مكان الوجه من المرأة ؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولنستنه

على علاقته وفاء بعهد السابق ورجاء لغده المنتظر محتملاً في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وخرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرأيتُه واجماً مكتئباً فحييته فأوماً إلي بالتحية إجماعاً ، فسألته ما باله فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمري فيه ، قلت : وأي امرأة تريد؟ قال : تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي . قلت : إنك كثير الآمال يا سيدي فمن أي آمالك تحدث؟ قال : ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقعاً على وجه امرأة في هذا البلد ، قلت : ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه ، قال : إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعته عن وجوه نساءهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسهم كما يجلس بعضهم إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي^(١) القديم الذي وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقائها دهرأً طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشباعها ، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئت بها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فلأنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك

(١) العادي القديم : نسبة إلى قبيلة عاد .

حياة منهن وخجلاً ، ولا خجل هناك ولا حياة ، ولكنه الموت والحمد والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا الى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أميني ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسينين إما بكسره أو بشفائه .

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي همأ وحزناً ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي وقلت : أعالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ قال : نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت ، قلت : هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسأهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسأهم فقلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكة ؟ قال : ربما وقع لي شيء من ذلك وفماذا تريد ؟ قلت : أريد أن أقول لك إنني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك ، قال : إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع ، فتداخلي ما لم أملك معه وقلت له : تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومدارككم فيفسدها عليكم فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفتدتهم قلما نجدها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستقع كدر ، والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من

جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة ،
قال : أتتكر وجود العفة بين الناس ؟ قلت : لا أنكرها لأني
أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكني أنكر
وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الخاذقة المترفة إذا
سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه .

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم
لرجالكم ؟

أي جو المتعلمين وفيهم من سئل مرة : لم لم يتزوج ؟ فأجاب :
نساء البلد جميعاً نسائي .

أم في جو الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه
وخبلاً ان خلت محفظته يوماً من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته
أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟

أم في جو الرعاع والفضلاء وكثير منهم يدخل البيت خادماً
ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً ؟

وبعد : فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتملق^(١) بحديثها ،
والقيام والعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحريتها وأسرها ،
كأنما قد قتمت بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق
إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم .

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال
فأنتم عن النساء أعجز .

(١) تملق : صرت بلسانه عند استطابة الطعام .

أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شتم ودعوا هذا
الباب موصداً ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً
وشقاء طويلاً .

أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه
يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع
أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه .

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه وتطلبون
عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة
الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما
أحسبكم إلا خاسرين .

ما شكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا
قيداً وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟
وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها
ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها
وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في
بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت
أستارها ، تبرماً بكم وفراراً من فضولكم ، فواعجباً لكم تسجنونها
بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها ..

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تكون عليها
بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً ،
ويتدفق خلاعة واستهتاراً ، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا

بذلك العيش الذي خلفتموه هناك .

لقد كنا وكانت العفة في سقاء^(١) من الحجاب موكوء^(٢) فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض^(٣) ، وتكرش ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جثم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة . عاشت المرأة المصرية حقة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب توديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جاريتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها واثمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاها ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب ؛ فقلتم لها إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدورت أباهما ؛ وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

وقلتم لها لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخذلك

(١) السقاء : وعاء الماء من جلد السخلة .

(٢) موكوء : أو كى القرية : شد رأسها بالوكاء ، والوكاء : الرباط .

(٣) تقبض : ييس .

أهلك عن سعادة مستقبلك فاخترت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

وقلم لها : إن الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعنيت به عنه .

وقلم لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق . فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يجي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت^(١) .

وقلم لها : لا بد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك ، والقيام على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شؤون بيتها .

وقلم لها : نحن لا ننزج من النساء إلا من نجبها ونرضاها ويلأثم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا ، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات^(٢) ، والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً ، كما تعرض الأمة

(١) أفاد : بمعنى استفاد .

(٢) استهتر فلان : اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل .

نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتتم بها ، وقلمتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أبأها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم نجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

وكذلك انتشرت الزيبة في نفوس الأمة جميعاً وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاءكم لها وعطفكم عليها !

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهدبها أبوها أو أخوها ، فالتهديب أنفع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نساؤهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

أعجب ما أعجب له في شوونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا

شيئاً واحداً هو أدنى إلى مدارككم أن تعلموه قبل كل شيء وهو
أن لكل تربة نباتاً ينبت فيها ، ولكل نبات زماناً ينمو فيه !

ورأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم
قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها
الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف المنجاء .

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة
لما من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها فاشتغلتم
بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء إن كان
هناك ما يغني عنه .

ورأيتم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً يفعل ما يشاء ويعيش كما
يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم
فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها
فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الإرادة والعزيمة
يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه
مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة
ويتردى في قرارها .

ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيته غيرته وأزالت
خشوة نفسه وحشوتها يستطيع أن يرى زوجته تحاصر من يشاء ،
وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ، فيقف أمام ذلك المشهد
موقف الجاحد المتبلد ، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهم أن
يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

ورأيتم المرأة الأوروبية الجريرة المفتية في كثير من مواقفها

مع الرجال ان تحتفظ بنفسها وكرامتها فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها!

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه ، أو في ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن ، ولا تزعجهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف ، فإن أيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آباءكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم بالحديقة سعداء آمنين .

• • •

فما زاد القى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال : تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها ، فقلت له : لك أمرك في نفسك وفي أهلِكَ فاصنع بهما ما تشاء ، واأذن لي أن أقول لك إنني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ، لأنني أعلم أن الساعة التي يفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلِكَ تقتلني حياةً وخجلاً . ثم انصرفت . وكان هذا فراق ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك الستر في منزله بين نسائه ورجالها ، وأن بيته أصبح مشياً

لا تزال النعال خافقة ببابه ، فلدرت عيني دمة لا أعلم هل هي
دمة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ، ولا
يزورني ، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فأحبيه تحية الغريب للغريب
من حيث لا يحرى لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق في سبيلي .

فلإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول
من الليل ، إذ رأيت خارجاً من منزله يمشي مشية الداهل الخائر
ويجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمني
أمره ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال : لا أعلم لي بشيء سوى
أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ،
ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سبباً ، وما أنا بالرجل
المذنب ، ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد
الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علني أحتاج
إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون ؟ قلت :
لا أحب إلي من ذلك ، ومشيت معه صامتاً لا أحدثه ، ولا يقول
لي شيئاً ، ثم شعرت كأنه يزور^(١) في نفسه كلاماً يريد أن يفضي
به إلي فيمنعه الخجل والحياء ففأختمته الحديث وقلت له : ألا تستطيع
أن تتذكر لهذه الدعوة سبباً ؟ فنظر إلي نظرة حائرة ، وقال :
إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ،
فقد رأيتني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ، وما كان
ذلك شأنها من قبل . قلت : أما كان يصحبها أحد ؟ قال : لا
قلت ، ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟ قال : لا ، قلت :

(١) زور الكلام في نفسه : هياه .

ومم تخاف عليها؟ قال : لا أخاف شيئاً سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقترادنا الجندي إلى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه . فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدنى الفتى إليه وقال له يسوعني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة ، في حال غير صالحة فاقترادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها . فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكراماً لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما ، وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملاّت نوافذه وأبوابه عيوناً وآذاناً ، ثم سقط في مكانه مغشياً عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا له الطيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبت ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف على أن يعود متى دعواته ، وعهد إلي بأمره فلبت بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيت يتحرك في مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني فلبت شاخصاً إلي هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له : هل من حاجة يا سيدي ؟ فأجاب بصوت ضعيف خافت : حاجتي أن لا يدخل علي من الناس أحد ، قلت : لن يدخل عليك إلا من تريد ، فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع ، فقلت :

ما بكائك يا سيدي؟ قال؛ أتعلم أين زوجتي الآن؟ قلت: وماذا تريد منها؟ قال: لا شيء سوى أن أقول لها إنني قد عفوت عنها، قلت: إنها في بيت أبيها، قال: وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أجداداً فألبستهم مذ عرفوني ثوباً من العار لا تبلوه الأيام.

من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أنني مريض مشرف، وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا زلتي، قبل أن يسبق إلي أجلي؟

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها^(١) أن أصون عرضها صياني لحياتي، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي، فحشنت في يميني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه؟

نعم إنها قتلتني! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أعمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي.

البيت بيتي، والزوجة زوجتي، والصديق صديقي، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي، فلم يذنب إلي أحد سواي.

ثم أمسك عن الكلام هنيهة، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً، حتى ليست وجهه فزفر زفرة خلت أنها حرقت حجاب قلبه، ثم أنشأ يقول:

آه ما أشد الظلام أمام عيني! وما أضيق الدنيا في وجهي!
في هذه الفرقة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما

(١) اهتدى الرجل امرأته: جنبها إليه وضماها.

جالسين يتحدثان فتلاً نفسي غبطة وسروراً وأحمد الله على أن رزقي بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقتي في غيابتي ، فقولوا للناس جميعاً : ان ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاءة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها .

والهفا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين (١) .

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلمهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويتسم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إلي ويطلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاءة في وجوه البله ، والغبابة في وجوه الأغبياء ...!

ولعل الذين كانوا يتوددون إلي ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي؟ ولعلمهم كانوا يسمونني فيما بينهم قواداً ويسمون زوجتي مومساً ، وبيتي ماخوراً (٢) وأنا عند نفسي أشرف الناس وأبلهم .!

فوارحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، والهفاً على زاوية منفردة في قبر موحش بطويني ويطوي عاري معي .

ثم أغضض عييه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مريضاً ولده تحمله على يدها حتى وضعت

(١) يريد : لتي لم أوله .

(٢) الماخور : بيت الرية .

بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمراه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح : أبعدوه عني لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه ؟ لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثراً خالداً ورأني بعد مماتي ؛ وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً وصاح : أرجعوه إلي ؛ فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليم ، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبيهما إليك ، فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان .

سواء أكنت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فلاني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً ا ثم احتضننه إليه ، وقبله في جبينه قبله لا أعلم هل هي قبله الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعادته الحمى وغلت نارها في رأسه ، وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة بأساً

وحزنا .

ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أليماً مؤلماً فلم تبق عين مسن
العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من
مدامعها .

فلما جلوس حوله وفد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على
سريره وإذا امرأة موترزة يلزار أسود قد دخلت الحجرية وتقدمت
نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبت على يده الموضوعة فوق
صدره فقبلتها وأخذت تقول له :

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإن أمه تعرف
بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من
الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي واسأل
الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة
من بعدك .

ثم انفجرت باكية .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة
باسمة ، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى .

• • •

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي بيدي وأودعت
حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست
لكتابته هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي ، فلا
يهون وجدني عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من
أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقتحمه ،
فمات شهيداً فنجت بهلاكه .

الهاوية

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها ؟!

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عاماً واحداً مر بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت « فلاناً » منذ ثماني عشرة عاماً فعرفت امرأة ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تحيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاعت لي في وجهه ، فجلت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكلمها علينا مكلر حتى عرض لي من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي غير أسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت ، فعزنت لذلك حزناً شديداً وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله فقد بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شأن

حتى شأن نفسي . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام فكان أول
هني يوم هبطت أرضها أن أراه فذهبت إلى منزله في الساعة
الأولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تراءى
فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقرق وجوه ساكنيه بشراً
وسروراً ، ثم زرته اليوم فخيّل لي أنني أمام مقبرة موحشة
ساكنة لا يهتف فيها صوت ولا يترامى في جوائبها شبح ولا
يلمع في أرجائها مصباح ؛ فظننت أنني أخطأت المنزل الذي أريده
أو أنني بين يدي منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل صغير
ولمحت في بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقتة
فلم يجيني أحد فطرقتة أخرى فلمحت من خصاصه (١) نوراً
مقبلاً ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال
بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلاً فتأملته على ضوء المصباح
فرايت في وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل
المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته
عن أبيه فأشار إلي بالدخول ومشى أمامي بمصباحه حتى وصل
بي إلى قاعة شعناء مغبرة بالية المقاعد والأستار ، ولولا نقوش
لاحت لي في بعض جدرانها كياتي الوشم في ظاهر اليد - ما
عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثني عشر
مئلاً ، ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من
أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما
قليل ؛ ثم تركني ومضى وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي :
إن والدته تريد أن تحدثني حديثاً يتعلق بأبيه ، فحفظت قلبي خفية

(١) خصاص الباب : خرفته .

الربع والخوف وأحسست بشر لا أعرف مأتاه^(١) ، ثم التفت
فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب فحيتني فحيتها
ثم قالت لي هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟ قلت .
لا ، فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقت سبعة أعوام .
قالت : لبتك لم تفارقه ، فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه
من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقت حتى أحاطت
به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتي كما تعلمه غريباً ساذحاً
فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للأنسان
حتى سقط فيه فسقطنا جميعاً في هذا الشقاء الذي تراه ،
قلت : وأي شر تريد يا سيدتي ؟ ومن هم الذين أحاطوا به
فأسقطوه ؟ قالت : سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول :

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت
حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث
كان ولا تزال نعالم خافقة وراهه في غدواته وروحاته فاستحال
من ذلك اليوم أمره وتنكرت صورة أخلاقه وأصبح منقطعاً
عن أهله وأولاده لا يراهم إلا الفينة بعد الفينة^(٢) وعن منزله
لا يزوره إلا في أخريات الليالي ؛ ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر
بتلك الخطوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من
نفسه ورجوت له من ورأها خيراً كثيراً مغتفرة في سبيل ذلك
ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري
وأمر أولاده حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غصصاً
شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منه فشممت من فمه رائحة الخمر ،

(١) المأتى : الوجه الذي يأتي منه الشيء .

(٢) الفينة : الساعة والحين .

فعلمت كل شيء .

علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرووسيه في الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجي الفتي المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين ، وانه ما كان يتخذه صديقاً كما زعم ، بل نديماً على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ، رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يجيها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجدت عليه شيئاً ، ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ، لأنني أعلم أن طريق الشر واحدة فمن وقف على رأسها لا بد له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها ، فأصبح ذلك الفتي النبيل الشريف ، الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة النبيذ ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون - سكيراً مقامراً مستهتراً لا يكتشم ، ولا يتلوم ، ولا يتقي عاراً ولا مأثماً ، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يضمن بأولاده أن يعلق بهم اللز ، وبزوجه أن يتجهم^(١) لها وجه السماء ، أباً قاسياً وزوجاً سليطاً ، يضرب أولاده كلما دنو منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها ، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عشرائه الأشرار فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون ويقصفون^(٢) حتى يذهب بعقولهم الشراب فيحتاجوا ويرقصوا ويملاؤوا الجوار

(١) تجهم له : استقبله بوجه كرهه .

(٢) قصف الرجل : اقام في أكل وشراب ولهو .

صراخاً وهتافاً ثم يتعادوا^(١) بعضهم وراء بعض في الأبهاء^(٢) والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي وربما حلق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي. ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ، ولا خمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي فأقضي عندهم بقية الليل .

وهذا تغيرت نغمة صوتها فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها ، فعلمت أنها تبكي فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ، ثم رفعت رأسها ، وعادت إلى حديثها تقول :

وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال فكان لابد له أن يستدين ففعل ، فأنقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ، ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ، لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين ، أو غنيمة للمقامرين .

هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت بي وبأولادي ، فقد مر على آخر حلية بعثها من حلالي عام كامل ، وما هي حوائت المرايين والمسترهنين ملأى بملابسي ، وأدوات بيتي وأثاثه ، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال^(٣) يعود علي من حين إلى حين بالزر القليل مما يستله من أشداق عياله لملكت

(١) من العدو : وهو الجري .

(٢) الأبهاء : جمع بهو ، وهو البيت المقدم أمام البيوت .

(٣) رقة الحال كناية عن الفقر .

وملك أولادي جوعاً .

فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح وأحسب أنك تقدر منه - للمنزلة التي تنزلها من نفسه - على ما عجز عنه الناس جميعاً ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت .

ثم جيتني ومضت لسيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل ، فقال : إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأني ، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدي وتلود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضي .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك ، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذهاب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك ، فهو لا يعلم أبكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم ؟ .

. . .

الآن عرفت أن الوجوه مرايا^(١) النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته ، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ، ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلالو نور الشمس

(١) المرايا : جمع مرآة .

في صفحتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيني تلك الغلالة
البيضاء التي كنت أعرفها ، خيل إلي أنني أرى صورة غير الصورة
الماضية ، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الواضح الذي كان كل منبت
شعرة في وجهه فماً ضاحكاً تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت
مكانه رجلاً شقياً منكوباً قد لبس الهرم قبل أوانه وأوفى على
الستين قبل أن يسليخ الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أجبانه ،
وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجمد جبينه ، استشرف^(١)
عائقه وهوى رأسه بينهما هوية بين عاتقي الأحذب ، فكان
أول ماقلت له : لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك !
وكأنما ألم بما في نفسي وعرف أنني قد علمت من أمره كل شيء ،
فأطرق برأسه لإطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ،
ولم يقل شيئاً ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له :

والله ما أدري ماذا أقول لك ؟ أعظك ، وقد كنت واعظي
بالأمس ، ونجم هداي الذي أستشير به في ظلمات حياتي ؟ أم
أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك ، وفي أهلك ؟ ولا
أعرف شيئاً أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك
عن نيلها ، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة
المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت
صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن
يحقق رحمة بالأقرباء ! .

إن هذه الحياة التي نحيهاها يا سيدي إنما يلجأ إليها الممل العاطلون

(١) استشرف الشيء : ارتفع .

الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن أعين الناس
حياءً وخجلاً حتى يأتيهم الموت فينقلهم من عارهم وشقايتهم ،
وما أنت بواحد منهم ! .

إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر ، وما أنت بتاقم على الدنيا
ولا بمتبرم^(١) بها ، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس
المتحرر ! علرتك لو أن ما رجت في حياتك الثانية يقوم لك
مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت
غنياً فأصبحت فقيراً ، وصحيحاً فأصبحت سقيماً ، وشريفاً
فأصبحت وضيعاً ؛ فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد
نحلت رقعة الأرض من الأشقياء .

إن كل ما يعينك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ؛
فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من
هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه
آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك
على الأولى .

حسبنا يا صديق من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر
فلا نضم إليه شقاء جديداً نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ، فهات يدك
وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس ،
فقد كنا سعداء قبل أن نفرق ، ثم افترقنا فشقيتنا ، وما نحن
أولاء قد التقينا . فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .
ثم مددت يدي إليه فراعني أنه لم يحرك يده فقلت له : مالك
لا تمد يدك إلي ؟ فاستعبر باكياً وقال : لأنني لا أحب أن أكون

(١) تبرم الامر : ستمه وضجر منه .

كاذباً ولا حائثاً . قلت : وما يمنعك من الوفاء ؟ قال : يمنعني منه أنني رجل شقي ، لا حظ لي في سعادة السعداء ، قلت : قد استطعت أن تكون شقياً ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيداً ؟ قال : لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمسك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلا بد لي أن أشربها حتى ثمالتها ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في مسيلي إلا شيء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، وما دمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله ، قلت : ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين ، قال : إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمري ، لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء ، وابلك صديقك القديم منذ اليوم إن كنت لا ترى بأساً في البكاء على الساقطين المدنيين .

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركني مكاني دون أن يجيبني بكلمة وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

* * *

لم يستطع رئيس الذيوان أن يحمل نديمه بالأمس زمناً طويلاً فأقصاه عن مجلسه استقلالاً له ثم عزله عن وظيفته استنكاراً لعمله ، ولم تلحف عينه دمة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته

وولده إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فإن رأيته ذاهباً زويت وجهي عنه ، أو عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتقلبة ، أو حلماً من الأحلام السارية ، يمشي في طريقه مشية الداهل المشدوه لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضع ، أو يقلب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الرقاع والحروق ، وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزاء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها في رأسه انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت وأبكاه أن ترى ولداها وابنتها باكين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لها بدأ من أن تركب تلك السيل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت فقتانان فيها وقيقتانها ، فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى

زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقتما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف إليها من حين إلى حين ، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج كريم وأولاد كالكوكب الزهر حسناً وبهاء ، ثم تذكر كيف أصبح السيد مسوداً ، والمخدوم خادماً ، والعزيز الكريم ذليلاً مهيناً ، وكيف انتثر ذلك العقيد اللوثوي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتشاره إلى حصيات منبذات على سطح القبراء تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام . فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد ، على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقداً لذلك الإنسان الذي كان سيباً في شقائها وشقاء ولديها ، لا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو هجرانه ، لأنها امرأة شريفة ، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجه المنكوب ، بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسر جراحه إن عاد جريحاً ، وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانه حينما لا يجد معه ثمن الشراب فيعود إلى بيته ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب طلباً شديداً فلا تجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكان الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال حتى أضاف إليها ثقلاً جديداً ، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها فعلمت أنها حائل وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد فهتفت صارخة : رحمتك اللهم فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة . وما زالت تكابد من آلام الحمل

ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد الا جاريتها المعجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفس مرضاً شديداً فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها ، لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل نائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة ، فراه الأمر وأحس برعدة تمشي في أعضائه حتى أصابت قلبه فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فأكب عليها يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ويزحف نحوها رويداً رويداً حتى رأى شيخ الموت يحدق إليه من عينيها الشاحصتين بالحامدتين فتراجع خوفاً وذعراً فوطيء في تراجع صدر ابنته فأنت أنه مؤلم لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : واشقاءاه واشقاءاه ؟ وخرج هاتماً على وجهه يعلو في الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجلبران ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : ابنتي ! زوجتي ، هلموا إلي ؟ أدركوني ! حتى أعيأ فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح واناس من حوله آسفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل
سبباً في ضياع ما بقي من عقله .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في
قاعة من قاعات اليمارستان ، فوارحمته له ولزوجته الشهيدة
ولطفلة الصريخة ولأولاده المشردين البؤساء .

العقاب

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأنني هبطت مدينة كبرى لا علم لي باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات فرأيت أجناساً من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيّل إلي أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه ، فلم أزل أنتقل من مكان إلى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة لم أر بين النبي أعظم منها شأناً ولا أهول منظراً ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنيئها وأبائها طوائف من الجنند يخطر بغيرهم وحمائلهم جيئة وذهوباً ، فسألت بعض الواقفين : ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ فعلمت أنها قصر الأمير وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم ، وما هي إلا ساعة حتى نادى مناد في الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالساً على كرسي من الذهب يتلألأ في وسط الفناء تلاًل الشمس في دارتها وقد جلس على يمينه

(١) وضمت هذه القصة على لحن قصة أمريكية اسمها : صراخ القبور .

رجل يلبس مسوحاً^(١) وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً ، فسألت
 عنهما ، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على
 يساره قاضي المدينة ، ورأيت ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكبّ
 عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليؤت بالمجرمين ، ففتح باب
 السجن وكان على يسار القناء فتكشف عن مثل خلق الليث منظرأ
 وزئيراً ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخاً هرمأ تكاد تسلمه
 قوائمه ضعفاً ووهناً ، فسأل الأمير : ما جريمته ؟ فقال الكاهن :
 إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غرارة^(٢) من غرائر الدقيق
 المحبوسة على الفقراء والمساكين . فضج الناس ضجيجاً عالياً
 وصاحوا : ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله ؟
 ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدين ، فتسار الأمير مع
 الكاهن هنيهة ثم صاح : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يمانه
 ثم يسراه ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعاماً للطير
 الغادي والوحش الساعب ، فجثا الشيخ بين يدي الأمير ومد إليه
 يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه . فضرب الأعوان على
 فمه واحتملوه إلى محبسه . ثم عادوا وبين أيديهم فتي في الثامنة
 عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وفرقا حتى
 وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل : ما جريمته ؟ فقال : إنه قاتل ،
 ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته بلجم الضرائب ، فطالبه بأداء
 ما عليه من المال فأبى وتوقع في إباطه ، فانتهره القائد فاحتدم
 غيظاً وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته . فصاح
 الناس : يا للفضاعة والهول ، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل
 الأمير نفسه ؛ ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ،

(١) المسوح جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .

(٢) الغرارة : الحوائق .

فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه وقال : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيضلب على أعواد شجرة ، ثم تفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن ، وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاء لولا سحابة غبراء من الحزن تندجى فوق جبينها ، فقال الأمير : ما جريمتها ؟ فقال القاضي : إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدتها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : القتل القتل . الرجم الرجم ! ! إنها الجريمة العظمى والحياة الكبرى . فقال الأمير : أين شاهدها ؟ فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت وترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم ، فهلل الناس وكبروا إعجاباً بعدل الأمير وحزمه ، وإكباراً لسلطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء ، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسيلهم فرحين مقتبطين ، وخرجت على أثرهم حزناً مكتئباً أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم ! واعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها وإعظامها وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلاماً ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

ليت شعري : ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي

ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى
لنفسه إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم ، أمام قضاة
مثل قضائهم ؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً
عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة
أهل بيته ؟

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم
القاتلين عند النظر في جرائمهم ؟

ألم يسقط إلى يد الكاهن يوماً من الأيام دينار من غير حله ،
فتخف لوعة أسفه على الفرارة المسروقة من ديريه ويفتخر هذه
تلك ؟ .

ألم تزلّ قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته .
فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات ؟ .

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح
العباد وأموالهم كما يشاؤون ؟ ويقسمون السعود والنحوس بين
البشر كما يريدون ؟

إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملأك مطهرين ، ولا يحملون
في أيديهم عهداً من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم
وأنصبتهم بينهم ، فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟
ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من
دون الناس جميعاً ؟ .

من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة أو سلالة

المستبد الأعظم فيها الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلماً يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه؟.

من هو الكاهن؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة؟.

من هو القاضي؟ أليس هو أقدر الناس على لباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق؟.

ومتى كان المستبدون والصبوح والظلمة أحياناً صالحين وأبراراً طاهرين؟

عجيب جداً أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فإذا قتل الأمير القاتل سمي عادلاً ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصاً . فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سمي حازماً . وأن تسقط المرأة سقطاً ربما ساققتها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعاً من نزعات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومضيرها .

كما أن النار لا تطفىء النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ، كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء .

ولم أزل أحدث نفسي بمثل هذا الحديث حتى أقل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تنطير في جوها أسراب من الطير غادية

رائحة ، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظراً هائلاً
لا يزال أثره عالقاً بنفسي حتى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت
رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبته حاسرات .
ورأيت النقي مشدوداً إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد
سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبيحاً مائلاً ، أو
خيالاً سارياً . ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستين
لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة
بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق
بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن
سحابة سوداء تهبط على عيني قليلاً قليلاً حتى غاب عن نظري
كل شيء فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستفق
حتى مضت دولة من الليل ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو
مني رويداً رويداً ، فارتعت لمنظره ، وفزعت إلى ساق الشجرة
فاختبأت وراه ، فما زال يتقدم حتى صار يجانبي فأشعل مصباحاً
صغيراً كان في يده فتبينته على نوره فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين
وسحتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ
فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه
فجمعتها وضممتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق
الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول : « في سبيل
الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ،
وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ،
فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً وأطهرهم لساناً ويدا وأشرفهم
قلباً ونفساً ، فاذهب إلى ربك لتلقي جزاءك عنده واطلب إليه
الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحطني

بك وشيكا ، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقاءك ، فأبكاني بكأوها وأحزني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحبيت أن أقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبي ومشيت إليها فارتاعت لمراي عند النظرة الأولى ، ثم سكتت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها ، فابتدرتها بقولي : لا تراعي يا سيدتي فلاني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئاً ، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك وتمنيت لو أفضيت إلي بذات نفسك علتي أستطيع أن أكون لك عوناً على همك ، فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول :

إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً ، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتر ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان واحده ، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعد ما كان يستقل بحمله من الهم ، وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره ، وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الشكل فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة (١) ، وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام ، وليس في يدنا ما نقوم به أصلاب صغارنا ،

(١) الفينة : الساعة والحين .

ولا ما نعلمهم به تعليلاً ، فأسقط في يدنا وعلمنا أنا هالكون جميعاً
إن لم يتداركنا الله برحمته من عنده فلم أر بدأ من أن أبدأ إلى الخطة
التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض
لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إلي بجرعة
أو مضغفة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك ، وكان أكبر ما حال
بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ،
ولا أحمل ركوتهم^(١) فعدت إلى منزلي وبين جنبي من المم ما
الله به عليم ، فرأيت الأطفال سهداً يتضاغون^(٢) جوعاً ، ورأيت
الشيخ جالساً بينهم يبيل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه
لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتمل ، ولو أن شخص الموت
برز إليّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر
هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ويدورون
حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ؟ وما عدت إليهم
إلا باليأس القاتل والكمد الشامل ؟ فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت
له : إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً للصدقات يتولى الكاهن
الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت إليه وكشفت
له خلتيك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا
أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور
الأمل وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه
فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة
حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقته الأيام في جفنيه القريحين
من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلا ،
وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من

(١) الركوة : وهاء الباء على صورة الزورق يحمله الشحاذون .

(٢) يتضاغون من الجوع : يتضورون منه .

قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخاءك من المحسنين إليه فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها ، فخرج من حضرته كثيراً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل (١) أو أفحوص (٢) القطة حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة (٣) دقيق فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العوز والفاقة ، ثم أدركه الحياء فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة أخرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش ، ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجحاً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل وشعر أنه عاجز عن السير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره ، ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء (٤) تحت جدران البيت يتضورون جوعاً فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلق ، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطلقاً دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله، وإذا نفثة من دم قد دفقت من صدره فأنحدرت

(١) الحابل : الصائد لأنه يرمي الحياطة للصيد ، وكنت : حبالته .

(٢) أفحوص القطة : مجدها . لأنها فحصت عن التراب ليبيض فيه .

(٣) للغرارة : الجوائق .

(٤) الألقاء : جمع لقي -- كفتى ، واللقى الشيء : الملقى المطروح .

على رداثة فسقط في مكانه مغشياً عليه ، ولم يزل على حاله تلك حتى مر به العسس^(١) فأرأه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ! الغرارة ! ويتشدونها في أنحاء الدير حتى يشسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم ، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوأسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحمته لي ولأطفالي البوساء المساكين من بعده ! .

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف رداثها ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ! الوداع يا خير الأزواج وأبر العشراء ! الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه » ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في اعماق الظلام حتى رأيت شبحاً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاساً فاخترت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعته ويرسل الحيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى فرأيت الشبح على نوره فإذا فتاة جميلة باكية لم أر في حياتي دمعة على خد أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعابجت عقده حتى انحلت ثم احتملته

(١) العسس : الطائفون بالليل لحراسة للناس أو كشف أهل الريبة .

على يدها وأضجمته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة : واشقيقاه ! وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيراً متداركاً كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حراك بها ، فأهمني أمرها ونخت أن يكون قد لحق بها مكروه فمشيت إليها حتى صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ، فعلمت أنها حية فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة فرأيتني بجانبها فنظرت إلي نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت : على من تبكي أيها الرجل الغريب ؟ قلت : أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين ، قالت : نعم إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومنتعة الأفتدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه فما كان قاتلاً ولا مجرماً ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة إليه وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من زاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . قلت : هل لك أن تقصي علي قصته يا سيدتي ؟ قالت : نعم .

نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتاً بيتاً حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر إلي نظرة مريبة طار لها قلبي رعباً وفرقاً ثم سألتني عن أخي فأرشدته إلى مكانه فسأله عن المال فأستنساه^(١) إياه أياماً قلائل حتى يبيع غلته فأبى إلا

(١) استنسا غريمه الدين : طلب منه أن ينسئه إياه أي : يؤجله له .

أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء . وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففزعت إلى أخي ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل ، وقال له : لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعاً ؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك ، فقال له لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن آبيت فحياتك فداء عنها ، فغضب أخي غضبة انتفض لها جبينه عرق ولم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له «فلتكن حياتي فداء لشرقي» ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دماً حتى غله (١) الأعوان واحتملوه إلى السجن ، فتلك حياته يا سيدي وذاك مماته ، فلئن بكيته أنا أبكي في الفتیان همة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة ، وآباء وأفضل الأخوة رحمة وحناناً .

ثم قالت : هل لك أن تعيني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضة لا أقوى على شيء ؛ فقممت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة ، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقت مكانها ؟ فرأيت تربة القبر مخضله بدموعها ثم مدت يدها إلي وقالت : شكراً لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معيناً ، ومضت لسيلها .

(١) غله : وضع في حنقه الل .

فأبتعتها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات رداها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرحومة لا تزال مكانها فهاجني منظرها وقلت في نفسي : إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب ، فاحضرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم ألقيت عليها رداي واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في حفرتها ، فإني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة وراي ، فالتفت فإذا فتي يافع متلفع بريدة سوداء لا يستين منها غير بياض وجهه ، فابتدرني بقوله : من صاحب هذا القبر الذي تجثو ترابه يا سيدي ؟ قلت : فتاة مرحومة رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء فرحمت مصرعها واحضرت لها هذا القبر الذي تراه ، فقال : إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأنًا ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ قلت : نعم شأنك وما تريد ؛ وتنحيت قليلاً فدنا من القبر وجثا فوق تربته وظل يناجي الدفينة نجاء نخلت أن الكواكب تردده في سماها والرياح ترجمه في أجواها ، حتى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى وراها ، ثم التفت إلي وقال : لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها ، وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت له : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر إلي نظرة هادئة مطمئنة وقال : نعم يا سيدي ؟ ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها .

أنا الرجل الذي أهتموا به ، وأستطيع أن أقول لك كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظلامتها : إنها بريئة بما رموها به ،

وإنها أظهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية .

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحببني كذلك ثم شبينا وشب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني (١) راضياً مسروراً حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء بها إلا أيام معدودات ، إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ، ففعلنا ، حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضي فتبعها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان ولي أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يباليون أن يخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج مع ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه ، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشري فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إنني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يبيل بقولها وقال لها : ستزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدي ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يوماً لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها فبث عليها عيونهم وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها مكانها وفرت بين يديه

(١) أخطبه : قبل خطبته .

تعدو عدواً سريعاً ، وكنت عائداً في تلك الساعة إلى منزلي ، فرأيتني
فألقت نفسها علي وقالت : إنهم يتبعونني ، وإنهم إن ظفروا بي
قتلونني ، فارحنمني يرحمك الله ؛ فأهمني أمرها وذهبت بها إلى
منزلي وأخفيتها في بعض حجراته . وما هي إلا ساعة حتى دخل
عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلباً شديداً ، فأنكرت رؤيتها
فلم يصدقني ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر
بها فصاح : ها هي الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها ، فأقسمت له
بكل محرجة من الأيمان أنها بريئة مما يرميها به فلم يصنع إليّ ،
وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أنحول بينهم وبينها فضربني
أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشياً علي ،
فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها
من جسمي ، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل
لي ذلك المنظر الذي رأيته فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائي فأعود
إلى ذهولي واستغرافي حتى أدركتني رحمة الله فأبللت منذ أمس
بعض الإبلال واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي ، فعلمت ما
تم من أمر تلك المسكينة ، ففجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير
وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ، ولا بالذائق حلاوة
العيش من بعدها حتى ألحق بها .

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات
الباتسات من حزن وبأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم
ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة
واقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ،
ثم تلفتت بردائي وألقيت رأسي على بعض الصخور وأنشأت

أحدث نفسي وأقول :

ليت شعري ! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ،
فإن خلت منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

أجرم الزعيم الديني لأنه ضمن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم
من مال يسد به جوعته وجوعه أهل بيته ، فاضطر الرجل الى
ارتكاب جريمة السرقة ، فعوقب السارق على سرقة ، ولم يعاقب
القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق .

وأجرم الأمير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر
أن تجود بعرضها فاضطر أخوها إلى اللود عنها فارتكب جريمة
القتل ، فعوقب القتي على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى
الإجرام .

وأجرم القاضي لأنه أراد ان يكره فتاة لا تحبه على الزواج
منه ، ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضي
على ظلمه واستبداده .

وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبريء مجرمًا ، بل أصبح
المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته .

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها
بلكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومزنها .

ثم التفت إلى مصرع المقبورين فوق نظري على بركة الدم التي
اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في السماء
يتلألأ فوق صفحتها ، فرفعت نظري إلى النجم فإذا هو المريخ^(١)

(١) يسمى قسماً اليونان في أساطيرهم المريخ : إله الحرب .

يتلهب ويضطرم كأنه جمرة النيز في أفئدة الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويداً رويداً ، فيعظم جرمه كلما ازداد مربوطه حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ؛ إذا به يتنفض انتفاضاً شديداً ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ويقول : «ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملئت شروراً وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء .

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً وها هي لحوم الفقراء تنحلر في بطون الأغنياء انحداراً ؛ فلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانمين .

ها هم الفقراء يموتون جوعاً ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمدأ ، فلا يجدون من يعينهم هل همومهم وأحزانهم .

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ؛ فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفاً غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها ففتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما ريلون .

ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترساً
أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من
يشاؤون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحولوا معابدهم
إلى مغاور لمصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ،
ثم يفضنون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

ها هم الناس جميعاً قد أصبحوا أعواناً للأمرء على شهواتهم ،
والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوبيتهم ، فلتسقط
عليهم جميعاً نعمة الله ملوكاً ومملوكين ورؤساء ومرؤسين .

لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتنقض المحاكم ، وليعم
الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ،
ولتفرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ،
والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ،
وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما
فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق
في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض ببحر أحمر يزخر
ويبعج ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ،
وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً
حتى ضرب بأواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت
صرخة عظمى فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم
الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصبح
تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

فهرست

<p>١٦٢ الجمال</p> <p>١٦٥ الكذب</p> <p>١٦٧ غرفة الأحران</p> <p>١٧٤ الشرف</p> <p>١٧٨ الحب والزواج</p> <p>١٨٣ الاسلام والمسيحية</p> <p>١٩٣ اهناء أم عزاء</p> <p>١٩٥ الزوجتان</p> <p>٢٠٢ في سبيل الاحسان</p> <p>٢١٠ أدب المناظرة</p> <p>٢١٤ الاحسان في الزواج</p> <p>٢١٩ لا همجية في الاسلام</p> <p>٢٢٣ البخيل</p> <p>٢٢٩ البعوض والإنسان</p> <p>٢٣٤ الجزع</p> <p>٢٣٨ النبوغ</p> <p>٢٤٤ البائسات</p> <p>٢٥١ البيان</p> <p>٢٥٨ السريرة</p> <p>٢٦١ زيد وعمرو</p> <p>٢٦٥ أبو الشمقمق</p> <p>٢٧٠ دورة الفلك</p> <p>٢٧٣ تأبين فولتير</p> <p>٢٨٧ العلماء والجهلاء</p> <p>٢٩٠ الرجل والمرأة</p>	<p>٩ نشأته وحياته</p> <p>٩ مقدمة</p> <p>٤٧ الغد</p> <p>٥١ الكأس الأولى</p> <p>٥٦ الدفين الصغير</p> <p>٦١ مناجاة القمر</p> <p>٦٤ أين الفضيلة</p> <p>٦٩ الغني والفقير</p> <p>٧٢ مدينة السعادة</p> <p>٨٠ ايها المحزون</p> <p>٨٢ إلى الدير</p> <p>٨٨ الرحمة</p> <p>٩٠ رسالة الغفران</p> <p>١٠٥ عبرة الدهر</p> <p>١١٣ أفسدك قومك</p> <p>١١٦ الصدق والكذب</p> <p>١٢٥ النظامون</p> <p>١٢٧ الحرية</p> <p>١٣١ عبرة الهجرة</p> <p>١٣٤ الانصاف</p> <p>١٣٦ المدينة الغربية</p> <p>١٤١ يوم الحساب</p> <p>١٤٨ الشعرة البيضاء</p> <p>١٥٣ الصيد</p> <p>١٥٩ الانتحار</p>
--	---

٤٤٠	حوانيت الأعراض	٢٩٥	الدعوة
٤٤٤	الثناء	٣٠٠	الحياة الذاتية
٤٥٣	الشعر	٣٠٦	العبرات
٤٦٤	الشهيدتان	٣١١	دمعة على الاسلام
٤٦٩	الدعاء	٣١٧	السياسة
٤٧٤	الكوخ والقصر	٣٢٠	خداع العناوين
٤٧٧	على سرير الموت	٣٢٧	الإغراق
٤٨٦	غدر المرأة	٣٣١	اللقطة
٤٩٢	الضاد	٣٣٩	الصندوق
٤٩٥	سياحة في كتاب	٣٤٣	الغناء العربي
٥٠٢	دمعة على الأدب	٣٥٢	التوبة
٥٠٧	البيان	٣٦١	الحسد
٥١٦	الناشيء الصغير	٣٦٤	الوفاء
٥٢٨	قتيلة الجوع	٣٦٨	خبايا الزوايا
٥٣٠	الأدب الكاذب	٣٧١	القمار
٥٣٥	الملاعب الهزلية	٣٧٥	الأوصياء
٥٤٤	الشيخ علي يوسف	٣٨٣	العام الجديد
٥٥٠	العظمة	٣٨٨	سحر البيان
٥٥٦	الانتقاد	٤٠٢	الكبرياء
٥٦٠	يوم العيد	٤٠٤	الانتحار
٥٦٤	من الشيوخ الى الشباب	٤٠٨	الحياة الشعرية
٥٧٠	الزهرة الذابلة	٤١٢	رباعيات الخيام
٥٧٦	الوجهاء	٤١٧	الى تولستوي
٥٨٤	جرجي زيدان	٤٢٣	وارحمناه
٥٩٤	احترام المرأة	٤٢٨	خطبة الحرب
٥٩٩	الخطبة الصامتة	٤٣٢	الإنسانية العامة
٦٠١	اللفظ والمعنى	٤٣٧	أدوار الشعر العربي

٦٦٦	الرسائل	٦٠٦	الأداب العامة
٦٧٣	الكلمات	٦١٣	المؤتمر الإسلامي
٦٨٣	الفتاة والبيت	٦٢٠	الضمير
٦٨٥	البعث	٦٢٤	مدرسة الغرام
٧١٥	الأربعون	٦٢٩	أمس واليوم
٧٢٦	اليتيم	٦٣٩	المرقص
٧٤٠	الحجاب	٦٤٤	الماضي والحاضر
٧٥٦	الهاوية	٦٥٠	الشيخوخة المتمردة
٧٦٩	العقاب	٦٥٥	عجائز بوشنج
		٦٥٩	الأجواء